كتاب

فلسفة الاسلام ، ومدنية القرآن

تأليف

﴿ احمد بدوى النقاش ﴾

(حكيم وفيلسوف ربانى)

(أحد ضباط الجيش المصرى بالسكة الحديد السودانية)

الجزء الاول

﴿ طبع بمطبعة المؤيد بمصر سنة ١٣٢٤ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الاله الواحد الحق المبين . خلقنا سبحانه بحق لكمال قدرته ، وألهمنا الارشاد لشكره وعبادته . والصلاة والسلام على جميع الانبياء والمرسلين .

« وبعد » فقد نظرت مستقرئا حال الامة الاسلامية ، وما هى عليه من التأخر فى الترقى والمدنية ، وبحثت مع الباحثين فى علة هذا الانحطاط . فرأيت أهم العلل هو زيغها عن صراط الله الرحيم ، وانتهاجها منهج عوج سقيم . ولقد أرشدنى الله تعالى الى بيان أصل الداء ، وما اختلف فيه العلماء ، والفلاسفة القدماء . مما كان سببا لهذا الضعف الظاهر فى كل شىء ، فأبنت ذلك فى هذا الكتاب بمبادىء واضحة حقة بديهية يوضحها القرآن العظيم ، بعد أن كانت في عدة قرون مضت غامضة خفية . وبهذه المبادى العالية الجليلة يظهر للعيان كيف أن متبع القرآن يجب أن يباهى الفرقدين فى سموه وتمتعه بالمدنية الحقة والكمال . وقد سميته « فلسفة الاسلام ، ومدنية القرآن » . وأسأل الله الكريم أن يكون فيه نفع للمؤمنين ؟



(بأى دين يتمسك الانسان ؟)

الدين هو المبدأ الثابت الذى يعتقد المرء بصحته ويجزم بلزوم السير عليه الى النهاية فى كل أعماله الذاتية ومعاملاته للخلق والخالق ظاهرة وباطنة واذا تأملنا للناس والمبادىء التى يتمسكون بها نعلم كم من مبادىء فى بنى الانسان وكم تتعدد الاديان غير أن الجميع باطل الا واحدا (لان الحق فى ذاته لا يتعدد) كما يعلم ذلك الانسان من تأملاته العقلية الحقة فى جميع الاديان والمبادىء الانسانية العامة . ولكن كيف يتحصل الانسان على ذلك ؟ أي كيف يميز ويثبت لنفسه أحقية مبدأ واحد حق من جميع هذه المبادئ والاديان ؟ وما هو هذا المبدأ أو الدين الواحد الحق بين الجميع ؟

اذا انتخبنا دينا من الاديان ووضعناه اجمالا مفضلا على الجميع بلا برهان يظهر بطلان الآخرين لكان كل يتمسك أيضاً بأفضلية مبدئه أو دينه — فانتخاب الافضلية اذا يجب أن يكون ببحث وتأمل واستبصار يقنع النفس ويهدىء الفؤاد طبيعياً بلا تردد أو شك بسيط — وكيف ذلك ؟ ان الانسان اذا ألقى من فكره كل شىء وتأمل لشخصه الذاتى ببساطة وجد نفسه انه هو ذلك الخلق الجميل الكامل ذو العقل الذى تخترق أفكاره آيات الكون والعامل فى الارض بحريته يقلبها كيفما شاء — يظهر من العجائب ما يقرب من المدهشات المعجزة — لا ينتهى فيه التصور الى حد ولا الروح الى الجمود — يجد فى نفسه شخصاً ترجمت عظمته أنه من أحسن المخلوقات شكلا وفضلا وعلما واقتدارا — ولكن من الاسف لم يعرف الانسان هذا للآن ما هى حقيقة ذاته الكلية أو ما هو واجب ذلك الانسان الحق فى الارض ؟ — مضت القرون العديدة وتقلبت المخلوقات حيثما شاء الخالق فظهر الانسان ووجد نفسه بحالات مختلفة على درجته هذه الخصوصية العالية والنظام الكامل: فمن أين أنت أيها الانسان ولماذا أنت كذلك والى أين مصيرك — خلق هذه درجته وهذا فضله واضح يجب أن يعرف أصله ومصيره ليجعل سيره لائقا لمركز وجوده وفضائله التى تتجسم أمامه تدريجياً على ممر الزمن وتترجم له بوضوح انه أفضل مخلوق يمكنه احتضان الكمال

« من أنا ؟ »

دين الانسان أو مبدؤه الحق الذى يتمسك به ويسير عليه لا بد وأن يكون لغرض توجيه النفس لنقطة تتوهم فيها أو نتيجتها السعادة الكلية لها حسب أميالها غير أن النظر الى هذه النتائج المسعدة تختلف باختلاف تأملات النفس ذاتها فيما اذا كانت هى حقة تسعد أو هى أوهام تتبعها على غير هدى فيكون سيرها كالسابح فى بحر لجى بلا ساحل لايعرف له نتائج حقيقية — وقبل أن يعرف الانسان كيف يكون سعيدا بالطبع يحتاج لمعرفة شىء عن نفسه وطبائعها الفطرية التى تؤول بها الى السعادة الحقة فان قال الانسان لذاته من أنا جاوبه الفكر بأن هذا السؤال مسبوق بشىء فى النفس يعد أساساً جوهرياً لانسانيتها ألا وهو الفكر الموجب لهذا السؤال السابق فبه تتميز الحقائق وينتقل الانسان من وادى التأمل الى وادى الامعان في كل شىء — فالانسان بالنظر لاساس كماله الانسانى يعبر عنه أولا بالفكر ولولاه لكان بعيدا عن هذه المنزلة العالية فى الحياة ولكان أقرب شىء الى البهائم والجمادات

« هل الفكر ثابت ؟ »

يتأمل الانسان كثيرا فى كل شىء فلا يجد حدا لوقوف تجاربه وأفكاره وكأن الكون يتجدد أمام عينيه كلما تجدد فكره وبالعكس تتجدد أفكاره بلا حد كلما تغيرت حوادث الكون أمام عينيه — فالفكر فى ذات الانسان يتقلب اذا بلا حد كما يرى العالم حول عينيه بلا حد محدود — والانسان يعجز عن أن يحيط بما علم انه أساس لنفس انسانيته الذاتية الذى هو الفكر كما يعترف بالبداهة أيضاً أنه يعجز عن أن يحيط علما بما حوله من ذلك العالم المتسع الفسيح الا بعض الشىء منه — وعلى ذلك فالفكر غير ثابت بل ولا محدود أى ان أساس الانسان مجهول لذاته وان معرفة أجزاء الجسم وفضائل أعمال الانسان العالمية المختلفة لا تجاوب جواباً مقنعاً عن معرفة حقيقة أساس الانسان الكلية وان نفس هذه النتيجة تحصل بداهة اذا أراد الانسان أن ينظر نهاية لفكره فى العالم أو وقوفا عن تحديد ما هو فوق فكره في هذا العالم الظاهر الذى يلمس واذا فمن اللازم استخراج نتيجة بديهية لاساس الانسان ونهايته لا تردد فى حقيقتها وهى بدء الانسان ونهايته (العجز) وذلك بالنسبة لاقتدار علمه وعمله الذاتى فى نفسه أو فى العالم

« طبيعة الفكر والعالم »

جهل الانسان لشيء لا يمنعه نفسه من الحكم على ما جهله حكماعقلياً ربما كان أقرب الى الحقيقة كأنه علم يقينا بهذا الشيء وهذا يطابق نواميس الخلقة الطبيعية الكونية فان سنن العالم تقريبا متشابهة عند التماثل وكثيرا ما علم مجهول بقياسه على معلوم وان الترقى التدريجي لكل شيء فى العالم لم يك الا من استخدام أو تطبيق النواميس السالفة بعضها بجانب الآخر فتنتقل من حسن الى أحسن وكلها سلسلة متصلة ببعضها ومرتبطة تمام الارتباط . فالفكر الانسانى غير ممكن حصر طبيعته من حيث تغيره وتنقله الغير محدود فى دائرة يعبر عنها تعبيرا دقيقا لا مراجعة فيه وشاملا لكلياته كما أن الانسان لا يمكنه أن يعبر عن العالم تعبيرا دقيقا ولو اجمالياً شاملا لحقيقته الكلية (اللهم الا البعض الظاهر) فالفكر فى وجوده الذاتى أشبه أيضا بوجود العالم الذاتى — لان العالم كله حركات فمن أفلاك واجرام تسير وأرض تنبت ومخلوقات لا حد لها تحيا وتموت وتتجدد وتزول وبالطبع جواهر هذه المخلوقات لا تؤول الى العدم وان آلت الى التغير الكلى على ممر الزمن — فيقال كذلك عن الفكر انه خلق متحرك لا يقف عند حد ولا يعدم وان آل الى تغيرات لا حد لها

ولربّ سائل يقول ان الانسان بموته يعدم فينعدم معه كل شيء فنقول هذا مستحيل كلية فان العدم معناه (لا وجود) أو المحو الكلى من الوجود فلا سماء تشمله ولا أرض تجمعه وهذا محال بعد موت الانسان — فالانسان بموته تنفصل روحه عن جسمه لتوجد فى محل آخر وجسمه ينفصل ليتحلل الى مواد أخرى مع عدم اعدام شيء حتى ولا ذرة واحدة لا من روحه ولا من جسمه لانه (لا عدم لشيء خلقه الخالق) ويمثله العالم أيضاً ففناؤه المستقبل وتغيره الكلى التدريجي الذى سيؤول اليه لا يثبت اعدامه من الوجود بل يتغير ليؤول الى شكل آخر أشبه بموت الانسان الذى سيؤول بشكل جديد مستقبل كما هو وان تغير

« من المحرك للفكر ؟ »

الفكر أينما توجه لا يخمد ولا يقف كما سبق غير انه هل هو شيء متحرك لذاته بلا نظام أو تابع لآخر يحركه كيفما شاء — نري واحداً من الناس يتفكر فى السماء وآخر

فى الارض وثالثا يدرس علم الطب وآخر يزرع الارض وغيره يكافح ويحرث والكل يتبعون مايترآى لافكارهم واذا أراد الانسان حصر أنواع توجه الافكار فى بنى الانسان عجز بل اذا قطعنا النظر عن ذلك فان كل انسان فى نفسه الذاتية يمكنه كيفما شاء أن يغير فكره من موضوع الى ألف موضوع أو مالاحد له من المواضيع كالذى يطالع كتابا علمياً فان تيار فكره يسير متغيراً فى مواضيع لايمكن للانسان حصرها واذا فالفكر على مايظهر تابع لآخر يسوقه ويستخدمه فيما يريد ومن هو ذلك المحرك ؟ هو القلب فحقيقة الانسان اذاً هو القلب والقلب هو الانسان ولكن الفكر هو الانسان أى مرشده وهاديه ودليله وبه اكتسب القلب اسم الانسانية وفضائلها فوان كان القلب أصلا والفكر فرعا تابعامستخدما لكنه الفرا فى جوفه كل الصيدو كلاهما لازم للآخر ويكاد أن لايتميز أحدهما عن الآخر فى كفتى الميزان فى الافضلية بالنسبة لتشكيل هيكل الانسانية

« الارادة الانسانية — خلاصة الانسان »

اشتراك القلب مع الفكر فى الاتجاه والنظر في أى موضوع يسمى بالارادة الانسانية لان ذلك يشتمل على اجمال مطلب الانسان الكلى من جزئيه اللذين تكوّن منهما بكليته وتسمى بهما انساناً — فالقلب اذا عمل بأعضائه وجسمه شيئاً بلا فكر معه خرج بجملته من مرتبة الانسانية الى البهيمية وكذلك الفكر اذا سار بمفرده عن القلب لايكون الا حلما أو خيالا لاتأثير له بشيء على الانسان ولا يحرك فيه شيئاً وكأنه أمر زائد زائل واذا فالارادة هى خلاصة الانسان

« ماذا يجب أن يريد الانسان ؟ »

الانسان من حيث فضله الظاهر لايجب أن يكون كالنبات خاضعاً للصدف الطبيعية ولا كالحيوان بلانظام مقبول واضح بل يجب أن يكون فى مركز لائق لانسانيته وارادة كل انسان لاتحدّ ولا تقيد ولا تحصر كما تعلمه كل نفس فى ذاتها بالبداهة فاذا قلنا ماذا يجب أن يريد الانسان — فنحن نقصد النقطة العامة التى يوجه الانسان ارادته الخاصة اليها ويحول ارادته واغراضه المختلفة الاخرى اليها حتى تجتمع النتيجة العامة عند نقطة واحدة هى النقطة المرادة التى نتساءل بوجوب اتخاذها للحصول على السعادة

وللمطالع أن يختار بنفسه مبدأ يتأكد ان توجه ارادته الكلية اليه والسير عليه يكون فيه سعادته ويتعقل بذاته وباستقلال فكره نتائج مبدئه وليحكم بضميره على صحته من عدمها بما يراه من الاسباب ثم ليقس نتائج مايختار على نتائج ماقد اخترته أنا بنفسي فان كانت النقطة المقصودة واحدة فليسر معي — وان كانت وجهته وجهة أخرى فليسر حيث شاء وليوضح نتائج فوائد مبدئه (فاني والحق يقال) بحثت في جميع المبادىء المختلفة فلم أجد الا نقطة ومبدأ واحداً هو الحق (لان الحق في ذاته لايتعدد)

واني لم أختره تقليداً لأحد أو بلا تعقل وتجربة أو بلا تأكد كلي أن سعادة النفس تنحصر فيه سعادة تلمس باليد وتترجم بحقائقها ظواهر الطبيعة

« وما هو ؟ وكيف ذلك ولماذا ؟ »

قد استخرجنا مما سبق نتيجة للانسان خاصة لاتفارقه مع بداهتها وهي أن بدء الانسان ونهايته في الحياة العجز أو بالاحرى أول علم الانسان وآخره العجز عن الكمال اذ لو تأمل الانسان لذاته مرة أخرى وعد عقله من أفضل مايرى في الخلق لرآه في ذاته ولكن لا يعلم كيف وجد ولماذا وجد وان أعجبته الطبيعة ونظامها فشيء وجد نفسه فيه من غير أن يعرف له أساساً جوهريا لتعليل وجوده وفي آن واحد لايجزم كيف تكون نهايته الحقه الكليه . . . . وهكذا . . . وهكذا فمهما عددنا فضائل الانسان ومجده العظيم الذي اكتسبه في هذه الحياة وجدناه قد اكتسبه بوسائط في ذاته أو في العالم يعجز عن معرفة أساس حقائقها الكلية أو نهايتها الكلية المستقبلة (اللهم الا اذا أعلمه الخالق سبحانه) ومهما اختار الانسان في ذاته أو من المخلوقات شيئاً وجعل لنفسه اليه وجهة يتبعها كمبدأ يسير عليه ويتوهم فيه سعادته الذاتيه الكلية لم يجد وجهة يرتاح لها قلبه وعقله ارتياحاً طبيعياً صحيحاً الا أن يتخذ وجهته الخالق سبحانه وذلك لان الانسان مهما قلب بصره في المخلوقات وجد في نفسه الافضلية على الجميع مهما كانت وان كان نظام الخلق جميلا يدهش — وهذه تجعله مضطراً للتفكر (ان كان يعقل) في الوجوب للالتجاء والتوجه ولزوم وجود من هو أكمل منه من كل وجه اذ يجد في ذاته الانسانية عدم الكمال المطلق مع علمه انه أفضل وأحسن الخلق عموماً فلا يلبث في أن يتفكر أو هو لابد أن يتفكر أنه لا بد للخلق من موجد

خالق غير منظور فهناك يهدأ القلب فى الحال ويعلم ان هذا الطارق للنفس من أول دواعى هدوها وسكونها وان وجود خالق يعلم ماهية أساس الخلق وكيفيته فى الايجاد والنهاية أمر لابد منه حتما بشعور طبيعى لاتردد فيه

واذا قطعنا النظر عن ذلك وتتبعنا طبيعة الفكر والقلب والتزمنا الرجوع الى نقطة توافق طبائعهما البديهية لنا علمنا أن الفكر مادام من طبيعته يجوب كل شىء بلا حد ظاهر والقلب يريد كل شىء ويحرك تيار الفكر حيثما شاء بلا حد فسعادة الانسان الطبيعية هى توجيه ارادته لنقطة ووجهة تحيط بطبيعتهما المذكورة أى ان أساس كمالها أن تكون أزلية البداية لان أساس جوهرهما الكلى مجهول البداية لذات الانسان أبدية النهاية أيضاً لانه لاحد يقفان عندحده وأيضاً تكون هذه النقطة مطوقه بكمال مطلق يفوق هذا الكمال الانسانى الزائل لتكون بمثل هذه الصفات الكماليه أحق بتوجيه ارادة لها كارادة الانسان الجميل وبالطبع تلك هى صفات الخالق سبحانه فهو الاول الازلى بلا بداية والآخر الابدى بلانهاية والكامل المطلق الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير

وعلى ذلك ففطرة الكمال الانسانى تحتاج فى سيرها الطبيعى الى توجيه الارادة الانسانية للخالق سبحانه حتى ينتهى بها الى السعادة الحقة التى لاتنكر أحقيتها عن جميع الاوجه والنقط الاخرى العالمية التى يختارها الانسان الا كل مكابر - ولان كل شىء رجع الى طبيعته الفطرية كان ذلك رجوعا الى الحقيقة الكلية التى لاتردد ولا تناقض فيها « ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور » ولا يمكن اقناع كل نفس بهذه الحقيقة بمجرد القول بل تحتاج كل نفس للبحث والتأمل مع التجربة فى هذا الموضوع باخلاص واذ ذاك تحار كل نفس وتسلم بالعجز نهائيا وتذعن بلزوم توجه الارادة الانسانية خالصة كطبيعتها للخالق سبحانه

هذا وان أول من بحث فى هذه الحقيقة واحتج على من لم يوجه نفسه الى التأمل الحق الموصل لمعرفة الخالق المعبود سبحانه وتعالى هو الخليل ابراهيم عليه السلام حيث بعد احتجاجه على قومه بأفول الكوكب والقمر والشمس وافهامهم ان ماينتقل ويتغير لايصلح أن يكون الها يعبد وتقصده المخلوقات فى حوائجها أنكر عليهم وتبرأ أخيراً من كل شىء

وتمسك بحقيقة أعلنها للملأ هى الاحق من الجميع فقال « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين » أى لايشرك بالخالق شيئاً فى العالم ولا يتخذ مبدأ آخر غير هذا فاذا فعل ذلك كل انسان وتأكد من عجزه الذاتى فى المبدأ والنهاية علما وعملا من عدم وجود مبدأ يرتاح له قلبه غير توجيه وجهه للخالق مع صحة التثبت بالايمان والاخلاص له تعالى كان مبدؤه هذا هو المبدأ الحق مبدأ الخليل ابراهيم عليه السلام أو هو مبدأ التسليم للخالق سبحانه أو (الاسلام) أى تسليم النفس بالارادة (القلب والفكر) توجها باخلاص الى الله سبحانه وان جميع المبادى الانسانية باجتماعها حول هذه النقطة وموافقتها لنظام الانسان الخلقى الفطرى هى ما تسمى (دين الاسلام) وخلاصتها القرآن العظيم كلام الله تعالى فانه (فطرة الله التى فطر الناس عليها) ولأجل كونه من الله تعالى كان هذا الدين الهيأ محضاً (ان الدين عند الله الاسلام) وهو كما سيراه كل مطالع أحسن المبادىء عموما وأحقها بالاتباع لانه يهدى القلب ويطابق مباحث القلب والعقل وتأملاتهما الفطرية فى المبدأ والنهاية مع احاطته بكل شىء فى العالم يطرق فكر الانسان. هذا وبسبب عدم اتخاذ الجنس البشرى كله هذا المبدأ الحق انقسم العالم الانسانى الى مبادىء لاحد لها فتولدت الديانات الكثيرة المختلفة والمذاهب العديدة التى لا يمكن حصرها ومنشأ هذه الاختلافات أن كل فريق يتوهم السعادة في مبدئه مع ان ماأوضحناه لايخالف طبيعة الفكر الحقة وأن وجود الله تعالى لا ينكره أحد مهما تكيف اعتقاده الذاتى

وعلى ذلك فاذا قيل بأى دين يتمسك الانسان : فالجواب الحق الذى لامراء فيه هو أن يتمسك بدين الاسلام

(وجود الله تعالى لاينكر)

لما كان عقل الانسان هو مرآة هدايته فهو يترقى فى العلم وفى كل شىء ويتتبع الاسباب من سبب لآخر حتى يصل الى نقطة عالية هى أس أفكاره سائلا نفسه عنها وهي : من الذى أوجد هذه المخلوقات . أو من الذى أوجدنى على ظهر الارض ولم خلقت ولم

أتمتع أو أتألم أو أعذب . ولم أموت . وما هو الغرض من هذا الكون . وما هو الغرض من وجودي فى هذا الكون . وماذا يجب علىّ أن أفعل .... الخ

طبعا . هذه أهم وأعلى نقط يتساءل الانسان عنها ويميل العقل لمعرفتها حتى اذا عرف من الذى أوجده ولم خلق . والغرض من وجوده . وما ذا يفعل سعى في الارض كما يشاء وكما يرى فى نفسه ومن نفسه من علم وعمل مطمئنا عالما بالغرض الذى يعمل لاجله وأساس علة وجوده فيكون كالخبير الذى عمل التصميم الكافى والاستدلال الهادى قبل القدوم على العمل حتى يصل الى الغرض المقصود مستريح البال مطمئن الخاطر . أما نحن فنقول له تجد الجواب على كل سؤال تريده في كل شىء فى دين الاسلام وتعلم ذلك مما سأوضحه لك فى القريب العاجل .

فأول سؤال بل أعلى نقطة يستفهم عنها الانسان هو معرفة الخالق عز وجل لهذه الطبيعة أو الكون الذى أدهشه منظره واحكام بنيانه فنقول له : ان الخالق لهذا الكون هو الله تعالى وهو كما خلق الكون خلقك أيضاً وأوجد لك هذا العقل . ولا بأس عليك من هذا الاستفهام فهو يريد منك ذلك لان تعرفه . بل خلقك لتسأل هذا السؤال لتستدل عليه بنفسك أو بواسطة هذا الكون الذى أدهشك منظره .

ولما كان اختلاف العقائد بالنسبة لله من بنى الانسان كثيرا كان من الانسب أن نحصر اعتقاد أفراد العالم الانسانى على اختلافهم بوجه عمومى حتى نستنتج من عقائد الجميع كيف أنهم يعرفون الله تعالى بلا استثناء . غير أنهم يختلفون فى التعبير عنه لفظا وان الالفاظ التى يفرضونها اذا خالفت روح الاسلام كانت مخالفة لحقيقة ما تشير اليه قلوبهم وأعمالهم أو أن أعمالهم تشير لغير ما تشير اليه ألفاظهم فلا مطابقة بين الحقائق في العمل والاعتقاد مطابقة صحيحة الا بالاعتراف بوحدانية الله وانه الخالق المطلق المتصرف وان من حاد شعرة عما توضح فى القرآن بخصوص معرفة الله كان فى ارتباك عن الحقائق منغمسا فى الضلال البعيد . فالناس فى اعتقادهم بالنسبة لله أو أديانهم ينقسمون الى أربعة أقسام كبرى وهى :

(١) الدين الاسرائيلى وأصحابه اليهود وهم متفرقون فى سائر أقطار الدنيا

(٢) الدين المسيحى وأكثر أهله النصارى المنتشرون فى أوربا وأمريكا وغيرهما

(٣) الدين الاسلامى وأكثر المسلمين انتشارا فى ممالك الدولة العلية العثمانية ومصر وبلاد العجم والهند وبلاد العرب والتتر وشمال أفريقية وأواسطها وغيرها

(٤) الدين الوثنى مع الاديان الفلسفية وهو ينتشر فى الهند والصين واليابان وغينا وبلاد الكفرة في افريقية وكنادا وبعض البرازيل وبارغواى وغيرها .

فأصحاب الدين الاول والثانى يؤمنون بالله وببعض أنبيائه وأصحاب الرابع لا يؤمنون بالله ولا بأنبيائه أما الدين الاسلامى فأصحابه يؤمنون بالله وحده وبجميع أنبيائه بلا استثناء وهو يوضح حقيقة هذه الاديان كلها والفريق المعوج الذى يسلكه كل من لم يتدين به بأجلى بيان وأعظم برهان فهو لجميع الخلق كمصباح من نور يهدى من أهتدى به الى الصراط المستقيم

ولما كان موضوعنا الآن مختصاً ببداهة وجود الله تعالى وكان أصحاب الدين الاول والثانى والثالث يؤمنون بالله ويعرفونه مما عرض عليهم من آيات الله البينات في التوراة والانجيل والقرآن كان الاحق بنا أن نوضح كيف ان الامم الوثنية والفلسفية يعترفون بوجود الله وكيف نتوصل باقرارهم أنفسهم وأعمالهم الى أنهم يقرون بوجود ذلك الخالق الواحد بقطع النظر عن شركهم وسوء تعبيرهم عن ألوهيته المطلقة ليكون ذلك أقوى حجة على ضلالهم وليزداد الذين آمنوا بالله ايمانا وتعلقاً بربهم الكريم .

ولست الآن فى مقام التمييز بين الاديان الثلاثة الاولى أو ايضاح نقطة الخلاف بينهم فكفى اليهود والنصارى أن لايؤمنوا بالنبى والقرآن وان كانوا لاينكرون وجود الله تعالى وكفانا من الله تعالى أن أوضح لنا في القرآن الكريم الخلاف بيننا وبينهم فتشربتها عقولنا بالقبول والارتياح وأعلمنا أن لاخلاف بين أوامره الى جميع أنبيائه فيما يختص بوحدانيته سبحانه ولزوم العبودية لذاته وحده وجلاله فصرنا بها من الموقنين لانفرق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون . وما أحسن ماقاله عظيم من الحكماء بخصوص اختلاف الاديان حيث قال مايأتى « أرى أدياناً كثيرة متناقضة وكلها باطلة خلا دين واحد . فاختلاف الاديان وتباينها وتضادها ناشئى عن مطامع الرجال وأثمهم . والدين ثابت فى قواعده وجوهره ولكنه يختلف فى صورته الخارجية فينشأ عن ذلك الخرافات والخزعبلات والبدع . ومن أخطر الامور للحكمة البشرية البحث عن ثبوت الدين واتحاده فى قرون كثيرة مع طروء

التقلبات والفساد على صورته وقد ملىء تاريخ الدين بأخبار التقلبات والفساد ومع ذلك يرد الانسان الى مرجعه وهو الله سبحانه وتعالى . ولا تزول جميع الحقائق من الدين وان اكتنفته أغلاط عظيمة وستر بظلمات مدلهمة . اهـ » ونحن اذا راجعنا هذه الحقيقة التى دونها هذا الحكيم وجدنا ان جميع الاديان السابقة لدين الاسلام وبالاخص الاسرائيلية والمسيحية وما طرأ عليهما من التغيير مما هو ثابت فى تاريخهما من الانقسام واختلاف العقائد فى الدين الواحد منطبقا على قول الحكيم السالف بخلاف القرآن العظيم فهو باق كما نزل وجميع المسلمين فى دينهم واعتقادهم فى القرآن متحدون وهو بعناية الله سيكون كذلك الى يوم القيامة وان اختلاف آراء العلماء من المسلمين وانقسام الامة وفشلها لا يرجع بالعار على القرآن العظيم بل على الامة نفسها التى لم تعرف كيف تقتبس النور منه بدل وقوعها في ظلمات الجهالة فالقرآن مازال محفوظاً كما نزل من عند الله تعالى وليس كالكتب الاخرى السماوية التى سبقته وهى دون حقائقه بمراحل للمتأمل المنصف بسبب التغيرات التى طرأت عليها في قرون عديدة ولقد قال جل شأنه « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » أما الذين لا يتدينون بدين من الاديان السماوية من بنى الانسان فيمكننا أن نحصرهم فى ثلاثة أقسام

(١) رجل لا يتمسك بدين من الاديان بل بما يوحيه اليه فكره ومنهم الفلاسفة وكثير منهم يؤمنون بالله تعالى

(٢) رجل تمسك بالطبيعة وموادها ونتائج ظواهرها ومنهم الطبيعيون والماديون الذين لا يعترفون بالله

(٣) رجل قد اختار لنفسه شيأ من المخلوقات الهاً وعبده ومنهم الوثنيون على اختلافهم وغيرهم

فاذا فرضنا أنا أحضرنا رجلا من النوع الاول قد مكنته التجارب وسألناه ماذا يجد فى نفسه وأجاب جوابا عقلياً خالياً من الغرض بسيطاً لقال : أجد أنفاساً فى نفسى متصاعدة وعقلا يتصور وقلبا يخفق وبطنا تأكل وأجد نعمة أتمتع بها ثم موتا سأذوقه كغيري

ولو سألناه كيف معاملتك مع الناس ؟ لاجاب : أعامل الناس بالمعروف أحيانا فأجد ارتياحاً فى نفسى وكذلك اذا عملت احسانا وبالعكس ينقبض صدرى اذا ارتكبت سيئة وقد رأيت كثيراً أنى اذا آذيت انسانا أو تعديت على أحد أصابنى شيء من نوع

مافعلت رغماً عن نفسي . ونظرت بالتجارب ان إذلالي لغيري ظلما يرجعني الى الذل . وكم من مرة رأيت أناساً يتمدون على غيرهم بالقتل فلا ألبث قليلا حتى أجدهم مقتولين وربما كان قتلهم بالصفة التي قتلوا بها غيرهم ثم أرى أيضاً نظاما عجيبا في الكون ثابتا فمن بحار وأنهار تجري وأشجار تنبت وحيوانات وأناس تحيا وتموت .

فاذا سألناه بعد ذلك : ماذا تشعر من نتيجة ماأوضحت وما رأته عينك ولم توضحه ؟ أجاب ان ماأدهشني هو مراقبة أعمال بني الانسان من قوة عالية ظاهرة خفية فلوكان للانسان نظام كالاشجار مثلا حين توضع بذورها في الارض فتنبت نوع شجرها لقلت ان وجودنا وأعمالنا هو شيء طبيعي ثابت وصرت كالطبيعيين ولكن رأيت بعيني كم من ظالم لغيره ينتقم منه ولو بعد طول المدة وكم من قاتل غيره وقدمضت عليه السنون ثم قتل بنفس الصورة التي قتل بها غيره . فمراقبة مثل هذه الحركات الدقيقة وغيرها على نوع بني الانسان الذي هو اكثر حرية في العمل من جميع المخلوقات شيء يضطرني لان أتفكر بل وأشعر بقلبي بلا جدال وتردد أنه لا بد لهذه المخلوقات من مدبر مهيمن عليها بسيطرته المطلقة ولكن لاتراه عيني وكلما أردت ادراك هذه القوة العالية المدبرة بفكري عجزت باهتا ورأيت بحثي عبثا . اذاً ماهذه القوة الهائلة المدبرة لهذا الكون الهائل مع هذه المخلوقات التي يعجز الفكر عن حصرها ؟ فنقول له !! ان مايعترف بوجوده قلبك وتشعر بعظمته الخفية ونظامه العجيب بين المخلوقات بعد تجاربك وتأملاتك هو الله سبحانه وتعالى وهو المبدع لهذه الكائنات بقدرته .

وقد تمسك كثير من الفلاسفة بهذا المبدأ ولكنهم على اختلافهم لاينكرون وجود الله وأبديته ومهما تمسك أحدهم بمبدأ مهما كان نوعه وتظاهر بعدم الايمان بدين من الاديان السماوية فان ابحاثه العقلية وكثرة تجاربه تضطره أخيراً لان يعترف بوجود الله تعالى وبقطع النظر عن هذا الفرض فاننا نذكر هنا ماقاله فيلسوف فرنساوي من أشهر الفلاسفة حيث تمسك لنفسه بمبدأ كان عنوانا لتقدم كثير من بني جنسه وهو قوله : — « افتكر بذاتك ولا تحكم على شيء بمجرد القول . — ومن ضمن أقواله : ان تشغيل العقل هو أشرف الامور التي نمارسها على الارض وقد أثبت وجود الله بدلائل عقلية قال فيها :

اذا شككنا فى كل شيء لايمكن أن نشك فى كوننا نشك . فالشك هو الافتكار وعليه فلا يمكن الشك أننا نفتكر فوجود الفكر لايقتضى برهانا آخر . واذا لم يمكن الارتياب فى كوننا نفتكر لم يمكن الارتياب فى كوننا موجودين فنشعر بوجودنا كلما افتكرنا . فاذاً الافتكار دليل الوجود . ثم يقول ماهى صفة الفكر : صفته أن يكون غير منظور ولا ذا ثقل ولا ذا امتداد بل بسيط فبساطة الفكر تؤدى الى بساطة النفس التى تفتكر وهى المعبر عنها بكلمة : أنا . واذا كانت النفس بسيطة كانت خالدة أبدية . ثم قال : من أنا المتصور الابدية؟ أليس واضحا انى لست أنا الذى أحدثت هذا التصور السامى عن ادراكى الذى لاأقدر أن أبين حقيقته ولا أن أطرحه عنى فهو شيء لا يخصنى . فهو يخص اذاً موجود آخر واجب الوجود أبدياً كاملا وهو الله سبحانه وتعالى . وبذلك فالناس لاتعرف الكون معرفة صحيحة لايخالطها شك الا بمعرفة وجود الله الواحد الحى الازلى . — ومن المعلوم ان تصور قوة سامية الهية موجود في كل عقل على اختلاف طبقات الناس . ففى هذا التصور عنصر وجود هذه القوة العلوية المعبر عنها بالله الواحد . والتناقض ظاهر بين تصور الوجود وعدم الوجود لانه كيف يتصور شيء موجودا وهو غير موجود وهذا التصور خلقى مغروس فى العقل طبعاً . ومن ثم فالنقص فى العقل البشرى يقتضى الكمال فيما هو أعلى منه وهذا الكمال لايكون الا فى موجود أسمى درجة من الانسان فهذان أمران بينهما أشد العلاقة فى الحكم على حقيقة الوجود كما هى فى العقل البشرى فلا يمكن أن ننخدع بهما . وعلى ذلك فالاشياء الخارجة التى نراها ونلزم أن نسلم بوجودها ليست ضربا من الوهم ولا شباحا تصورها لنا المخيلة فمن وجودها يجب الحكم بوجود موجدها وهو الله الخالق سبحانه وتعالى »

هذا ما قاله فيلسوف فرنساوى من أكبر الفلاسفة وقد تمسك بمبدأ هو عدم تصديق شيء بمجرد القول بل بعد البحث فيه بالذات بحثاً عقلياً

واذا انتقلنا الى النوع الثانى من بنى الانسان وهم الطبيعيون أو الماديون رأينا من مبادئهم أنهم يشيرون بوجود الله تعالى رغم نكرانهم للاديان السماوية وفقط هم يشركون بالله تعالى ويقولون أقوالا ينبذها العقل الصحيح وان من خلال اعتقاداتهم وألفاظهم يرى المتأمل الخبير انهم يقرون كباقى البشر بوجود هذا الخالق الذى أشار الى وجوده كل مخلوق وان اختلفوا

فى التعبير عنه بما تقضيه قدرته المطلقة وحسن نظامه بين عباده المؤيد فى القرآن الكريم ولذا نكتفى بأن نذكر بعض اعتقادات للطبيعيين والماديين لنكذبهم بنفس كلامهم ونوضح زيغهم عن الحقيقة فنقول :

يقول بعضهم الطبيعة تنقسم الى قسمين ممتزجان ببعضهما ومتحدان وهما الله والمادة أو الهيولى فالله الاصل الفاعل الموجود أو العامل وهو العقل المطلق والعلة السائدة العامة وهو عبارة عن نار حية أو روح ناري أو بالاحرى نور ساطع حار يولد كل شيء بنظام كالصانع الحاذق يصنع بنواميس وحذق واتقان وهذه النار تتضمن كل الجراثيم القائمة بها الاشياء بأشكالها أماهى أي النار فليس لها شكل خاص بل تشكل كل شيء تولدت من نفسها وتبقى الى الابد وبحركة مستمرة فجوهر الله اذاً غير مدرك وهو فرد صمد قضى على نفسه أن لا ينقض نواميسه وهذا لا ينافي استقلاله المطلق وارادته المطلقة أما المادة أو الهيولى فهو الاصل المنفعل غير المحدود المستمر القابل للتكييف بكل شكل وصورة .اه

والمتأمل لهذا التعبير يجده متناقضا لا يستريح لقبوله العقل من أوجه كثيرة . اذ كيف يقولون ان الله والمادة ممتزجان ببعضهما ومتحدان ثم يقولون عن الله انه مستقل وذو ارادة مطلقة فذو الارادة المطلقة لا يضطر للامتزاج بشيء ثم يقولون عنه انه جوهر وكيف علموا انه جوهر . وما معنى قولهم انه جوهر ثم يقولون انه غير مدرك ويفرضون انه نار وغير ذلك مما لا دليل عليه مع هذا التناقض الظاهر فى التعبير. والحقيقة ان أفكارهم هذه تنطبق على بعض صفات الروح ممتزجة بشيء من الكفر .

والغرض من سرد أفكار هؤلاء القوم هنا انهم يشعرون بحقيقة وجود الله وانه غير مدرك وهو مستقل فى ذاته الابدية وانه مطلق الارادة . أما باقى فروضهم من القول بأنه نار أو ممتزج فهو ضلال قد امتزج بهذه الحقائق التى يعترفون بها وكان من أحقهم أن يخضعوا للحق المطابق لفطرة العقل كما هو موضح فى القرآن من ان الله تعالى أزلى لا شريك له ولا شبه له فى مخلوق أو تخيلات أفكار وانه هو الخالق الذى أوجد كل شيء بقدرته وبمطلق ارادته وأنه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . وما أحسن النظام الذى أوجده الله فى مخلوقاته كما هو موضح فى القرآن الكريم مما سيوضح بعد وان تصريحهم بلفظ الله اشارة بالاعتراف

بوجوده تعالى أما تعبيرهم الذى سبق فهو كفر قد تعمدوه لأنفسهم لا يغنى من الحق شيأ

أما النوع الثالث من بنى الانسان وهم الوثنيون على اختلافهم فكذبهم فى عبادة شيء غير الله ونسبة الالوهية له شيء لا يحتاج الى برهان . اذ ماذا تفعل قطعة من الحجر مثلا تشكلت بيدهم على شكل الانسان وصارت صنما ثم هم يعبدونها ويقولون انها الاله . وما معنى أن ينسبوا لكل شيء فى الارض الها خاصاً به مما يكون عرضة لنزاع الالوهية بينهم وليرغب كل اله فى الاستقلال ومحاربة الآخر كما تقتضيه النواميس الظاهرة ولعلا بعضهم فوق بعض مع اننا لا نري شيأ من ذلك ولا حس ولا صوت ولا تأثير لاحد فى المخلوقات غير الله الواحد الخالق المطلق المسيطر فوق عباده كما يثبته تاريخ الانسان

هذا وان الوثنيين مع شركهم وكفرهم فان وجود الله عندهم له ألف دليل أو دلائل لا تحصى وفقط هم منقادون لاوهامهم لعدم التفكر وتمحيص الحقائق الظاهرة طبيعياً وعقلياً ليستدلوا بها على وجود الله الواحد

وفى كل شيء له آية * تدل على أنه الواحد

ولنضرب لذلك مثلا فرضيا بسيطا فنقول

نزل رجل كافر يعبد البحر ويعتقد انه هو الاله مع رجل مسلم يعرف الله خالق كل شيء فى مركب صغيرة ليصلوا بها الى الشاطيء الثانى من البحر فاستمروا فى سيرهما حتى اقتربا من الشاطيء وهناك هاج البحر وماج واشتد الخطر عليهما فاستغاث المسلم بربه أما عابد البحر من كثرة ماناله من الخوف والهلع صار يشعر بقلبه وعقله كانهما يتجهان رغما عن نفسه الى السماء وكأنه يطلب النجدة من الله خالقه ولكنه لا يعلم لم هذا الشعور فسأله المسلم بعد وصولهما الى البر سالمين ماذا تشعر بوجدانك فأجابه بما قام بقلبه وأنه دائماً بهذه الصفة سواء كان الخطر الذى يتهدده فى البر أو البحر أى انه يشعر بانجذاب قلبه الى السماء لا الى البحر الذى يعبده ولا يمكنه أن ينجيه من هذا الخطر الذي يكاد يبتلعه مع انه معبوده فأجابه المسلم بأن شعورك هذا الذى تضطرك نفسك اليه وتشعر به هو موجه لله تعالى موجد المخلوقات ورغما عن شعورك هذا بوجوده فهو منزه عن كل الصفات المنسوبة لمخلوق أو لاوهام فى العقل فليس كمثله شيء وهو السميع البصير

صماً وبكماً فتراهم من طبيعتهم الفطرية يشيرون بيدهم الى السماء بوجود الخالق فهذا شيء لا يمكن نكرانه من جميع المخلوقات في بنى الانسان فمهما اختلف اعتقادهم وشركهم أو كفرهم بالله فسيطرة وجود الله على جميع عباده واحدة ولكن البعض يشرك به والبعض يجحده عمداً من عند أنفسهم فهو القاهر فوق عباده وهو اللطيف الخبير وان وجوده تعالى لا نكران له من أحد أبدا وان أساء البعض عنه التعبير أو أشرك به أو كفر «ولئن سألتهم (الكافرين) من خلق السموات والارض ليقولن الله أفلا تتقون » فالاسلام يعرف ذلك الخالق المهيمن أحسن تعريف يرتاح له القلب والعقل بما يليق لكماله الفائق كل كمال فما أكثر فضل الله على كافة الخلق بدين الاسلام الهادى الى الصراط المستقيم وعلى كل حال فجميع أفراد الجنس البشرى يعترفون بالبداهة بوجود الله تعالى وان تنوعت أفكارهم الخصوصية اهـ

« ماذا يجب أن تكون صفات الخالق (سبحانه) » ؟

يولد الانسان منا طفلا لا يدرى أينما كان ولا كيف يكون فيتربى بين يدى والديه حتى يتعلم كيف يأكل ويتكلم ثم يتقوى تدريجيا حتى يصير شابا ثم رجلا كاملا وفى كل أدوار حياته يكون كثير التأثر والتأمل بكل مايحتاط به علاوة على مايتغذى به من العلوم الكثيرة المتنوعة حتى اذا أراد يوما أن يعرف اجمال حياته ونتيجة تعلمه وتجاربه لا يلبث أن يندهش من أدوار الحياة التى لا نهاية لها ومن عجزه عن حصر كل شيء فى العالم فلا تمضى عليه هنيهة حتى يتفكر فيمن بيده ملكوت كل شيء وقع تحت بصيرته فيضطر بنفسه الى اكبار وتعظيم الخالق المنظم وتقديسه وكلما ازداد فى المخلوقات تأملا وزاد فى نفسه علماً كلما زاد اجلال نفسه لخالقه واعترف أخيراً بكمال الله المطلق الذى هو فوق كل تصوراته النفسانية .

فكما ان وجود الله تعالى لا يمكن نكرانه من أحد مطلقاً فان كمال الله المطلق هو كذلك يعرفه كل من تفكر بحق ولو قليلا فى خلق السماء والارض وما بينهما ولا يمكنه الزيغان عن نسبة الكمال المطلق لله الخالق سبحانه وتعالى .

ولذلك كان كمال الله المطلق أساس كل شيء فى الوجود فالطفل بعد ولادته وتقدمه

فى السن تدريجيا لا ينطبع فيه شيء ولا يعلم بشيء الا من المخلوقات التى تحيط به والعلوم التى يتعلمها بحيث كلما دخل فى السن الى الرجولية كلما زاد فى معرفة الاله حتى اذا كان تامله حسنا وعلومه صحيحة تأكد في النهاية بهذا المبدإ وهو كمال الله المطلق. ومتى وصل اليه وتمسك به أمكنه به أن يعرف كل شيء فى السماء والارض ويعرف الغرض الكلى من نفسه ومن الجميع ومن هنا يبتدأ للدخول فى معرفة الحقيقة أو الدين وأسراره الجميلة.

ولذلك جعلنا كمال الله المطلق ولزومه فى كل مشتملات مقاصدنا هو الاساس الوحيد الذى نبنى عليه مباحثنا وأغراضنا اذ به كان كل شيء وبه تأسس كل شيء بلا استثناء. وهو الاساس الوحيد لكل علم وفلسفة صحيحة مطابقة للواقع الذى لايحتمل الظن ولانه أمر تكتسبه النفس بذاتها بالتفكر الصحيح والتجربة فاذا كان أى انسان لايعترف بكمال الله المطلق ولا يسلم به مبدئيا قبل دخوله فى غمار كشف أسرار العالم ودين الله الحق فليريح نفسه مؤونة المطالعة فى هذا الكتاب وليهم على وجهه أينما شاء وعند ما تضطره الحوادث وتأملاته الحقة فى أحواله الشخصية والاحوال العالمية الى حقيقة هذا الاعترف فليقبل على طرق أى باب يريده وانى شاء فبحار العلم مفتوحة ونور الحق لايدخله الا المنتصر للحقيقة

وعلاوة على ان كمال الله المطلق معترف به من كل مخلوق فان صفات الله تعالى الذاتية مطوقة بالكمال المطلق الذي هو فوق العقول البشرية وذلك لان الاعتراف من الكل بوجود الخالق سبحانه مما يوجب أن يتسلق به المخلوق الى التأمل فيمن سبق الخالق فلا يجد أحدا لان المسبوق حادث ونسبة الحداثة لله تعالى تنفى عنه كونه الخالق سبحانه بل غيره وهذا يضاد الاعتراف الاول البديهى الذى هو فى فطرة كل مخلوق وهولزوم وجود الخالق ومن هذه التفكرات لا ينتج العقل غير شيء واحدهو أزلية الخالق سبحانه وتعالى وما دامت الازلية لله تعالى أول شيء من كمالات الله لانها أول شيء يطرق فكر المخلوق مهما كان تامله بسيطا فليبحث من هذه النقطة الاولى عن النسبة الكائنة بين علم المخلوق ومباحثه عن هذه الصفة وبين الوصول الى حقيقة شيء من الصفة المذكورة بعد هذا البحث حتى اذا وجدنا أن المخلوق قرر شيأ بذاته فى هذا المبحث الأبتدائى فاننا ولا شك نتخذه أنموزجا لجميع المباحث الاخرى عند ما يصادفنا شيء من كمالات الله المطلقة المختصة

بذاته العلية التى لا حد لها

فليبدأ المطالع فى تصور الازلية التى لا بداية لها .... فماذا نجد بعد أن يجيب طلبنا فى هـذا التفكر !... لا نجد غـير ذهوله ووقوعه فى التيـه ولا ينتهى فكره بتخيل الازلية فالفكر نفسه يبهت وينتهى بالوقوف ولا يصل الى طريق به يعرف كيف يتخيل الازلـية خيالا بسيطا — فاذا سألنا المطالع عن آخر طاقة للفكر أمكنه أن يتصـور أثناء ذلك يقال ان آخر حد لفكرى قبـل توهانه وعجزه وقف عنـد حد البداية وهذا الحد بالطبع كما سبق ليس من صفة الله الاولى وهى الازلية المذكورة فالحد المذكور فى الحقيقة هو حد بدأ المخلوق نفسه في ذاته وهو حد نهاية أفكاره عنـد التسليم بالعجز أثناء كيفية تفكره فى الازلية — أما الازليـة المذكورة التى اعترفنا صراحة بلزوم نسبتها لله الخالق فتصورها اذاً فوق العقل وليس للمخلوق من تصورشىء من كمالات الله المطلقة غير العجز المطلق وأن ختام نتيجـة التفكر في شيء من كمال الله تعـالى هو اجلال الله تعـالى جهد اسـتطاعة القلب وهو كل الغرض من الخلقة . وبذلك كان من اللازم حتما أن يكون اجمال صفات الخالق « سبحانه » هو الـكمال المطلق

والافكل من أراد من بنى الانسان مكابرة فليبحث عن عدم لزوم الازلية وليفدنا عن نتائج مباحثه لنشطب على مانخطه الآن كما اذا كان أحد يدعى بالوصول الى تخيلها خيالا بسيطا فليفدنا ونحن منتظرون وعلى ذلك فتخيل أى صفة من كمالات الله المطلقة الذاتية شىء فوق التصور بل بمعزل كلى عن كل تصورات المخلوق وتخيلاته وفروضه وبذلك يتقرر معنا مبداء ثانياً يجب أن نتمسك به من الآن ونجعله أساساً لمباحثنا لانه مبداء ثابت لا يتغير الا وهو عجز المخلوق المطلق عن ادراك شيء من كمال الخالق الذاتى فالمخلوق وتصوراته بمعزل تام مطلق عن ادراك صفة من كمال الله تعالى . واننا لم نختر صفة الازلية لله تعـالى فى مبحثنا هنا الا لـكونها هى أول أمر بديهى يصادم أفكار المخلوق اذا بداء فى التفكر فى الخالق . فان لزوم اعترافه بوجود الله تعالى وكونه هو الخالق وحده يتوصل به الى لزوم أزليته . وبهذه الصفة الاخيرة يتدرج الى لزوم التسليم والاعتراف بعجزه المطلق عن ادراك أي صفة من كمال الله المطلق فى وجوده كهذه الازلية .

وبتأييدنا لهذه الحقيقة بالطبع يتأيد تبعاً لها كل صفة كمالية تنسب لله تعالى . فكل ماينسب لله تعالى يجب أن يكون عجز المخلوق المطلق عن ادراكه أساس مبحثه فيه أو ان كل مايتعلق بالله تعالى أساس الاستدلال على حصره فى ذهن المخلوق ضرب من المحال . وان من فرض لنفسه شيئاً من ذلك فهو فرض لما فى نفسه وليس لما يدعى الوصول اليه من تخيل شيء من كمال الله المطلق فذات الله الكماليه وتصورات المخلوق عن أي شيء منها بينهما حد العجز المطلق لهذا المخلوق . وعلى ذلك كان الاستدراج فى لك اللسان فى مثل هذه المباحث عن ذات الله تعالى ضرب من الجنون والهبل . فمن كان به داء الجنون فليقل فى ذلك ماشاء وليتجادل على نفسه بما يشاء فان كاسر رأس نفسه لايستحق الشفقة اذا كان هو لايبالى بالالم الذى يجلبه بيده وهو يعلم بنتيجة خسرانه والسبب فى تأييد هذا المبدأ واتخاذنا له أساساً لمباحثنا هو ان كثيراً من الناس اذا ذكر لهم شيء يتعلق بالله تعالى يجرهم أحيانا الى سوء الفهم فى الله تعالى ويتخيلون مالا يليق لكماله المطلق فاذا تدرجوا فى مباحثهم تشعبت امامهم الاوهام الشيطانية فيضلون أنفسهم ومايشعرون . وربما يتوهم البعض ان غمار هذه المباحث فيه شيء من زيادة العلم وما هو الا غور فى الضلال أللهم الا اذا تمادى المخلوق بجهده في مباحث الخلق وكيفياته وكل مشتملاته فهناك تنكشف له فوائد حقه جليه — أما وان كمال الله المطلق وكل مايتعلق بذات الخالق فأمر فوق العقل على ان تخيل شيء من كمال الله تعالى يوجب تخيل أى صفه من لزوميات كمالاته كالازلية مما أثبتنا انه بين المخلوق وبين تصورها العجز المطلق بديهياً وخلقة العقل الفطريه غير قادرة على سبر غورها فهذا المبدأ أيدناه للعاقل الذى لايجب أن يفقد زمنه فيما تقرر حتما عجزه الوصول اليه وكأنه اذا تمادى فى ذلك يرمى باتعابه وجهد أفكاره في الهباء بلا نتيجة . — . وعلى ذلك اذا تأكدنا من لزوم نسبة شيء للخالق وأردنا البحث عن حقيقة مايجب أن يقال فيه لانجد غير كوننا نقول به وبأنه يليق لكماله تعالى فقط بما لا امكان للوصول الى تخيله . فمن أراد مكابرة غير ذلك فعبثا يحاول وان هذه المحاولة نفسها تهدم أساسه الحق الاول وهو كمال الله المطلق مما يلتزم به الى الرجوع القهقرى لينظر من نفسه ومن حوادث الخلق مايأتى به مكرهاً بلزوم كمال الله المطلق مما يكون معه كالدائر حول نفسه لايمكنه التخطى الى الامام

خطوة مفيدة . بخلاف من يقتنع بضربة العجز من أول وهلة ويسلم بلزوم كمال الله المطلق فى كل مايتعلق به فانه علاوة على تمسكه بالحقيقة والحق الظاهر الواضح فهو لاينقطع عن تأملاته فى الخلق ونظام الله فيه عن حكم طالما يتمنى السعادة الذاتيـة بالزيادة منها فكلما ازداد بالمبدأ الاول تمسكا وهو كمال الله المطلق كلما ازداد من المبدأ الثانى باكتشافه العلوم العلمية رقياً واسعاداً واكتشافاً جديداً يحلو له معرفته وفحصه . فكانه بهذه الصفة فى الحقيقة يتدرج الى الكمال تدريجياً فاذا تحول عن أحدهما رجع الى النقص بما لا يفيده شيئاً كما سبق فيضطر الى التمسك بهذين المبدئين حتى الموت وكان الكمال معلق بحياة أخرى غير هذه يستمر بمجموع الخلق تدريجياً الى الامام وان المحال فقط فى هذه الحياة هو تخيل شيء من كمال الله المطلق كما ان أول شيء واجب حتما هو لزوم الاعتراف بهـذا الكمال الذى لاحد لنهايتـه

وعلى هذين الاساسين كمال الله المطلق وعجز المخلوق المطق بنى التوحيد الالهى أى الاختصاص والتفرد بالالوهية لله تعالى وما يليق لها من الكمال وعبودية كل مادونه تعالى اذ ان ذلك هو كل الغرض من الخلقة أو هو كل العبادة — ومن العبث أن يحصر انسان خلاصـته ويحصى أبوابه . فالتوحيد لا يقوم بالعـلم الانسانى بل هو أمر روحانى قائم فى القلب وهو فطرى فى كل الخلقة مبدؤه اعتراف الكل بوجود الخالق بلا استثناء أحد أو شيء وقد اكتفينا بالاشارة الى أساس بنيـانه فانهـا اشارة عامة لجزئيـاته وكلياته ممـا يكون فى طاقة كل راغب فى البحث فيه فخلاصته تقديس الخالق بمـا يليق لكماله وهو لا يكون الا بالتفكر الذاتى ورغبة القلب الذاتيـة وهو الامر الوحيـد الذى لا يجب حصر أبوابه فهو فى الحقيقة يبتدأ مع المخلوق من بدء خلقته الى الابدية التى لا حد لها . فهو عـلم الله المطلق بمـا يختص بعلاقتـه بالمخـلوقات — وكل مخلوق فى ذاته وأحواله سائر فى بابه على اختلاف جنسه وأعماله . فهو خلاصة الكل وخلاصة كل علم وكل شيء وان أكمل ما يمكن التوصل منه باحسن فائدة فى هذه الحياة وأعظم غاية لا نقص فيها للانسان خاصة هو أمر واحد لا ثانى فيه أيضا : هو تلاوة القرآن العظيم . — . فيه يجد كل مطلبه . وتوحيد الله وتقـديسه لا يحتاج للحصر فى دائرة معـلومة . فكما أنه أمر روحانى قلبي علاقته الكلية بالخالق وحده فمن الخطأ حصر دائرته في علم مخصوص فكل

حركة وسكون لله تعالى فيها اجلال وتوحيد (وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) وقد أيدنا هنا أن أساس بنيانه هو كمال الله المطلق وبازائه عجز المخلوق المطلق تحوطا للقارىء فى كلام الله تعالى الذى هو التوحيد من أن تشتط به شياطين الضلال فيتمائل لنفسه شيأ من كمال الله تعالى مماثلا له من الخلق فهو القاهر فوق عباده وأن ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فقول الله تعالى هو السميع ليس معناه أن يكون لله تعالى آذان مثلنا أو سمع كسمعنا البسيط بل سمع يليق لكماله المطلق وهكذا فى كل ما يماثل ذلك فى القرآن العظيم

واذا كان هذا كذلك فكل مايقال عن الخالق سبحانه يجب أن لا يكون به رائحة النقص أيضا بل كل شيء ينسب للخالق سبحانه يجب أن يكون مطوقا بالكمال مثل البراهين العقلية والفروض الانسانية فيجب أن يكون الاكمل منها فى العقل والاليق لجهة الكمال والمزة هو الذى يجب نسبته للخالق سبحانه ان كان هناك ضرورة للنسبة ولما كان الانسان أول شيء يخص ذاته هو العجز المطلق عن أن يحتاط بكل شيء علما كان الاليق فى العقل أن يسلم الانسان من أول وهلة وبلا كثرة بحث (أو فليبحث حتى يجد البرهان نسبة الكمال للخالق سبحانه حقا) أو تردد ان كل مايرد على الفكر بالنسبة للخالق يجب أن يكون محاطا بالكمال اللائق لمقام الالوهية العلية أحقه فاذا رأينا بنظر سطحى ان زيداً من الناس نعرفه انه مستقيما ثم نجد من الله تعالى انه جازاه بشيء فى نظير عمل خفى عن أبصارنا فلا يجب اذا جهلنا الاسباب أن ننسب الظلم للخالق سبحانه بل يجب أن نسلم مبدئياً بكمال عدل الخالق (سبحانه) فان ذلك يتبع مبداء التسليم (أو الاسلام) الذى يعتبر أساساً للدين الاسلامى كما توضح وان قصر مفهومنا عن كشف الحقيقه هو السبب فى عدم العلم بالحقيقة — وهذا الحال يجب أن يكون فى القرآن العظيم بكلام الله تعالى كله حق في العقل والواقع — فاذا رأينا آيتين متشابهتين في موضوع فلا يجب أن نؤول واحدة منهما بما فيه عدم نسبة الكمال للخالق سبحانه بل الحقيقة هو ماقبلها العقل ووصل بها الى كمال الخالق سبحانه فاذا قصرت عقولنا عن كشف حقيقتها فيجب دوام البحث مع التسليم بموافقتها للاخرى التى نفهم من مؤداها كمال الخالق سبحانه حتى تنكشف لنا الحقيقة ونسبة عدم الكمال للخالق سبحانه

فى أى شىء هو وقوع في الفتنه التى تودى بالمفتون الى الجحيم فلو كان لى لسان يمكنه استخراج ألفاظ كاملة جديدة أو عقل يمكنه الاستيلاء على كل اسم جليل حسن يليق للخالق سبحانه لسميت الله العظيم وقدسته به — أولو كان لى قلب من حديد حجمه يسع السماء والارض لخشعت به طائعاً مختاراً منشرحاً لله الخالق سبحانه — ولو كان لى دموع تملأ البحار جميعها لسكبتها امام الملأ علامة حبى الشديد وانخضاع نفسى لرحمة الخالق ولو كنت فى الجسم بحجم جميع الناس والمخلوقات لتصدعت ووجل قلبى من خشية الخالق ورهبته الجليلة — الله أحد — الله اكبر ماأكبره — الله تعالى سابق الكل لم يلد ولم يولد — الله تعالى رؤف ماأكثر رحمته — الله الصمد — الله الواحد تفرد — الله تعالى خالق العالم وما فيه بأمره — الله تعالى هو الذى جعل لنا كل وسيلة للمتمع بالنعم ولعبادته — هو ذلك الذي تشعر بملء قلبك نوراً عند ما تؤمن به — الله تعالى هو ذلك الذى باستدلالك الذاتى على وحدانيته الحقة ومعرفته بما أوجد فيك من عقل وتبصر تصغر السماء والارض فى عينيك — الله تعالى هو الواحد الذى ان تسلط عليك ظالم قاهر واستسلمت له متضرعاً لانقاذك أوجد لك ارتياحاً واطمئناناً فى القلب بأنه يسمعك لتبصر حتى يأمر بقهر ظالمك فى وقت لايحيد عنه ولا يمنعه عنه مانع — الله تعالى هو الذى يمدك ان ضاق صدرك من أمر برحمته ورزقه

الله هو الذى يلهمك بالعلم والمعرفة ويعلمك من حيث لم تكن تعلم . الله هو الذي أوجدك فى بطن أمك من حيث لاتعلم ثم أخرجك وأوجدلك من يحفظ أعمالك ويراقب حركاتك وسكناتك كتابيا الى انتهاء أجلك . الله هو الذى يريد منك أن تتبحر فى العلم لتؤمن به وتعرفه وتكون أكثر الناس حبا اليه (والذين آمنوا أشد حباً لله) . وهو يريد منك أيضاً أن تعترف له بالوحدانية وبالقدرة بما أوجد فيك من شعور واحساس . الله لاتنفعه عبادتك ولا تهمه ولكنه يريدها منك رحمة منه على نفسك . فهو كما أنعم عليك بنعمة الوجود يريد منك أن تتضرع اليه وتخشاه ليعطيك نعمة الخلود فى التمتع بعد موتك بالجنة . الله لااله الا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم . الله هو المنظم للعالم وللممالك . الله هو الذى رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات بحق فى الرزق والعلم والقوة والمال

والاولاد . لاتفتكر أبداً انك اذا عبدت الله وقدسته تنفعه بشيء بل تأكد ان ذلك لصالح نفسك فقط . الله يحب منك أن تعبده . الله لا يريد أبداً منك أن تنساه لحظة قصيرة . بل يريدمنك أن تتذكره دائماً وتخشاه لان فى ذلك سعادتك الذاتية وهو يريد لك السعادة . الله هو الذى يبيد الامم وينشىء غيرها . الله هو الذى يسمع حسيس النملة على الارض ويعلم بما تفعله . الله هو أقرب لنفسك من تصورك فى نفسك ويعرف مايقوله غيرك عنه وعن الناس وعما تفعل وتعزم . اذا وسوس لك ضميرك بشيء ردىء ضد الله فاعلم ان ذلك من الشيطان ويريد الله منك أن تعمل كل جهدك حتى تفتكر فى الله كل شيء حسن ينشرح له صدرك . لاتيأس من وساوس صدرك الرديئة عن الله فمنحك الله عقلا لمكافحتها وهو يكافئك اذا جاهدت نفسك وحولتها أى كيفية للاخلاص والخشوع اليه . اذا رأيت انشراحاً من اداء عمل نهى عنه الله فى القرآن فاعلم انك فى شرك بالله وفى ضلال . خلق الله العقل وجعله خارجاً عن حد ذاته اللائق بها كل كمال فمن أين يصل العقل لمعرفة هذه الذات العلية . الله أكبر من كل شيء يمر على الفكر ويتصوره العقل مهما بلغ فى الارتقاء لامثيل له مطلقا وان تصور العقل شيأ واعترف الانسان بأن ذلك هو الله فهو وهم باطل لاحقيقة له . فالله موجود ولكنه محتجب عن عقولنا وسمعنا وأبصارنا وافهامنا . نحن نشعر بوجوده ولا يمكن لاحد أن ينكر ذلك ولكن هذا الشعور لايدخل معه تخيل ذلك الوجود بشيء يقع تحت اللمس أو السمع أو البصر أو الفهم . فهو ذلك الواحد الفرد الصمد الذى أمر أن نكون فكنا كما نحن وكما كان أسلافنا وكما كانت وتكون السماء والارض وجميع من خلق ويخلق فى الحاضر والاستقبال .

« هل يوصلنا القرآن العظيم الى السعادة العامة فى الحياتين ؟ »

اذا كان هدو القلب وارتياح الفكر لا يكون الا بمبدأ الاسلام للخالق سبحانه أو بدين الاسلام وأن هذا لدين فيما يختص بالانسان وبالعالم موضح فى القرآن العظيم فيجب أن يكون القرآن العظيم فى وضع يليق لمتبعه : وهو أن يكون فى سعادة فطرية كلية . وأن يكون كله حقائق ثابتة كلية لا نقض ولا ابرام فيها . وما دام أساس الانسان مهما كانت درجته العجز عن أن يحيط بكل شيء علما فقرآن عظيم هذا وصفه لايجب أن يكون واضعه

انسانا لان الانسان كما قررنا لا يمكنه أن يحيط علما بكل شىء علما حقا كليا بل هو كلام الله تعالى ولذا كان ممتازا لانه :

أولا : يوافق السير الفطرى لطبيعة الانسان ونظام العالم

ثانياً : يوضح علوم العالم

ثالثاً : تعجز المخلوقات عن الاحاطة بعلمه الكلى أو بالاتيان بمثله

وما دام يحتوى على ما تقدم فمن المؤكد أن يصل السائر على مبادئه الى السعادة العامة الحقة ولا ينبئك مثل خبير .

« الفلسفة الربانية »

الفلسفة على العموم هى استنتاج نتائج حقة بالفكر بدلائل واضحة معلومة بديهية فالظن لا يسمى فلسفة لانه مجرد قول بلا دليل عقلى أو دليل علمى بديهى ولما كان القرآن العظيم كلام الله تعالى بصفة خصوصية مشتملا على كل حقيقة واضحة فى العالم (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) غائبا وحاضرا كان لابد أن نستنتج منه بالفكر كل حقيقة مطابقة للواقع فهو ان كان أس الحقائق البديهية فهو أيضاً أس الافكار الحقة المختلفة المطابقة لكل حقيقة فكرية — لذلك كان الباحث فى أحوال العالم المختلفة ومتخذا هذا الكتاب دليله يجب أن يحافظ على النقط البديهية التى يوضحها هذا القرآن الكريم وتكون الفلسفة الناتجة من اتباع أساسات القرآن العظيم وآياته هى الحقيقة من كل مبحث وعلم مهما كان واتباع هذا المسلك بمثل تلك الفلسفة يسمى طبعاً فلسفة دينية لان الدين اذاً أساسها وهو القرآن العظيم — ولما كان الغرض من ذلك هو تعليم حقيقة الكتاب واكتشاف فضائله وانطباقه على كافة العلوم على اختلافها بحقائقها الواضحة على ما فيه بطرق نيرة بينة كان الاولى تسمية مثل هذه الفلسفة فلسفة ربانية لان الغرض منها تعليم الكتاب (القرآن) الذى هو منسوب للرب سبحانه ثم اظهار كيف يطابق ما فيه لكل النواميس العلمية الصحيحة على اختلافها واتخاذه أساساً لكل شىء وذلك اتباعا لما أبديناه ولسبب قوله تعالى (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) فان تسمية الله تعالى لا يتغير الغرض منها على اختلاف الكتب السموية لانها ترمى كلها لغرض واحد وان

كانت تلك التسمية خصت أناساً من أمم مضت قبل الاسلام — فالطارق لهذه المواضيع بثاقب فكره شرطا أن لا تكون نتيجة مبحثه مخالفة لاي دليل واضح في القرآن أو مخالفاً للعقل أو للمباحث العلمية الواضحة يسمى فيلسوفا لاستخراج نتائج فكرية مقبولة لهذا التطابق وربانياً لانه بذلك يشير لحقائق القرآن العظيم المطابق للعقل ولكافة العلوم العالمية المختلفة — وهذا المبدأ يطابق كلام الله تعالى أيضاو أوامره فى الدين لان المؤمن الذى علمه الله تعالى شيأ من علمه مكلف ببيانه للناس بقدر استطاعته ليصلح المعوج منهم ولتسير الامة على اختلاف الاجيال فى تقدم مستمر لا يعوقها شيء وهى كما هى متعشقة فى عنق الدين

(العقل والتجارب العلمية والقرآن)

الآراء العقلية التى لا تثبتها التجارب العلمية وتخالف القرآن لا يجب أن لا يعتد بها لانها بذلك تكون من الظن . أما التجارب العلمية الصحيحة فهى على كل حال توافق العقل فاذا ظهر ان ظواهر القرآن تخالف هذين الامرين معاً فلنعلم اننا فقط عاجزين عن كيفية التطبيق مما يحتاج لزيادة التعقل في فهم الغرض فقد يكون القرآن العظيم مطابقاً لها كل المطابقة ولكن العلة فى الفهم السقيم ولنتأكد على كل حال ان القرآن العظيم لا يخالف العقل ولا التجارب العلمية بحال من الاحوال فاذا فرض واستمر عدم التطابق يجب أن نعمل بما يوافق العقل والتجارب العلمية والتمسك بظواهر القرآن بلا تأويل فان عدم التطابق اذاً لا يكون من القرآن العظيم مطلقاً بل من الانسان — وان ذلك لا يجب أن يوقفنا عن حد العجز بل يجب المواصلة باجتهاد حتى تظهر الحقيقة — ولنعلن القارىء مرة ثانية : ان القرآن العظيم لا يخالف العقل مع التجارب العلمية والعملية الصحيحة .

— أسباب الفلسفة الربانية —

أما الاسباب التى دعتنى لابتكار الفلسفة الربانية فهو جمع الامة الاسلامية على أعتقاد واحد ولزوم ارتباطها برأي واحد وبيان الاسباب التى دعت أو تدعو الى فشلها وتقهقرها فى الارض واتخاذ أنجع الوسائل لدوام رفعة شأنها وايضاح كيف ان اتباع القرآن العظيم يسوقها دائما الى الصف الاول من بين الامم كما هو واجبها الاول اللائق لمقام القرآن العظيم ومنزلة حقائق كلام الله الابهج سواء فى الاعتقادات أو الاعمال اذ لا يخفى على بصير ماوصلت

اليه الامة الاسلامية الآن من الذل والانحطاط والتقهقر والتشتت حتى لا نبالغ اذا قلنا ان الامم الاخري الغير الاسلامية القوية قد حلت قيود الرق والعبودية من أعناق السود لتضعها فى أعناق كل من تمسك بالدين الاسلامى أو أطلق عليه اسم مسلم مهما كان جنسه وشكله — وهذا أولا من أحوال المسلمين أنفسهم . ثم من جهلهم بحقيقة دينهم الباهر وما ترمى اليه أغراضه الجميلة — واننا نقول انهم يقولون عن أنفسهم مسلمين اسما فقط والحقيقة ان مركزهم الذى هم فيه الآن هو اللائق لهم مع انهم لا يعتبرون بشىء والقرآن العظيم امامهم كالنور الساطع وكأنهم لا يبصرون .

وقد مضى عليهم قرونا متطاولة وهم فى جمود مع استمرار الانحطاط لان الاسلام فى بداء ظهوره كان كشعلة نور ظهرت فى العالم بقوة فملأت الاصقاع وأضاءت المعمورة ثم انطفأت مباشرة وبسرعة بعد الخلفاء الراشدين وهذا الزمن القصير الذى أسس كل مجد ظاهر في الارض الآن قصير جدا ولا يعد شيئاً بالنظر لما يستحق القرآن العظيم من المجد والاعتبار . بل ان الزمن الطويل الذى مضى على الامة الاسلامية للآن وهى فى تلاش مستمر تدريجى بالنسبة لحقيقة مركزها التى يجب أن تكون عليه قد أيد نهائياً وبلا تردد أكبر عار على أمة كان يجب أن تقلب الارض وتجعلها فردوساً لاقامة العدل بين الامم واسعادة البشر فى الدنيا والآخرة .

وان النفس لتقشعر مشمئزة اذا نظرت نظرة اخلاص لتاريخ الامم الاسلامية وأحوالها العامة الحقيقية — وكيف هى فى سيرها ضد مبادىء الدين على خط مستقيم واذا كنا نقول ان الامم التى تعتنق الاسلام تقدر بخمس سكان الكرة الارضية تقريباً وان هذا الجزء يوجد فيه خمسة أجزاء فى المائة يغيرون على الدين ويتمسكون بحقيقته ويخلصون لله تعالى فيه «مع ان هذه النسبة يشك فى حقيقتها» لكانت هذه النسبة فاضحة أيضاً لتلك الامم ووصمة عار أبدية وألما يؤخذ صدور المخلصين الذين يعلمون قدر القرآن العظيم حيث كان الاحق في تلك المدة أن يحل دين الله الاكرم تدريجياً بين أغلب الامم — كيف يكون مركزنا العام امام الله تعالى بين الامم فى تاريخ البشر اذا استمر بنا الحال على هذا المنوال بلا شعور لما يجب علينا وبلا اصلاح عام متين .

نعم -- قد تواجد كثير من المخلصين لله فى الدين بعد بهجة الاسلام الاولى وأرادوا أن يعالجوا تلك السموم القتاله التى دخلت فى جسم الامة وصارت حائلا بين القرآن وتقدم الامة بسبب تشعب آراء علماء السوء أعداء الله والدين واختلافاتهم الخرافيه فى مواضيع تافهة كانت سبباً لتجزأة الامة فى الاعتقادات ولكنهم عجزوا على حسن نيتهم أن يبدوا آراء قاطعة تقنع العقلاء وتهدي النفوس الى الحقيقة التى لاتتعدد فصدقوا فى شيء وزادوا الطين بلة في أشياء ولهذا استمر سقوط الامة متوالياً بقطع النظر عن تلك الادواء المسكنة البسيطة وهى مازالت الى الآن ويخشى عليها من التلاشى الأدبى الكلى لانها الآن وصلت الى حد من الانقسام والفشل بما لا مثيل له في تواريخ الامم . وداؤها الحالى هو من نفس الداء القديم من تلك السموم المنبثة فى الدين وصار لها في القلوب أصول وفروع وقد استفحل هذا الداء وظهرت أعراضه السيئه واضحة لقيام الامم الاخري الغير اسلامية بما هى كانت أحق به . اذ لا يعرف المريض درجة انحطاطه من المرض الا اذا خالط الاصحاء ونظر بعينيه كيف يكون التمتع بالصحة الحقه — ولا يخفى ان الامة كالجيش العرمرم الذى يقوده رئيس واحد تحته رؤساء يتبعون أوامره بلامناقشة وتردد . فالله تعالى ولى الامة الاسلامية ان تمسكت بالدين وحقائقه لا الاوهام المنسوبة اليه — والقرآن العظيم هو مركز رئاستها الذى تستاق منه كل أمر والعلماء هم القواد للامـة ولا يمكن لجيش أن يتولى النجاح اذا استقى الرؤساء الثانويين من مركز الرئاسة أوامرا وآراء متضادة متناقضة ترمى الى أغراض متباينه أوان يكون سلوك الافراد بمعزل عن سلوك الرؤساء فان هناك يكون الفشل العام المؤكد .

فالسبب اذا امتنع زال ما نتج عنه فما على المخلصين اذاً الا أن يوضحوا الاسباب الحقة التى دعت الى فشـل علماء الاسلام أولا فى كيفية انطباق آرائهـم المختلفة على القرآن العظيم ليتكون من الجميع رأى واحـد وليس الوفا من الآراء كما هو الآن ثم تهيء الدواء الحق الذى يجمع الجميع حول دائرة واحـدة ونبذ الآراء التى تخرجنا عن دائرة القرآن والعـقل تابعين الاحسن المفيد وهذا لا يكون الا بعمل ومصادقة مجمع علمى يتركب من مشاهير علماء الاسـلام في الارض ليكون كمؤتمر اسلامى عام وبذلك يستولى الحق على الباطل وما هـذه الحياة الا جهاد وعمل لانتصار الحق على الباطل والدنيا ما دامت لا بد من الترقى المستمر

وتنافس الحق للباطل أمر لا بد منه وان الكمالات السالفة للامم لا تعد شيأ بالنسبة لناموس الترقى المستمر الذي يرافق الجنس البشرى وكل ذلك أمور تدعو قادة أفكار الامة الاسلامية لاتخاذ خطة عامة جديدة بها يمكنهم أن يجمعوا الامم المختلفة الاسلامية حول نقطة واحدة مع مطابقة القرآن العظيم على المصلحتين الدنيوية والاخروية — وبذلك يظهر حسن تأثير القرآن العظيم فى الامم اذا جعلنا رائدنا الحزم والتعقل والعمل بلا ملل ليعلم الناس جميعا أن تاريخ اتباع هذا النور هو التاريخ الذى لا مثيل له فى السعادة البشرية العامة فى الارض

« أصل الفلسفة الربانية »

ان أصولا يمكننا بها الجمع بين الغرض من العلوم والتجارب المتنوعة مهما كانت وبين القرآن العظيم كلام الله تعالى أو بالاحرى كشف حقائق القرآن العظيم لانطباقه على كل حقائق العالم لهى أصول حرية بالاعتبار وتكون في اعتبارها أحسن وأكمل اذا اقتبسناها من نفس القرآن العظيم أو هذا القرآن نفسه هو الذى يرشدنا الى أصولها — والحقيقة . لقد ضل من لم يتخذ القرآن العظيم أساساً لكل شيء — فنصوصه الجميلة تؤيد هذه المبادىء اللائقة له فهو (هدى للناس) على اختلاف أجناسهم ومشاربهم ومعلوماتهم وتجاربهم . ولا يخفى أن الفلسفة الربانية تنحصر فيما يوضح علاقة المخلوق بالخالق سبحانه وهذا لا يكون الا بانطباق كلام الله تعالى على كل الحقائق العالمية فهى لذلك تبنى على أساسين متينين أحدهما يتعلق بالخالق سبحانه وتعالى وثانيهما يتعلق بالمخلوق — أما ما يتعلق بالخالق سبحانه فهو وجوب كماله المطلق فى وجوده الذاتى — وأما ما يتعلق بالمخلوق فهو تمام حرية ارادته الذاتية فى هذه الحياة وعجزه — وعلى هذين الاساسين كان مفتاح الفلسفة الربانيه أو مفتاح معرفة حقائق القرآن العظيم وانطباقه على جميع الاحوال العالمية مهما كان اختلافها — وكما تقدم من وجوب اقتباس كل مبدأ حق من القرآن العظيم فان هذين الاساسين يشير اليهما القرآن العظيم نفسه ليستخرجهما كل متبصر بفكره الذاتى لبناء أصل الفلسفة الربانية عليه وذلك في قول الله تعالى (أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والارض الا بالحق وأجل مسمى) فهذا أصل الفلسفة الربانيـة وهى تشير على كل مسلم أن يتفكر فى نفسه وبحرية فكره طبعاً لاستنتاج أمرين أحدهما : لم خلق الله العالم ولم كان خلق السموات والارض حقاً وليس باطلا . وثانيهما

لم يكون هذا الخلق لاجل محدود مسمى عند الله تعالى . ولو تمعنا لهذين النقطتين نجد في الحقيقة انهما أهم الاسئلة التى تهم الانسان بالذات دون غيرهما لان الانسان يمكنه أن يدير هذين السؤالين على ذاته لانه خلق كالسماء والارض بالضبط فيقول ماهو الغرض من وجودي وهل وجودى بقدرة الله تعالى أمر حق أم باطل . ثم ليقول ثانياً : هل أنا مخلوق لاجل معين ولمستقبل آخر؟ أو يقول من وجه آخر لم أموت وما هو الغرض الاساسى لهذه الحياة التى يتبعها الموت وهل توجد حياة أخرى مستقبلة ؟ — وبالطبع اذا عرف الانسان كل ذلك بنفسه وتفكره الذاتى كان على بصيرة من حقيقة وجوده العام فيتأكد من شخصه وليكون فى حياته على علم وبصيرة وأساس متين.

﴿ هل الخلق بالحق ؟ ﴾

ان اشارة الله تعالى فى القرآن العظيم الى معرفة الخلق بالحق يتعلق بالتفكر الذاتى للنفس كما قال تعالى «أولم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والارض الا بالحق واجل مسمى » دلالة على أمرين : أحدهما : ان حقيقة هذا التفكر لايختلف فى الناس أن تفكروا فيه باخلاص فلم يوضح الله تعالى لهم السبب لاستنتاجه بأنفسهم لان (الحقيقة لا تتعدد) والثانى ان هذا التفكر هو من الاسباب الاولية المعرفة حقيقة وجود الانسان الذاتى الذى لولاه لمضى حياته فى تخبط عظيم كمن بنى أساسه على شفا حفرة من الماء — حتى اذا فرض وعلمهما الانسان من الغير دون أن يتفكر بذاته وعرفهما معرفة سطحية بلا ميل ذاتى لاستخراج ذلك بالنفس لافائدة له من تلك المعرفة السطحية فهو عندها كمن يكتب على الماء — فالتفكر فى النفس أمر حتمى على كل حال لان ذلك أساس السعادة الذاتية — فليفتكر معى القارىء ان شاء لان ماسأبديه الآن هو ماأنتجه تفكرى الذاتى والحقيقة في ذاتها لاتتعدد — فأقول ان اعتراف الانسان بأن الله تعالى وحده الخالق للسموات والارض دون غيره تحتاج للتأمل فى السماء والارض تأملا صحيحاً ولا تتقيد بنقطة معلومة أو علم مخصوص. بل مطلق التأمل فى أى مخلوق ينتج هذه النتيجة البديهية — وما دامت هذه النتيجة تحصل عليها الانسان بفكره فليرتق فكره قليلا الى النظام الجميل والتركيب المتناهى فى الكمال الذى تشتمل عليه المخلوقات فان النظر الاجمالى الابتدائى فى المخلوقات هو الذى وصلنا الى وجود الخالق —

أما النظر التفصيلي فيلجئنا الى الاعتراف بنقطة ثانية وهي : في أي درجة من القدرة والعظمة والكمال هذا الخالق سبحانه كما سبق ونزيد على ذلك انه اذا كانت العلوم التي نستخرجها من التأمل التفصيلي في المخلوقات تدهشنا لجمالها ودقتها وكثرتها ثم في آن واحد نعجز عن الاحاطة علما بكل ماحولنا وظاهر امام أعيننا فمن البديهي المؤكد أن يكون الخالق سبحانه الذي أوجد تلك المخلوقات أحق بالكمال المطلق الذي يعجز العقل البشرى عن تكييف حقيقته فهو تعالى الواحد القادر وهو اذا في ذاته أعلم بذاته ويجب حتما انه لامفر لنا من الاعتراف له بالكمال المطلق . فهو اذا خلق السموات والارض لامر واحد حق وهو « كماله الذاتي المطلق » الذي يفوق العقول البشرية لانه اذا كانت الاحاطة علما بحقيقة المخلوقات التي خلقها ونراها بأعيننا ونعترف له تعالى بأنه الواجد لها حتما فوق العقول البشرية فمن الهبل وقلة الادب أن لا نعترف له تعالى بالكمال المطلق أو أن نتجادل في ذاته وهو الذي أمر وجوده حتما من أول البديهات الاولية التي يعترف بها شعورنا الذاتي

فاذا فرضنا انه تعالى لم يخلق شيأ ولن يخلق في المستقبل وكان كما هو في وجوده الاسمى فان الخلق وعدم الخلق المطلق لايؤدي به تعالى الى نقص أو زيادة في كماله المطلق لان من الكمال المطلق حرية الارادة في الخلق حرية مطلقة ثم مطلق الحرية أيضاً في بدء الخلق أو كيفيته ثم بقاؤه أو فناؤه — مع اننا نعترف بالبداهة ان الخلق من أول كمالات الالوهية وهو ما كان وهو المنزه تعالى أن يوجد في نتيجة . أراد خلقه حسب مشيئته التي لم يسبقها مشيئة أخرى وجه لاعتراض معترض مجادل للافضلية الظاهرة من الوجود عن العدم للمخلوقات لمكافحتها في البقاء وطلب الحياة بلا استثناء فالخلق أمر حق بسبب واحد فقط وهو ارادة الله المطلقة في وجوده بلا شرط غير كمال الله المطلق الذي نعجز عن طرق بابه عجزاً كلياً — فاذا كان كمال الله المطلق من أول اختصاصات الذات الالهية فان العجز المطلق بازائها هو من أول اختصاصات العقول الانسانية - والامر الوحيد الذي نعترف به من النتيجة التي نستخرجها من تجاربنا وتأملاتنا الذاتية الكثيرة هو لزوم الاكبار والتعظيم والاجلال باخلاص واحترام لهذا الخالق (سبحانه)

وهذا في الحقيقة هو الامر الوحيد اللائق لنا بازاء وجود الخالق سبحانه والحمد

الوحيد الفاصل بين الطرفين . ولرب قائل يقول ان وجود الخلق على ماهو عليه قد استدعاه اذا كمال الله المطلق لعلة تليق لكمال الله تعالى فى ذاته وان نتائج أبحاثنا العلمية والعقلية فى ذاتنا عن هذه العلة هو لزوم الاكبار والاجلال لله تعالى لاغير . ألم يك من الجائز أيضاً أن يكون الخلق ملازما لازليته تعالى لانه من كمالاته الخلق بل ويجب أن يكون الخلق ملازما له تعالى بلا انقطاع ؟ ... — فنقول لايخفى ان الكمال المطلق هو ان يكون المتصف به فريداً في كل ماينسب اليه — والله تعالى ليس بالشيء أو المادة الخاضعة لنواميس قهريه لان ذلك ينافى الالوهية والكمال المطلق — فتخيل وجود الخلق ملازما لازليته تعالى مما يكون منه مشاركة الخلق للخالق فى هذه الصفة الكمالية وهو ينافى كمال الله المطلق فى الانفراد بكل شيء وأن اس الكمالات الالهية الاسبقية فى الوجود — على ان من كماله المطلق أيضاً الارادة المطلقة . فبداء الخلق يجب أن يكون تحت مشيئة عندما يريد ذلك كما أراد وبما يشاء أيضاً فلاسلطان على ارادته — وهذا لايكون الا اذا كان الخلق حادثا في وقت ما أراد وجوده فيه بنفسه وبداء انشائه هو بارادته المطلقة بما يقتضيه كماله المطلق من كل وجوهه بلا علة نلتمسها نحن اليه فهو تعالى فى ذاته العلية أعلم بما فى ذاته الجليلة — فاذا فرض ملازمة المخلوق للخالق فى الازلية أنمحى تمييز الخالق من المخلوق لان الخالق بادىء بايجاد المخلوق والمخلوق مبدوء به فالاسبقية أمر حتمى للخالق سبحانه تدل عليه البداهة من الوجود وبذلك يكون هو السابق لكل شى وهو وحده المتصف بالازلية وما يتصل بهما من الكمال - والمخلوقات حتما حادثة فى وقت ما أراد الله تعالى فيه بمطلق ارادته فى ايجادها فكانت بقدرته وبعلمه كما شاء وأراد ولن تزال أمام البصائر خاضعة لسلطانه القاهر — وعلى ذلك فخلق الله تعالى حق لاباطل لان الله تعالى فى وجوده وألوهيته المطلقة من حيث تمام القدرة على عمل كل شىء حق وعدل كما قال تعالى أيضا فى الآية (ألم تر أن الله خلق السموات والارض بالحق ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) وهذا اشارة على تمام القدرة على كل شىء وعدم ذهاب الخلقة لا يكون الا بالحق وعلى ذلك فكل مايصدر عن ارادته حق ووجود الكون ونظامه مبنى على هذا الاساس المتين الذى لايمكننا التنحى عنه شعرة — ومن جهة أخرى اذا فرضنا ان الخلق باطل كان واجب العدم

الكلى بعد هذا الوجود الجميل الذى نراه ونلمسه بأيدينا فان ذلك ينافيه نفياً باتا قاطعاً أمر عام بديهى للكل وهو مجاهرة المخلوق للبقاء ومكافحة الموت الذى يشبه العدم وانشغال قواه الطبيعية الكلية لمقاومة هذه النقطة الوحيدة وهو الفناء بكل الوسائل وعلاوة على ذلك فان العلوم والتأملات العقلية تثبت استحالة أيلولة النفس والمادة الى العدم بعد الموت — ومن النادر جداً بين المخلوقات على اختلاف أنواعها من جماد ونبات وحيوان من يختار الموت الا من يكون اختيار الموت عنده لعلة يقصد بها السعادة الذاتية على نوع ما حسب حالته الوجودية وهذا الامر البديهى وحده يثبت مقدار كون ايجاد الله تعالى للخلق حق من كل وجه حسب الاسلحة التى تتدرع بها طلباً للحياة وما أكثرها فاذا كانت المخلوقات فى ذات وجودها البديهى حق لحرصها على البقاء والنمو فبالاولى علة بدء ايجاد الله تعالى لها أو خلقها أحق من هذا الوجود الذاتى الذى نعلم حقيقة لزومه من مقدار تلك المكافحة الشديدة التى تلازم كل حى فى الارض والسماء لاستنشاق التمتع بحياة البقاء وان النواميس الطبيعية أيضاً تثبت هذه المكافحة الذاتية فى كل موجود بكيفيات متنوعة لذلك كان خلق الله للعالم حق مطلق لا تعليل فيه غير اجلال الخالق سبحانه الذى أوجده

﴿ الخلق لاجل مسمى — ولماذا ؟ ﴾

تأيد مما سبق للبصير ان كمال الخالق (سبحانه) أمر لازب يستلزمه وجود هذا العالم ونظامه الهائل المدهش — كما ان المشاهد للحس ان الخالق واحد لا ثانى له يدل عليه انتظام العالم بأحكام لا تنازع فيه ولا مشاركة . اذاً فالله تعالى هو الاله الواحد الحق فى وجوده ومشيئته ونظامه لان الانسان يعجز أن يوجد شريكا له تعالى ويثبت له خلقاً أو عملا لم يوجده الله الخالق الحق من قبل وغاية ما يعمله الانسان ويستجد تحت نظره من الامور المستحدثة والاختراعات هو تنوع استخدام ما خلق الله تعالى وتقلبه بحسب المهارة والمواهب المخلوقة من قبل فى نفس الانسان من قبل الخالق (سبحانه) — وعلى ذلك فالله تعالى متسلط فوق الخلق عموما بلا استثناء بالالوهية المطلقة الحقة — وبالتناظر بين الخالق سبحانه والمخلوقات يجب أن تكون المخلوقات اذاً من جهة أخرى بلا استثناء فى وضع العبودية الحقة أيضاً للخالق سبحانه ولكن مخلوقا كالانسان عالى التمييز واسع التأمل يمكنه أن يثبت

تعليل هذا التناظر بفكره والرابطة التي يجب أن تكون بين العبد والمعبود سبحانه

(وكيف ذلك ؟)

اذا تقرر ان ألوهية الخالق سبحانه واحدة لاثانى لها وبازائها الخلق فى وضع العبودية فمن أول مفارقات الالوهية والعبودية أن يكون الاله تعالى تام القدرة في كل شيء بالنسبة للمختص بصفة العبودية — فاذا ضربنا مثلا لتقريب الفهم واظهار صفة هذا الفرق وشبهنا بلا تمثيل تقلب الانسان لاى جماد بسيط يقدر على تقلبه كيفما شاء كالقلم الذى يكتب به مثلا بقدرة الخالق سبحانه فى المخلوقات وتقلبه لها وامكانه التصرف بها كيفما شاء — فان كمال الله تعالى المطلق يتعالى أن تكون المخلوقات التى أوجدها بمطلق ارادته ومشيئته من حيث لم تكن أن تكون علاقتها به (تعالى) كعلاقة القلم بالانسان من حيث القدرة عليه اذ لا ارتباط بين القلم والانسان غير التسخير والمساعدة للنفس فى الكتابة أو عدم الفائدة الكلية ليكون القلم واجب العدم ولا يكون قلما ان كان وجوده مع الانسان لاجل لا شيء للطرفين — مما يخرج الانسان عن حالة الكمال المطلق لو أردنا أن ننسب له ذلك فرضا كما هو مختص ولازم للخلق (سبحانه)

واذاً يجب أن تكون نسبة المخلوقات لله تعالى في وضع نسبى أفضل من نسبة قدرة الانسان على القلم نسبة تليق لمن له الكمال المطلق الذى لا يمكن للعقل البشرى أن يتخيل النقص فيه فاذا قلبنا الطرف فى كل شيء وفرضنا فروضاً لا حد لها كالفرض السالف لم نجد نسبة تليق لمن له الكمال المطلق كهذه النسبة التى لا تليق مهما كان التنوع بل نجد كما ان الله تعالى واحد فى وجوده وكماله يجب أن تكون نسبة الخلق له تعالى نسبة خاصة أيضاً لا مثيل لها فاذا ترقينا درجات بالفكر وقلنا بفرض آخر نتوهم انه أفضل من الكل كنسبة الانسان للخالق (سبحانه) وكان فرضنا مبنيا على ان الانسان الذى هو أحسن المخلوقات والمنظور له عقل ولسان وحياه وان الله تعالى يحرك بقدرته لسانه وقلبه لذاته العلية بالاعتراف له بالالوهية ولنفس الانسان بالاعتراف عن ذاته وغيره بمطلق العبودية — فان قدرة الله تعالى فى مثل هذا التحريك الجبرى لمطلق التسلط والقدرة لا يثبت كمال الخلقة الانسانية

المشاهد وفى ان واحد لا يثبت حقيقية العبودية المذكورة وكمال ألوهية الله تعالى المطلقة لان المضطر والقاهر لمطلق القدرة لا يظهر ان حقيقة خالصة حره لا تقبل التعليل واذا فهذا الغرض باطل أيضاً علاوة على ان المشاهد للحس بخلافه

وبما ان كمال الله تعالى وألوهيته المطلقة حق خالص لا تعليل فيهما كما هو الواجب اللائق فيجب أن تكون النسبة بين الخالق سبحانه والمخلوقات (الحرية المطلقة) للمخلوق ليعترف للخالق سبحانه بالالوهية المطلقة ولنفسه بالعبودية بما يراه ويتأمله بحرية وباخلاص فى نفسه والمخلوقات فان ذلك الانسب والاليق للطرفين

واذا لا بد من وجود حكم مستقل فى النفس يبين لها حقاً كيف هى ليست مضطرة فى الاعتراف المذكور وانه يمكنها عمله أو عمل ضده فى آن واحد وفى أى وقت تشاء أو كيف هى على حق أو باطل اذا اعترفت أو لم تعترف وهذا الحكم يجب أن يلازم النفس ولا يفارقها مطلقاً وان يكون من دأبه اظهار حقيقة كل شىء تطرق النفس بابه وان لا يخطأ كلية في شيء – بل يسير ويتأمل بنظام موافق لفطرة العالم الخلقيه والحقيقة الكلية بالنسبة لذاته وللخالق سبحانه تأملا يظهر الحقيقة من كل وجوهها

(وما هو هذا الحكم الحق)

« وهل هو موجود فى النفس ؟ ومن أوجده ؟ »

أما هذا الحكم فهو (العقل) وهو مما أوضحناه سالفا بصفته حكما بين الخالق والمخلوق يعتبر كانه شيء آخر خلاف الانسان وظيفته الوحيدة أن يكون كمرآة حق للانسان يظهر لها كل حقيقة كلية لا شبهة فيها

ومن جهة أخرى اذا تأكدنا ان الخالق لكل شىء هو الله تعالى فالعقل هذا اذا مخلوق آخر خلاف الانسان وضعه الخالق سبحانه فى الانسان ليقوم بهذه الوظيفة العالية ومتى تأملنا فى نفس العقل وأحكام تحقيقاته فى النفس والعالم تندهش أكثر بل نلتزم بوجوب كمال الخالق المانح لمثل هذه العطيه العجيبة ونعلم ان هـذا العقل لم يوضع الا (كأمانة) من الله تعالى مع النفس كما سماه الله تعالى فى القرآن العظيم باسم (الامانه) ليظهر لها كيف هى على حالة الكمال الخلقى أولا ثم وجوب كمال الخالق المطلق ثانياً ثم التثبت والتأكد

ثالثاً من أول شيء منحه من الخالق للمخلوق حق مطلق الا وهو : حرية المخلوق الذاتية والتى بسببها استوجب أن يمنح هذا العقل العظيم

وما دامت هذه الحرية لعلة وحيدة هى الاعتراف الحق للخالق سبحانه بالالوهية الحقه والعبودية لنفس المخلوق فليس بعيداً أن يتواجد فى الناس والخلق من يعترف بالالوهية للخالق سبحانه ويتواجد منهم من لايعترف بها كما هو شرط الحرية أويتواجد من يعترف بالالوهية ثم يسحب هذا الاعتراف ثانياً ويجحد أو يتواجد من لايعترف بها أولا ثم يثبتها أخيراً كما هو المشاهد فى الناس بمثل هذا التنوع الكثير والذى به تنوعت الديانات والاعتقادات وتغير الاديان

ولكن الله تعالى من جهة أخرى جعل فى الجميع نفسا واحدة وعقلا واحداً يناسب وضع كل خلقه وطريق الاعتراف للجميع واحد غيران الخلق من أنفسهم قد اختلفوا وادعوا بسبب حريتهم المذكورة

اذا تقرر هذا وكانت أنفس بنى الانسان واحدة (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) والعقل الممنوح للجميع واحد (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا) ويتواجد من يعترف بالالوهية للخالق سبحانه ويتواجد فى الناس من لا يعترف بها فيجب الفصل اذاً بين الطرفين وايضاح الاسباب التى دعت لهذا التفريق والتضاد فى أمر جوهرى هو كل الحق الواجب للجميع باعتراف العقل وهل هى أسباب حقه لكليهما أو اختارها البعض لنفسه هزؤاً وسخرية ممن لايعترفون بالحقيقة

ولذا جعل الله تعالى هذه الحياة وحدها لهذا الاعتراف وحده وجعل حياة أخرى (الآخره) ليظهر للناس ما اختلفوا فيه فى هذا الغرض الوحيد وليحاسبهم بحق كيف استعملوا عقولهم ومواهب خلقهم فيما خلقهم لاجله — ولرب سائل يقول : لم يكون التفريق والتأبد في نفس هذه الحياة نفسها وان لالزوم للخلق الجديد والموت والتغير المقبل؟ فنقول : بداهة ان الله تعالى هو الذى خلق الخلق فى باديء الامر بلاواسطة أحد وهو الذى يحفظه قدرته الآن ويحفظ نظامه فليس من الصعب عليه تعالى أن يعيده بعد فنائه فان ذلك بالبداهة يضاً أسهل من وجوده أولا حيث لم يكن مع عدم عناء الله تعالى في شيء عند الخلق الاول

وبخلاف ماتقدم فمن العدل أن يكون وسط الاختبار للحصول على هذا الاعتراف أوعدمه من الخلق واحد وان تعلن فيه النتجة التي سيؤول اليها كلا من الطرفين فى الحياة الاخرى بصفة انذار اوتبشير (حتى لايكون للناس على الله حجة بعد الرسل) كما هى وظيفة الرسل والانبياء الكرام عليهم السلام فى هذه الحياة وليختار كل انسان ماشاء ويعمل ماشاء ليوضع في الحياة المقبلة في المركز الذى اختار لنفسه السير عليه فى هذه الحياة (ومن كان فى هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى) وذلك أولى وأحسن لحسن نظام الخالق ومطلق القدرة وليكون الموت وحده اعلانا للمخلوق بمطلق عجزه الذاتى الدال على مطلق عبوديته ان جحد اثناء حريته فى حياته الوهية الخالق الحقه

فاذا فرض وجعل نظام التفريق فى نفس هذه الحياة فبالطبع سيأتى وقت تنتهى المخلوقات جميعا بدورها في الاعتراف وعدمه فالاولى والاحق ان يكون كل وسط قائم بذاته على نفس هذا الترتيب الحالى الذى نراه باعيننا من قيام الامم وفنائها ادوارا متعاقبه وليكون هذا التعاقب أشفق على الانفس من اتخاذها أحسن الطرق التى توصلها للحقيقة بعد ان تدرس نتائج من فات عليها من الامم فهو نظام اليق لمن له الكمال ومطلق الرحمة (وهو أرحم الرحمين)

ولذلك اذا قيل ماسبب الموت والفناء فالجواب لسحب حرية الاراده من المخلوق وليوضع كل في الحياة المقبله في المركز الذى اختار بحريته السير عليه في هذه الحياة

وبالتأمل نجد أن الانسان ليس هو المخلوق الوحيد فى العالم بل نجد هذه السموات التى نعجز عن تحديدها والارض الواسعة وما عليها فيجب ان تكون كل المخلوقات فى السماء والارض بلا استثناء على مثل هذا النظام ونفس الغرض – وهو أمر حق يوضحه القرآن العظيم أحسن ايضاح سنكشفه للمطالع في القريب العاجل حتى بذلك قال جل شأنه : أولم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والارض الا بالحق وأجل مسمى – فالخلق بالحق لكمال الله (تعالى) المطلق وألوهيته الحقه – والخلق (الشامل للسموات والارض وما بينهما) لاجل مسمى بسبب منحه من الخالق سبحانه الحرية المطلقة وما يلزم لها زمنا ما في هذه الحياة لغرض حق واحد هو الاعتراف بها عن نفسه بالعبودية وللخالق (سبحانه)

بوحدة الالوهية (لااله الا الله) وان الله تعالى قرر على نفسه عدم مساس هذه الحرية المذكورة فى هذا الزمن المحدد لهذا الاعتراف الحق بمطاقة الحرية المذكورة حتى قال تعالى اثباتا لهذا فى مواضع متعددة فى القرآن العظيم: «ولولا كلمة سبقت من ربك» أى لاتسحب ولا تتغير لانها حق وهى: عدم مساس حرية من يعترف بألوهيته تعالى أو يجحدها أو يكذبها فى هذه الحياة لانها وقت تجربة فقط محدود بل لابد من ترك كل يفعل مايشاء وسيوضح الحق من الباطل ويتميز في حياة أخرى غير هذه تقدر خلقها بعد فناء هذا العالم «لقضى بينهم» أي في هذه الحياة ولكن لامقاضاة «فيما كانوا فيه يختلفون» من الاعتقادات والاعمال المختلفة وبذلك كان الخلق لاجل مسمى حتما ليفنى ويتكون بدله عالما جديداً للفصل فى هذا الغرض الاساسى لوجود العالم

(بعض صفات الروح)

قلنا بسبب حرية الارادة فى الانسان منح الله العقل للانسان ولما كان هذا العقل من الامور الهامه التى بحث فيها كثير من أفاضل بنى الانسان ولم يزالوا في اختلاف بالنسبة لحقيقته وكيفية اتصاله وعلاقتـه بالنفس الانسانيه رأينا أن نخط بعضا من ملحوظاتنا الخاصة أولا عن الروح لانها مرتبطة بالعقل وهى بذاتها أيضا من الامور الاكثر ابهاما عن علم الانسان وتلك الملحوظات هى من تأملاتنا الخاصة فى النفس ومن اشاراة القرآن العظيم ثم نوضح هـذا العـقل ومركزه بعد ذلك بقدر مايصل اليه تأملنا فى المخلوقات والتجارب العلمية الصحيحة

ولقد أغمض كثير من علماء الاسـلام عن الاشارة اليها مع انها كل الصيد فى جوف الفراء وجعلوا قول الله تعالى: «ويسئلونك عن الروح. قل الروح من أمر ربى وما اوتيتم من العلم الا قليلا» من ضمن الاسباب التى ارتكنوا عليها فى تثبيط الهمم فى عدم التفكر يوما فى ذلك الجوهر الحى الخفى.

على أن قول الله تعالى ذلك لم يك لهذا التثبيط من الهمم. بل لان الله تعالى اذا ذكرها بالتفصيل الخاص فتح أبواب العلاقات المختلفة بها أيضاً مما لاحـد لنهايته بسبب ارتباط المخلوقات ببعضها — فترك التعبير عنها لـكثرة العلم. فكلما كثر علم الانسان بخلق الله

تعالى كان أقرب الى ادراك حقيقة الروح . وان قول الله تعالى (مافرطنا في الكتاب من شيء) اشارة الى ان كل علم الله تعالى فى الخلق محصور فى الكتاب فكثرة العلم الانسانى اذا متوقف على الاجتهاد الذاتى للانسان ليقتبس من كلام الله تعالى وبما يعلمه من المخلوقات مايوصله الى العلم بأى شيء يريده

على ان قول الله تعالى (وكل شيء فصلناه تفصيلا) من الامور التى تضرب على أيدى أولئك اليائسين فى معرفة الروح ليتأملوا جيداً فى كتاب الله تعالى وسنة الخلق والعلوم المتنوعة ليعرفوا تفصيل الروح فان حقيقة العلم بها تفصيلا موجود فى القرآن العظيم غير ان ذلك متوقف على الاجتهاد الذاتى لمن يريد البحث فى هذا الموضوع بصفة خصوصية . وأن قول الله تعالى انها من أمر الله تعالى واعقابه ذلك بقوله تعالى «وما أوتيتم من العلم الا قليلا» لم يك لقصد عدم ايضاحها أو الضرب عن ذكرها — كلا — بل لان العلم بحقيقتها يحتاج لطرق علوم كثيرة يعجز الانسان عن حصرها وان قول الله تعالى انها من أمر الله تعالى اشارة لاجمال هذه العلوم بأقرب لفظ يوصل الانسان الى الحقيقة الاساسية . وهذا لايمنع تفصيل هذه العلوم تفصيلا كلياً وجزئياً في القرآن العظيم يتوصل لها الانسان اذاً باجتهاده الذاتى فما عليه الا طرق أبوابه وقد جعل الله تعالى للانسان دليلا صادقاً لكل أمر يريد معرفة حقائقه كلياً وجزئياً من قوله تعالى (وكل شيء فصلناه تفصيلا) ليتأكد أن تفصيل العلم بحقيقة الروح مفصلا فى القرآن العظيم تفصيلا واضحا وانها لم تخرج عن حصر الله تعالى لهذا التفصيل الذى عم كل شيء فى الارض والسماء مهما كان . وقد ذكرنا آراءنا الآتية عن الروح بقدر ماوصل اليه اجتهادنا وعلمنا من التأمل في النفس والعالم والكتاب ولاتكلف نفس الا وسعها .

فالظاهر بالبداهة ان الانسان يتركب من شيئين متضادين أحدهما الحياه وهى الروح والثانى جماد وهو المادة وكل له صفات خاصة تقوم به

فاذا اقتبسنا من كلام الله تعالى بعضاً من صفات الروح وطبقناه على مانراه من تأملاتنا الخاصة العقلية نجده من الحقيقة بمكان عظيم حيث قال الله تعالى عن النفس أو الروح الانسانية: « ونفس وما سواها فألهمها فجورها» وتقواها فمنه نقول ان طبيعة الروح الفطريه هى التمييز

العزيزى بما يضرها وينفعها أو الفصل بين الطيب والخبيث لذاتها بواسطة ثلاثة أمور الاول القوة المميزة لها وهى العقل والثانى الحواس والثالث الالهام فاذا لامستها نار عرفت منها الضرر فى الحال وهذا التميز لم يوضحه لها العقل بل ذات جوهرها الغريزي يميز بأن هذا الملامس من النار مضر لها وان أكثر أعمال الحياة يجد الانسان من نفسه الهامات غريزية توضح له الحق من الباطل قبل وقوعه وان كان العقل لا يكشف أسبابه العلمية

فمثلا كثير من الناس يعافون الطعام اذا وقع الذباب فيه وتشمئز منه نفوسهم وان سألتهم عن السبب أجابوك بأن هذه غريزيه النفس فيهم ولا يعلمون لها سبباً عقلياً فهذا الشعور الطبيعى كله حقيقة لان العلوم الطبية أثبتت سوء تأثير العدوى بكل الامراض المهلكة من هذا الذباب الذى يعتبر عدواً لدوداً لذلك كان الهام النفس من الامور الحقه التى لا يجب الاستخفاف بها وبعض من الناس يسير فى طريق مقطوع مثلا مع آخر فيشعر ويلهم من نفسه وقوع الاذى من الغير فان لم يتبصر فى الهامه هذا الذي وجده فى نفسه من غير مناسبة عقليه أو علميه واستخف به فليس بعيداً أن يقع فى هذا الاذى ثم يحكى لغيره بأن هذا الضرر الذى أصابه كان يلهم ويشعر به قبل وقوعه غير انه استخف به فوقع فيه وهذه أمور لا تنكر من كل نفس وشواهدها متعددة ممكن لكل نفس أن تضرب لذاتها من تجاربها الامثال فالروح فى ذات جوهرها الخلقى وطبيعته أشبه بالقرازة التى تفرز الطيب من الخبيث من غير أن تعرف هى أسباب هذا التميز خلاف كون جوهرها خلق فيه هذه الخاصية من الحواس التى تعتبر لها غريزيه بقطع النظر عن العقل المتصل بها والالهام

ولما كان كل مخلوق له واسطة يتصل بها بغيره بقصد الحياة أو المكافحة الحيوانية فالروح بها جزء مميز معلوم يقوم بهذه الخدمه لباقى أجزاء الروح التى تعتبر فى ذاتها جوهر واحد أبدى فى الحياة لا يتجزأ وهو الجزء العلوى منها فهو من أفضل أجزائها نظراً لوظيفته لانه الواسطة فى حياتها ومقاصدها المختلفة ومركزه فى الانسان مؤخر الرأس فوق العنق وهو مايسمى فى الطب بالنخاع المستطيل أو هو المسمى شجرة الحياة أيضاً لنفس هذا الغرض والاهمية أو هو مركز العقل لانه أيضاً مركز شعورها والهامها بل واحساسها العام بينها وبين غيرها وان كان المركز العام للحياة هو القلب ولايضاح أهمية هذا الجزء

من الروح الانسانية نجد أن . — . من تأمل لجميع المخلوقات علم بسنة التشابه وهو ان المخلوق بكليته لا يتعرض للمكافحة والصدام فى الحياة بل جعل الله فى كل نفس واسطة فعالة لتكون بها الصلة بين مركز المخلوق العام وعمل ما يقوم بحفظ الحياة فيه والعرض منها حتى ينتهى دور وجوده . — . فاذا تأملنا للشجر مثلا وجدنا ان الجزور هى الواسطة فى حياة الشجرة كلها بحيث اذا أعدمنا جزءاً من الجذور لا تنعدم الشجرة بأكملها ويمكنها أن تخرج غيرهم من أصلها الثابت وهو الجزع . وفى آن واحد لا يمكننا أن ننكر ان الجذور هى السبب في حياة الشجرة واذا تخيلنا اعدام الجذور كلها وأوقفنا وظائفها فاننا بذلك فى الحقيقة نعدم الشجرة بأكملها فكان حياة الشجرة متوقف على جذورها كما ان الجذور لا توجد ولا تتولد الا حيث يوجد الجزع . وبذلك كانت أهمية ارتباط الجذور بالجزع ارتباطا متلازما لا ينفك مطلقا . واننا لا يمكننا التنازل أيضا عن الاعتراف بان الجزع هو الاصل العام لحياة الشجرة بحيث يكون كل ماهو دونه جزء منه واهمية الجزء تقل أو تكثر تبعا لوظيفته التى تقوم بحياة الجزع نفسه الذى هو فيه كل حياة الشجرة . وهذا الحال تنطبق تماما على الجيوش وتحركاتها المختلفة ووظيفة الكشافين ومركزها العام وامداداتها وغير ذلك وبمثل ذلك روح الانسان أيضا فان مركز الروح العام هو القلب كالجزع وكلها مرتبطة ببعضها من مركزه وان شكل الروح العام هو الشكل الذى نراه فى جسمنا المادي لان الجسم ليس الا من عمل الروح الفعال الدائم وهو ليس الا كلباس للروح وهو يشكلها بالضبط فى كل اجزائه .

والروح ليست فى جزء مخصوص بل هى عامة فى جوهرها أشبه بالجسم الانسانى تماما فى تركيبه فاذا قطعنا يد الانسان مثلا والقيناها على الارض فان جزء الروح الذى على شكل هذه اليد لا يقطع . بل تنكمش فى ذاتها وما يقطع هو المادة وحدها فقط دون غيرها بحيث اذا امكننا لحمها فى الحال بعد القطع وامكننا ارجاعها لوضعها الاصلى لا يلبث جزء الروح الذى انكمش انه يؤول اليها بالضبط لانه لا يمتد الا فى وسط يليق له حسب الفطرة التى خلقه الله عليها . واليد المقطوعة مكونة بالروح حسب فطرتها وشكلها فاذا فرضنا ولحمنا الزراع في يد من الخشب مثلا لا تمتد اليه الروح مطلقا لانه لا يوافق فطرتها أيضا . —

كما ان جذور الشجرة لاتغوص فى الحديد لانه صلب لايوافق الفطرة التى فى قوة روح الشجرة وهكذا . — . فكما ان مركز روح الانسان العام هو القلب وهى اشبه بجزع الشجرة من حيث كونه مركز حياتها العمومى الاصلى فان الجزء العلوى فى الراس وهو النخاع المستطيل الذى هو مركز المجموع العصبى ومركز الادراك والفهم والعلم وغير ذلك لم يك لعموم الروح الا كالجزور من الشجرة فبالجذر تحيا الشجرة .وبالنخاع المستطيل تحيا الروح . والجذور تعتبر أساسا لحياة الشجرة وان كانت الجذور في الحقيقة جزء منها كما ان النخاع جزء من الروح العام مع انه هو اساس حياتها الكلية أيضا

ومن تفرس جيدا فى الانسان والنبات على هذا التناسب الذى ذكرناه وجد ان الانسان هو عكس النبات فى الخلقه تماماً . فالنبات ثابت فى الارض والانسان بالعكس يحيا فوق الارض متحركا كيفما شاء والنبات يمتص الاغذية وما به حياته من أسفله بواسطة الجذور والانسان بالعكس يبحث بجذور روحه وهو النخاع المستطيل الذى فيه مركز العقل عما يسد مطالبه فى الحياة لتدوم به حياته ثم النبات يخرج ثمره من جزئه العلوى جدا والانسان بالعكس تخرج ذريته من جزئه السفلى جدا ولا عبرة بالافخاذ فانها للجسم كالاغصان والافاسفل الانسان هو آخر السلسلة الفقريه وهكذا فسبحان الخلاق القادر العظيم فعلى ماتقدم يكون الجزء العلوى من الروح وهو النخاع المستطيل المذكور وعلاقته فى الخارج ومع القلب كعلاقة الجذور من الشجرة الى الساق فالاثنان مرتبطان ببعضهما ارتباطا لايمكن انفصامه مطلقا والروح فى ذات جوهرها لاتنقسم لان كل انسان يشعر بالابدية الروحية وان تأكد من حصول الموت وانما اذا قطعنا بعضا من اجزاء الجسم لاتؤثر على نظام الروح الحيوى كالاذرع والافخاذ فلا تتجزء تبعا لذلك الروح بل تنكمش فى ذاتها والاذرع والافخاذ المقطوعة بؤلان الى التحليل والفناء لعدم وجود روح فيهما واذاً فمن خواص الروح اذا لم تجد وسطا يلائمها ان تنكمش فى ذاتها حتى تصير كنقطة صغيرة جدا مع دوام الحياة فيها والقدرة على العمل وهى تنبسط فى الوسط الملائم لها وتنفرد بقوة الحياة الغريزية فيها وتعمل فى المادة التى تلائمها لتكتسب شكلها الاصلى فالرجل الحى اذا تعرض للموت بسبب عدم ملائمة الوسط الذى فيه فان اجزاء روحه تجتمع فى نقطه واحدة

فى اعلا جزء من النخاع المستطيل ثم ترتفع الى السماء بطائرها الى حيث يريد الله تعالى كما سنوضحه كما ان الروح عند ما يرسلها الله تعالى من السماء في روح يريد اخراجها منها بصفة التناسل فانها تجتمع كنقطة واحدة تنزل بالجماع فى الوسط الملائم لها فتتمدد فيه وتشكله بشكلها لتأخذ شكلها الاصلى الذى خلقه الله عليها وذلك مدة الحمل وبعد الولادة تستمر على الحياة لتبتدأ بعدها مباشرة لان تعمل باستقلال بامانة الله التى معها لتتم الغرض العام من الخلقة فالحياة نفسها قائمة فى جوهر الروح والوسط الملائم لحياتها من المواد المختلفة لم يك تنوع شكله الامن عمل الروح نفسها وان وظيفة الحس المختلفة ليست قائمة فى المادة من حيث اختلافها واشكالها بل قائمة فى نفس الروح وان اختلاف العضلات واجزاء الجسم المختلفة كالعصب وغير ذلك ليس الارمزا للصفات المختلفة القائمة فى ذات جوهر الروح وان تلك المواد هى من عمل الروح الحيوى الملازم لجوهرها وهى لاتقف ولا تضعف أبدا وان تعطلت ببعض العوارض وكل صفاتها مرتبطة ببعضها ارتباطاً لاينفك الى الابد

فاذا فقد الجزء المادى من الجسم لايفقد جزء الروح المذكور بفقده فهو لها كبيت اوكلباس أو أشبه تقريبا بالسكين فى اليد التى تقطع فان اعدام السكين لايعدم قوة اليد وفقط يعطل عملها عن القطع واذا عادت السكين لليد لاتتأخر عن تأدية وظيفتها الماضية فالمادة لاتأثير لها الامن حيث الصفة التكميلية فقط لتأدية العمل بحيث اذا نزع فقدت الروح ادوات عملها الملازم لجوهرها ولكن لاتفقد خاصيتها فى تكوين غيره وترجع الى ماكانت عليه لو اعيد اذا أمكن لاصل وضعه . — ولكن ليس العكس اي اذا نزعت الروح من الجسم لاوجود لاحساس ولا لتعقل ولا لحركة مطلقا مع وجود نفس المادة بتمامها فى الجسم بلا نقصان شيء منها . لان صفة تكوينها واحساسها وعملها المختلف كان قائما بذات جوهر الروح الفعال الدائم المنتشر فى كل الجسم بشكله وليس فى تلك الاعضاء المادية التى لاتمكث طويلاً جامدة بعد نزوع الروح حتى تؤول الى رماد كاصلها وحينئذ فقوة الروح نفسها ليست فى مادة النخاع ولا في غيره من المواد بل فى جوهرها الذاتى الذى خلقه الله عليها المرموز للدلالة على صفاته بتنوع تلك الصفات الجسمانية المختلفة مع وظائفها المتنوعة مدة الحياة فما الجسم للروح الا كلباس ليظهر صفاتها واشكالها واعمالها

المختلفة ولتتم به الغرض الاصلى من وجودها بل ولتتم به وظائفها القائمة في ذاتها وملازمة لجوهرها ووجودها الابدي الدائم .

ويمكننا الاستدلال على ان جوهر الروح لايتغير قول الله تعالى : واذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم (أى وهم أرواح مجردون قبل ان يتشكلوا مع المادة فى فى الارحام) وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا (ان تقولوا) أى بعد ان تتشكلوا فى الارحام وتولدون وتمنحون العقل والحرية فى الدنيا لمثل هذا الاعتراف فتنكرونه وتجحدونه بسبب حريتكم وتقولوا عند الحساب (يوم القيامة ان كنا عن هذا غافلين) أى في الحياة الدنيا — وان تذكير الروح وسؤالها فى الحياة المقبلة عما فات عليها وهى فى حالة التجريد من الجسمانية قبل الولادة وبما مر عليها فى هذه الحياة أيضا كما فى الآية السالفه يثبت أولا — عدم تغير جوهر الروح وخاصته الطبعية التى خلقه الله عليها ثانيا تثبت انه من ضمن صفات الروح ان ينطبع فى جوهرها كل مايرد عليها من المؤثرات مهما كانت حتى بذلك ترى وتعلم فى الحياة المقبلة مامر عليها فى حالتها الفطرية الاولى وحالتها التكميلية فى هذه الحياة الدنيا ايضا مهما تنوعت تلك المؤثرات فكما ان الروح من صفاتها الملازمة لجوهرها ابدية لاتتغير مطلقا فان من صفات جوهرها حفظ كل مايمسه حفظا أبديالايزول منه مطلقا ايضا فهى كمخزن لاحد له كما انها حياة لاحد لها وان أثر اللذه والعلم والالم فى جوهرها أشبه تقريبا بتأثير التيار الكهربائى فى اسطوانة الجمع من الفوتوجراف تماما بل هى أشد بكثير من غير نسبة تقريبا للطافة جوهرها ووجه الشبه هو لتقريب الفهم فقط والا فكل مايمسها يطبع فى جوهرها ولا يزول مطلقا وهذا من الغرابه فى صفة جوهرها فاذا تحركت يد الانسان بشىء فان تلك الحركة تتأبد فى الروح ويصير لها أثرا فى عمومها وفى مركز الروح العام وهو القلب ولاتزول منه مطلقا . ولكن أول أثر فى الروح يكون فى الرأس فى جزء الروح العلوى المشابه لجذر الشجرة بالنسبة لتعرضه أولا لاقل شىء يتعلق بحياة الشجرة وهو النخاع المستطيل السالف

فاذا شرب انسان شربه ماء فان أثر هذا النعيم يؤثر أولا فى الجزء العلوى المذكور ثم فى مجموع الروح الدال عليه القلب — ويمثل ذلك شهوة الجماع فهى بالصفة المذكورة .

فقلب الانسان لايتأبد فيـه شيء الا فى هذا الجزء وشعوره بالنسبة للقلب يكاد ان يكون تأثير جوهره مع القلب كانهـما فى نقطة واحدة . فاذ تأثر قدم الانسان بشيء فالى هـذه النقطة العليا يصل . واذا تعلم الانسان علماً ففى هذه النقطة ينطبع ولو ان ذات الاثر فى القلب واذا سمع أونظر الانسان شيئاً فاليـه يجتمع وهكذا وكفانا تشبيها لان نقول أنه للروح كالجذور للشجرة فلا شيء يؤول للشجرة الا من تلك الجذور المذكورة وهذامن الغرابة على قدرة الخالق فى خلق الروح بمكان عظيم

واذا أردنا ان نشبه وظيفه القلب مع النخاع المستطيل الذى هو رأس القوة العصبيه في حالة ماير يدالقلب بنفسه و باستقلاله الذاتى أى شيء من الخارج بمساعدة الميزان أوالعقل التى هى كدليل حق تحت مشيئته فلنتصور اننا نقبض بيـدنا على عصاة طويلة من أحد طرفيهاونحركها بيدنا مثلا يمينا وشمالا ولا تظهر فى العصاة غير طرفها الاخـير فقط فان الناظر لطرف العصاة يتخيل له انها تتحرك وحدها فقط . ولكن الحقيقة ان اليد هى التى تحركها وان حركة طرفها الاخير المقابل لقبضه اليد أشبه تماماً بالجزء العـلوى من النخاع المستطيل فى الجزء المسمى شجرة الحياة فى الطب -- . ولكن الجزء المـذكور مع القلب ليس منفصلا عن جوهره كما تنفصل اليد من العصاة بل الجميع جوهر واحد متصل انما الغرض من هذا المثل هو الارتباط الكلى ببعضهما حتى نقول ان مافى القلب هوفى العقل (لان هذا الجزء مركز العقل كما سنوضحه) ومافى العقل هو فى القلب غير ان العقل جزء من كل مع زوال منفعة الكل اذا أعدم هـذا الجزء وذلك لانه تقريبا كجذوز الشجرة بالنسبة للساق فى كونه جزء منها وهو عليه حياة الكل بواسطة (الساق وهو مازال جزءاً من الكل وان كل الصفات الانسانية التى نراها فى الاعمال الانسانية والعـلوم المختلفة لم تك الامكتسبة للروح بواسطة شيء زاد عليها فى هذه الحياة وهى الامانة . أوالعقل

(الامانة أو العقل)

الامانة هى مانسميه بالعقل ولكن لفظ الامانة اكثر استدلالا للرمز على حقيقة وظيفتها والغرض من وجودها ولذاكان اسم العقل فى القرآن العظيم الامانه أوالبصـيرة أو الميزان أوالنور وهى فى الطب مجموع وظائف الرأس أوهو المخ مرتبطا مع الروح

وتلك الامانة هى كما سبق المنحة الالهيه الوحيدة التى بها تم دور الخلقة الانسانية وغيرها فى هذه الحياة وقلنا لسبب وجودها في المخلوق كان مستقلا فى ذاته بتمام الاستقلال وكأن الله تعالى بعد ان يمنح المخلوقات تلك الامانة ليضعهم في هذه الحرية الجميلة يقول للجميع اعملو ماشئتم انى بما تعملون عليم

فالامانة أو العقل هى سر الانسان المجهول فهو ينظر كل شيء نظرات مستحكمة نقاده وهو كالنور كما سماه الخالق فى القرآن العظيم يبصر كل شيء ولا يزول مادام الانسان حياً هذا السر هو الذى به تعلم به ماتشاء جهد استطاعتك واجتهادك فى غدوك ورواحك . فان همت نفسك لزيادة العلم به ذادك ما تشاء واذا أخمدت نفسك فى الخمول وقف تحت مشيئتك عند الطلب — وكأنه خادم بث العلم فى ذاتك بما تشاء اوهو عبد ارشادك الى الحق في أى شيء تريد وفى أى موضوع فى العالم ترغب — . انظر أيها الانسان الى رجلين توأمين من بطن واحدة أحدهما كدوجد وتعلم وتلقن العلوم بكد واجتهاد والى آخر وقد ركن بنفسه الى السكون وعدم التفكر والتعليم تجد فى الاول نفسا حية وضاءة وانسانا كاملا ومن الثانى مستودعا للتحليلات العضوية لاتفرقه عن كبش القطعان يأكل ويمرح حيث لايدرى من العالم شيئاً جديداً فما الفرق بينهما وقد تشكلت صورة الاول كالثانى وروح الثانى من الاول فى نزولهما من بطن امهما وهما شخصان كواحد متساويان لا يتميزان. — . فما هذه الميزة التى انتجها العلم وما هو السبب فى تحصيله أشيء زاد على الاول ناقصا من الثانى ؟... كلا !! ام كان يعجز الثانى عن ادراك الاول فيما لو استعمل وسائطه السابقة !! كلا ... فما هى اذا تلك الصفة الانسانية التى تقف نورا خادما تحت الطلب تتلألأ فى رأس كل منهما وتشبع الروح بنورها متى نهضت الروح بنفسها وتتبعت حقائق دلائلها فى كل ماتريد حتى كان بذلك الفرق بين من تعلم ومن لم يتعلم ؟!! أقول لك ان ذلك من الامانه !!! وباستعمال تلك الامانه واتباعها هو الذى ميز الاول على الثانى على ممر الزمن . والفرق الظاهر بينهما دليل على انها هى كل أسرار الانسان . فالاول سعيد والثانى شقى والاول نور والثانى جهل والاول قوة والثانى ضعف وغير ذلك والسبب استعمال الاول للامانه واتباعها وترك الثانى لها فمعرفة الغرض منها معرفة الانسان من حيث كونه أفضل الخلق فهى نور الانسان

أوهى كل الانسانية ومفتاح كشف أسرار العالم بما وهب الله فى الانسان – . تلك هى الامانه !! أوهى ميزان الله الحق الذى وضعه على النفس بمالها وماعليها وما هو داخلها وخارجها . تلك هى الامانه أوهى ميزان الحقائق التى تحيط بالانسان فى السماء والارض . تلك هى الامانه . او هى نور الروح الهادية لها والداعية لخروجها من ظلامها الحالك الى نور الله الاعظم اذا أرادت النفس اتباعها بنفسها . تلك هى الامانة أو مجس العلم والهداية والحكمة للروح بل هى ميزان العدل لدلالتها الروح على طرق السعادة من الشقاء . فالقرآن العظيم يوضح لنا هذا السر الاعظم اتم ايضاح ويكشف لنا النقاب عن هذا السر المكتوم الانسانى الى الآن وكيف به كان الانسان وبغيره كان كالحيوان الابكم أو أضل سبيلا

فالامانه هى نور روحانى أرقى من الروح الانسانية جعله الله تعالى فوقها وجعله مرتبطا بها فى الجزء المسمى بالنخاع المستطيل الذى هو رأس الحياة الروحيه الانسانية

ونستدل عليها بمادة تغاير تركيب باقى جسم الانسان وان كانت منه غير انه من عمل هذا الجزء الروحانى الخاص وتلك المادة هى المخ – فرمز الامانة فى الانسان اذا هو المخ وارتباطه بالجسم هو ارتباط هذا الجزء الروحانى الخاص بالروح الانسانية ليقوما معا بالوظيفة الخاصة التى جعل الله نظام هذه الحياة الدنيا عليها وهى التى توصل للروح كل شيء وتميز لها كل شيء تميزا علميا فقط وارتباطها بالنخاع المستطيل اشبه بمرآة عاكسة تأتى اليها بالمناظر والمسامع المختلفة وغيرهما فتميزه تلك الميزان او الامانة وتعرفه تعريفا حقا دون ان تبدى قوة الضغط على الروح للعمل بمقتضاه فهى كرسول فقط وعندما ينعكس في الروح أوفى النخاع أو فى القلب حيث الجميع واحد كما تقدم فى الروح ينطبع فيه ابديا ولا يزول مطلقا كما تقدم والقلب أو الروح نفسها من ذلك تعرف ان هذا شر وهذا خير وهذا نافع وهذا مضر والروح نفسها من طبيعة جوهرها قوة العمل والترك ايضا باختيارها المطلق الذى هو اساس الغرض من منح الله لها تلك الامانة فتوزع نتيجته بقوتها العزيزية الثابتة الفعالة لتعمل فيه ماتشاء أولا تعمل مع كونه يطبع فى جوهرها ولا يزول منها الى الابد فعلت أولم تفعل – كما ان عملها شيئا ما من نفسها ولو حركة بسيطة فانها تنعكس وتظهر فى الميزان فتكون الروح فى كل أعمالها الذاتية أشبه بمرآة عاكسة أيضا وعندما تنعكس فى الميزان يرجعها الميزان للروح

بالثانى معكوسة لينطبع في الروح لاجل ان تعرفه بالحق من الميزان المذكور واننا اذا تصورنا رفع الميزان منها وفعلت الروح مهما فعلت فانها لا تعرف له حكما فى ذاتها مطلقا ولا ينطبع فيها فالامانة كالكاتب على النفس كل مايرد اليها وما يخرج منها ولكن دفتر الكتابة هو ذات جوهر الروح ويمكن للروح ان تعلم أى شىء مما هو فى جوهرها فى أى وقت تريده وذلك اشبه بتذكير الانسان لشىء مضى عليه فى صغره وتفكره فى كبره فهو بالطريقه السابقة وللاسباب المتقدمة أى انه ينعكس من الروح للامانة ثم تعيد الامانة انعكاسه ثانيا للروح فيطبع فيها من جديد كأنه ورد لها ثانيا فالميزان جزء تكميلى للروح خارجا عن جوهرها بالمرة الا الصلة المذكورة فى هذه الحياة للزوم ارتباطهما فهو كنور متعلق بها وملازم لها واتصاله بها من حيث اداء الوظيفة المرتبطة ببعضهما فقط بشكلها الذى نراه من تشريح الحيوانات المختلفة والانسان وهو المخ مع أجزائه كما تقدم

أما الراس بأجمعها فهى تتألف من الوجه ويتركب من ١٤ عظمه وفيه أعضاء الحس جميعها ثم من الجمجمة وتتركب من ثمانية عظام وهى التجويف الباقى من الراس وفيه المخ وهو الميزان المذكور والمخيخ والنخاع المستطيل وهذا الاخير هو الجزء العلوى من الروح وهو لها اشبه بجذور الشجرة لتوقف الحياة الانسانية عليه اذ هو المركز العام للقوة المميزة والآلة التى تجمع بها المدارك للاستنتاج فهو ينبوع التأمل والتفكر . بل هو لب الروح وما يحتاط به من المخيخ اشبه بحافظ ولكنه الجزء الوحيد عليه مدار الحياة الكلية

أما (المخ) أو الميزان الذى نتكلم عنه فيتركب من نصفين كرويين ومجموعهما في أداء وظيفتهما مع النخاع المستطيل هو المقصود (بالامانة) وهما وحدهما المتوفر فيهما شروط الميزان الروحية السالفة . فان هذان النصفان موضوعان بكيفية اذا تعطل نصف منهما لمرض أو لسبب يتمكن النصف الآخر من أداء الغرض منهما تقريبا ولو ان عمله لا يكون كما يكون الاثنان معاً . هذا مع ارتباط النصفين مع بعضهما بحيث لو تصورنا فى كل منهما القوة للروح فى الفهم والادراك والتميز فانهما يتحدان معاً فى هذه الوظيفة ويجتمع نتيجة الاثنان فى نقطة واحدة هى النخاع المستطيل وليس يرسل كل منها غرضا بمفرده اليه . هذا وان اتصال هذين النصفين بمركز الروح المذكور لم يك الا اتصال وارتباط وقتى

لاداء الغرض من الحياة التى اخرج الله الروح لاجـله ولم يزدها هـذه المنحة الا لتكون الروح مستقلة باعمالها ولترى بها كل حقيقة في العالم لتقوم بالغرض من خلقتها وهو الخضوع لخالقها بتمام الطاعـة والارتياح وكمال الحـريه — ولقـد قرر الاطباء أيضا ان النصفين المذكورين من المخ هما مكان التأمل والفهـم والذاكرة والمخيلة وغيرها ولكن كما قلنا حيث يجب ان يكون النصفان المذكوران متصلين بالروح أو بالاحرى مرتبطين بالنخاع المستطيل — . وقد أثبتت التجارب انه اذا رفع هذان النصفان من الانسان لا تفقد الروح شيئا مطلقا من الحياة ويمكنها ان تعيش طويلاً من غيرهما بل يمكنها ان تعيش سنيناً عـديدة اذا أمكن حفظ حالة الحيوان الصحيه من التعفن وغيره بعـد رفع النصفين المذكورين أو الميزان المذكورة مما يكون منه دليلا قاطعاً على وظيفة هذا الجزء مع الروح وكونه لها وقتيا كما أثبتنا ذلك وكان الاولى بتسميته بالميزان أو الامانة أو البصيرة كما يسميه القرآن العظيم . فانه في الحقيقة ميزان الروح لاداء ماتختار منه بما يرشدها اليه من غير ان يؤثر بشىء على جوهر حياتها الروحانية الابدية . — . كما ان الروح التى مركز اساسها النخاع المستطيل لا يمكنها ان تعرف شيئا أو تختار شيئا مطلقا من غير المـيزان المـذكور . — فاذا فرض وحصل للمخ أقل تأثير أو ارتجاج أو أى ضرر ميكانيكى أو مرضى فان الروح لا يمكنها مطلقاً ان تعرف شيئا بمفردها وتفقد بذلك مايسمى بالقوة العاقـله ولو ان مركز العقل اتصال الامانة فى النخاع المستطيل — أما النخاع نفسه الذى هو أول أساس للروح فانه اذا تأثر بشىء ضعيف تأثر معه جميع الجسم لانه من الروح لا ينفك عنها مطلقا — بخلاف الميزان أو المخ فانه كزائد على الروح وان كان بينهـما ارتباط عضلى روحى وقتيا لاداء الوظيفة فانه اذا نزع النصـفان الكرويان المذكوران بالتدريج قطعة بعد أخرى لا يموت الانسان مطلقا ولا يحصل له أقل ضعف أو تأثـير ويكون كالنائم مع بقاء قوته التنفسية والعضلية بحالها ولا يكون له ارادة أو اختيار مطلقا بـل يكون كما كان مملوء بالحياة بحيث أيضا اذا أمده الانسان بطعام في فمه بعد ذلك أكله بكل سهولة ولشرب اذا ألقن الشراب أيضا

ولكنه لا يطلب الا كل ولا الشراب ولا يختار شيئا ولا يتكلم لانه مفقود الميزان فقط وهذا يظهر ان الفطرة التى خلق الله الناس عليها في البداية فى الحياة الاولى عند ما كانوا أرواحا مجردين أيضا عن الجسمانية هى ان يكونوا بلا ميزان بحيث يمكنهم ان يتمتعوا بكل أنواع التمتع بحرية مطلقة ولكن بلا علم ولا تفكر فهم ينظرون ويسمعون ويشعرون بكل شىء من غير حد وذلك أشبه بالطفل الحديث الولادة فان اجزاؤه تامة جميعها كالرجل الكبير فهو يسمع وينظر بعينيه و يتمتع ويتألم ولكن حسب الوسط الذى هو فيه حيث أثبتت التشريحات الفسولوجيه للاطفال ان الطفل المولود ليس له شىء من النصفين الكرويين للمخ مما يدل على انهما زائدان على الفطرة بل يتكونان بالتدريج المستمر بعد الولادة كالحديث(كل مولود يولد على الفطرة)

وليت ماسبق من تلك الايضاحات الطبية بموافقته لما اوضحناه من وظيفة هذا الميزان ان الحال قد اقتصر على ذلك بل ان الشكل العضلى للنصفين الكرويين من المخ أو الميزان المذكور عند التشريح الفسيولوجى لرجل كبير يظهر مركز تركيبها باجزاء متصلة ببعضهما عضلية أشبه بميزان حساس غاية فى الضبط والجمال بحيث اذا أردنا ان نعمل ميزانا من النحاس بشكله كان أعظم بميزان حساس لم يسبق له مثيل في الاختراع . فاذا أخذنا رأس انسان كبيرا وقطعنا الجمجمة بمستوراسى ليظهر داخل القطع في مركز الجمجمة بحيث ينقسم المخ الى نصفيه الكرويين والمخيخ والنخاع المستخيل الى نصفين جانبين . ظهرت لنا صورة تساعد على التأكد من ان وظيفة التأمل والفهم والمخيلة وغيرها التى يقولون انها قائمة بتلافيف المخ تجتمع كلها فى الحقيقة بتلك الميزان الموجودة فى منتصف الكرة الراسية — . فكما انها ميزان معنوية لاداء تلك الوظائف السالفة العظيمة فهى ميزان حسية عضلية أيضا ليكون انطباق كلام الله عليها تاما من كل وجوهه المعنوية والحسية أيضا.

نعم — ان الاطباء مالمكنهم حصر وظائف اجزاء الدماغ مع الروح بالتدقيق للآن فان تلك الوظائف روحية محضة غيران ظهور الشكل العضلى للجمجمه بعد حصول القطع السالف بهذا النظام يساعد على ثبوت تكون تلك الاجزاء لتكون كميزان للروح كما هو ظاهر من وظيفتها ولو تمعنوا جيدا لعلموا ان النصفين الكرويين للمخ ليس لهما مع الروح

التى أول مركزها النخاع المستطيل الا تلك الوظيفة دون غيرها بالحالة التى أشرنا اليها الآن

فالميزان المذكور يبين كل شيء للروح ويميز كل شيء بعلاقته بالروح بحالات مختلفة حقة هى مايسمى بالتأمل والفهم والمخيلة والادراك وغير ذلك ثم تجتمع كلها في نقطة واحدة عامة في مركز الروح هى النخاع المستطيل والروح نفسها التى مركزها العام القلب تعرف كطبيعتها ان هذا يصلح وذاك يضر بحيث تكون هى المتصرفة وحدها فى كل مايرد اليها دون ان يكون لتلك الميزان قوة للضغط على الروح بتنفيذه بل توصله اليها فقط وذلك كما يكون الانسان جالسا فيتخيل أشياء كثيرة ويتفكر في أخرى ويتذكر فى أمور عديدة وغير ذلك بحيث لاتتحرك الروح ولا تنفذ منه شيئا مطلقا اذا أرادت وبالعكس فان الروح اذا رأت من المخيلة أو الذاكرة او اى شيء من الميزان فيجوز لها أن تنفذه بالنفس او تنفذ عكسه شرطا ان كل مايفعل من الروح مهما كان طفيفا يظهر بالثانى فى الميزان ثم تراه الروح بالدقة الحقة لازائدا ولا ناقصا . والروح نفسها لايمكنها أن تعرف كيف تتخيل الميزان ذلك . فكما ان الروح حرة مطلقة لاتتقيد بشيء مطلقا فان الميزان معها أشبه بحاسب دقيق حق يظهر لها بأول فرصة بنتيجة عملها أولا فأولا ولو كان مثقال ذرة فيطبع فى ذاتها ولا يزول منها الى الابد . وعلى ذلك فالميزان المذكور يرى ويظهر كل ماهو خارجا عن الروح وما هو فى باطنها مهما كان صغيرا أو كبيرا كما ان الروح ينطبع فيها كل مايرد من الميزان سواء كان من الخارج أو من نفسها ولا يزول منها مطلقا .

وهذاهو السبب لان نقول عن الميزان ونسميه مؤقتا (بمرآة التميز) ولو ان هذا الاسم أقل فى الاستدلال على حقيقة وظيفة هذا النور من لفظة ميزان وأمانة وبصيرة فان تلك الالفاظ القرآنية أقوى في الاستدلال ولكن غرضنا من هذه التسمية هو لسهولة التعبير عن الكيفية التى بها تقوم بوظيفتها فهى كمرآة عاكسة والروح أشبه بمرآة أخرى طابعة وفى آن واحد عاكسة ماتريده على الميزان اتراه بالثانى بحقيقته معكوسا عليها من مرآة التميز لازائدا ولا ناقصا وينطبع فى الحال في الروح ولا يزول منها الى الابد . ومع ماتوضح فاننا يمكننا ان نقول عن جوهر الميزان انه قوة نورانية بصيرة مبينه عادلة خلقها الله للروح لتسترشد بها فى تلك الحياة أما الروح فهى قوة حية حرة فعالة خازنة أبدية خلقها الله تعالى

ومعها هذا الميزان لتخضع لذاته العلية بكامل حريتها كما يقتضيه كماله المطلق .

وما أحسن تعبير الله تعالى عن تلك الميزان فانها سميت فى القرآن العظيم بالنور وهذا تعبير أقرب أيضا الى الحقيقة فان هذا الميزان كمصباح فوق الرأس ترى به الروح كل شىء بحيث اذ طفىء لم ترى الروح شيئا مطلقا الا كما يكون الطفل المولود حديثا و ليس بعد ذلك تعبير يكون أكثر انطباقا على صفات الميزان المار ذكرها .

وكل هذه الاستدلالات السالفة موضحة توضيحا تاما فى القرآن العظيم والله تعالى أشار اليها فى كثير من المواضع ولكن من الاسف لم يلتفت اليها أحد من زمن النبوة الى الآن .

فمن الميزان المذكور يقول الله تعالى : الله الذى انزل الكتاب بالحق والميزان — فالكتاب نزل بحق للانذار والتبشير فقط وليكون هداية لمن أراد الهداية والميزان نزل بحق على كل مخلوق ومنه الانسان لان به كان الغرض الحق لكمال الخلق اللائق لكمال الله المطلق كما تقدم البيان والاسباب . وقد اقترن الكتاب بالذكر مع الميزان هنا لمساواتهما بالضبط من حيث الاستدلال على كل حقيقة فان كان القرآن العظيم كله حقائق لاشبهة فيها فان الميزان التى أنزلها الله تعالى فى نفس كل انسان أيضا لاتقل فى دلالتها على الحقيقة للروح عن القرآن . وستعلم مما يأتى كيف ان ابراهيم عليه السلام اهتدى بنفسه لله تعالى وجد وكدبشخصه بما اعطاه الله فى الخلق ككل انسان حتى آلت اعماله كلها ومواهبه الذاتيه من نتيجة ماتأمل وتفكر مطابقة كل المطابقة للحالة الفطرية التى جعل الله تعالى فيها كل انسان اذا اتبع أمانته أوميزان نفسه أوعقله بحق تام كما تمسك بها ابراهيم عليه السلام حتى صار انموذجا حسنا لجميع البشر وهذا الخليل ما كان معه قرآن كهذا القرآن العظيم ولم يرسل له الله تعالى رجلا آخر بمعجزة ليقول له بلزوم الايمان بالله تعالى بل بنفسه بمساعدة الميزان التى جعلها الله تعالى على نفسه كامانة في هاته الحياة تبصر وتفكر وتأمل فاهتدى وزاده الله هداية ثم اختاره نبيا كما هو دأبه مع كل مخلوق مهما كان جنسه ومهما كان سابق ضلاله وكذلك قد جمع الله تعالى الكتاب والميزان معاً فى تلك الآية لتساويهم فى الارشاد الى الحق ان أرادت الروح اتباعه كما يهدى القرآن كذلك ان اراد

الانسان اتباع حقائقه بالضبط . ومن جهة أخرى فانه لولا الميزان للروح ما كان حسابا ولا كان عقابا بل ولا كان الوجود بحق لمن اطلع على مبادئنا السابقة وان الروح بلا ميزان لاشيء فيها غير الحياة الابدية والحركة بكيفية تعجز عن حصر منشاتها بغير قدرة خالقها الواحد وقد قال الله تعالى عن الميزان باسم البصيرة فى قوله تعالى: «قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها» — فذكر الله تعالى للبصائر اشارة للقرآن العظيم ولما فى النفوس أيضا ودل على اجمال ذلك لما فى النفوس من البصائر أيضا من قوله تعالى «فمن أبصر فلنفسه» للاشارة انه فى كل نفس أيضا بصيرة ولان البصائر شاملة لها والقرآن العظيم أيضا

ولذلك سيعامل الله تعالى كل الامم يوم القيامة على السواء ممن وصلتهم دعوة الرسل والانبياء وممن لم تصلهم تلك الدعوة وذلك لان الرسل للناس فقط بقصد الرحمة ولان دين الاسلام هو دين الفطرة لحقيقة العقل فكل انسان مهما كان جنسه ومهما لم تصله دعوة الرسل والانبياء اذا استعمل مواهبه العقلية فى حقايقها كان مسلما بلا شك لان العقل هو الاصل الذى به يتدين المخلوق وبه سيحاسب وبه سيعاقب دون غيره ولذا قال تعالى: «ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين» فهذا الانذار عام على البشر لا استثناء فية من امه وصلها القرآن العظيم أم لم يصلها لان دين الاسلام مبنى على العقل دون غيره وما اتباع أوامر الله تعالى ونواهيه فى القرآن العظيم لم يك الاشريعة يسير بها من وصلته الدعوة والقرآن العظيم ولان تلك الشريعة نفسها توافق حقايق العقل والفطرة الطبيعية لنظام الخلق لو أمكن للعقل التأمل فى كل شيء تأملا خاليا من الخطاء والشبهة

وقد جمع الله تعالى سماع دعوة الرسل الى الاسلام من الناس وتعقلهم بانفسهم فى كفة التساوى فى الوصول الى الحقيقة من الدين ونجاتهم باتباع أحدهما من العذاب فى النار فى الآخرة فى قوله : « وقالوا لو كنا نسمع (أى دعوة الرسل وتتبعها) أو نعقل (أى نستعمل العقل بانفسنا) ما كنا في أصحاب السعير »

وغير ذلك فى قوله تعالى : «بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره» . ففرض الله تعالى من ذلك ان الانسان على نفسه بصيرة ولم يقل فى نفسه لكون تلك البصيره هى

غير النفس وهى فوق النفس او الروح فى أعلا جزء من الانسان وهو الرأس كما أثبتنا ذلك . ثم أشار ان تلك البصيره كافية كفاية تامة لهداية الانسان لو اتبعها بحق حتى اذا فرض ولم ينظر الانسان شيئا من الكتب السماوية كالوثنيين وغيرهم لا يقبل منهم عذر مطلقا يوم القيامة لان الله تعالى يعلم ان تلك البصيره لو استعملها الانسان بحق كما يراه منها من وقت لآخر من الارشادات الصحيحة تجعله بتمام الهداية كابراهيم عليه السلام فان هدايته بالكيفية التى شرحناها موجوده بين كثير من الامم المتشعبة التى تعبد غير الله تعالى وقيامه كالاسد بينهم واقدامه بشهامة على تاييد الحق كل ذلك لانه طاوع بصيرته أو أمانته أو ميزانه بحق فهى تهدى كالكتب السماوية اذا لم يتبع الانسان شهواته أو الوساوس الشيطانية . فانه تعالى قال «ولو ألقى معاذيره» أى يوم القيامة من عدم فهم رسالة الرسل أو عدم اطلاعه على شيء منها أو عدم سماعه بها ككثير من الامم الحاضرة والبائدة فلا قبول لمثل هذه الاعذار لان الكتب السماوية نفسها ليس الغرض منها الالزام بالهداية فانها تهدى من أراد الهداية وتبعها بنفسه أو تبشر من كان مهتديا قبل أن يعرفها ولا تضطر أحداً مطلقاً بالرجوع من الضلال ان أراد الانغماس فيه فهى للانذار وللبشرى فقط وهى من رحمة الله فوق عدله وان كان نزولها حقاً لسبب لزوم العقاب لمن ضل كما جاء فيها بالضبط وانها أيضاً ذو فائدة لكثير من الناس عظيمة بل ورحمة للخلق أجمعين لو تمسكوا بها وقد أشار الله تعالى أن بصيرة الانسان ترى له كل حقيقة بلا زيادة ولا نقصان من تأمله فى اختلاف أحوال العالم والعلوم وتواريخ الامم والافراد كقوله تعالى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد» . وهذا ما يدل على أن البصيرة التى على النفس مساوية أيضاً للقرآن فى الاستدلال على الحق لا من حيث الاشتمال على العلوم وعدم التخطى عنه قيد شبر فهى توضح كل شيء على حقيقته لتصادق بالضبط على ما أشار به القرآن العظيم من آيات الله تعالى التى تظهر تباعا فى الآفاق وفى الانفس أيضاً .

وقد ذكر الله تعالى أيضاً موازين يوم القيامة فى قوله تعالى «والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون» اشارة للانسان بأن لفظة ميزان فى القرآن العظيم أيضاً لا يقصد بها ميزان المعاملة كالمكيال فقط . بل يقصد بها ميزان الروح الذى هو كامانة عليها

فى هذا العالم وبه وحده سيكون حسابها وعقابها العادل وهو فى جوهره خارجا عن النفس وعلاقته الوحيدة بها هو ملازمتها ليكون لها كنور هاد الى الحق لتقوم بوظيفتها الدنيوية والغرض العام من وجودها بيد الخالق

ولان ما يطبع فى جوهر الروح من هذا الميزان يتأبد فيها ولا يزول مطلقاً بحيث عند قيام الساعة وعند الحساب تنظر الروح فى الميزان تعلقها وهو كالنور أشبه بمن ينظر فى مرآة تقريبا فترى منه فى ذاتها بنفسها كل شىء أقدمت على عمله وما قدمته لنفسها من خير وشر بحيث يكون مطبوعا فى جوهرها ككتاب مضبوط لا خلل فيه وكما أكدنا ذلك فى أقوالنا السالفة حتى قال الله تعالى لذلك أيضا : «اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا —» هذا بخلاف علاقة الطائر بالروح فقد ارجاءنا ايضاحه فى باب آخر. وقد ذكر الله أيضا ان الميزان على النفس نزلت مغايرة للروح فالاخيرة جوهر والميزان جوهر آخر كما فى قوله تعالى : «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز» فهذه آية صغيرة من الكتاب لو أردنا ان نوضح كل حقائقها وما جمعته ويتصل بها من المواضيع المختلفة لا تسعنا الاوراق ان كانت بحجم السماء والارض. بل نقول بالاختصار انها جمعت كل الغرض من القرآن العظيم ومن الحياة ومن الخلق . فان من معجزات القرآن العظيم أيضا ان يكون كل جزء فيه شاملا لكلياته . أوان ايضاح آية فيه تجر الى ايضاح باقيه ومن فهم فيه آية واحدة على حقيقتها عرفه كله بلا استثناء وهذا لا يكون الا من بعيد النظر كثير التأمل والعلم والاخلاص لله تعالى فى الايمان

فنحن عن موضوعنا المختص بالميزان فقط نقول ان تلك الآية تشير أيضا الى تساوى الكتاب بالميزان أو العقل من حيث الاستدلال على الحقائق كما أوضحنا ذلك وفى آن واحد تشير الى ان الميزان فى النفس هو غير النفس بل أنزله الله عليها لتكون بتمام حريتها وكان به وجود الخلق حقا فقول الله تعالى لقد أرسلنا رسلنا (أى الى الناس) بالبينات (الكتب والمعجزات) وأنزلنا معهم (اى مع الرسل اولاً) الكتاب و(مع الرسل والناس ثانيا لاشتراك الرسل والناس في الخلقة) الميزان (والغرض الوحيد من الرسل ومن

الكتاب والميزان هو) ليقوم الناس بالقسط (بما فيهم الرسل) وأنزلنا الحديد (اشارة الى ان الكتاب والمعجزات والميزان هى غير الرسل البشريه وغير الناس بل هى من عند الله انزلت كالحديد فانه نزل من كواكب السماء بارادة الله تعالى فى الارض وليس هو من أصل مادة الارض الترابية بل القى فيها وأنزل اليها من الكواكب كما تثبت ذلك العلوم الفلكية وعلم طبقات الارض) فيه بأس شديد ومنافع للناس (اى لعمل الآلات المختلفة المستعمل فيها الحديد وهى أكثر من ان يمكن حصرها وقوة للدفاع عن النفس وللصيد ولعمل العدد والآلات الحربية ضد من يعتدى على نظام الله تعالى فى الارض ولتساعد بنى الانسان على كد الحياة واجتياز البحار كالبواخر والمراكب الحربيه والتجارية) وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب (وقد جمع الله في تلك الكلمات الاخيرة كل الغرض مما سبق من الميزان والكتب والمعجزات والرسل والناس والحديد والحياة — لانها تشير الى ان الله تعالى خلق الانفس بقدرته لكماله المطلق وان الاليق لكماله أيضا ان يكونوا خاضعين لذاته بتمام حريتهم الى زمن محدود لتختار كل مايشاء وهـذا لايكون الا لوضع شيء على النفس زائدا ليريها الحق من الباطل وهو الميزان . والله تعالى في هذا الزمن المحدود لايمس شخصا للهداية أو الشقاء غير كونه جعل نظام جزائه لعباده في اعمالهم لداع رجوعهم الى الهداية أكثر من ميلهم الى الشقاء رحمة عليهم وجعل نفسه تعالى رئيسا لمن طلب بنفسه الهداية ترغيبا فيها للجميع لرحمته على الكل سواء ولانهم جميعا بتمام حريتهم فى الهداية أو الكفر غير كونه يزيد كل راغب فى الهداية منها بلا استثناء أحد حضا للناس على الالتجاء لرحمته أيضا شفقة عليهم من العذاب الذى كتبه أيضا وحتم نفاذه بلا رجوع عنه مطلقا لمن خرج عن حد الرحمة فى طغيانه وكفره . فهو يكتب لكل صغيرته وكبيرته . وبهذا النظام السالف فى الخلق الذي أراده الله تعالى بمطلق ارادته لكونه وحده هو اللائق لكماله المطلق وقدرته المطلقة جعل ارسال الرسل ونزول الميزان والحديد على الجميع لغرض واحد. وهو الغرض العام من الخلقة حسب المبدأ السالف وهو ليعلم من من الناس ينتصر لله ولرسوله لينضم تحت لوائه في هذه الحياة وليطيع أوامره ويرغب فى رحمته مادام الجميع بحريتهم ويجوز لهم اتباع الرسول وعدم اتباعه ولانه تعالى سبقت كلمته لعدم اضطرار أحد

ليختار مايشاء بنفسه بما خلق فيه وليقدر له حسب اعماله التى قررها لجميع الخلق سواء) ان الله قوى عزيز (فالله أشار الى انه قوى اشارة للانفس التى تتوهم ان طلب الله من الناس ان ينصروه ورسله ليس عن ضعف منه تعالى . بل لانه تعالى جعل هذا النظام هو الغرض الحق من الخلقة واللائق لكماله فى وجوده من لزوم حرية المخلوقات فى هذه الحياة . وهو قادر على ان يهلك الخلق جميعا لو اراد كما انه قادر ان يهدى الناس جميعا الى هدايته ولكنه لايفعل الا مااقتضاه نظام جمال الخلقة من كمال قدرته فهو ان هلك يهلك بالحق بما لامرد له وان اهدى فهو يهدى بالحق بما لامرد له لايحابى أحدا على آخر . بل الجميع فى نظره سواء لانه بارادته وكماله خلق الجميع — وقد اشار الى انه عزيز . اى ان تمادي المخلوقات فى الكفر والهزء والسخرية فى مثل ذلك لايجعله تعالى عرضة للحنق لتغيير هذا النظام الحق فليعمل كل ما يشاء ان يفعل فان تخفيف العذاب أيضا عن مستحقه يوم القيامة شيء أكثر من المستحيل في عدم التخفيف والتغيير) فعمل الله تعالى حق فى البداء وحق فى هذه الحياة وحق في الآخرة فما تكسب كل نفس الا عليها وما ربك بظلام للعبيد

فكل ما تقدم يشير الى أن الميزان جعلها الله على النفس لترشدها الى الحقيقة بلا اكراه على عمل ما طيبا أو خبيثا وهى في استدلالاتها على الحق أشبه بالقرآن فكما قال الله تعالى : الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان فانه تعالى جمعهما في آية أخري اشارة الى هذه التسوية في الاستدلال على الحقيقة كما في قوله تعالى : قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. فالنور هو الميزان أو الامانة أو البصيرة كما نعلم ذلك أيضا من قوله تعالى قد جاءكم بصائر من ربكم فهى الميزان والكتاب وان لفظة نور في الحقيقة هى من الاسماء الاكثر انطباقا على حقيقة الميزان ويمكن الاستدلال على ذلك أيضاً من قوله تعالى : يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا — فالبرهان من الله تعالى هو القرآن العظيم لانه جمع كل آيات المعجزات وبرهن بما فيه على ما تعترف به النفوس من الحق ان أخلصت في الاعتراف بالحقيقة ثم قال تعالى وأنزلنا اليكم نورا مبينا اشارة الى الميزان الموجود على كل نفس وهو الذي ذكر في الآية السالفة مع ايات الله أيضا باسم بصائر فان لكل نفس أمانة

أو ميزان أو بصيرة (بل الانسان على نفسه بصيرة) ومن تمعن في آيات الله العديدة الشاملة لهذا الموضوع الذي نوضحه لا يمكنه أن يحيد شعرة عن هذه الحقائق الظاهرة كالشمس فان آيات الله تعالى وكلماته في الاستدلال على مقاصدها المختلفة وأسماءها المتنوعة للدلالة على الغرض منها أشبه بمعادلات جبرية فاذا قلنا ح = ء و ء = ه فان ح = ه أيضا واذا كانت ء = و فان ه = ح و = و أيضا وهكذا فالالفاظ وهى الامانة والنور والميزان والبصيرة كلها لغصن واحد وهى وحدها اللائقة لان تطلق على تلك الامانة الانسانية للدلالة على وظيفتها العظيمة التى عليها بنى أساس العالم وبها أكمل الله الخلق وجعل الانسان فيها في أحسن تقويم . - . ومن تطلع أيضا لكثير من آيات الله القرآنية علم أهمية هذه النقطة لانها هى أساس السعادة الانسانية وأعظم شيء خلقه الخالق قال جل شأنه : (يأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وأنتم تعلمون) فقول الله تعالى أماناتكم بالجمع دليل على ان لكل مؤمن أمانة على نفسه كما قال تعالى (وحملها الانسان) وهى تظهر له كل حق بالدقة التامة فهى نور للروح ويجب اتباعها وعدم خيانتها فان سير المؤمن بضدها خيانة لها لانها فى كل لحظة تظهر له الواجب والحق من الباطل فلا يجب عدم المبالاة بها فان مخالفتها واتباع النفس لهواها هو كمخالفة الله تعالى وكمخالفة كتابه وكمخالفة الرسول تماما حتى جمعهم الله تعالى جميعا بالتسلسل فى آية واحدة ولو كان القصد من ذلك الامانة التى توضع من عند الناس الى بعضهم كأنه لالزوم لجمعها ولكان يلقى القول (لاتخونوا الامانة) ولكنها أمانة النفس التى يحملها الانسان فى رأسه كما أسفلنا فانها تظهر له كل حقيقة فاذا سار بضدها كأنه لابد خائنا لها وفي آن واحد خائنا لله الذى جملها عليه للسير بمقتضاها وخائنا لرسول الله الذى نزل الكتاب وحيا على لسانه وهو برهان حق لما تظهره الامانة من الحقائق .

وتبعا لامر الله تعالى بعدم خيانة أمانة النفس فانه تعالى أيضا أمر باتباعها هى والقرآن العظيم وأجملها في لفظ واحد هو النور فبعد ان ذكر فى الآية قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين بان امانة النفس هى كنور هاد لها أتاها من عند الله وأنزله عليها حقا كما فى تلك الآية السالفه فانه أجمل الاثنين أيضا للزوم الايمان بهما كما أمر بعدم خيانتها فى الآية

السالفة في قوله تعالى فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا – فالنور هنا ليس هو القرآن العظيم وحده بل ومعه الامانة أيضا فكلاهما حق فى الاستدلال على الحقيقة

وقد قال تعالى أيضا : (والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون) – فالعهد هو عهد الله تعالى للنفس في الدور الفطري قبل ان تخرج الى هذه الحياة من قبل ان تحمل الامانة التى تجعلها تعلم بكل شيء ان ارادت وتستقل بذاتها في كل اعمالها الدنيوية حيث أشهدها الله امامه على نفسها فاعترفت ولكن من غير ان تميزه لانها لاتحمل الامانة بل تعاهدت امام الله تعالى وهى بحالتها الفطريه المجردة عن كل تميز وعلم الا عن شيء واحد وهو الاعتراف بالوهية الله المطلقة عليها فان هذا الاعتراف غريزي في كل نفس حتى ان تظاهر به كافر في هذه الحياة الدنيا كما قال تعالى : واذ أخذ ربك في بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم علي انفسهم الست بربكم قالو بلي – شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين. أما الامانة ورعايتها فهى امانة السالفة فان في مراعاتها مراعاة للحق والله لم يجعلها علي النفس عبثا بل حقا لتتميم الغرض الكلى من الخلقه

ومن تأمل لبعض آيات الله القرآنية وجدها متشابهة مثانى فى الفاظ الميزان والامانة مع عدم وجود أحد من الامة الاسلامية للآن بعد مرور هذه القرون الطويلة على البعثة النبوية يوضح الغرض من هذه المتشابهات بعين بصيرته كما قال تعالى الله الذى نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى فهذا التشابه لم يك الا لجمال التركيب وليسدعوا النفس لزيادة التأمل والتفكر في لفظ متشابه رمز له بمعان مختلفة كلفظة نور فانها تدل على الكتاب وعلى الميزان . وكالميزان فانها تدل على ميزان النفس وميزان المعاملة بين الناس وكلفظة أمانة فانها تدل على أمانة النفس كالميزان والبصيرة وعلى أمانة الغير من المخلوقات كقوله تعالى

فليؤد الذى ائتمن أمانته وليتق الله ربه وغير ذلك من جمال المعنى والتركيب والتناسب مما لو تمعن فيه عاقل لاخرج علوماً تنفع البشر في الدنيا والآخرة وسنزيد الامر تبياناً وايضاحاً اه

وعلاوة على ماقدمناه فان الله تعالى نفسه أشار الى أن الامانة او البصيرة فى أنفس الناس لايمكن أن تحيد عن الحق مطلقا فكل انسان يمكنه لو استعملها باخلاص وتتبع

حقائقها لا يقع فى خطاء مطلقا : قال جل شأنه : فانها لاتعمى الابصار ولـكن تعمى القلوب التى فى الصدور فهذه الاية اوضح الله تعالى ان الابصار لاتخطىء مطلقا ولاتعمى ولا تضل عن الحق بل يخطىء هو الروح نفسها الذى مركزها العام هو القلب فيه كل حركة وبه كل ارادة انسانية وهو الوحيد الذى عليه الاساس العام للروح وان كانت جميع الاعضاء الروحيـة ملازمة له الى الابد وكلها جوهر واحد غير انه هو الروح لو أردنا أن نحصرها في شىء واحدعام . — . وليس الغرض من الابصار هوحواس البصر التى اعضاؤها العينين — كلا — بل الابصار هى أمانات النفوس وهى المقصودة فى قوله تعالى بل الانسان على نفسه بصيرة — أما حاسة البصر التى عضوها عين الانسان فهى من منجيات وظائف الروح نفسها في كيفية استعمال الامانة وكذلك حاسـة السمع وغيرها فان كل هذه الحواس هى من خواص الروح نفسها وهى من صفاتها الابدية الملازمـة لوجودها في الحياة والممات غـير ان الروح نفسها لايمكنها ان تؤدى وظائفها الساميـة فى اعمالها الا بالبصـيرة التى هى نور من الله امانة للروح وقتية فى هذه الحياة فاذا فقدت البصيرة نظر الانسان وسمع وشعر ولـكن بلا تـكيف أو تمييز أشبه بالولد الصغير الحديث الولادة كما تقدم .

كما اننا اذا فرضنا وتعطل بعض أعضاء الروح العاملة لسبب مرض كـفقد حاسـة السمع أو حاسة البصر مع وجود الامانة على النفس فان الروح يمكنها أيضا ان تقوم بوظيفتها في كل شىء تقريبا وان كان فقد شىء من حواسها يوجب لها شيئاً من التعطيل البسيط

فمثلا رجل بعد ولادته مباشرة مرض بحاسة السمع وفقدها ولما صار رجلا وتعلم في صغره تعاليم الخرس حتى امكنه ان يقرأ في كافة العلوم فمثل هذا يمكنه ان يقوم باعمال عظيمة جدا لو كان كثير التأمل وربما كان في الهيئة الاجتماعية أعظم من آخر سليم الاعضاء متوانيا جامـد القلب كما اننا اذا فرضنا وعجز رجل ببصره فانه يمكن بعد فقدانه ان يعمل اعمالا عظيمة فـكم من نابغ من علماء الاسلام السابقين الذين لهم مؤلفات في كثير من العلوم النظرية الـتى يعجز عن ادراكها سليم البصر وما ذلك الا لان العـين التى هى عضو البصر لااهمية لها في البصيرة التى هى امانة النفس وهى القوة المدركه بمساعدة الروح الالمساعدة الروح فقط فى تتميم وظيفتها المتعلقة بامانة الله المذكورة

فاذا فرضنا أيضاً وأحضرنا رجلا تعطلت فيه حاسة البصر ثم تعلم القراءة والكتابة فى مدرسة العميان وصار قادرا على تعلم العلوم ودراستها ثم فرضنا بعد ذلك حصول تعطيل آخر في حاسة السمع حتى يصير لذلك عاجز البصر والسمع معاً فانه يمكنه ببصيرة الله أو أمانته أن يعيش بسهولة ويتخاطب مع غيره بالكتابة الرمزية بحاسة اللمس وربما فاق غيره ممن يكون سليم النظر والسمع ويكون جامد القلب . فالعبرة بالبصائر فى قوله تعالى فانها لا تعمى الابصار ليس حواس البصر التى أعضاؤها العينين بل هى بصائر النفوس أوأماناتها من الله تعالى فانها توضح للقلوب أو النفوس كل حقيقة متى أرادت النفس أي شيء كان باختيارها فاذا لم ترد القلوب شيئا كان لا فائدة من الامانة أو البصيرة وتكون حواس السمع والبصر مع الروح أقل من الحيوانات الاعجمية

ولقد أعظم الله تعالى أمر الامانة المذكورة أو البصيرة في قوله تعالى ! (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون انه لقول رسول كريم) – أى فلا أقسم بالشيء الذي تبصرون به وهى الامانة الموجودة في كل نفس فان بها وحدها تبصر الروح كل شيء في العالم وقوله تعالى وما لا تبصرون أي ما لا تبصره بتلك البصائر وهو الله سبحانه وتعالى فانه لا يبصر مطلقا وهنا أيضا ليس الغرض ما نبصره بالعين بل ما نبصره بالبصيرة التى من أعمالها الفهم والادراك والتمييز والتخيل وغير ذلك . فالله سبحانه وتعالى لا يدرك بشيء من ذلك مطلقا فهو تعالى فى هذا القسم يقصد القسم بالامانة التى منحها لكل نفس لتمام الخلق وبذاته الابدية التى لا تدرك بتلك البصائر بأى كيفية مهما كانت وانه قسم حق عظيم وقد نعلم هذا الدليل الاخير أيضا من قوله تعالى لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير – فقال تعالى لا تدركه الابصار اشارة أن العيون ليست هى المقصودة فان العين لا تدرك لان الادراك من خواص الفهم والتعقل بل العيون تنظر فقط والابصار التى لا تدرك الله تعالى هى الافهام وما يتعلق بها من الافكار المتنوعة والتخيل والتذكر وغير ذلك من أنواع صفات وظائف المخ السائقة مع الروح فكلها لا تدرك الله تعالى وهو كذلك كان فوق العقول والافهام ولكنه تعالى بالعكس يدرك الابصار ويعلم بها وبحامليها علماً حقا لا شبهة فيه – وكل هذه الآيات القرآنية والدلائل العقلية والطبية والفلسفية والشواهد العالمية وأوامر الله المختلفة تنطبق كل

الانطباق على هذه المبادىء التى هى فى الحقيقة أساس مبادىء الدين الاسلامي وهى كما لايخفى من الاهمية بمكان عظيم

ما السبب فى تسمية العقل ؟

ما دمنا ذكرنا بعض خواص الروح وأظهرنا ما هى الامانة أو النور الانسانى أو البصيرة وقلنا ان الامانة المذكورة هى من الاشياء الزائدة على الخلقة الانسانية فى هذه الحياة تتميما لغرض ثابت هو الاساس الكلى من وجود الخلق ألا وهو (حرية الارادة) فى الانسان ليعبد الله تعالى بمطلق حريته بنفسه بلا ضغط عليه فنحن نشير الآن لامر قد حير عقول البشر من بدأ الخليقة للآن وقد تضاربت فيه الاقوال الكثيرة ولا حجة في رأي على الآخر غير التمسك الخصوصى بمعنى اذا قال رجل تعريفا عن العقل وسئل عن أسبابه لا يجد لنفسه حجة تثبت ذلك غير التصريح المطلق بأن ذلك رأيه الخصوصى فقط — لذلك كان تضارب الآراء عن العقل داعيا لعدم التمسك برأي صريح واضح عن ماهية العقل المذكور وهذا التضارب لم يك في أمة دون أخري بل هو من بدأ نشأة الانسان الى الآن . وهو فى القرآن العظيم لم يك له تعريف خاص حتى بذلك تضاربت آراء الائمة وعلماء الاسلام في ماهيته وحقيقة مركزه وكيفيته

أما الذي يساعدنا على معرفة خواص العقل وأين هو مركزه وكيف يتكون هو تأملنا الذاتى فى العلوم الكثيرة المختلفة وبالاخص العلوم الطبية في كيفية التعقل وغيره ثم الذي يكشف لنا الحقيقة بعدها ويوضحها هو القرآن العظيم اذ ان التشريحات الفسيولوجية الاخيرة للانسان في أجزاء الدماغ وخواصها لم يك الا ايضاح بعض رموز أشار اليها القرآن العظيم وكانت بعيدة عن أفهامنا ويستحيل الوصول الى حلها الا بمثل هاته التجارب الطبية المذكورة — فاذا كان المطالع فهم جيدا كل ما أوضحناه من الغرض من الخلقة وخواص الروح والامانة وكيفية علاقتهما أمكنه أن يعرف جيدا ماهو العقل بحيث ينطبق تعريفه على الآيات القرآنية العظيمة التى تعتبر أساسا لكل تعبير حق لا يقبل الشك والتأويل ثم على الاكتشافات الطبية الحقة والتجارب النفسانية الحديثة أيضا — وعندها يتميز الرأي الصائب من غيره ولا تكون معرفة العقل رغما أو رجما بالغيب كما هو الآن في جميع الآراء البشريه .

ولا يخفى أيضا أن علماء الطب أنفسهم لم يضعوا للآن رأيا مستقلا عن حقيقة العقل بل كادوا يعرفونه لو رجعوا بعد تلك الاكتشافات المهمة الى ما يوضحه القرآن العظيم من الغرض من الخلقة والحالة التي يجب أن تكون عليها الروح كما فى آرائنا السالفة الواضحة فهم فى الحقيقة وصلوا الى أعظم نقطة لولا انهم ما زالوا يجهلون جوهر الروح وكيفية علاقته بالاجزاء الدماغية — ولو ساعدتهم التجارب لمعرفة جوهر الروح لأمكنهم أن يوضحوا حقيقة ما يشير اليه القرآن العظيم وهو ما سنوضحه الآن .

العقل فى الحقيقة ليس شيء خاص ثابت أو جوهر يقوم بمفرده بما نسميه العقل .... بل حقيقة العقل هو أمور تجتمع من خواص أشياء مختلفة مرتبطة ببعضها بحيث اذا بطلت وظيفة أحدها انفسخت وظيفة الكل وانعدمت النتيجة التى تجتمع من هذا الارتباط وهى التى نسميها بالعقل — والعقل بمعناه اللفظى اللغوى يدل على الربط كما يقول الانسان عقلت البعير أى قيده أو ربطه . فحقيقة مدلول العقل الانسانى لا تخرج مطلقا عن حقيقة مدلوله اللغوى فى شيء مطلقا . لان تقييد البعير أو عقله لم ينتج من شيء واحد أو جوهر واحد فيه تلك الخاصية ... بل حصل بطريقة وعملية من أشياء مختلفة هى يد الانسان التى تربط والمقود الذى ربط به والبعير نفسه المربوط فبهذه الثلاثة تم تقييد البعير أو ربطه أو عقله فكذلك عقل الانسان فمدلوله مرتبط بنتائج أشياء مختلفة باجتماعها يحصل مانسميه العقل وذلك لانه اذا راجعنا ما سبق ايضاحه من ان أساس وجود الروح فى هذه الحياة هو (حرية ارادتها) لتعبد خالقها بمقتضاها وبسببها منحت (الامانة) لتستدل بها على كل ماتريده ويتوقف عليه سعادتها وشقاؤها فانا نجد أن التعقل متوقف على ارادة القلب الحرة الذى هو كل الروح — فالقلب اذا رأي شيأ بالبصيرة يجوز له ان يقلب البصيرة فيه ويجوز له أن يقف جامدا فالروح أو القلب كآلة فعالة وأما البصيرة فتحتاج فقط للتحريك وهى توضح حقيقة كل شيء تتوجه اليه بالضبط فهى تعجز عن أن تحرك نفسها ولكنها في آن واحد اذا حركها القلب أظهرت له ما جهله هو أيضا وهو يعجز عن ادراكه ومعرفته لولاها فكل منهما له خاصية ولكن فائدتهما معا لاتظهر الا حيث يبتدأ القلب بنفسه . فانه كما قلنا هو الذى منح من الله تعالى حرية الارادة فله اذا أن يستعمل تلك الامانة وله أن يتركه

استعمالها أولا يسير بارشادها فيكون القلب أو الروح فى الحقيقة اشبه اذ ذاك بالماء الراكد كما هو منظور فى الامم الجاهلة البليدة التى لم تصقل عقولها بالتعلم والتأمل الصحيح

أما كيفية العقل فى الانسان أو الربط العلمى في الروح فهى ان القلب اذا فرض وأراد بمطلق حريته ان يعرف شيأ امامه بواسطة الميزان أو الامانة المذكورة فان الامانة توضحه بالضبط وبالدقة وفي نفس هذه اللحظة ينطبع ماأظهرته الميزان فى الروح ولا يزول منها مطلقا وان الادراك نفسه ناشئاً أثناء هذا الطبع الروحانى . وبذلك نقول : ان العقل هو ربط أوطبع ماتظهره الامانة فى الروح اذا أرادت الروح نفسها بحريتها تحريك الامانة لاتضاحه مع العلم ان هذا الربط أوالطبع لايزول بعد من الروح مطلقا الى الأبد — وان نفس المطبوع في الروح بالكيفية السالفة هو مانسميه (بالعلم) الانسانى فهو أمر مكتسب ثابت فى الروح وقد تظهره الامانة أيضا ان أرادت الروح اظهاره في ذاتها فينعكس في الامانة من الروح ويعود مطبوعا ثانيا فيها وهو مانسميه (بالذاكره)

أما الرابطة في علم الطب التى بين الامانة والروح فهى فى النقطة التى تسمى (شجرة الحياة) من النخاع المستطيل وهى تتكون من اجتماع وظيفة ثلاثة أزواج من السوق العصبية مع النخاع المستطيل أحدها علوى يتصل بالمخ والثانى وسط ويوصل النصفين الكرويين لمركز المخيخ والثالث أسفل ويوصل ذلك بالنخاع المستطيل لتتميم مجموع الوظائف المذكورة بكيفية منتظمه — والذى يدلنا على أن كل شيء يطبع في الروح ولا يزول منها مطلقا تجاربنا النفسانية أولا من كون الانسان يمكنه أن يتذكر أكثر تاريخ حياته وكل شيء مضى عليه من أحواله مع غيره فهذا التذكر ليس في الرأس بل هو ثابت في القلب والتذكر المذكور لا ينتج الا من ارادة القلب الحرة فينعكس مافيه من المرئيات المطبوعة في الميزان ثم تظهرها بشكلها للروح ثانيا كأنها محدثة في الوقت واللحظة التى يتفكر فيها وهناك يكون التذكر وعمل الذاكره

وما يدل على أبدية مايرد النفس من الميزان قول الله تعالى عند خطاب النبي عليه الصلاة والسلام لقومه في الآية : فستذكرون ماأقول لكم وافوض أمرى الى الله — اذ معني ذلك أنهم سيجدون أنفسهم يوم القيامة خاطئين ثم هم لايلومون الا أنفسهم لانهم

كذلك سيجدون كلام النبى صلى الله عليه وسلم وتحذيره لهم ودعائهم الى الاسلام مطبوعا في أرواحهم فيقرون بانفسهم ويعترفون أنهم قد اختاروا الضلال المبين . وكذلك قول الله تعالى عن الذين تعهدوا لله تعالى عهدا ثم نكثوا به في الآية : « فاعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون » فان الذي يخالف العهد يشعر في ضميره بمثل هذا النفاق وهذا الانعكاس الذي يطبع فى الروح من الميزان ويبقى بها ولا يزول الى يوم القيامة ـ وبمثل ذلك كل التفكرات الانسانية

ولذلك اذا كان انسان كثير التذكر والفهم ويمكنه ان يكتب تاريخ حياته يوميا ثم تركه ردحا من الزمن وأعاد مطالعته ولو في آخر حياته فان معانى ماكتبه من تلك الحوادث البعيدة يتجسم امامه ثانيا كأنه حصل ساعة قراءته وما ذلك الا لان كل ماحصل منه مازال مطبوعا فى روحه كطبع الفتوجرافيه - هذا ولنعلم ان الامانة يمكنها ان تطبع في الروح مالا حد له من العلم وهذا من الغرابة بمكان عظيم على خاصية جوهر الروح العظيم – فاذا فرض ومات الانسان فان الامانة التى كانت معه تفارقه لانه لم يمنحها فى هذه الحياة لغرض ينتهى بالموت ثم تبقى الروح بعد الموت كشئ مختوم فليتق شيئاً جديداً ولا تتذكر شيئاً الا بطريق الوحى أو الالهام الآلهى بواسطة الطائر وهو الوحيد الذي يرافقها فى جميع أدوارها الابدية ولكن لاتعرف منه شيء مطلقا باختيارها بل به فقط يوصل الله تعالى لها مايريد كما سنوضحه

وعلى ماذكر فالعقل في الحقيقة هو ربط الروح لما يرد اليها من الميزان فى ذاتها عند استعمالها الميزان المذكور – ويمكننا ان نقول ان العقل هو العلم اذا أردنا التعبير عنه بلفظ موجز وكيفيته كما سبق ايضاحه – فاذا أردنا ان نميز شخصا على آخر فى اتساع العقل فلا يكون الا بكثرة العلم فقط – غير انه يجوز ان يكون فرد كثير العلم ويحصل له عارض فى الميزان أو الروح أو ... أو .. فتكون سرعة تعقله فى الغالب أقل ممن كان قليل العلم سليم البنية ولذلك قيل : العقل السليم في الجسم السليم. كما يجوز ان يكون انسان مريض بمرض لايؤثر على أجزاء الدماغ فلا يشترط ان يكون ضعيف العقل – ولهذا حث الله باستعمال الامانة أو لزوم التعقل وهذا لايكون الا بحرية النفس ورغبتها الذاتية – فاذا

فرضنا رجلين أحدهما سليم الرأس والجسم ولـكنه لايستعمل امانته ولا يتعقل والثاني برأسه عارض بسيط ولكنه مجتهد ويتعقل فان هذا الاخير أفضل من الاول فانه على عيبه يستعمل أمانته فتزداد روحه علما بالتدريج بخلاف الاول فانه لتركه التعقل كانت سلامة صحته كعدمها لانه لم يستعملها فيما خلقت لاجله وسعادة الانسان فى الدنيا والآخرة متوقفه على استعمال الامانة أو على التعقل وان شئت على تناوله العلوم المختلفة فبها يعز الانسان وبدونها يشقى وبها يمكنه أن يستدل على علة وجوده ويتأمل لفوائد أوامر الله تعالى في الدين وحسن النظام الذى بنى الله الكون عليه وسير الانسان على نظامه

فالعقل ليس شيأ خاصا لنفس دون أخري بل خلق الله تعالى كل الآدميين أرواحا بشكل واحد ونظام واحد وتركيب واحد وان تغير الآن تبعا لحرية النفوس فى اكتسابها وان اتساع العقل نفسه متوقف على ارادة الشخص الذاتية واجتهاده وتأمله الذاتى — فالفرق الذي يظهر بين الناس وبعضها فى العقل هو فقط لاختلاف التأمل وكيفيته ووسطه — فاذا فرض وولد انسان بعارض يضعف تعقله فان الله تعالى لا يعامله الا بمقدار حالته التى هو عليها جهد استطاعته كما انه تعالى يعامل سليم العقل والجسم بما يليق له — واذا فرضنا المستحيل ولم توجد عوارض لبنى الانسان واتحدت المشارب فى التفكر وكيفيته لكان لافرق فى العقل بين انسان وآخر — ولكن هذا محال — لان تلك الحياة الدنيا لم تك لتكون بها بهذا التساوي الجميل . بل هى ليختار كل انسان بحريته التى هى علة وجوده كما يشاء فيفتكر بحريته ولا يفتكر بحريته ويعقل بنفسه ولا يعقل بنفسه وبذلك تفاوتت الدرجات فى العقول كما تفاوتت الدرجات عندالله تعالى في الدنيا وسيكون هذا التفاوت أيضا فى الآخرة حسب اختيار كل نفس وان كان الجميع ولدوا على الفطرة وخلقوا متساويين فى المنشأ الروحانى الاول (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا)

هذا وان الآيات القرآنية العظيمة تشير الى هذا المبدأ الذي نؤيده . فمنها ان الله تعالى يكره مخلوقا ترك نفسه من غير ان يستعمل أمانة الله تعالى التى معه ولا يتعقل بها شيئاً فكان بهذا الجمود بعيدا عن الايمان كقوله تعالى ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون — ومما يشير الى ان التعقل متوقف على اساس الغرض من الخلقه وهو « حرية

الاراده » قول الله تعالى: ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون — ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون — فهذا يشير الى ان السماع بلا تعقل لا يفيد مطلقا لانه يطرق الآذان فقط كاهتزاز الهواء وهى أصمة مسدودة — وان قول الله تعالى « أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » اشارة للمبنى ولكل انسان أن الانسان مهما كانت درجته ولو كان نبيا يستحيل ان يفعل شيئاً سبقت كلمة الله تعالى في منحه للمخلوق وهو « حرية الارادة » فقضى وقرر نفاده لجميع الخلق وانه تعالى ولو انه قادر على كل شى ولكنه لا ينكس هذا القرار الحق مطلقا أو يجعل لاحد من المخلوقات غيره مهما عظمت درجته نفوذا أو تأثيرا لامكان تحويره أو مسه — وعلى ذلك اذا نصح النبي عليه الصلاة والسلام بعض المخلوقات أو ذكر لهم كلام الله تعالى وهم لا يريدون بانفسهم وبمطلق حريتهم ان يتعقلوه فعبثا يحاول ارغامهم على الفهم مهما استعمل من الوسائط

ومع ذلك فانتهاز الناس فرصة هذه الحياة وتركهم آيات الله تعالى بحريتهم بلا تعقل مما سيضطرهم الى الندم العظيم فى الحياة المقبلة يوم لا يكونون أحراراً فى ارادتهم كما يشير الله تعالى الى ذلك فى قوله : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » — ولذلك كان المتعلم الذى يتعقل أقرب الى الايمان من الجاهل وكثير العلم أقرب من غيره للايمان ومعرفة الله تعالى وحقيقة الحياة

أما أكثر الآيات القرآنية فهى تشير الى ما في العالم من أنواع الخلق وكافة العلوم المتنوعة حثا لكل نفس ان تتوغل في التفكر بذاتها فيما يلائم ارادتها الخصوصية ولان البحث والتأمل لاقتباس العلوم مما يلجىء النفس الى الايمان العظيم والتثبت فيه فيقدس الانسان ربه كلما رأى حكمة الله تعالى في الخلق ويشكره وان هذا التقديس والشكر هو كل الغرض من الخلقة فى هذه الحياة ولم يخرج الانسان من بطن أمه الا لذلك . وما تقرر عليه الموت والحساب والجزاء الا لهذا الامر السهل البسيط ان كان يستعمل مواهبه الذاتية بحق وامعان — فمن ذلك قوله تعالى : « وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان

يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الا كل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون »
فشكل الارض والجبال والانهار والثمرات واختلاف الليل والنهار . . الخ كل ذلك يحتاج الى علوم كثيرة وان علما واحداً لو تفرد له الانسان فيما يختص مثلا بالارض أو بما يختص بالانهار أوغيرهما لملأ مجلدات كثيرة مما نرى آثاره فى الامم المتمدنة فكم من علوم نافعة اكتشفت من الارض كعلوم الكيمياء والطبيعة وعلم طبقات الارض والجغرافيه و ... و ... مما لا يحصيه الا أربابه المنقطعين لمثل هذه التأملات التى يشير الله تعالى اليها وكلها آيات بينات ونعم زادت أربابها نورا وتدل على تمام قدرة الخالق سبحانه وهى لم تعلم لهم الا بالبحث الصحيح والتفكر والعمل وبمثل ذلك يقال فى علوم النباتات والانهار . — فاذا كان لا تفكر ولا تعقل لانزوت كل أمة فى وطنها كبعض الحيوانات المتوحشة التى لا تفارق مفاوزها ولا تعرف ماهو خارج عن دائرة وجودها بل لما ظهر تفضيل الله تعالى لبنى الانسان على أكثر المخلوقات وان قول الله تعالى عما ذكره في الآيات السالفة آيات تدل على تمام قدرته وكماله ولكن ليس لكل الناس . بل قال للذين يعقلون فقط . اذ مطلق التفكر فى شيء منها مهما تنوع كاف لمعرفة الله تعالى . — وان الناس جميعا لو أرادوا بأنفسهم ان يتمعنوا جميعا في هذه الاشياء المتنوعه السالفة لظهر لكل واحد آية فيما تفكر فيه وتعقل — وهذا الحال نراه بأعيننا الآن في الامم الغربيه فان كل انسان مجد بنفسه ومتفكر فيما أراد بنفسه أن يتفكر فيه فانقلب العالم ورأينا من الاختراعات والعلوم مالو تصوره أحد علماء الاسلام الذين يعتقدون ان تعلم العلوم التى تخرج عن حد الفقه كفر لقال ان ذلك ليس من طاقة البشر — والحقيقة ان السبب فى ضعف الامم الاسلامية هم الذين ادعوا العالمية وخطوا لانفسهم ماتقشعر منه الابدان ثم ألصقوه بالدين فسرى فى الامة سريان السم ولا يعلمون الى أي حفرة هم سائرون — وبمثل ماتقدم يقول الله تعالى : ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيهما من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون . — فكل ماسبق آيات ولكنها لا تظهر الا لمن تفكر فيها بمطلق حريته وان هذا التفكر متوقف على ذات الانسان وحريته

المطلقة التي لا تأثير عليها من أحد أو شيء كما أراد الله ذلك لكل نفس في هذه الحياة — فالذين يريدون بانفسهم التأمل ويعقلون نتائج آيات الخلق التي يذكرها الله تعالى علموا انها آيات عظمى تدل على كمال قدرة الخالق سبحانه — والا فمن ترك التفكر والتأمل فيها كانت أمامه كلا شيء مطلقا وهو نفسه يصير أشبه بالجمادات أو أضل من ذلك بكثير

هذا وان الغاية التي نرمي اليها فى هذا الباب هو ان آيات الله تعالى تؤيد المبدأ السابق الذي نشير اليه من حيث الغرض من الخلقة وتركيب الروح مع الامانة أو البصيرة وان العقل ليس الا طريقة وعمليه تحدث برغبة الروح واستقلالها الذاتى عند تأملها في أى شيء باستخدامها البصيرة — فكما ان النفس جعل الله لها هذا الاستقلال في الارادة فانه تعالى بقدرته جعل من خواص هذه البصيرة التي ألزمها لكل نفس ان تريها كل شيء على حقيقته الكلية بلا زيادة ولا نقصان « فانها لا تعمى الابصار » علاوة على كونه يطبع فى الروح ولا يزول منها الى الابد مطلقا

وكثير من الناس يتوهمون أن أمثالهم أقل عقلا ومنحطون عنهم والحقيقة ان المنحط (ان لم يكن من ذوى العاهات الوراثيـة التي تؤثر على العقل) اذا استعمل الوسائط التي استعملها الآخر العاقل لزاد عليه أو ساواه وهو ما نراه من ترقى كثيرين من أفراد الشرق بين الامم الغربية عندما يترافقون معهم في مضمار العلوم والاعمال المختلفة — مما يدل على ان العقل متوقف على التمرين ورغبة النفس واجتهـادها الشخصى — وما يتولد الفرق بين كثير من الناس الا بترك الفرص والاوقات تمر بلا تعلم أو فائدة . فيظهر ذو العلم يوما سيد أقرانه وهو المشاهد في كل زمان ومكان — فالشرق ما ارتفع في عز أيامه الا بالعلوم وما انحط الآن الا بالجهل . وما كان الغرب منحطا في الابتداء الا بالجهل ولا ارتفع الآن الا بالعلم « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ! »

(طائر الانسان رسوله الخاص عند الخالق)

نظرا لوجوب « حرية الارادة » فى الانسان في هذه الحياة ليفعل ما يشاء لم يكتف الله تعالى بمنحه العقل وحده مع انه لا يخطأ فى شيء اذا استعمله الانسان باخلاص (فانها لا تعمى الابصار) بل جعل في النفس حواساً ترشدها الى الضار والنافع كالحواس الخمس

حتى لا تكون الروح عرضة لما يؤلمها أو يؤول بها الى الاسراف المهلك في أى شيء تتناوله أو تستعمله وان كانت تلك الحواس من طبيعة الروح الفطرية . بل زيادة على ذلك أيضاً جعل لها تعالى رسولا خاصاً عنده خارجا عن دائرة العقل والحواس معاً هو ما يسمى «بالالهام» أو الشعور وهو الرابطة الاولى الحقيقية بين العبد وخالقه . فاذا سجد انسان لله تعالى أو ركع أو طلب منه شيأ فهذا ليس مبنيا على شيء ظاهر من الله تعالى لحواسه أو عقله (لا تدركه الابصار) ولكن بشعوره الروحانى يسجد ويتضرع ويطلب من الاله الحق الواحد وغاية وظيفة العقل هو أن يوضح للروح كيفية التضرع وأسبابه وحقيقة كل شيء فى العالم وليثبت لها بعد تأملها مقدار عظمة هذا الخالق المحتجب (سبحانه) وما يجب أن يكون عليه من القدرة والعظمة والجلال

وهذا الالهام في كل نفس حتى ان الذين قصرت مداركهم العقلية يشيرون الى السماء الى الخالق سبحانه أيضا وتلك الاشارة ليست بتعليم خاص بل شعور موجود فى النفس والهام ثابت ويمثل ذلك بنوا الانسان الذين يولدون بكما وصما . فكثيرا مايخاطبك ويشير لك بأصبعه الى السماء للدلالة على وجود الخالق سبحانه مع انه لم يسمع في حياته لفظة اله ولكنه الشعور والالهام الموجود في كل نفس والذي له ارتباط خاص بالنفس وخالقها وان كان ذلك لا يمكننا نكرانه فالظاهر ان النفس تعجز عن ادراك جوهر هذا الطائر الالهامى وحقيقة كيانه . لانه من الامور التى ما زالت مجهولة لعقل الانسان مع ظهورها كجوهر الروح وجوهر نور العقل — وغاية ما نعلم عنه أن له ارتباط كلى ثابت مع الروح الانسانية كما يشعر الكل بذلك بداهة وهو يسمى في القرآن العظيم (بالطائر) — وحقا فان هذا الاسم ينطبق تمام الانطباق على وظيفة هذا الجوهر وما يقوم به لان الانسان اذا ألهمه الله تعالى بشيء لم يك فى ضميره فان هذا الالهام أتى من السماء من الخالق (سبحانه) بواسطة هذا الطائر . فانتقال الالهام من السماء الى النفس في أوقات مختلفة تبعا لاعمال الانسان تشبه تنقل الطير وسرعة حركاته فى التنقل من الوهاد الواطية الى قمم المحلات العالية وبالعكس فكان الاسم منطبقا على حقيقة وظيفته العظيمة

وقد سبق وأوضحنا في الروح ان ارتباطها بكل شيء خارج عنها كالعقل والاحساس

وغيرهما هو من جزئها العلوي المسمى بالنخاع المستطيل في النقطة المسماة شجرة الحياة وهى تقريبا فى الجزء المتوسط من أعلا العنق الى ما تحته بقليل ولذلك يشير الله تعالى في القرآن العظيم الى هذه الحقيقة التى يثبتها علم الطب أيضا فى الآية : « وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه » — فالطائر اذاً مرتبط بالروح في هذا الجزء من الروح في العنق في نقطة تولد العقل وبه تتصل الالهامات الالهية الحقة الى الانسان فكم من أناس يلهون من الخالق سبحانه بأمور لم يسبق لهم درسها أو العلم بها !! — وهذه الالهامات لم تأت للانسان عفواً بلا نظام بل هى تابعة لنظام الله تعالى فى العالم حسب أحوال الافراد أو الامم وأعمالها الخاصة .

أما سبب الالهام فى الغالب هو لاحتمال ترك الانسان للعقل وعدم استعماله لاظهار الحقائق التى تنكشف له من قدرة الخالق (سبحانه) وما يجب له من العبودية — لان العقل وان كان يظهر للنفس كل حقيقة غير انه تحت مشيئتها في الاستعمال فان شاءت النفس استعملته وان شاءت النفس تركته — ولاجل أن يتحوط الخالق سبحانه للنفس عن نتيجة أعمالها المختلفة التى هى حرة فيها وحتى لايكون لها حجة عند الخالق سبحانه عند الحساب بالارتكان على أي سبب آخر جعل لها تعالى هذا الطائر علاوة على العقل ليلهمها من أول وهلة بنتيجة كل عمل صغيرا أو كبيرا من خير أو شر — . ومن جهة أخري . فقد يرد للانسان مايجهله ولا يمكنه الحكم فيه بصحة أوفساد الا بعد التجربة وطول التأمل لعدم سبوق فحصه فالالهام يوضح للنفس مافيه الضر او مافيه النفع فيما ترغبه من أول وهلة .

ومع كل ذلك . فالانسان مازالت حريته محفوظة يفعل من الالهام ماشاء ويترك ماشاء فهو ليس بالامر الالزامى للنفوس غير انه رسول حق اليها لايجب الاستخفاف به . قال تعالى : (قالوا انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . — قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم) أى بالالهام والشعور بسوء المنقلب فلم تبالوا به أيضا (بل أنتم قوم مسرفون) أى لاتبالون بأى منذر كان ظاهرا أو باطنا وقال تعالى أيضا فى آية اخرى (قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال انما طائركم عند الله) فهذه الآية الاخيرة تؤيد ما كان عليه القوم من الاعتقاد الكاذب بالطيرة حيث ان الله تعالى ألهمهم بطائرهم الحق من عنده بضيق فى صدورهم وهم عند ما كذبوا رسولهم وأظهر لهم تعالى سوء المنقلب الذى سيئولون

اليـه من تصميمهم على الكفر ومن جهلهم حقيقة الغرض من هذا الالهام الذى هو لهم أشبه بمنذر آخر عن سوء أعمالهم ومع كل ذلك لم يقتنعوا أيضا وذكروا لرسولهم حسب الخرافات التى كانوا يعتقدونها انهم متطيرون ومتشائمون في قلوبهم من شخصه حسب عوائدهم القديمة مع ان ذلك كذب وافتراء لان ذلك من الهام الله تعالى وحقهم يتشاءمون من نفس أعمالهم وعدم ايمانهم به اذ قال لهم قول الصدق : انما طائركم عند الله — أى ان هذا الالهام الردىء الذي تشعرون به هو من الخالق سبحانه بسبب تكذيبكم وكفركم بحيث لو فرض وآمن هؤلاء القوم لشعروا في نفوسهم بالارتياح وسلامة الضمير وانشراح الصدر ولزادهم الله تعالى فضلا بدل هذه النقمة لو كانوا مؤمنين .

وعلى ذلك فالالهامات لا تأتي عفوا للنفس من الخالق سبحانه بلا اسباب أو نظام حق بل تبعا لسيرة النفس الخاصة وما يريد الله تعالى أن يلهمها به تبعا للعمل والوسط الذى تكون فيه

والانسان نفسه يمكنه أن يحكم على ذوات أعماله ان كانت ترضى الخالق أو تغضبه من شعوره الذاتى الذي يلهم به عنـدما يؤدى أي عمل مهما كان — فكم من رجل يشعر بارتياح في صدره عندما يمد يده بالاحسان وكم من رجل يحصل له ألم في ضميره عندما يعمل جرما صغيرا أو كبيرا — ولنتأمل الى بعض قاتلى الانفس ولننظر لهم ونسألهم وعما يؤخذهم فى ضمائرهم ويزعجهم فى منامهم عند غدوهم ورواحهم !! هل تلك أمور لا أصل لها ؟ كلا ... ان ذلك من الخالق سبحانه بواسطة الطائر فهو تعالى يلهم النفس عن كل عمل فيه التقوى أو كل عمل فيه الفساد والفجور « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » وذلك لتعلم به النفس علاوة على العقل الى أى جهة وفي أي عمل يجب أن تسير بحريتها ... هل فيما يوجب لها توبيخ الضمير ويؤلمه أو فيما يشرح منها الصدر ويجعلها مطمئنة هادئة

وفي الغالب فان حكم الضمير أو الالهام أسرع من حكم العقل فى الحصول على النتيجة — لان العقل لا يحكم الا اذا تأمل فى الاسباب والمسببات والنتائج . — أما حكم الضمير أو الالهام من الطائر من الخـالق سبحانه فهو وقتى وحكمه قطعى حق . فاذا فرض وعمل الانسان شيأ يتخيل فيه الفائدة ووبخه الضمير عليـه بعد نفاذه ثم بحث عنـه بالعقل بتأمل واخلاص وجد أن العقل بعد فحصه يوافق الضمير أو الالهام تماما علي ضرره أوعدم فائدته .

اذ المؤكد : ان الطائر للنفس رسول خاص من الله الحق صادق . — وسنشبع الايضاح عن ذلك فى محل آخر .

(حرية الاراده والقرآن العظيم)

لايخفى ان حرية الاراده التى هى أساس الوجود في هذه الحياة والتى بسببها منح الله الانسان الامانة أو العقل والشعور على اختلافه هى الامر الوحيد المهم الذي قرر الله تعالى وسبقت كلمته فى عدم مساسه فى المخلوق اثناء هذه الحياة حتى جعل سبحانه نظام العالم ونظام علاقة الانسان مع غيره أيضا ان لا تأثير عليهامطلقا « اللهم الا اذا أراد المخلوق استسلام نفسه لغيره ولو كان الانسان للحجر » فهذا شئ لاينافى هذه الحريه بل يؤيدها — ولذا نري آيات الله تعالى القرآنية كلها مبنية على التحفظ على هذا الاساس الثابت حتى لاتمر آية واحدة من غير ان يشير الى هذا المبدأ العظيم . من ذلك قوله تعالى : (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولايزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم.) فهى تؤيد ان علة الخلق في هذه الحياة هى منحهم هذه الحرية المذكورة . - فان قول الله تعالى (ولا يزالون مختلفين) اشارة الى انه يترك كلا باختياره يفعل مايشاء بتمام حريته وانه تعالى لايمس هذه الحريه التي نشأ عنها هذا الخلاف بين الناس مادام قادرا ان يجعلهم متحدين امة واحدة فهم لايزالون على ذلك مختلفين لان منحهم الحرية أمر قد تقرر ويستحيل رد كلمة الله تعالى في أمر حق هو العلة الوحيدة فى الوجود الحالى حتى قال تعالى فى الآية تأييداً لذلك : (ولذلك خلقهم أي ان الغرض العام من الخلقة هو منح المخلوقات هذه الحريه ليختار كل ماشاء فيختلفون ان شاؤا ويتحدون ان شاؤا فللاتحاد نظام أساسه الايمان به تعالى وحده وللاختلاف نظام أساسه عدم الايمان والكفر (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وان هذا النظام وحده هو اللائق لكمال الخلقة الانسانية من جهة ولكمال الوهية خالقها من جهة اخري .

وأما قول الله تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة)اشارة للانسان بان قرار الله تعالى في عدم مساس الحريه « الا اذا اقتضاه النظام العام »لايلجيئه الى التفكر بان قدرة الله تعالى تعجز عن تساوي الناس جميعا فى هذه الحياة ! . كلا (وربك على كل شيء قدير)

بل هو قادر على مساواتهم ولو شاء لفعل ولكنه تعالى لا يفعل ولن يفعل الا بحق ولاجل ان تتذكر النفس التي لاتتفكر في علة هذا الخلاف مع وجود الله تعالى بان قدره الله تعالى ارفع من ان يتوهم فيها العجز في شيء ما .

واما قوله تعالى : (الا من رحم ربك) فهو اشارة للنفوس لمبدأ آخر حق غير مبدأ الحريه . — اذ من ضمن نظامه الحسن الذى جعله تعالى بينه وبين عباده بعد ان منحهم تلك الحرية ليعبدونه أو يشكرونه أو يكفرون به ان جعل نفسه تعالى رئيساً ووليا خاصا لكل من اختار بحريته الايمان به تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات) فيهديه الى الصراط المستقيم بهذا الايمان (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بأيمانهم) ترغيبا للنفوس فى اقامة هذا الواجب السهل الذي هو كل الغرض من هذه الحياه واشارة الى انه تعالى لايريد غير الرحمة فقط للجميع (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) . — فالقائم بالشكر في هذه الحياة يريح ضمائره ويزيده الله تعالى هدي (ويزيد الله الذين اهتدوا هدي) ورحمة وتآلفا مع غيره من المؤمنين فيكون هذا التآلف والمحبة من الله تعالى رمزا على الرحمة . اذ لايخفى ان الاتحاد والوئام بين الناس هى من أكبر الرحمات لمن تأمل فى متاعب الحياة ولكن هذا لايكون الا بالايمان بالله تعالى بمطلق حرية النفس وانه كلما زاد الخلاف والتنافر بين الناس كان علامة عدم الايمان الخالص لله من الاكثرين

فقول الله تعالى (الاّ من رحم ربك) لايقصد بها انه تعالى تعمد اخلاف اناس ورحمة آخرين بلا سبب . . كلا . . . بل ان جميع الخلق عنده سواء ولكنه تعالى يشير جملة واحدة الى النظام الذى جعله بينه وبين عباده من اختصاص نفسه تعالى بالرحمة والهداية لمن أرادها بحريته وايمانه « ان علينا للهدى » وان كلمته تعالى سبقت قبل ايجاد العالم في لزوم حرية الاراده لجميع الخلق لاداء الايمان بها الذى هو الغرض من الخلقة . وانه تعالى يستحيل ان يقضى بالخلاف بين الناس في هذه الحياة فان ماجعله فى نفوسهم كاف كفاية تامة للاتحاد بين أنفسهم والوئام والرحمة لو أرادوا ذلك بايمانهم (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما هم فيه يختلفون) وهو تعالى يزيد بنفسه هداية من اراد بنفسه الهداية

والايمان من الناس ترغيبا للجميع فى الرجوع اليه تعالى . — ولعدم مساسه تعالى حرية الاراده كان السبب فى ارسال الرسل والانبياء الى الناس ونزول الكتب السموية أيضا . — كل ذلك رحمة فقط وزيادة فى الرحمة على بنى الانسان (وما أرسلناك الارحمة للعالمين) وان جمال الخلقة في النفوس والعقول البشرية كاف لاداء السلام والرحمة بين الجميع ولكن ذلك متوقف على مافى ضمائرهم الشخصية وايمانهم وانهم بكل مايجب عليهم يشعرون ويعلمون ولكنهم بانفسهم يتعامون ولايعملون ولذا قال تعالى : (ولذلك خلقهم) أى لهذا النظام بضرورة حفظ الحرية للجميع كانت علة الخلق فى هذه الحياة بحق تام وعدل مطلق

ولرب انسان يقول مستفهما . . . ماحظ الله تعالى ان يختلف الناس فيما بينهم ثم يعذبهم ولايرحمهم ؟ وما هو حظه تعالى من العبادة اذالم يعبدوه أو يشكروه ؟ ... فنقول : أما اختلاف الناس فالله تعالى لم يمنحهم تلك الحرية لغرض الاختلاف نفسه بل للايمان والشكر الذي هو طريق النفوس الفطرى فانقلبوا بتلك الحرية الى الكفر بأنفسهم فتركهم الله تعالى في اختلافهم ليس لغرض الاختلاف نفسه بل لضرورة بقائهم احراراً في نفوسهم علهم يرجون بانفسهم أيضا بهذه الحرية الى طريقهم الفطرى الاول فيما بقى من حياتهم

أما العبادة فالله تعالى مستغن عنها كلية (ان الله غني عن العالمين) غير أنها أمر واجب بين خالق رحيم ومخلوق عاجز يتطلب استنشاق الكمال من النعم التى أحاطه بها الخالق — وان كمال قدرة الله تعالى فى الخلقه ووحدته فى الالوهية ليجعل مخلوقا كالانسان بمثل هذا الجمال والعقل وبعد ان نقله من حالة تشبه العدم فى بدء نشأته الى هذا الوضع الكامل ثم يريد ان يجعله في الحياة المقبلة أرفع بكثير من هذه الحياه تستوجب ان يقدم له تعالى كلمة شكر بسيطة وسهلة بتمام الحرية لاقيمة لها عنده تعالى غير كونها واجبة فقط (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون) — . فما ارخص رحمة هذا الخالق الكريم ... اذ كلمة شكر له بحرية واخلاص تعتبر ثمنا لنعم أبدية لاتزول وكمالا لاحد له (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين) . — وما أغلى قيمة هذا الانسان الكامل العاقل ان كفر وأنكر هذا الواجب

السهل الحق اذا التى فقط في قرار الجحيم

وبذلك نفهم من الآية السالفة مايأتى (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة) أي يضطرهم بقدرته الخاصه الى حالتهم الفطريه من الاتحاد بالايمان بدل الاختلاف لانه على كل شئ قدير (ولا يزالون مختلفين) أى بعدم ايمانهم واخلاصهم بمطلق حريتهم التى منحهم الله تعالى بها وسبقت كلمته في عدم مساسها لانها الحق (الا من رحم ربك) أى ممن آمن بالله منهم واخلص واهتدى بحريته المذكورة (ولذلك خلقهم) أى لغرض منحهم تلك الحريه الحقه ليقوموا بها بتمام العبوديه خلقوا وأوجدهم في هذا العالم فلا سبيل الى اضطرارهم بالقدرة في هذه الحياة لجعلهم امة واحدة مؤمنة ان لم يريدوا هذا الايمان بأنفسهم

أما كل آيات القرآن العظيم بلا استثناء فهى تشير الى هذا المبدأ ولكن ذكر باقى نظام الله تعالى في الخلق مع هذا المبدأ في بعض آيات قرآنيه كالجملة (الا من رحم ربك) التى التزمنا بايضاح الغرض منها الآن مما يجعل بعض التباس في افهام قليلى التأمل والامعان الذين يتمسكون بالاعتقادات القديمة الباطله من اختصاص الله تعالى بالرحمة لاناس دون آخرين بلا سبب . — فنحن نذكر هنا بعض مايؤيد موضوع (حرية الارادة) وما يجب من الايضاحات لمبادىء اخرى نتركه ليذكر فى موضعه منعا للارتباك فى التعبير وسهولة فهم موضوع واحد بعد الآخر

فمن ذلك قول الله تعالى «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم» فهذا الامر بالعبادة دليل على حرية الناس فى عدم العبادة . فهو تعالى يأمرهم بها رحمة عليهم لا ليلزمهم بها الزاما . بل لعل هذا يؤثر عند بعض الراغبين في العبادة فيكون لهم كزاجر عن عدم العبادة ان تركوها فينالون بها الرحمة . وهو أمر يليق لمن له الكمال المطلق . بحيث اذا فرض ولم يعبد الله أحد مطلقا فان ذلك لا يهمه مطلقا وهو فى امكانهم ولم يمنعهم الله تعالى عن تنفيذه كالآية «واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد . وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن في الارض جميعا فان الله لغنى حميد» فقول الله تعالى ان تكفروا أنتم ومن في الارض . دليل يظهر حرية الارادة وان هذا الكفر العام من أهل الارض ممكن حصوله برغبتهم الشخصية حسب حرية الارادة التى

أراد الله تعالى أن لا يمسها فى هذه الحياة — ومن ذلك قول الله تعالى أيضا « أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل » فلا يخفى أن قوله تعالى « أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسى » هو : أن يقولوا له أرنا الله جهرة وان هذا السؤال لا يريده الله تعالى لانه قرر احتجابه المطلق فى هذه الحياة عن البصائر لحكم ثابتة يستحيل اختراقها وأولها « حرية الارادة » فهى فى الانسان وذات الله العلية أمران لا يجتمعان مطلقا بسبب « كمال الله المطلق » وقد أوضحنا العلة فيما سبق — فكأن سؤالهم هذا لو أرادوه يضاد الغرض من خلقهم ولان ما خلقه تعالى فى نفوسهم كاف للاعتراف بعدم جوازه مطلقا . وان سؤلهم هذا دال على التعنت والكفر ليس الا . فلا يمنعهم الله تعالى عن طلب شىء نتيجته اختراق نظامه الحق ولكنهم في الحقيقة يضرون أنفسهم وما يشعرون .

أما قول الله تعالى « ومن يتبدل الكفر بالايمان » دليل واضح على أن هذا التبديل لا يكون الا بمطلق الحرية وعدم الضغط الى أى الجهتين وفيه مطلق الخيار .

ومن ذلك قوله تعالى « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » فهى تدل على اعلان التسابق للخلق الى الاحسان وحرية الاقدام عليه لمن أراد مضاعفة هذا الاحسان لنفسه بعد الاقدام عليه — ومن ذلك قوله تعالى أيضا « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى » — فعدم لا كراه في الدين يدل على وجود الحرية التامة فى الناس عموما وهم الذين نزل الدين لاجلهم فكل يختار ما يشاء ويريد حسب رغبته الذاتية — ومن ذلك قوله تعالى « قال يا قوم أرأيت ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ! » فهذا يدل علي حرية الارادة أيضا وعدم الالزام في القبول . ومن ذلك « ان تبدوا الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتأتوها الفقراء فهو خير لكم » فابداء الصدقات واخفائها وتصريح ذلك من الله تعالى نفسه مما يدل علي تصريحه تعالى لوجود حرية الارادة فى الانسان وابداءه تعالى للاخير لم يك الا للترغيب فيما يؤول الى الفائدة الاكثر فلعل من يتصدق يتبعها بحريته الشخصية أيضا .

ومن ذلك : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا

نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا أشهدوا بانا مسلمون »
فامر الله تعالى لاهل الكتاب لهذه الدعوة مما يدل صريحا من الله تعالى على جواز قبولها
واذعانهم بها وهى أمر لم يعلموه قبل ان تصل اليهم دعوته والا لو علم الله تعالى انهم لن
يذعنوا لها ما كان ارسل رسولا ولا كان لزوم الى هذا الطلب والامر — ثم ان قبولهم هذا
الطلب واحتمال عدم قبوله في قوله تعالى « فان تولوا » مما يدل على التصريح بحرية الارادة
فى عدم الاذعان أو العكس .

ومن ذلك : أيضا « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم » فهذا يدل على حرية
الارادة في القتل وذكر هذه الآية لم يك الا اعلانا وانذارا لمن رغب بنفسه قتل النفس
أو التنحى عن هذا العلم الذميم بمطلق حريته الشخصيه

ومن ذلك قوله تعالى : « ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم
لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » وهو أمر يستعد الله تعالى لحدوثه بمجرد اقامة
التوراة والانجيل على حقائقهما الاصلية ويمنع ضده ولكن تمسكهم بحريتهم الشخصيه فى
عدم اقامتهما وهى الحريه التى ملكهم الله تعالى لها في يدهم في هذه الحياة بمطلق ارادته مما
جعل الله تعالى يجازيهم أيضا بما هم فيه بلا تغيير حالتهم التى كانوا عليها .

ومن ذلك قوله : « وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع ان يدخلنا ربنا مع
القوم الصالحين »

فهذ التصريح وهو قولهم وما لنا لانؤمن بالله مما يدل على الاعتراف بان حرية الارادة
لاضغط عليها من أي جهة كانت وان اختيار الانسان للايمان أو الكفر متوقف على ذاته
وان الله تعالى لايمنع ايمان أي شخص بل هو يريده لكل انسان ولكن بتمام حريته
ويستدل على ذلك أيضا من قوله تعالى : « سيقول الذين أشركوا لوشاء الله ماأشركنا
ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا .
قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون »

فهؤلاء الذين أشركوا بالله تعالى في هذه الحياة سيحتجون يوم القيامة من غير ان
يقبل منهم بان قدرة الله تعالى في هذه الحياة وقت شركهم كانت أعظم لتردعهم عن هذا

الشرك الذى أوقعوا أنفسهم فيه وهى حجة من جهل أو تجاهل نظام الله تعالى فى الخلق والغرض من الخلقه وأنكر نفسه الذاتيه لان حرية الانسان في الايمان أو الكفر أمر بديهى يلمس باليد لايحتاج الى اثبات . — فكما ان الاعتراف بوجود الخالق سبحانه وتعالى أمر فطرى في كل نفس لايحتاج الى كثرة برهان فان حرية الارادة فى الانسان هى بمثل هذه البداهة وعلمها تحتاج الى التفكر الذاتى الممكن حصوله بمطلق ارادة الانسان الحرة في التفكر وعدمه . —

فاذا تفكر الانسان علم وتأكد أن الله تعالى حقا قد سبقت كلمته في عدم مساسه حرية أي شخص كان فى هذه الحياة والتى لولا ذلك ماكان لزوم للخلق ولا كان الخلق حقا . بل كان أشبه باللعب أكثر منه الى الحقيقة . — ولذلك كان شرك أولئك المشركين بالله تعالى في الآية السالفة لم يك الا بعلم ونتيجة علموا بها مما في انفسهم وضمائرهم من عقل والهام وان الفطرة تشعر من سوء النتيجة من الشرك ومن الجزآت الخارجية التى يرسلها الله تعالى تباعاً فى هذه الحياة لردع الانفس المشركة رحمة عليهم من سوء النتيجة الختامية في الآخرة لو استمروا على هذا الشرك الذي هو ظلم لانفسهم عظيم

ومن ذلك قوله تعالى : « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لايأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون » فقول الله تعالى انه لايأمر بالفحشاء وتبرئة نفسه من تهمة أولئك الفاسقين مما يدل على مطلق حريتهم في عمل الفحشاء ثم مطلق حريتهم في نفس القول بنسبة أمر الفحشاء الى الله تعالى . — وكمال الله المطلق لايليق له هذه النسبة كما لايليق له الامر بالفحشاء فهو تعالى خلقهم ليختار كل مايشاء وليعلم نتيجة اختيارهم بعد اقدامهم على ما يختارون . — ومن ذلك أيضا قوله تعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فاعقبهم نفاقا في قلوبهم الي يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون »

فتعهد الانسان لله تعالى وهو فقير مؤمن بالصدقة على الفقراء اذا أغناه الله هو لمطلق حريته فبعد أن يعطيه الله تعالى كما أراد ينقلب من الاخلاص الى الكفر وينكث بالعهد

السابق الذى تعهده لله تعالى وهو فقير وما ذلك الا لانه حر الارادة في نفسه. والله تعالى بمجرد عطائه طلباته الاولى لا يكون ذلك سببا في أن يقيد حريته فى عدم الانقلاب والنكوث وهى الحرية التى سبقت كلمته تعالى بعدم مساسها مطلقا وليس بعد ذلك دليل على ثبوتها — ويمثل هذه الآية بالضبط قول الله تعالى: « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه » فهذا دليل على حرية الارادة أيضا لاداء الغرض العام من الخلقة وليعلم الله بها ما يختاره كل انسان وتقلبه المختلف « وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين » ولتكون رحمته تعالى موزعة على الخلق بالحق والعدل. فانه لولا كمال الله المطلق ما أوجد الخلق ولو لا كمال الله المطلق ما أتم الخلق بهذا الوضع المحكم. ولو لا كمال الله المطلق ما كان خضوع الانسان لله بحريته أمرا واجبا. ولو لا كمال الله المطلق ما كان توزيع الرحمة بحسب قيام كل بهذا الواجب جهد الاستطاعة « من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون » ولو لا كمال الله المطلق ما منح المخلوق الرحمة لمجرد المنة والعطاء وانه تعالى مستغن بالكلية عن عبادة المخلوق لو لا انها واجبة عليه ذاتيا وهو تعالى لايحب الكفر لا لانه يهمه بل لانه يوجب الحرمان من الرحمة فهو تعالى يهمه منح الرحمة ويرضيه الشكر أيضا لا لان الشكر ينفعه بل لانه الواجب المؤدى لصب الرحمة التى يريدها لكل فرد بلا استثناء « ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم »

وما يدل على حرية الارادة كالآيات السالفة أيضا قوله تعالى: « واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو اليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار »

ومن ذلك أيضا: « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال » وهذا يدل على أن متبع الكفر في هذه الحياة يمكنه استبداله بتمام حريته بالايمان والاستقامة لان تقديم هذا التعهد يوم القيامة حق لظهور الحقيقة وقتها من كل وجه. — ومنه أيضا قوله تعالى: « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون »

فاعتراض الله تعالى على ادعائهم بقولهم « مالهم بذلك من علم انهم الا يخرصون » لم يك الا لكونه تعالى منحهم حرية الاراده التى كان يمكنهم بها عبادته تعالى دون ان يمنعهم بل ويساعدهم لادائها ان أرادوها وحجتهم بقدرة الله تعالى فى امكانه ان يرجعهم بالقوة قهرا عن عباده ماعبدوه شركا حجة ساقطة لانهم بذلك ينكرون كل مافي نفوسهم واعترافا بزيادة كفرهم أيضا فانه لولا الوهية الله تعالى وكماله المطلق مامنح تلك الحرية لاحد ولا كانت سبقت كلمته تعالى بلزومها . بل لولاها ما كان الخلق حقا بل كان أشبه بالامر الزائد الذى لالزوم لوجوده . ومن ذلك قوله تعالى أيضا (انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا) . ومعنى ذلك هو خلق الله تعالى للانسان بشكل كامل لايحتاج الى النقص ووضع بنظام به يمكنه اختيار مايحب ويشاء . فاما ان يشكر فبنفسه وحريته حسب نظام خلقته واما ان يكفر حسب ذلك أيضا وفي كلا الحالتين يشعر بالواجب ويعلم بالنتيجة أولاً فأولاً وانذار الله تعالى له بان تكون الآخرة مطابقة لهذه الحياة حسب عمله هو من باب الرحمة ليسلك الطريق الذى يرغب تحمل نتائجه على عاتقه (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) . — وكفى الانسان تنبيها أوامر الله الكثيرة المؤيده لما نشير اليه كما فى قوله تعالى : (فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوي . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوي فان الجنة هى المأوى » . فكل ذلك يشير بلا جدال الى الحرية المطلقة التى منحها الله تعالى للانسان ليختار فى هذه الحياة مايشاء ان الله عزيز حكيم .

ومع كل ماتقدم فان مع حرية الارادة السالفة قد جعل الله تعالى أيضا بازائها (الجزاء) للخلق حسب اختيارهم الشخصى وهذا الجزاء هو بالطبع بارادة الله الحقه وعمله الذاتى العادل . ونضرب لذلك مثلا لتقريب الفهم :

رجل أراد ان يقتل اخاه لثروته وتخيل له انه بعدقتله يأخذ أمواله ويتمتع بها ويعيش فرحا مسرورا لارقيب عليه فيعمل كذا . . . ويأخذ كذا . . . و . . . فهذه مثلا ارادة من ارادات بعض الناس تحصل كثيرا من الاشرار . ولكن نظام الله تعالى العام هو فوق هذه الاغراض الخبيثة . فاذا فرض ونفذ هذا العمل الوحشى المنكر فجزاء الله تعالى

لا يبعد ان يكون الانتقام منه بالقتل أيضا قبل حصوله على بغيته من التمتع . أو يحتمل ان لم تره عين رقيب ان يصيبه الله تعالى بداء عضال يصرف فيه تلك الاموال المحرمه من غير ان يستفيد منها بشيء ماغير الآلام المحزنه والجحيم فى الآخرة . - فوان كان الانسان يريد وله « الحرية » فى كل عمل . غير ان الله تعالى أيضا له الرقابة (ان الله كان عليكم رقيبا) بنظام خاص للحكم العدل بين الجميع حتى لا يكون العالم فوضى ولحفظ حقوق الضعيف من القوي والمظلوم من الظالم وهكذا .... وان اختصاص الله تعالى باعطاء كل حسب نيته (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امريء مانوى) من الطيب والخبيث وتحوير الامور لمجازاة كل بالعدل حسب ماريد ويعمل لاتؤيد مطلقا ان حرية الانسان تتقيد احيانا على نوع ما الا لغرض حفظ النظام العام بين الخلق فقط وتنفيذ الجزاء العدل على الانسان عن كل عمل خيرا أو شرا وان تصور الانسان فى عدم عدل الله تعالى أو تقييد ارادته باى صورة ما بلا سبب أمر لا يطليق للخالق الحق سبحانه ولو كشف الله تعالى لنا الغطاء عن الغيب لعلمنا أنه تعالى يعطينا من كل ما نريده أو نسأله فيه : (وآتاكم من كل ماسألتموه وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها) نعم — اننا لانعلم كل نظام الله الخاص بين عباده من حيث كيفية المراقبة أو الجزاء عن كل عمل . ولكننا نذكر أمورا محسوسة تجرى في العالم يحكم بعدالتها العقل وحسن النظام العام في العالم مما يؤيده القرآن الحكيم . ونقصد ان نظهر ان نظام الله هذا فى الجزاء وان كان فوق الجميع (وما تجزون الا ما كنتم تعملون) غير انه لالغرض منع حرية الارادة ...كلا .... بل لاقامة العدل بين الناس « وهو القاهر فوق عباده وهو اللطيف الخبير » حسب اعمالهم المختلفة اذ هو خير الحاكمين

لذلك كانت حرية الارادة فى المخلوق ملازم لها الجزاء من الخالق وهو يعقبها دائما وسنشبع الايضاح عن ذلك في محل آخر . —

﴿ الفتنة ﴾

ان ثبوت حرية الاراده للمخلوق فى هذه الحياة من الامور التى كثر البحث فيها بين علماء الاسلام ولم ينكشف لهم غبار حقائقها للآن . وسنرى بثبوت هذا المبدأ فى مباحثنا ان اكثر العلماء من المسلمين السابقين خلطوا في الدين خلطا كبيرا . — بل

سنوضح بهذا المبدأ مايجب ان تسير به الامة الاسلامية الى الامام بعد هذا الرقاد الطويل بل بهذا المبدأ سيعرف أغلب ماغمض عن الابصار فى القرآن العظيم الى الآن . — كيف ان الامة الاسلامية تركت هذا المبدأ الاساسى بحيث لو كانت على خطته الحقه الى الآن لكانت الارض بشكل غير شكلها الحالى — وبالطبع لاابالغ اذا قلت ان هذا المبدأ الحق الذى لاشك فيه سيوجب انقلاب الافكار القديمة الخاملة والاعتقادات الوهمية عند المسلمين ليظهر الحق من الباطل وليكون الحق هو السائد الى الأبد

ومن المؤكد ان هذا لايظهر بالبرهان الا بطرقنا امثال المواضيع السابقة البينة ومطابقتها للقرآن العظيم الذى هو اس الدين حتى لا كون مبتدعا شيئاً جديداً فى الدين أو قولا غير واضح فى القرآن المجيد .

فاذا علمنا بلا شك ان الله تعالى خلق الانسان بتمام استقلاله الذاتى وبحريته المطلقة وانه تعالى رقيب عليه بالنظام الدستورى الذى أوضحنا بعضا منه . فتلك الحرية الممنوحة له طبعا ليست الا ليعلم الله من الانسان أحد أمرين : الايمان أو الكفر كما تقدم فى بيان الغرض منها . فكل مايتبع اعمال الانسان من مقاصد مختلفة واعمال متعددة وأحوال متنوعة فى الحياة بخلاف هذين القصدين لم تك الا مواهب كماليه لازمة للحياة نتيجتها العامة الوصول الى أحد النقطتين المذكورتين السالفتين في ختام رواية الحياة القصيرة وفي اثنائها أيضا . — ولذلك كان من لوازم حسن نظام الله الدستوى ان يجعل للانسان في حياته نقطة عند مايصل اليها وجب امتحانه في قوة خياره الى أحد النقطتين المذكورتين امتحانا يكون فيه فصل الخطاب ليتأيد فى أحدهما بنفسه وحريته فاما الى الكفر وأما الى الايمان . — واذا أردنا سهولة فهم هذا القصد فان ذلك فى الحقيقة أشبه بالتلميذ الذي يدرس كثيرا من العلوم ويمكث زمنا معلوما يشتغل بها بقصد ان يتعين فى خدمة ما أوفى دائرة معلومه بها يتمتع بنتيجة تعلمه بالمكسب الحلال والفخر الجميل فمن الواجب قبل تعيينه خصوصا اذا كان معه كثيرون من أمثاله أن يعمل الامتحان بينهم ليعلم به درجات كل منهم حسب اجتهاده . — فبالامتحان المذكور تظهر اذا درجة كل فرد في كل علم تناوله فان مضى الامتحان تناول الشهادة الدالة على درجته وان لم يمض الامتحان وسقط فيه رجع القهقرى

وكأنه ماتعب وما عمل شيئاً فكذلك الله تعالى جعل هذا الامتحان الحتمى الواجب ضمن نظامه الدستورى في العالم لنضيف بهذا الامتحان برهانا جديدا يؤيد المبدأ الحق الذى نحن سائرون فى تأييده فى الغرض من المخلوقات وأسباب خلقتها كما هو موضح فى القرآن العظيم تمام الايضاح .

ومن تأمل فى هذا التقدير وجده بحق تام لا رجعة فيه وعدل مطلق لايشوبه الانتقاد فان نعيم الآخرة شيء هائل فوق التصور ويجب ان يكون مقدم الشكر لله تعالى بحريته فى هذه الحياة متثبتا من الايمان والاخلاص لامتزعزعا (وهو الذى أخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئاًوجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون) فبالايمان وحده سيكون انسان ممتعا فى الجنة الى الابد وبدونه سيكون انسان آخر منغصا فى شقاء الجحيم الى الابد مع ان الاثنين فى نظر الله تعالى فى هذه الحياة قبل الاختلاف واحد (كان الناس امة واحدة فاختلفوا) ورحمته على الاثنين بدرجة واحدة

فأمر هذه الفتنة أو التجربة أو الامتحان مما يؤيد حتما قوة الخيار الموجودة فى الانسان علاوة على ماأثبتناه من الشواهد السالفه . — بل بهذه الفتنة يؤيد الله تعالى فى القرآن هذه الحقيقة وهى تمام حرية الانسان المطلقة في هذه الحياة . — بل تؤيد أيضا كيف يمكنه عمل الوسائل بنفسه باستقلال مطلق لاداء اعماله حسنة دائما للتثبت فى هذا الامتحان أو الفتنة كما يتثبت التلميذ المجتهد طول زمن الدراسة ليكون الامتحان فى الختام سهلا عليه مع تأكده من فوزه على جميع الاقران . — فالمتثبت فى الايمان طول حياته والذي يعمل كل الوسائل لتأييده لايكون كغيره الذى ترك نفسه وتهاون . والتلميذ الذى يلعب طول السنة ثم عند الامتحان يعمل مجهودات كثيرة لترفع درجته ربما سقط لان بضاعته قليلة عن المجد المجتهد طول السنة كما ان هؤلاء ايضا لايتساويان بمن تعلم درسه ثم ترك المدرسة باهوائه بلا امتحان غير مبال بالحرمان من كل شئ فى المستقبل ليلقى بنفسه فى هاوية الجهل ولا يعلم بنتائجها الوخيمة

فبالفتنة أو الامتحان يعلم الله تعالى مركز الانسان من قوة الثبات فيما تحصل عليه من الايمان ولذا قال تعالى : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد

فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » . هذه آية من القرآن الكريم لم تذكر عبثا ولا اعتراضا فيها وبغيرها يتأكد المطالع مما نؤيده من لزوم الفتنة أو الامتحان من الله تعالى للمؤمن . ولولا ان الله تعالى خلق الانسان مستقلا وبتمام حريته لما حتم على المؤمن الفتنة المذكورة التى هى أشبه بالامتحان كما سبق . فبالفتنة يعلم الله تعالى مقدار تثبت المؤمن من الايمان وبالفتنة يعلم الله تعالى تخلخل المفتون بالايمان وكذبه مما لم يكن يعلمه منه لولاها . وبتلك الفتنة يكون كشف النقاب عن الحقيقة المقصودة من الثبات في الايمان . — فمن شواهد القرآن العظيم على ذلك أيضا ايمان قوم موسى عليه السلام فانهم كانوا ضعفاء الايمان بسبب ما ظهر منهم فى عبادة العجل بعد الايمان بالله تعالى بمجرد أن تركهم نبيهم . ومن الآية الآتية نعلم صحة هذا الامر الواجب حصوله مع كل المؤمنين بحسب الوسط الذي هم فيه بطرق متنوعة فقال تعالى : « وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثري وعجلت اليك رب لترضى . قال فانا قد فتنا قومك من بعدك (لان الفتنة أمر لازم) وأضلهم السامري فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسي أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعا . ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى »

هذا وان أمر الفتنة فى الدين تحصل حسب الزمان والمكان واختلاف الاحوال فى الامم والافراد والرسل . اذ الغرض من الجميع واحد وان تنوعت الاسباب قلت أو كثرت فهى لم تك الا واسطة في الحصول على النتيجة العامة التى وضع الله الانسان عليها فى الارض وخلقه في أحوال مختلفة لاداء الغرض منها وهو الايمان .

فمن ذلك مدة النبي عليه الصلاة والسلام عن القبلة فانه لما هاجر كان يستقبل أثناء الصلاة بيت المقدس ثم أمره الله تعالى بعد ذلك باستقبال القبلة التى كان يستقبلها قبل الهجرة وهى الكعبة . فعلم ذلك منه خلق كثير من الذين آمنوا بالله وبه وتأملوا في هذا الانقلاب

والتردد فشكوا في الحال في ايمانهم واطاعتهم له وخصوصاً كان فريق من اليهود الذين آمنوا به يتوجهون عند الصلاة الى بيت المقدس أولا كشريعة موسى عليه السلام . ولما رأوا النبي عليه الصلاة والسلام كان يتوجه فى الصلاة الى بيت المقدس مثلهم فرحوا بذلك وآمنوا به وعندما صدع بالامر الاخير بترك هذه القبلة الى استقبال الكعبة تخلخلوا فى الحال في ايمانهم حتى ارتد أكثرهم بالثانى عن الاسلام . ولكن جعل الله تعالى هذا الانقلاب بأمره بقصد الفتنة أو الامتحان المحتم نفاذه على من آمن بحسب ظروف الاحوال ليعلم الله تعالى منه المتثبت فى الايمان من غيره ويعلم أيضا من يتبع النبي فى كل أوامره ونواهيه بحسب حريته الشخصية ولذا قال تعالى : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها (أى قبل الهجرة وهى الكعبة) الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب علي عقبيه وان كانت لكبيرة : أى على اليهود الذين آمنوا بالنبي وكانوا يستقبلون بيت المقدس قبل رسالته) الا على الذين هدى الله (أي الذين ثبتوا جيداً فى الايمان من أولئك اليهود وغيرهم فاهتدوا وثبتهم الله تعالى في الهداية كما اختاروها من أنفسهم حسب المبادىء السالفة بحريتهم ولم يزعزعهم هذا الانقلاب) وما كان الله (أي يقصد بذلك) ليضيع ايمانكم (أي بمثل هذا الارتداد عن الايمان من فتنة هذا الانقلاب والتغيير في التوجه الى القبلة بل كان غرضه وقصده ثباتكم في الفتنة على الايمان ليزيدكم رحمة) ان الله بالناس لرؤف رحيم) لانه تعالى يرغب الايمان للجميع اذ فيه وبه كل الرحمة ولكن بلزوم نفاذ النظام العام الذى سنه لجميع البشر على اختلاف الرسل ومنه هذه الفتنة فانها الحق الذى يعترف به العقل وبها يعلم الله تعالى هل الانسان يثبت في الايمان الى النهاية أو يتخلخل من أقل تأثير !

ومن وسائط الافتتان أيضا الخوف في المعيشة أو الجوع فى الحرب أو المجاعة الانسانية أو هلاك الزرع أو الموت على تنوعه وهى أمور تعترض أكثر المخلوقات في الحياة يومياً كقوله تعالى : ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين . — ومن الفتنة أيضا تفرق الدرجات فى الرزق وغيره فربما تجد غنيا فاسقا عديم الايمان كثير الرزق والخيرات والاموال وآخر مؤمنا مخلصا فقيرا أو متوسطا فالفقير الاكثر ايمانا ربما يفتتن بحالة الغنى ويتغيظ في نفسه من الله تعالى بسبب هذا الفرق

فيضعف ايمانه مع ان الايمان والتثبت فيه أحسن عاقبة من الاموال عند الله فى الدنيا والآخرة اذ من المحتمل اذا ثبت الفقير على الايمان وصبر ولم يقع في الفتنة بسبب كثرة أموال الغنى الفاسق أن ينقلب الامر ويصير الغني فقيرا في أتعس الحالات والفقير غنيا ويكون بثباته على الايمان مهما تقلب الحال أحسن مآلا بغناه في الدنيا علاوة على تمتعه الابدي المقبل ولذا قال تعالى في الآية : « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين » أي سواء كان غنيا أو فقيرا ومن المحتمل أن يكون الغنى شاكرا وأفضل بكثير من الفقير الذى ربما كان فقره أيضا علة لمضايقته ليبتعد عن المحارم التي ينغمس فيها اذا اغتنى وليلتجأ من شدة الفقر الى تذكر الله تعالى والالتجاء اليه فيهتدى بالايمان حتى يفرج عنه بعد ان يهذبه الايمان والهداية وتكون له السعادة المقبله الابديه وهى خير مما لو أمده الله تعالى بالغنى فينهمك فى الضلال حتى يؤول به الى الجحيم فيكون الفقر له من الله تعالى بهذه الكيفية طريقا لتوصله الى السعاده الروحيه ولو أمكننا ان نكشف أحوال كل الناس الخصوصية ومافي ضمير كل نحو خالقه من حيث الايمان والكفر لاوضحنا الاسباب لكل انسان عن علل أحواله سواء كان غنيا أوفقيرا ولقلنا له بنتيجة مآله ولكن ذلك نظام عام حق وعدل من خالق رحيم يعرف كيف يسير نظامه على عباده بحيث يقربهم بقدر الامكان الى الرحمة منها الى الهلاك والعلم بضمائر الافراد وما تكنه صدورهم من خصائصه وحده اذ هو بكل شيء عليم وعليم بذات الصدور

ومن الفتنة وسوسة الشيطان للانسان فانها لا تأثير لها مطلقا اذا تنحى عنها الانسان ولم يعمل بها كأنها لم تكن . ولذلك أمر الله تعالى الانسان فى القرآن بالتمسك بالايمان الذى يريده له وعدم الوقوع في فتنة وسوسة الشيطان كما وقع آدم عليه السلام في قوله تعالى : (يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) فوسوسة الشيطان في الحقيقة لا تأثير لها مطلقا على ايمان الانسان أو أي خطاء بسيط يرتكبه الا اذا كان بارادة الانسان المستقلة وتمام حريته ولذلك ترك الله تعالى للشيطان تمام حريته في الوسوسة للانسان بقدر مايستطيع لانه مهما فعل لا تؤثر على الانسان بشيء مطلقا الا اذا اتبعها بتمام اختياره الذاتى «واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك

وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا» والله تعالى لم يترك الشيطان يوسوس للانسان بقدر المستطاع مع عدم فائدتها الا اذا اختارها الانسان ليس لقصد الايقاع بالانسان بقدر الامكان بل لتكون له كامتحان وفتنة تظهر لله تعالى من المتمسك من بنى الانسان بحقيقة الايمان فلا يتبعها باختياره ومن من بنى الانسان يتبعها لتؤدى به الى الكفر والخسران بتمام اختياره ولذا قال تعالى : (وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو في شك منها وربك على كل شيء حفيظ) وقال تعالى أيضا (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك) أى بتمام حريته وقال تعالى أيضا (وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) فالشيطان سيؤنب من اتبعه يوم القيامة بقوة برهانه أيضا

وهو ان وسوسته لاتأثير لها ولا سلطان على ارادة الانسان الحرة مطلقا بل اذا اتبعها الانسان فيكون ذلك بتمام اختياره الذاتى فهو احق بلوم ذاته من ان يلوم الشيطان. — ومن الفتنة الاموال والاولاد أيضا كما فى قوله تعالى : (واعلموا انما أموالكم وأولادكم فتنة) . اذ من المحتمل ان يكون انسان عنده ذرية وكان مؤمنا مخلصا لله تعالى فاذا ماتت ذريته أو ذهبت أمواله بسبب عدل حق تحول باطنه نحو الله تعالى بالشك وبما ارتد من من غيظه عن الايمان الى الكفر . وانه لا يفعل ذلك الا من كان ايمانه ضعيفا متزعزعا فتكون الاموال أو الاولاد له بهذه الصورة كفتنة أو امتحان ليرى منه الله تعالى نقطة الفصل أما الثبات على الايمان الى النهاية أو الرجوع الى الكفران ولربما تفعل المصائب مع بعض الناس عكس ذلك فينقلب بعد المصيبة الى التضرع والايمان اذلا يجب ان تفهم ان الغرض من الفتنة هى أمر فوق طاقة الانسان يصيبه الله تعالى به بلا حق . كلا . . . بل من حوادث حياة الانسان المختلفة ويكون النظام العام داعيا لاحد هذه الفتن بحق مطلق حسب أعمال الانسان واكتسابه الذاتى . — فقد يجازى بالى ء لبعض اعمال سيئة اكتسبها ومضت فيجازى بها فى وقت ربما تاه عن فكره سوء عمله أو ربما شرع فى عمل البر فيختبره الله تعالى ليرى منه الى أى درجة سيتمسك بعمل البر والتقوى مع ذلك الجزاء المؤلم الذى يستحقه فيعترض على الخالق سبحانه ويضعف ايمانه لتوهمه انه لا يستحق

هذا الجزاء مع علمه في نفسه انه يعمل البر والتقوى وبذلك يكون هذا الجزاء الذى أصيب به بحق عن خطاء سابق تناساه كفتنه أو امتحان حتى اذا ثبت في الاخلاص والتقوى كان له الفوز العظيم

وقد يكتسب الانسان عمل الخير والتقوى ويستمر زمنا مخلصا لله تعالى وهو مازال فقيرا فاذا رأى غنيا كافرا أو فاسقا قد مد الله له الرزق فربما يفتتن به ويتحول باطنه الى الفجور بدل التقوى فيصيبه الله تعالى بالخير الذى هو جزاء عمله البر واخلاصه الاول ليمتحنه الله تعالى به ويفتنه فيه ليرى منه الى أى درجة سيسيء الظن بخالقه الذى كان له بالامس تقيا مخلصا فيكون العطاء والحرمان بقصد الامتحان اللازم وقوعه على كل نفس حسب ظروف أحوالها وعلى كل حال فالله تعالى لم يعط هذا الانسان الا مايستحقه من خير أوشر جزاء عادلا : « وما تجزون الا ما كنتم تعملون » ومن الفتنة أيضا في الدين . فتنة تصديق النبي عليه الصلاة والسلام تصديقا عاما فى كل مايقوله وحيا عن أمر الله تعالى فى الكتاب وذلك كالاسراء به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصي . فان كثيرا من ضعفاء الايمان بالله تعالى وقدرته على كل شيء يعتقدون المحال فى ذلك ويقولون انها أوهام خرافيه بل يقولون كيف يسري به ليلا بهذه الصفة مع هذا البعد الشاسع فيكون ذلك فتنة للناس ليظهر المتثبت بالايمان وبكل ما يقوله الله والرسول ممن يكذبه ويحيد عن الصراط المستقيم ولذا قال تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الافتنة للناس» أى لاختبار ايمانهم فى التصديق العام واذا أردنا ان نحصر أسباب الفتنة لقلنا انأى حادث أو أي شيء فى العالم قد يكون فيه للانسان فتنة فتلك الحياة لم تك الالغرض اختبار هذا الانسان وغيره في نقطة الايمان بخالقه والشكر له باخلاص في تنوع أطوار الحياه . —

ومن تأمل لاقوال الطبيعيين والماديين والدهريين والفلاسفة المخالفة آراؤهم لحقائق الدين وجميع الاديان المغايرة لدين الاسلام وأقوال المسلمين المختلفة وأعمالهم المتعددة واعتقاداتهم الخارجة عن الدين كل ذلك فتنة لمثل أولئك الافراد الذين متعهم الله بالعقل والحرية فيما يقولون ويفعلون وهم بانفسهم عن التفكر وراء الحق غافلون

وقد جعل الله تعالى وضع القرآن وآياته فتنة أيضا لان قليل الفهم والاخلاص لله

تعالى يتخيل له من بعض آياته نوع التضاد وعدم الاتحاد فى المقصد كاختلاف بعض علماء الاسلام فى كيفية اكتساب الانسان . مع ان الانسان لو تمعن جيدا لرآي من اتحاد كلام الله تعالى اتحادا محكما في أى مقصد مع عدم مخالفة أى آية لاخرى فى موضوع واحد مايدهشه من تلك المعانى السامية التى تعجز عنها البشر عجزا تاما . فبمثل ذلك يتثبت المخلص العاقل ويعلم الحق من تلك الآيات الباهرة . وبمثل ذلك يسير المضل بنفسه على أى آية يوافق ظاهرها مبتغاه من الضلال فتكون له فتنة بسبب ذلك لاختياره الباطل عن الحق الواضح . — اذ من المحتمل ان يفهم انسان من القرآن آيات ويحملها على غير قصدها من الحقائق الظاهرة والتثبت من الاخلاص لله تعالى فيهوى فى الضلال بسوء افكاره واوهامه ولا يهتدى الى الابد . ولذا نقول ان كل مسلم اذا طالع آية ورآى من معناها انها مخالفة لما فى نفسه من الحقائق البديهية الواضحة فليعلم ان مقصده منها بعيدا . ولقد وقعت الامة الاسلامية على اختلافها من بداء نشاتها بعد الاربعة الخلفاء الراشدين تقريبا الى الآن فى جميع الفتن المتنوعة وكان أولها فتنة القرآن العظيم « وان أدري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » فالقرآن ليس له الا تفسير واحد وليس له الا معنى واحد وليس له جملة معان أو تفاسير مختلفة متنوعة وان اختيار افراد الامة الاسلامية علي اختلافها للآن لاراء مختلفة عن كل غرض في القرآن تقريبا هو عين الفتنة وكل الفتنة . — فتشتت بذلك الاراء والاقوال والاعتقادات والافهام حتى انقسمت الامة الآن انقساما متعددا شذرا مذرا لانهاية له والحقيقه ان القرآن العظيم له قصد واحد ثابت لايتغير وان تشعبت الاراء ولا ابالغ اذا قلت ان افتتان الامة الاسلامية بالقرآن هو سبب انقسامها وضعفها واضمحلالها وضلالها في تيه الاوهام وما ذلك الا لان أغلب الافراد مازالوا بمقاصده يتخبطون وبما في الكتاب من النور لايعقلون . — ونظرا لسنة الترقى الثابتة فى العالم كان من اللازم الرجوع في مثل تلك الاحوال الى « مؤتمر اسلامى عام » يكون قراره فصل الخطاب فى امثال هذه الاختلافات القديمة المؤلمة والخرافات المستحدثة التي كانت سببا فى تلاشى أغلب الامم . — وقد أنزل الله القرآن رحمة لما فيه من النور الهادي الى أجل الطرق وأحسنها استقامة . ولكن الامة الاسلامية بالعكس جعلته نقمة على نفسها من فتنتها به مما لم يرده الله تعالى

لها مطلقا . ولو استمروا على ذلك لزادوا في الضلال والانقسام الى يوم القيامة ولكانوا أكثر الامم مسؤلية امام الخالق القاهر الذى لايحابى أمة على أخرى « بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » وانهم فى امكانهم الخلاص من فتنة هذا القرآن الحكيم باخلاصهم اذا أعاروه نظرة تعقل جديدة صحيحة . « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الالباب . »

فقول الله تعالى « وما يعلم تأويله الا الله » أى تأويله كله بحقيقة الاحوال تماما تأويلا كمن يرى شيأ واضحا رأى العين فان الله تعالى يخبر فيه عن الامم الماضية والاحوال المستقبلة عن يوم القيامة ونتائجه العامة فكل هذه الحقائق بتشخيصها الذاتى الاصلى لايعلمه أحد طبعا الا الله تعالى . (والراسخون في العلم) أى الذين يرون الحقائق التي في نفوسهم وبين أيديهم مطابقة لما جاء به القرآن العظيم تماما ويقيسون بهذه الحقائق ما أخبر به الله تعالى عن الامم الماضية والاحوال المقبلة فيرون بتمام الانطباق انه محتم حصوله بسبب ماعندهم من العلم وان كانوا لا ينظرون المستقبل بأعينهم كما يعلمه الله تعالى تماما . ولكنهم بتمكنهم من العلوم بالكيفية المذكورة مما يجعلهم كانهم يعلمون بكل مايذكره القرآن مهما تشابهت الآيات فانهم يعرفون حقيقة مراميها الجليلة فتجعلهم يتثبتون زيادة فى الايمان لمطابقتها لعلمهم الصحيح تمام الانطباق (يقولون آمنا به) بسبب علمهم (كل من عندربنا) أى حق لاتضاد فيه ولا اختلاف في الفهم ولا شبهة (ومايذكر) أى هذه الملحوظات التي يوضحها القرآن للحذر من الوقوع في الفتنة (الا أولوا الالباب) أى المؤمنون المخلصون الذين يعقلون.

ومن الفتنة للناس عند بعثة النبي ونزول القرآن ماكان يلقيه الشيطان بالوسوسة للنبي فيقوله لفظا ثم يمحوه الله تعالى فى الحال بحقيقة الوحى وليكون ماألقاه الشيطان فتنة للمتخاخل فى الايمان بالنبي والقرآن كقوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذاتمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفى شقاق بعيد

وليعلم الذين أوتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم .) فالفتنة تقريبا تلحق كل شيء كما تقدم والكل يرمى الى غرض واحد هو علة وجود الانسان في هذه الحياة ليعلم الله تعالى المتثبت في الايمان بتمام حريته واستقلاله الذاتى من عدمه . ومن الفتنة مايصيب الانسان من الاذي بلاسبب غير كونه ينتصر للحق والفضيلة ويعمل الواجب الذي يتأكد منه ومن فوائده . وذلك أشبه بالمؤمن الذى يدعو الناس الى الاسلام للخالق فيؤذونه لجهلهم بسبب ذلك فيغضب في نفسه ان شاء ويقول كيف أدعو الناس بالحسنى الى دين الله الحق والله يجعلهم يوذوننى ولا يردعهم بقدوته مع انه لاذنب لى غير تأييد كلماته وأوامر دينه . وان شاء زادته الاذية ايمانا بالله وتثبتا فى تأييد كلماته ودينه ان عقل فتكون أذية الناس له فى هذه الحالة وترك الله تعالى لهم يعملونها ضده فتنة أو امتحانا له من الله تعالى ليعلم الله بها الى أى مقدار من الثبات يتمسك بالاخلاص والايمان العظيم . « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » ومن اطلع على التواريخ علم كيف يعامل الله الناس جميعا بشكل واحد ونظام ثابت فلينظر مثلا الى مشاهير الرجال من المخترعين كيف يكدون ويدأبون ويذوقون التعب الوانا حتى ينكشف لهم شيء من بصيص نور اختراع مفيد .

ثم لتنظر الى عظماء الرجال من زعماء الامم الراقية السعيدة كيف هم يثبتون الى النهاية فى المطالبة بأمور طبيعية حقه وعادله ممن ينكرها عليهم وكيف هم ينتصرون من الله في الختام (وما النصر الا من عند الله) فهذا تاريخ الحكم الدستوري فى البلاد الانكليزية وكيف يجنون منه شهد التمتع الى الآن ثم تاريخ الحكم الجمهورى فى البلاد الفرنساوية والامريكية وكيف نالوا به رحيق السعادة والكمال . فكل ذلك نال فيه مؤسسوه الذين تأكدوا من فوائده الجمه أشد الاتعاب والالام وتلك الاوصاب ليست لهم جزاء من الله تعالى بل هى فتنة حتى اذا ثبتوا في الحصول على مافيه سعادة البشر ورحمة الخالق كان لهم منه النصر المؤكد والفوز في الختام .

ثم لننظر الى مكتشف امريكا (خريستوف كولمب) وكيف قاسى من الاهوال والالام

التعذيب والتعب والغربة وهو مازال يجد ويكد حتى اكتشف قارة صارت فى هذا الزمن منبع العلم والمدنية والاكتشافات الجليلة وان ثباته في العمل للوصول الى حقيقة يعلمها اداه لان يحوز هذه الشهرة وهذا الاسم المخلد

ولو أردنا ان نثبت مشاهير الرجال فى صدر الاسلام الذين حازوا قصب المجد والفخار بثباتهم أو الذين تثبتوا من غيرهم على مبداء مفيد يعلمونه ويريدون ظهوره لضاق بنا المقام والتواريخ على اختلافها لم تك الا مرآة لمن تثبت في الاعمال الجليلة وذاق الام الشدائد لتأييد الحق والفضيلة والمجد ممن كان منهم كالرماد الذى يتبعثر لاقل تأثير . — فهذه الالام المتنوعة التى يقاسيها الرجال للوصول الى غرض حق شريف لم تك لهم من الله تعالى جزاء لهم لحسن اعمالهم . كلا — بل هى فتنة لهم ليعلم الله تعالى بها مقدار ثباتهم فيها . اذ كل عمل شريف عام فى الارض اساسه الايمان بالله تعالى والله يعلم اذا استمروا على الثبات فيه كان لهم منه بقدرته النصر المؤكد والمستقبل العظيم

ومن تامل لبعض افراد الاوروبيين النوابغ ومايفعلونه الآن نعلم منهم كيف ان أحدهم اذا نظر بمرآة فكره الى أمر عام مفيد للبشر كيف يثبت فيه الى النهاية بتمام حريته واختياره حتى يناله أو يموت في ثباته وما ذلك الالانهم علموا هذه الحقائق الالهية ممن سبقهم بالتجارب العملية . حتى صارت عند العقلاء منهم كقاعدة ثابتة طبيعية ناذا غيمت عليهم سحب الآلام والمعارضة وعدم الظفر كمنوا كمون النار حتى اذا انقشعت الغيوم عادوا لاعمالهم المجيدة بثبات لايتزعزع . — فافراد العالم فى نظر الله تعالى واحد وما الاعمال العامة المفيدة للبشر في نظر الله الا واحده أيضا مهما تنوعت ومهما كان وسطها وفاعلها فالعمل الصالح عنوان الايمان وان الآلام التى يقاسونها لنوال غرض شريف حق هى فتنة لهم من الله تعالى ليعلم بها منهم مقدار ثباتهم فيها ليجازيهم بها أحسن الجزاء مع علمهم بالتجارب أيضا نصرهم المؤكد حتى اذا ماتوا كان لاعمالهم أثرا لايمحوه الدهر

وهؤلاء الاروبيين لم يقرؤا القرآن مثلنا ولم يعلموا ان فيه مبداء شريفا حقا كهذا ولكنهم ساروا فى العمل الصالح في الطريق الطبيعى الذي تؤيده نفوسهم وعقولهم بحق ورزانة ومثل هذا لايخالف القرآن مطلقا لان الله تعالى يقول عن القرآن انه دين الفطرة

(فطرة الله التى فطر الناس عليها) أى الدين الموسسة مباديه على ماجبلت عليه المخلوقات في وضعها الطبيعى من يد الخالق اذا استعملت مواهبها الذاتية بحريتها الممنوحة لها بحق وتعقل تام . بل قال تعالى أيضا ان مافى هذا القرآن من مثل تلك المبادى العالية الحكيمة الخفية عن كثيرين ستظهرها مكنونات الانفس وتجاربها في تاريخ العالم لتنطبق على مافى القرآن تماما على ممر الدهور والزمن كما في الآية (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) واذا تركنا هؤلاء القوم جانبا وتأملنا لاعمال الرسل الكرام جميعا نجدانهم تمسكوا بهذا المبدأ لتأكدهم من الايمان العظيم بالله . فمهما أساء لهم القوم ولو أدى ذلك الى قتل بعضهم لايتنازلون عن بث الحقائق الروحية وحث الناس على اختلافها بالايمان والعمل الصالح المفيد كما في الآية : (حتي اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) . فقول الله تعالى (حتى اذا استيأس الرسل) أى من بث الحقائق على آخر طاقتهم البشرية . (وظنوا انهم قد كذبوا) بسبب ان الله تعالى لايدفع عنهم أذى ومقاومة المعارضين ليعلم منهم مقدار ثباتهم فى الدعوة الى الله المكلفين منه بادائها وفي آن واحد ليعلم مقدار جحود الناس بهم الى النهاية (جاءهم نصرنا) أى المضمون حصوله بلا شك لمن طالب بالحق مهما نال من التعب أوطالت عليه المدة كما انه بالعكس يستحيل انتصار من ينتصر للباطل مهما كانت قوته الاثيمة (ولا يرد بأسنا) أي في الختام بعد هذا العناء واليأس من النصر (عن القوم المجرمين) المستحقين انتقام الله العادل . وبعض من المؤمنين المخلصين يلتبث عليهم الامر اثناء الفتنة فيكون ذلك داعيا للشك فى ايمانهم ولربما اذا تتبعوا خطوات الشيطان بحريتهم ترجعهم تلك الفتنة القهقرى لتخيلهم ان الله تعالى يصيبهم بها بلاحق فيقولون ماهى ذنوبنا التى أدت الى مايصيبنا به الخالق من تلك الآلام مع ان ذلك يكون لهم من الله تعالى فتنة لاختبارهم فى شدة تمسكهم بالايمان الى النهاية من عدمه كما يعرف ذلك من الآية : (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله) أى أوذي بسبب عمله الصالح العام الذى لم يقصد به الاوجه الله تعالى (جعل فتنة الناس) أى التى قرر الله تعالى عملها مع الناس لامتحانهم وليعلم بها منهم مقدار ثباتهم في الايمان والاخلاص (كعذاب الله) أى كالعذاب الذى يجازى به الله تعالى

عباده لسوء أعمالهم مع ان ذلك فرق كبير وبون شاسع بين اصابة الله تعالى للمؤمن بقصد الفتنه واصابته للناس بالجزاء لسوء أعمالهم (ولئن جاءهم نصر من ربك) أى نوالهم كل ماينمنونه فى الختام بعد عذاب هذه الفتنة التى قلبوا حقيقة الغرض منها وجعلوها كعذاب الله عن السيئات بلا نصر ومكافئة فى الختام (ليقولن انا كنا معكم) أي يدعون باطلابانهم ثبتوا فى الاخلاص فى سراء الايمان وضراء الفتنة (اوليس الله باعلم بما في صدور العالمين) أى افهم يجهلون ان الله تعالى لايعلم الشك الذى خالط قلوبهم من توهمهم بتساوى العذاب بالفتنة من غير فائدة ختاميه .

ومن الامم الذين تقلبوا فى الفتن وسقطوا فيها ولم يثبتوا في الاخلاص بنوا اسرائيل اذ يقول الله تعالى عنهم : (وحسبوا الا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون)

ويتضح لنا من الآيات الكثيرة السالفة ومما أوضحناه فى مقدمة هذا الباب حقيقة النظام والكيفية التى رسمها الله تعالى في معاملة عباده مما يوضحه القرآن العظيم من أمر هذه الفتنة التى هى كما مر أشبه بامتحان ليختبر الله تعالى بها مقدار ثبات الانسان على الايمان بمطلق حريته واستقلاله الذاتى وانها تؤيد هذا المبدأ الحق (مبدأ استقلال النفس الذاتى وحريتها المطلقه فى الخيار) مما لايمكن لاحد نكرانه مطلقا بالعقل والبداهة والقرآن وفى ذلك ذكري للمؤمنين . اه

القضاء والقدر

اذا تأمل العاقل لاى عمل عام فى الارض مما يعمله بنو الانسان مهما كان لوجد له نظاما مايسير عليه وذلك كنظام الحكومات مثلا على اختلافها والشركات المتنوعة أو المدارس أوالجمعيات أو ... او ... فكل عمل عمومى لابد له من نظام خاص يسير عليه اشبه بقانون اذلولا ذلك لانقلب كل شيء الي حالة الفوضى لعدم وجود دستور يركن اليه أو نظام يلتجأ الى أسلوبه . وهو مانرى لزومه في أى ادارة في العالم وان تنوعت النظامات من حيث صحتها وفسادها اذ ضرورة النظام موجودة على كل حال .

فمثلا . . . الحكومة . . تجد فيها نظاما يختص برئيسها الاكبر ثم بمرؤسيه حسب درجاتهم ثم بمرتباتهم وأعمالهم وسيرهم ومعاشاتهم وكيفية أعمالهم . . . الخ . . . وكذا المدارس فتجد لها نظاما خاصا لادارتها منها مايتعلق بالرئيس ومنها مايتعلق بمن هم دونه ومنها مايتعلق بالاساتذة ومنها مايتعلق بالتلامذة وعلاقة هؤلاء باساتذتهم وكيفيه اقامتهم وتدريسهم وامتحانهم و . . . و . . . الخ مما لايمكننا تعداده ولولا هذه النظامات ووجودها وتحديدها ووجوب تنفيذ السير بمقتضاها لانمحى شيء يسمى حكومه ولانمحى شيء يسمى مدرسه وهكذا فالنظام اساس كل عمل فى العالم

واذا كانت المخلوقات فى معاملاتها الشخصيه لابد لها من نظام خاص فى أى عمل فهل لايجب ان يكون الخالق الذى خلق هذا العالم وما فيه له نظام عام أيضا على الجميع؟ . . . . انى افتكر ان الجواب لابد وان يكون بالايجاب حتما من كل عاقل

ولكن يجب ان نتبصر بالعقل فى الفرق بين نظام الخالق والمخلوق من كل وجوهه بما يليق لكل من الطرفين . . فالحكومات مثلا ماتكونت الا بالتدريج على ممر الدهور حتى ترقت وتدربت وصار لها قوانينا ثابتة تقريبا لاتتغير الا بمقتضى الاحوال وطبقا للاختيار ولو فرض وتوجه جماعة متمدنون بقانون من احدى الحكومات المتمدنةوادخله على قوم لايعرفون النظام كالبدو في الجبال ومرنوهم عليه تدريجيا فلا يلبثون حتى تلبسهم حلة الحكومة النظامية كالحكومة التى اقتبس منها هذا القانون . — وعلى ذلك فالقوانين والنظامات الانسانية لم تتواجد فى يد الانسان عفوا بل تواجدت بالتعليم على ممر الزمن حتى يتيقن الانسان من كثرة تجاربه انها الاليق لنظام الاعمال التى يرغب ادارتها على تنوعها الكثير . — ولكن . . . . . هل يجوز ان يكون نظام الله تعالى بمثل ذلك ؟ . . أى يكون بعد الاختبار والتجربه ؟ . . . الجواب . . . كلا طبعا . . . لانه تعالى اوجد كل شى بمطلق قدرته وعلمه حيث لم يكن . . فلا يجب ولا يليق ان نقول انه تعالى يختبر سير المخلوقات حتي يسن لها نظاما عاما يسيرها عليه ويعاملها به بل الاليق الذى يستوجبه العقل واللائق لكماله المطلق ان يكون من تكون هذه قدرته فى الخلق والواجب له كل كمال ان يسن نظام الخلق الذى يسيرهم عليه قبل ان يوجدهم فعلا فى الوجود لانه بالطبع كما خلقهم

الجلال والكمال حتى لا يذكر اسمه تعالى بازاء النقيصة بسبب حرية المخلوق فى هذه الحياة فكيف لا يتقرر احتجاب الله تعالى المطلق فى نظام الخالق وذاته العلية تتعالى عن كل مساس ولو بالخيال ؟ ...

ومن تلك النظامات الدستورية اختصاصه تعالى « بالهداية » كقوله تعالى « ان علينا للهدى » شرطا مع حفظ الشرط المقدس وهو : « حرية الارادة » فى المخلوق وذلك لان الله تعالى يعلم تقلب الضمائر وما فيها من أول وهلة فان كان شخص يميل بنفسه وحريته الى الهداية وطرق بابها فالله سبحانه يفتح له طريقها ويظهر له ما جهله ليتوصل الى الهداية التى أرادها بنفسه « ويزيد الله الذين اهتدوا هدًى » ولانه تعالى أيضا لا يهدى من لم يرغب الهداية ولا يريدها لنفسه « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم » فهو تعالى : « لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ولان الانسان لا يمكنه أن يهدى نفسه أو يهدى ضالا غيره اذا لم يرد الهداية « وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم » مهما فعل ولان الله تعالى باختصاصه بذلك يتجسم للمخلوق وجوب وحدته فى الالوهية المطلقة الحقة والرحمة مما يكون اعترافه بهما أداء للغرض الذى خلق من أجله.

ومنها أن يعطى سبحانه كل مخلوق ما شاء أن يطلب ولكن بنظام يليق لرحمة الخالق كقوله تعالى : « وآتاكم من كل ما سألتموه » وكقوله تعالى « فمن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها » وكقوله تعالى : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » . — ولكن كثير من الناس يفتتنون ويشكون فى ان الله تعالى لا يجيب طلبهم لاحتمال وقوعهم في ضد ماطلبوا . — وما دروا أن ألوهية الخالق سبحانه لا تقضى بسماع الدعاء من القلب قبل تتميمه على اللسان واجابة الطلب فى الحال فقط بل تقضي أيضا أن يكون تنفيذ الطلب فى وقت ما يشاء الخالق سبحانه بنظام حق يليق لكبرياء الله تعالى من حيث كونه الها حقا . — وذلك لان سرعة عطاء المسئول للسائل بلا توان تدل على صغار نفس المسئول . وهذا لا يليق لكمال الله المطلق الذي سبق وقلنا انه أساس لكل نظام فهو تعالى يعطى كل شيء بنظام لمطلق الرحمة . — وفى الغالب فان طلبات الانسان من الخالق سبحانه قد تأتي في أوقات تكون فيها قد تاهت من

الذاكرة أو يكون غيرها ألزم منها وذلك لعدم انقطاع الطلب وليدوم الرجاء والدعاء الذى هو الغرض من وجودنا . — وهذا النظام حق مطلق لان نظام الغرض من وجودنا فى العالم مبنى على التجربة والفتنة بالمنع والعطاء ليعلم الله سبحانه من الحالتين معا من الشاكر مناومن الكافر . — ولنضرب لذلك مثلا فرضيا لتقريب الفهم : افرض انك طلبت من والدك جزأ من الخبز فبدل الخبز أعطاك الماء فاشكره على الماء الذي أعطاه لك لانه لا ينسى الخبز وهو يعلم أن الماء ضرورى لما طلبت من الخبز ولازم له . وقد ناولك الماء أولا ليختبر احساسك في الشكر أو الكفر لا لغرض المنع البات من الخبز بل لهذا الاختبار . وبعد أن طال عليك أمد الخبز بما أعطاك من ماء أولا اشتاقت نفسك للحوم فطلبتها منه فأمدك بالخبز بدل اللحوم لنفس الغرض عينه . فاذا شكرته باخلاص على الخبز ونسيت تقريبا ما طلبت من اللحوم فهو لن ينسى ما طلبت منها بل يمدك بها أيضا في وقت آخر يشبه وقت الماء والخبز . — فترى من ترتيب هذا النظام على هذه الكيفية ان والدك في الحقيقة يمدك بكل طلباتك بالتدريج وبالدقة من غير أن يؤخر لك شيأ مطلقا . — غير ان نظام عطاياه بهذه الكيفية هو لغرض الاختبار فقط . وفي آن واحد يكون حرا فيما يعطى ووقت ما يشاء بل ولا يلحقه الصغار كما لو أسرع بالتنفيذ والاجابة حالا بعد الطلب . — فهكذا الخالق سبحانه فكل ما يدعوه الانسان بشيء يسمع منه ويجاب طلبه « أدعونى أستجب لكم » غير ان أساس المنع والعطاء مبنى على درجة الاختبار في الكفر والايمان اللذين وجد المخلوق فى هذه الحياة لاختيار أحدهما بتمام حريته مع نواله كل الطلبات الا ما كان منها مخلا بالنظام أو مقرر عدم منحها فى ظروف لعلاقات نظامية حقة وعادلة أيضا

واذا كان هذا النظام سائرا فيما يختص بطلبات الانسان من الخالق فان جزاء الله تعالى على ما يمنحه للعبد في نظير أعماله التى يعملها مبنى على التجربة والفتنة أيضا . فاذا أمد الله تعالى انسانا برزق لمطلق الرحمه ثم طغى هذا الانسان في الارض فالله تعالى لا يجازيه في الحال انتقاما من سوء اعماله بل يتركه وربما يزيده من الرزق ليفتنه به وليرى منه مع وجود عقله والهاماته وأوامر الله تعالى ونواهيه الى أي درجة من الكفر يصل (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) وكالآية : (ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير

يعلم مايمكنهم ان يتقلبوا فيه . وهو ما كان وقد حصل . يثبت ذلك النظام الحق فى القرآن العظيم قوله تعالى : (ماأصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الافى كتاب من قبل ان نبرأها (أى نخلقها) ان ذلك على الله يسير .) فهذه الآية تؤيد لزوم هذا النظام ووجوده قبل ان يوجد الله الخلق سبحانه . . . وهو اللائق لعلمه الواسع المطلق .

وتلك النظامات التي كتبها الخالق فى كتاب عنده هو المسمى في القرآن العظيم (بأم الكتاب) .... وليس الغرض منه التذكر عند السهو أوالمراجعة عند النسيان ... كلا . ان ذلك لايليق لله تعالى لان له الكمال المطلق كما سبق ... بل ليفهم المخلوق .. كيف ان الله تعالى القادر على كل شيء والعالم بكل أمر يفعل هذا النظام الدستورى الحق ويسير الخلق عليه بحسب تقلباتهم المختلفة في الازمان الطويلة من بداء الخلقة الى الابدية ليتأكد فى نفسه ويتيقن عدل الخالق المطلق العام على الجميع بوجود قانون عام وللزوم ان يتخذ الانسان لنفسه فى كل عمل يرغب اداءه أوالسير عليه نظاما أساسيا كما تفعل الحكومات الدستورية المنتظمة ومن بيدهم اعمالا عامة منتظمة ولتمجيد الخالق سبحانه على علمه المطلق الواسع لحصره كل شيء حدث وسيحدث في المستقبل وتلك النظامات المذكورة المتعلقة بالخالق والمخلوق المكتوبة فى أم الكتاب المذكور قبل الخلق هى ماتسمى فى الدين (بالقضاء والقدر) أو (القانون الالهى العام لدستورى) . وبالطبع يجب ان لاننسى انه من اللازم ان يكون مبنيا على أساس ثابت هو : (الوهية الخالق سبحانه وحده وعبودية سواه من المخلوقات) الذى هو الغرض الحق من وجودنا العام بقدرة الخالق .

وان تلك النظامات الالهية بالطبع لاحد لها بالنسبة لنا ويعجز كل مخلوق عن حصرها لانها عبارة عن علم الله تعالى المطلق فيما يختص بعلاقته بكل المخلوقات التى أوجدها غير ان ذلك لايمنعنا عن ايضاح بعضها اذالقرآن العظيم يشتمل على مافي أم الكتاب فمنه يمكن للمجتهد ان يقتبس ماشاء فيما يتعلق بكل نظام في الارض والسماء طبقا لعلومه الخاصة (والله يؤتى الحكمة من يشاء) . — ونحن نشير الى بعض النقط المهمة التى تخص بنى الانسان خاصة فيما يتعلق بالغرض من وجودهم في هذا العالم وارتباطهم بالخالق ومايوضحه الله تعالى لهم لتتميم واجباتهم الخاصة كاشارة القرآن العظيم اذان ذلك هومايهم الانسان بالذات

فأول شيء فى أم الكتاب هو بالطبع مايختص بالخالق ثم مايختص بالمخلوقات حسب درجاتهم لان النظامات الانسانية مبنية على ذلك من تقديم الرئيس على المرؤس وهو اللائق فى العقل أيضا لان تكون عليه نظامات الخالق سبحانه فى أم الكتاب فالعقل الانسانى ان تعمد الحق لايخطا ولا يعمى وان كان الحكم مجهولا

فمن هذه النظامات الدستورية بل أولها ما كان العلة الوحيدة فى وجود الخلق الا وهو منح الله تعالى « الحرية » لكل مخلوق ليقدم لذاته العبودية والشكر بتمام الاختيار وهى الكلمة الاولى التي سبقت كل شيء كقوله تعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك) أى في منح المخلوق « الحرية » فى هذه الحياة لانها الاساس المبنى عليه أحقية وجود العالم ومافيه وبدونها كان العالم باطلا في وجوده .

ومنها « الرحمة » من الخالق على المخلوقات كما قال تعالى : « كتب على نفسه الرحمة » أي في أم الكتاب .

ومنها احتجاب الله المطلق في هذه الحياة عن كل المخلوقات بلا استثناء كقوله تعالى لموسى عليه السلام عند سؤاله : « رب أرنى انظر اليك قل لن ترانى » فقول الله تعالى لنبيه عليه السلام : « لن ترانى » يفهم منه ان احتجاب الله تعالى عن المخلوق ليس خاصا بموسى عليه السلام . بل هو ذكر ليعلمه كل مخلوق ان ذلك عام على الجميع فى هذه الحياة بلا استثناء وسبب ذلك وجوب (كمال الله المطلق) أثناء حرية المخلوقات فى هذه الحياة — اذ مادام المخلوق بحريته فمن المحتمل ان تؤديه تلك الحريه الى تمثيل الخالق سبحانه بما لايليق كفرا منه أو ان يتصور الخالق بكفره تصورا لايليق . فاحتجاب الله المطلق تقرر بازاء حرية المخلوق ليس الا حفظا لكماله تعالى من المساس ولو بالخيال ولذا قال تعالى : (لاتدركه الابصار) أي العقول لنفس هذه العلة . — بل للزوم شدة التحفظ علي كمال الخالق سبحانه أمر المؤمن ان لايسب بلسانه من يكفر و يشرك بالخالق منعا لتعدى المشرك علي سب الخالق سبحانه الذي يؤمن به المؤمن فقال تعالى : (ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم)

وكل ذلك ذكره الله تعالى ليبين للمؤمن مقدار ما يجب أن يكون عليه الخالق من

وما بعدها – ومع ذلك فهو تعالى لايجازى أحدا مطلقا ليحفظ النظام بين الآخرين بدون أن يستحق هذا الجزاء لشخصه ومن نفس عمله : « وما ربك بظلام للعبيد » وقال تعالى: « وما تجزون الا ما كنتم تعملون » وقال تعالى : « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » أي ان سبب السيئة شخص الانسان وعمله الذاتى بمطلق حريته . وبعض من الناس اذاجازاهم الله تعالى بخير قالوا هذا من الخالق فقط ولكنه تعالى يجازى المرتكب للسيء أيضا بكيفية ما فى نظير ارتكابه أى اثم ردعا له عن التمادي في السيئات ولحفظ النظام الحق بين الجميع قال جل شأنه فى الآية : « فان أصابتهم حسنة يقولوا هذه من عندالله وان أصابتهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله » فالذين نسبوا اصابة أنفسهم بالسيئات للنبى عليه السلام لم يفقهوا حقيقة اختصاص الله تعالى بجزاءه كافة الخلق على الخير والشر فى آن واحد حتى قال تعالى بالتعميم ان كل جزاء يصيب المخلوق من خير أو شر هو من عندالله وحده فكلما زاد الانسان من عمل الاحسان جازاه الله تعالى بالحسنى أيضا وان عمل السيئات جازاه الله تعالى بالسيء أيضا حتى قال تعالى « قل كل من عند الله » أى كل جزاء عن أي عمل كان فبقدر العمل الذى يعمله الانسان بحريته يكون الجزاء أيضا وأن لاجزاء بلا عمل . – ويكتفى الحال الآن بذكر ما تقدم من بعض اختصاصات الله فيما يتعلق بهذا الموضوع ليذكر الباقى فى مواضع أخري غير انه تلاحظ لنا أن بعضا من الناس يخلطون بين العمل والجزاء والنظام المكتوب فى أم الكتاب فيما يختص بتنفيذ الله تعالى له على عباده حسب تنوع أعمالهم . فالبعض يتوهم أن الجزاء مادام مكتوب فى أم الكتاب فعمل الانسان الذى استوجب عنه الجزاء مكتوب لذات الانسان في أم الكتاب أيضا . ولكن هذا خطأ محض كبير . نعم ان الجزاء مكتوب مقابل للعمل الذي عمله هذا المتوهم المدعى ولكن ليس بالتخصيص لذاته بل هو عام عليه وعلى غيره أيضا . – وأصل اصابته بجزاء هذا العمل هو حريته الشخصية فى أداء هذا العمل الذي استوجب مثل هذا الجزاء بحيث كان في امكانه أن يعمل عملا غيره وكان يرى جزاء غيره عادلا من الخالق سبحانه كان مكتوبا أيضا ويتنفذ جزاؤه كدستور على كل من عمله من الناس بلا فارق بين هذا وذاك . حتى أن الانسان اذا عمل عملا وجازاه الله تعالى به ثم تاب عنه وارتجع الى غيره ثم عاد اليه

ثانيا من غير مبالاة بجزائه الاول أعاد الله تعالى عليه بالثانى نفس الجزاء الذى أصابه أولا بحيث اذا ارتجع عنه ثم عاد تكرر عليه الجزاء تكرار رجوعه الى ما علم انه علة جزاه وذلك كقصة بنى اسرائيل فى القرآن عندما سلط الله تعالى عليهم أعداءهم أول مرة من سوء أعمالهم ثم تاب الله عليهم ثم رجعوا الى سوء أعمالهم فأعاد الكرة عليهم بالثانى بنفس هذا الجزاء كما فى الآية : « عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » ومما يثبت هذا المبدأ الدستورى قول الله تعالى أيضا : « ان تنتهوا فهو خير لكم وان تعودوا نعد » وكذا قوله تعالى : « قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين » أى سنة الامم البائدة الهالكة فانه من صمم منهم على الكفر والفساد فى الارض وعدم الاصلاح فجزاؤه الانتقام بالاضمحلال والزوال من الارض وهى سنة واحدة تجرى على جميع الامم لا تخصيص فيها لامة دون أخرى بل باختيار كل أمة يتنفذ عليها قدر ما اختارته بحريتها.

والبعض من الناس ممن خمدت مداركهم يتوهم ويدعى أن الاعمال والجزاآت مكتوبة للشخص بالذات وان حريته وكل ما يعمله ويصاب به من حركات وسكنات لم يك الا شبيه بتنفيذ ماهو مكتوب بحيث لو قرأ الانسان في أم الكتاب قبل الخلق ما سيعمل وسيصاب به هذا الانسان بالذات لوجد أعماله وجزاءه الذى اصابه فى هذه الحياة منطبقا عليها تمام الانطباق وكأن لاخيار له استقلالى فى شىء مطلقا ! ! ! . . .

وهذا فكر تقشعر منه الابدان ويدل على تمام سخافة العقول التى تدعى به . . . . . . لانه لادليل له في القرآن العظيم مطلقا ولا فى النفس ولا فى العالم الا فى المخيلات الوهمية الكاذبة . . . اذ يكفى للدلالة على تكذيب هذا الوهم من أول وهلة انعدام الغرض من الوجود بل انعدام الفائدة من أوامر الله تعالى ونواهيه وارسال الرسل ونزول القرآن الحكيم و . . . . و . . . . ولصار الوجود باطلا يستحق العدم بلا أسف بسيط ! ! . . .

بل ذلك يؤيد نسبة اللهو واللعب للخالق سبحانه وهى نسبة لاتليق لكماله الحق لمن تأمل لنتائج هذا الوهم الكاذب . . . مع ان البداهة تكذبه وان الله تعالى يتنزه عن كل أمر لايؤول به الى الكمال والعدل المطلق

لا تفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهـم عذاب مهين » وكقصة قارون في القرآن العظيم أيضا وهي : « ن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ماان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذقال له قومه لاتفرح ان الله لايحب الفرحين . واتبع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لايحب المفسدين . قل انما أوتيته على علم عندي، أولم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذوحظ عظيم وقل الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون . فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا امكانه بالامس يقولون ويكان الله يبسط لرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا ان من الله علينا لخسف بنا ويكانه لايفلح الكافرون » . —

وبالعكس . فقد يحتمل ان يكون انسان مؤمنا بالخالق سبحانه ومخلصا وقلبه واعماله طاهرة ولكن آلامه الوحيدة في الحياة هو فقره وصد باب الرزق من ان يلمس يده مع كثرة سعيه . فالله تعالى لايمده بكل طلباته فى الحال ليري منه الى أى درجة من الايمان يتمسك وهو في حالة الفقر . — وذلك لان الغرض من الحياة هو هذا النظام والفتنة فى الجزآت بوضع هذا محل ذاك مع عدم الظلم : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » . — ومن المحتمل أيضا اذا ارتد هـذا المؤمن عن ايمانه وكفر بالله تعالى ان يمده تعالى بالرزق فتنة له أيضا ليرى منه الى أى درجة من الشك بالخالق يصل مع ان الله تعالى يجازيه بكل أعماله بالدقة فيجوز ان يمده بجزاء أعماله الصالحة عند مايتقلب فى السيء ومن جهة اخرى يجوز ان يجازيه ببعض ذنوبه الماضية عندمايتقلب من العمل السيء الى العمل الصالح والاستقامة مع عدم جزائه زيادة عما يستحق « وما تجزون الا ما كنتم تعملون » فتكون اصابته على كل حال فتنة له وامتحانا ليرى منه الثبات أو الرجوع عما هو فيه على الحالتين . — وبالطبع فان لكل شيء له درجة معلومة

لا يتعداها . والله تعالى فى نظامه على الخلق راعى مايكون لهم فيه الرحمة في الحياة المقبلة الابديه « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » وان كان في تنفيذ هذا النظام الحق شيء من تأفف البعض بلا حق بما يتساءلون عن علته وأسبابه احيانا لجهلهم ايضاح الله تعالى لهم كل سبب عن خير أو شر يصابون به مع ان علة كتم السبب شرط من أول شروط الاختبار فى الثبات على الايمان من عدمه فكتمه كان لازما وحقا أيضا « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ان الله بالناس لرؤف رحيم » ولذلك قال تعالى أيضا : « كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون »

ومن نظام الله تعالى الدستورى اختصاصه بمنح الخيرات لمطلق الرحمة (وسنوضح كيفية ذلك فى باب آخر) لانه تعالى بصفته الآله الخالق كل شيء فلا يصح ان يشترك معه مخلوق فى مد شيء من الخيرات الا باذنه لان المخلوق نفسه محتاج للخالق في حفظ حياته وكل متعلقاته فكان كذلك نظام منح الخيرات للخاق مختصا بالخالق وحده اذهو اليق وأوجب ولان الخير هو كل طلب المخلوق و رائده في الحياة . فاختصاص الله تعالى بمنحه حق لوجوب التجاء المخلوق اليه تعالى فى كل وقت لاظهار العبودية أو الشكر الذى هو الغرض من الحياة مما يكون نتيجته زيادة الرحمة . قال تعالى لاظهار هذا التخصيص: « بيدك الخير » وقال تعالى : (ماأصابك من حسنة فمن الله » تأييدا لذلك أيضا

ومنه : اختصاصه تعالى بجزاء الخلق جزاء عادلا على كل أعمالهم . اما لغرض حفظ النظام بينهم أو للرجوع عن اثم يرتكبونه أولاى سبب آخر فالله تعالى في كل أعماله حق مطلق عادل لايستحق الاحسن الظن لانه لايوجد غيره من يعلم بكافة المخلوقات وكيفية اعمالها وما تكنه ضمائرهم فجدير ان يكون هو وحده القابض على زمام الادارة العامة ومراقبتها وحفظ النظام العام بين الجميع « ومايعلم جنود ربك الاهو »

كما ان المخلوقات وخصوصاً بنوا الانسان مادامو أحرارا في أعمالهم لابد من وجود نظام الهى يحفظ لكل هذه الحرية حتى يؤدي كل عمله والغرض الذي وجد من أجله فى هذه الحياة . — فاذا وجد رجل سافك للدماء فحياته لا تطول الى حين بل جعل الله تعالى لمثله نظاما وجزاء فالمحسن والقاتل لا يتساويان أمام الحقيقة والعدالة الالهية فى هذه الحياة

غير انى اعرف ان كثيرا من افراد الامة الاسلامية وعلمائها يتلقون هذا الاعتقاد بالقبول لتوهمهم انه في الدين . ويعتقدون ان مطلق التسليم به فرض وأمر واجب وذلك لعدم تفكرهم باستقلال فى أساس هذا الموضوع الهام . « أولم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والارض الا بالحق وأجل مسمى » بل لعدم بحثهم ولاحتكار فهم الدين من أفواه العلماء ولو على غير حقيقة قد ارتبكوا فى فهم هذا الموضوع عدة قرون ارتباكا محزنا للنهاية ! ! . . مع انك تجد أفكارهم وطبيعة ضمائرهم فى حيرة دائمة واندهاش من هذه النظرية المعكوسة . وما ذلك الا لعدم تمكنهم من فحص حقيقية هذا الامر البديهى الذى احتارت فيه العقول مع سهولته الكلية وايضاحه بالقرآن العظيم فى كل سورة وآية . . . . اذ الحقيقة التى لاريب فيها ان كل شيء يعمله الانسان مهما كان طيبا أو رديئا أو أى شيء يحصل في الارض والسماء مهما تنوع ومهما تقلب مكتوب مع نظامه وكيفية تنفيذه فى ام الكتاب ولكن لاتخصيص فيه لاحد بالذات بحيث ان الانسان حر فيما يفعل وما يختار والله تعالى يمده بالاصابه حسب النظام المسنون فى أم الكتاب طبقا لما سير نفسه فيه بحريته وليس طبقا لما هو مكتوب له بالذات اذلاشيء فى ام الكتاب يخص انسانا بالذات قبل ان يختارها لنفسه بمطلق حريته غير انه اذا اختارها كان له جزاؤها وكانت له بالذات أيضا فتكتب له أو عليه فى صحيفته الخصوصية ويتنفذ عليه النظام الذى يلحق مثل العمل الذى اقدم عليه بتمام اختياره.

وقد تتشابه أفراد في اختيار عمل واحد فينفذ الله تعالى جزاءه على كل منها طبقا للقدر العام المكتوب فى ام الكتاب عن مثل هذا العمل كما ينفذ القاضى مادة (كذا) من القانون على شخصين قد ارتكبا جناية واحدة فى ظروف مختلفة كل منهما بمفرده فيقدر الجزاء و يعطيه لكل منهما طبقا لمادة واحدة أيضا ثابتة لاتتغير فى القانون المذكور وان القرآن العظيم في قدر الله تعالى العام على الافراد والامم يؤيد تمام التأييد هذا المبدأ الحق في أغلب آياته الحكيمه كقصة شعيب عليه السلام عند ما أرسل رسولا من الله تعالى لاهل مدين فى قوله : « وياقوم لايجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أوقوم هود أوقوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى

رحيم ودود . قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنريك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز . قال ياقوم ارهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون . من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا انى معكم رقيب ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين . كان لم يغنوا فيها الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود .) فيتضح للقارىء من الآيات السالفة ان الله تعالى يذكر ان الرسول شعيب عليه السلام كان ينذرهم بتطبيق انتقام الله تعالى لهم وتقدير الزوال عليهم من الارض اذا أصروا نهائيًا على ماهم فيه من الفساد فى الارض والكفر كما أوقع نفس هذا الجزاء على غيرهم بالمثل تماما كقوم نوح وهود ولوط وصالح اذ بعد ان وصل لهم هذا الانذار الحق أصروا نهائيا على الكفر فاهلكتهم الصيحة وقيل فيهم : « فبعدا لمدين كما بعدت ثمود » أى بنفس الجزاء السالف الذي وقع على الامم الاخرى وهو الانتقام بالزوال من الارض بلا تغيير وان تواجد كل منهم فى وسط مخصوص فنتيجة الاصابة بالقدر والجزاء واحدة

ولسهولة ايضاح هذا النظام وحصره في الفكر على حقيقة نضرب مثلا فرضيا لتقريب الافهام فقط وهو :

لنفرض ان ام الكتاب أشبه بلا تمثيل للوح الشطرنج المربع ومنقسما الى مربعات كثيرة وكل مربع مكتوب فيه عمل ما من عمل الانسان أوأى مخلوق مهما تنوع ومهما فرضه الفكر من طيب وخبيث وعلى أى كيفية وحالة كذا كل حدث يحدث وسيحدث في الارض والسماء مهما قلب فيه الفكر وفرضه على أى كيفية وحالة . — وبالطبع فان هذه المربعات تكون بلاحد بالنسبة للمخلوق لانه لايمكنه ان يحصر المخلوقات وتنوعها وتقلباتها وأعمالها ولان كل مربع فيه عمل ما أوحدث ما واحد مع نتيجته — ولكنها بالبداهة محدودة ومعلومة بالنسبة للخالق سبحانه « لقد أحصاهم وعدهم عدا »

فالله تعالى فى هذا الموقف والحالة هذه يعلم بكل ماهو مكتوب في ام الكتاب كمافى اللوح المقسم المفروض تماما — ثم لنفرض ان الانسان بعد ولادته مباشرة على حالة الفطرة

الطاهرة النقية يبتدأ فى السير على هذا اللوح اذ هو لابد ان يسير حسب حريته المقدسه الممنوحة له من الخالق (سبحانه) فسيره على هذه المربعات هو نفس سيره وتقلبه في الحياة بالضبط . فهو حر فى ان يضع قدمه فى أي مربع من تلك المربعات ولنفرض ان كل مربع يقدم عليه هو أمل من آماله الدنيوية التي يريد ان يعملها فقد قلنا ان المربعات المذكورة لايخرج عنها أى فرض كان يفرضه الانسان أو يريده أو يتصوره مع نتائجه وجزائه بعد حدوثه . — فاذا أعطينا لتلك المربعات نمرا حسب تعدادها وتعداد تنوع ماهو مكتوب فيها وفرضنا ان الانسان ابتداء يسير . فانه عند مايمشى على أول مربع كما يعمل أقل عمل في الحياة كما في المربع المذكور فالله تعالى اذا كان يعلم به قبل ان يقدم عليه الانسان ولكن هذا الانسان أيضا حر فى ان يضع قدمه في أى مربع آخر غيره وله من الحوادث واختلاف أفكاره وتنوعها مايستدل به على اختيار الف حالة متنوعة والف عمل . وكل حالة يتصورها ويريدها أوتحدث مكتوبة في أحد هذه المربعات و بجوارها نتائجها التى ستصيبه ان فعلها ايضا . فلانسان فى هذه الحياة لايختار شيأ الا والله تعالى يعلم به قبل حدوثه ويعلم بنتائجه بصفة عامة لاتخصيص فيها لاحد بالذات بكيفية نتيجتها: ان فعل الانسان كذا كما في المربع نمرة كذا أصابه الله بكذا وتنفذ عليه كذا وان فعل كذا اصيب بكذا وهكذا فهو غير مقيد فى افعاله فهو حر تمام الحريه (الا فيما يستحقه من نتيجة اعماله) وله ان يختار اثنا سيره أى مربع من تلك المربعات وهو يصاب بتنائجه بالضبط رغما عن نفسه جزاء حقا من الله تعالى عادلا — . فالمربع الذي هو كام الكتاب بلا تمثيل منبسط امام الله تعالى معلوم ونفس الانسان يراقبها الله تعالى ويعلم مايكنه ضميرها وما تقدم عليه وما تريده من أول وهلة . . . فأى شيء قد غاب الآن عن علم الخالق ؟ . . . الجواب بالطبع لاشيء . . . الروح تولد مجردة بسيطة لاعلم لها بشيء مطلقا الا من العقل الذى تمنحه فقط فى هذه الحياة وتستعمله بحريتها الخاصه . . فالانسان اذا ابتدأ ان يعلم أو يعمل شيئاً فى العالم فهو يبتدأ فى آن واحد ان يعمل أو يعلم شيئا عما فى ام الكتاب ولكن ما كان مخصصا له بالذات من قبل بل له ولغيره أيضا . — واذا أراد ان يوضح نظام الطبيعة بحق صريح واضح فهو يبتدأ ايضا ان يوضح بعض نظام الله تعالى

في ام الكتاب . ـ فاذا قلنا ان الله تعالى لايعلم مايريد الانسان لنفسه من كل ماهو مكتوب فى ام الكتاب . هل يكون هذا السؤال شبهة لتعريضنا بنقص علم الخالق سبحانه ؟ . . . . الجواب كلا . . . والف كلا . . ذلك لايوجب التوهم نقصا فى علم الخالق سبحانه مطلقا . . . لان كل مايمكن لهذا الانسان اختياره وعمله أو مايصاب به طبقا لاختياره معلوم لله تعالى قبل ان يوجده . . . ولكنه تعالى لم يخلقه أيضا الاعلة وحيدة فبعد ان منحه العقل أوقفه امام ام الكتاب نظيفا ليختار منها مايترآى لنفسه وبحريته من كل ماهو معلوم لله تعالى من قبل . فيكون مااختاره الانسان بحريته معلوم لله تعالى قبل ان يخلقه بصفة عامه بلا تخصيص لهذا الانسان قبل وقوع اختياره ومعلوم لله تعالى بعد اختيار هذا الانسان انه كتب له وعليه فى صحيفته الخاصة فهل تكون حرية الانسان فى العمل والاختيار اذذاك عرضة للتوهم بنقص علم الخالق ؟ . . . حاشا وكلا . . . حاشا وكلا لولم يخلق الله تعالى العالم ليمنحه حرية كاملة ومعها العقل ليجيء خاضعا لذاته العلية بالالوهية بتمام الحريه والحق لكان هذا العالم باطلا واجب العدم حتما ولا كان لزوم للانشاء ... ولا كان لزوم للخلق المقبل . . ولا . . . ولا . . . ولا . . . . « اولم يتفكروا فى انفسهم ماخلق الله السموات والارض الا بالحق وأجل مسمى ؟ ».

وعلى هذا البيان السالف يمكننا ان نكرر أسئلتنا للعقل ثانيا مستندين بالقرآن الحكيم فنقول : هل الله تعالى يعلم كل ماسيصيب كل الناس والمخلوقات من الجزآت المختلفة وتقلب الاحوال والحوادث المتنوعة قبل ان يخلقهم وكذا كل عمل يمكن للانسان عمله مهما كان ؟.... فالجواب على ذلك بالطبع نعم . . قال تعالى : «وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات البر والبحر ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين» . وقال تعالى : «عالم الغيب والشهادة» . وقال تعالى : «ماأصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير» . ـ فبمقتضى هذه الآية يذكر الله تعالى ان كل حدث في النفس والارض يعلم به تعالى بل وكتبه قبل ان يوجد الخلق طبقا لما سبق ايضاحه .

ولكن هل منحه تعالى للانسان الحرية ليفعل كل مايريد يوجب التوهم ان شيئاً مما

سيعمله هـذا الانسان قبـل حدوثه خرج عن علمه تعالى ؟ . . . . الجواب . . كلا بالطبع لان كل شيء مكتوب امام الخالق (سبحانه) كما توضح ومعـلوم لذاته الالية مع العـلم ان الحوادث والارادات المتنوعة وجزآتها المناسبة لها المكتوبة فى أم الكتاب (كما في المربعات المفروضة) لاتخصيص منها لانسان بالذات بل هى عامة على الجميع كل يتنقل فيما يشاء منها وكل اماله الامل والعمل من تنوع تلك المربعات التى هى أشبه بالامال لانسانية وغيرها مالا حصر له ولا تحديد « اعملوا ماشئتم انى بما تعملون عليم »

ثم نقول : هـل ترك الله تعالى الحرية للانسان فيما يريد (لانها الحق كما توضح فى الابواب السالفـة) ليختار من تلك المربعات المشابهة لآماله وافكاره التى لاحد لها وهو تعالى يعلم ماذا سيريد من مجموعها هذا الانسان لذاته بالتخصيص قبل ان يختار ؟. . . الجواب كلا . . بالطبع لايعـلم الله تعالى ماذا سـيريد كل انسان لذاته بالتخصيص مما هو في أم الكتاب الا بعد ان يختار ويعمل فتكتب عليـه أوله فى صحيفته . لانه خلق ليعلم الله منه ماذا يختار من مجموعها هذا الانسان مع كونها كلها معلومة للخالق من قبـل وهو تعالى لم يخلق الخلق الا لهذا الغرض الحق ليرى من كل انسان ماذا سيختار لنفسه من كل مايعلم « ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » وانه تعالى بمطلق ارادته الحقه سبقت كلمته تعالى بحق وأراد ان يطلق للانسان عنان الحرية في السـير على أى مربع من تلك المربعات وجعـل له العقل والالهام مرشدا ليوضح له من تلك المربعات التي تشـبه آماله واعمـاله الطريق الاقوم من المعوج علاوة على الرسل عليهم السلام والكتب السماوية التى ان تبعها بحريته توصله بلا محالة الى السعادة الحقه . فعلمه تعالى بما يخص كل انسان بالذات متوقف على ارادة الانسان نفسـه وهو انه متى اختار أي مربع من تلك المربعات جازاه تعالى بمطلق قدرته أيضا بالرغم عنه بالجزاء المناسـب لما اختار وعلم تعالى فى آن واحد ماذا سيؤول اليه هـذا الانسان مما عمل بحريته فى الدنيا والآخرة وكتبه له وعليه بالضبط « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ولكن عـدم علمـه تعالى بما سيخص كل انسان بالذات لشخصه قبـل ان يختاره لايوجب التوهم مطلقا ان شيئاً ممـا عمـله الانسان أوسيعمله في المستقبل أوتجازى به فى الماضى أوسيجازي عليه في المستقبل خرج عن علمه تعالى كما هو

ظاهر بالبداهة مما أوضحناه في المثال السابق المفروض

ولذا قال تعالى : « أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » فالله تعالى يصرح في القرآن بنفسه بانه تعالى لايعلم الصادق من الكاذب في الايمان الا بعد ان يفتنه ويجربه ويمتحنه بالفتنة ليعلم منه قوة الخيار في الايمان والثبات فيه أوالتزعزع عنه بمطلق حريته الممنوحة له من الخالق طبقا لما سبق من البيان ولذلك قال تعالى أيضا في آية أخري « وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو في شك منها وربك على كل شيء حفيظ » أي انه تعالي لم يجعل للشيطان على الانسان سلطة ليحور ارادته الحرة الخصوصية من الايمان الى الكفر . بل هي وسوسة فقط ضعيفة « ان كيد الشيطان كان ضعيفا » أمرها بسيط لاتأثير منهاوممكن لكل انسان بحريته ان يتجنبها بما خلق الله تعالى فيه من عقل وجعل له من الهام والله تعالى لم يمنع الشيطان عن تلك الوسوسة للانسان الا ليجعلها من ضمن الفتنة والامتحان اللازم ليعلم منهاتعالى من يؤمن بالآخرة ممن هو في شك منها وهذا كالمثال السالف أيضا

وقال تعالى في آية أخرى « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدي الله وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤف رحيم » فهو تعالى يصرح هنا أيضا انه لايعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه منهم قبل الفتنة بالانقلاب عن القبلة ببيت المقدس الى الكعبة الا بعد حصولها . — فهنا لايتوهم كما سبق الايضاح ان الله تعالى خرج عن علمه شيء . . . كلا . . . بل الله تعالى يعلم ان ماخلقهم عليه من نفس كاملة وعقل يمكنهم به ان يتبعوا الرسول بمطلق حريتهم التى منحهم بهاويعلم أيضا انه يمكنهم أن لايتبعوه جميعا بمطلق حريتهم وفي آن واحد يعلم بالنتيجة التى سيجازيهم بها وتصيبهم في الحياتين ان تبعوه ويعلم من قبل أيضا بالنتيجة التى سيصيبهم بها في الحياتين ان لم يتبعوه . غير ان هذا العلم المطلوب هو علم ارادة كل منهم الى أي جهة يرغب السير بمطلق حريته ليمده بجزاء ماأراد بلا اجبار عليه في اختيار مايريد ويتبع . — وتغير القبلة نفسه لم يك الا لغرض الاختبار والامتحان . — فاذا فرضنا

المستحيل كما يدعى بعض علماء الضلال من انه تعالى كتب لبعضهم ان لا يؤمن بالذات في أم الكتاب كما يقولون . . . فلماذا يمتحنهم ؟ . . ولماذا يوضح الغرض من امتحانه ؟ . وهو انه تعالى يريد ان يعلم من سيثبت فى الايمان ومن الذى سيتزعزع عنه ان كان هناك من الاصل انقسام ثابت سبق له تعالى العلم به لكل شخص منهم ؟! أليس ذلك الكلام الاخير القرآنى يكون باطلا ورياء !!. . . وهل القرآن الحكيم باطل ؟ . . . فلنترك ذلك . . . واذا كان لابد من حصول الارتداد بالفرض وضياع الايمان ممن قد تزعزع منهم كما يتوهم المحزفون بانه مكتوب سابق لهم بالذات من القدم ! ! . . لماذا يوضح لهم بعد ارتدادهم وضياع ايمانهم انه تعالى لم يرد بهذا الامتحان ضياع ايمانهم كما أضاعوه بحريتهم فى قوله تعالى : « وما كان الله ليضيع ايمانكم » أى بهذا الامتحان بل كل ما يريده لهم ان يثبتوا فيه الى النهاية لان فيه رحمته ورأفته الابدية !! . . . اما ذلك يؤيد أيضا بلا شك ان ضياع ايمانهم وكفرهم ليس سابقا لهم بالذات في أم الكتاب قبل ان يفعلوه كما يدعى بالعكس أولو الضلال وانهم بحريتهم أضاعوا ايمانهم ! . . . . وهل هذا يليق بالاله الواحد الرؤف الرحيم ان يتخذ عباده العوبة فيخاطبهم بلسان الرحمة بقوله « وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤف رحيم » ثم هو يعاملهم وينفذ عليهم شيئاً ثابتاً لا مفر لهم منه كتبه بالذات لكل فئة فى أم الكتاب من ان هذا بشخصه مؤمن وذاك بالذات كافر ! ! ! اذا . . ما فائدة منح العقل فى هذه الحياة ؟ . . . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . . . ان الله تعالى خلق جميع الناس بلا استثناء متساويين فى الفطرة الروحية قبل ان يتشكلوا في بطون أمهاتهم بشكل الانسانية الجسمانى مفطورين على الايمان الخالص والاعتراف بوحدة الخالق وألوهيته الحقه حتى انه تعالى أخذ من جميع الارواح عهدا وميثاقا على أنفسهم بالايمان له تعالى بالربوبية كما فى قوله تعالى : « واذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ . . قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » . — فهو يقول تعالى « من بنى آدم » دليل على عدم استثناء ذرية الوثنى واليهودى والمسيحى والمسلم والدهرى والكافر والمجوسى الخ . . . بل كلهم أجابوه سبحانه جوابا واحدا بقولهم : بلى . . . أي نعم أنت وحدك ربنا الحق لا اله غيرك . . . أفهل اذا كان كتب لبعضهم شيأ فى

أم الكتاب خاصا لكل نفس قبل وجودهم بان هذا كافروذاك مؤمن ان يقول جميعهم لربهم: بلي . . . بلا استثناء اظهارا لتمام الايمان من الجميع وهم فى حال الفطرة الروحية والبساطه ؟ . . . أم ان ذلك يثبت بلا شك أيضا ان لا كفر الا فى هذه الحياه « حياة الحرية والاختيار » !!!

ولماذا يذكرهم الله تعالى بقوله : « ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » أى ان تقولوا عن هذا الاعتراف بالايمان بربوبية الخالق فى الحياة الدنيا غافلين؟. . . .

اما لان الغفلة عن الايمان بالله تعالى لاتكون الابعد حريتهم فى هذه الحياة التى منحهم الله تعالى بها وليقدموا أنفسهم لربوبيته تعالى بالايمان مخلصين وانه تعالى ماتركهم يكفرون بانفسهم الا لعلة لزوم بقائهم احرارا فتط علهم اليه بحريتهم أيضا يتوبون ويرجعون ! ! ! .

كل ماسبق واضح بين له شواهد عديدة في القرآن العظيم وان الله تعالى لم يجعل الخلق على مثل هذا النظام الا ليضع كل انسان نفسه فيما يريد . وكفى الانسان العقل والمواهب الالهية العديدة التى بها يمكنه ان يكون فى أحسن مركز أو في أتعس مركز . ـ فلا ابالغ اذا قلت: «ان الانسان بعمله فى هذه الحياة سيخلق خلقا جديدا طبقا لعمله تتأبد فيه نفسه طول الابديه . . . فليضع الانسان نفسه فى هذه الحياة بحريته وباعماله الجليلة فى وضع يرضى روحه الطاهرة النقية فانها كذلك سترضى وتسر فى الابد . »

ولاجل ذلك جعل الله تعالى من ضمن نظامه العام ان يكون المخلوق وما يعمله مستوف كل المراقبة « ان الله كان عليكم رقيبا » حتي يقدر تعالى للنفس الا ماأرادت بحريتها وعملت قال تعالى « فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين » وكذا « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وقال تعالى أيضا : « فلا تكسب كل نفس الا عليها وما ربك بظلام للعبيد » هذا بخلاف الملائكة المعينين لكتابة كل شيء للانسان وعليه . « وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون » حتي التلفظ بالكلام مهما كان بسيطا « مايلفظ من قول الالديه رقيب عتيد » وهكذا حيث ان آيات الله تعالى كثيرة تؤيد هذه المبادي الحقه العادلة المعقولة . وبعض من الناس

يعترضون على ربهم لرؤيتهم أمورا يتوهمون انها ظلم لم يقع الا لمشيئة الخالق (سبحانه) ... مثلا : رجل رأى طفلا مرض مرضا شديدا يتألم منه أشد الالم فيقول : ماذنب هذا الطفل المسكين وماذا ارتكب من الجنايات حتى يعذب هذا العذاب الشديد . . . أورجل سائر فى الطريق حسن السيرة فقير وله أطفال كثيرة اذ سقط عليه حائط فمات لساعته وترك اطفالا يتوضرون من بعده أشد الآلام . . . فيقول ماذنب هذا المسكين . . . وما جناية هؤلاء اليتامى ؟ . . أو . . . أو . . . وهكذا ولو أردنا حصر الحوادث العالمية لرأينا الوفا من المعترضين قائلين بتبرأة مثل هؤلاء معترضين بقولهم ان كان هناك لاجزاء الا بالعمل الخاص فماذنب هؤلاء . . . . . . الخ

فنقول : وان كان ثبت للمطالع ان حرية الانسان في كل مايعمل أمر مقدس لازم فان بواطن المخلوق للناس مجهولة حتى نستنتج دائما عللا صحيحه عما يصيب الله تعالى به كل فرد فى العالم فضلا عن ان حرية الله تعالى الخاصة في تنفيذ ما كتبه على نفسه من الرحمة العامة على جميع الخلق أمر اشد لزوما من كل شيء وان كان فيه ظاهرا نوع تعريض لحرية بعض الافراد وارادتهم . ولنضرب مثلا : بنت الحكومة مدينة وسنت في قانونها انها عند اللزوم تنزع ملكية بعض الاراضى من أربابها لامر صالح عام في تلك البلدة . — فاذا فرضنا انها رغبت فى انشاء شارع أو حديقة لازمة لحالة البلد الصحية في موضع كان فيه منازل بعض الافراد الذين لا يرغبون انتزاع أملاكهم فانها تنفذ ذلك رغما عن ارادتهم مع تعويضهم عما فقدوه بما هو أحسن منه فلا يكون هناك ظلم لهم الا رحمة بهم ان أدركوا الحقيقة وباهل المدينة عموما واعتراضهم فى ظلم الحكومة لمجرد سيرها ضد رغبتهم الشخصيه جهل منهم وبالصالح العام الذى تقدسه الحكومة مع كونه أحق وأوجب .

فهكذا الخالق سبحانه بلا تمثيل . . . فاذا رأينا طفلا لم يكتسب اثما مرض مرضا شديدا يعذب منه عذابا مؤلما ثم مات . . . فلا يجب ان نعترض فلا بد ان مثل هذا له عوض فى الآخرة يرضيه وهى التي يرى لها الله تعالى فى رحمته « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » التي كتبها على نفسه ويمدها على عباده ويكون مرضه من المحتمل فتنة لوالديه

أيضا ليتضرعان الى الله تعالى ويفتكرانه فيغفر لهما بالتضرع بعض ذنوبهما . اذ لكل حدث نظام وجزاء أو قد يكون موت الطفل سببا لاستقامة والده الفاسق أو والدته « انما أموالكم وأولادكم فتنة » . بل قد يكون هذا المرض جزاء للطفل على كفره فانه حر أيضا فى الايمان والكفر من بعد لحظة نزوله من بطن امه على نسبة تركيبه وان كان غير كامل فى العقل فيكون هذا المرض القليل الزمن الذى توهمناه من الخالق ظلما سببا لرحمة ثلاثة أشخاص آثمين رحمة ابديه .

ونحن لانقصد بما ذكرنا ان ندعى العلم بالغيب أو بواطن الامور لنوضح علة كل حادث . فان من أساس نظام الله تعالى ان أغمض البواطن عن كل نفس الا لقصد حق عادل « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً » وذلك لغرض حقيقة لاختبار والفتنة حتى يكون ذلك داعيا لحفظ الحرية لكل انسان فيما يفعل ولا يتقيد بما يتوهم انه سيصيبه بسبب ما « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ان الله بالناس لرؤف رحيم » . — اذ لو كشف الله تعالى لعقولنا علة كل سبب أو حدث يحصل بمشيئته بلا سبب واضح لنا لتأكدنا عدل الخالق المطلق ورحمته على الجميع بلا استثناء فالفائز من صبر على كل حال وشكر . اذ أن ذلك هو الغرض من الحياة

ونحن نذكر هنا حادثتين حدثتا فى تاريخ العالم يوضح علتهما القرآن العظيم وهما : رجل صالح تقى قتله رجل آخر مجرما أثيما بلا سبب غير كون الاول مؤمنا مخلصا للخالق وقد تركه الله تعالى يقتله بلا معارضه

ثم أخر وقد أخطأ فوقع في الحال فى ضيق شديد جزاءه وما كان يظن ان ينجو منه مطلقا بل ولا يسمح خطاؤه بخلاصه منه ولكن نجاه الله تعالى بنفسه وبقدرته الخصوصية وعاش بعدها عيشة الهناء والسعادة

فاذا تأملنا الى ظواهر هاتين الحادثتين تأخذنا الدهشة لاول وهلة اذا لم نعلم العلل الحقيقة وربما اعترض البعض بالطبع أو قال مع المضلين هذا القدر كان مكتوبا لهذا بالذات من القدم وذاك مكتوبا للآخر . — مع ان الحقيقة لم يفعل الله ذلك لا لقصد الرحمة تبعا لارادة كل منهما الخصوصية من الخالق حسب النظام العدل السابق ايضاحه

اما حل هذا اللغز: فمن الرجل الاول المقتول: وان كان مخلصا لله تعالى تقيا غير انه كان له بعضا من الآثام سالفة وقعت منه وحالما ابتداء القاتل بالتعدى عليه أنذره بأنه لا عدله بد الانتقام بالقتل الفظيع مثله لانه يخشى من الله تعالى مسئولية الاقدام على عمل فظيع كهذا تقشعر منه الابدان واراد بنفسه ان يتركه ينفذ فعلته الشنعاء بحريته المطلقة ان شاء وليضم الى عاتقه أثامه الذاتية التى ان كان عاش المقتول لغفرت له من حسن اعماله التى كان متثبتا بها وفى آن واحد ليضمن لنفسه الجنة والنعيم الابدى المقبل فيموت طاهرا كانت علة قتله « الاخلاص للخالق »

فعمله هذا عادل وحق من كل وجه وخصوصا فان القتل كان في امكانه العدول عن هذا العمل البشع لولا انه قبل على نفسه نتائج كل هذه الانذارات الدلهة المقبله ولهذا ترك الله تعالى كلا يختار لنفسه ماشاء من هذه النتائج العادله . وأما عن الثانى : وان كان خطاؤه مايسمح لنجاته مطلقا مما وقع فيه والضيق الذى وقع فيه أمر خارق للعادة لايظن أن ينجو منه آخر ولكن كانت له اعمال سالفة طيبة فتطلب النجاة من الخالق فاجاب الله تعالى طلبه رحمة عليه لالهذا الخطاء الذى استوجب الوقوع فى هذا الامر المهلك ولا لمجرد تطلبه النجاة من الخالق بل لسبوق أعماله الطيبة الصالحه فكانت اعماله السابقة الطيبة المذكورة زخرا له وقت الضيق والشدة وداعية لاجابة الطلب. وهذا بالطبع نظام حق وعدل من الخالق لاانتقاد فيه. ففى كلا الاحوال السالفة كانت حرية كل محفوظة غير ان الله تعالى فى جزائه أوقدره يراعى نوال لرحمة لمن يستحقها بعمله واستحقاقه بعدل مطلق ونظام محكم « وما تجزون الا ما كنتم تعملون » فالحادثة الاولى هى : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا لله فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . قال لأقتلنك . قال انما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ماانا بباسط يدى اليك لاقتلك انى اخاف الله رب العالمين . انى اريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين. فسولت له نفسه قتل اخيه فقتله فأصبح من النادمين . » والحادثة الثانية هى: « وان يونس لمن المرسلين . اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون .

فنبذناه بالعراء وهو سقيم وانبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه الى مائة الف أو يزيدون. فآمنوا فمتعناهم الى حين . »

وعلى كل حال فلنتأكد ان الله تعالى لاينفذ شيأ من امثال تلك الحوادث المدهشه التي تحيط بنا بغير سبب ما أو بما ليس له علاقة باعمالنا الحره الخصوصيه . . كلا .... بل لابد ان يكون من نتيجتها ولازم لها بالحق وليس مطلق عمل وان كانت علته وقتا ما مجهوله .

ولنذكر هذه القصة القرآنية الآتية تنبيها للعاقل بما توضح وليتأكد ان نظام الله تعالى الخاص ليس الا لمطلق الرحمة وان غابت أسبابه عن البصائر وليس لعلة انه مكتوب من الازل بالذات كما يدعى الجاهلون . قال تعالى عن موسى عليه السلام ومعه فتاه عندما تقابلا مع عبد لله مؤمن : « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا . فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيأ أمرا . قال ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا . قال لاتؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا . فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله . قال اقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيأ نكرا . قال الم اقل لك انك لن تستطيع معى صبرا قال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا فانطلقا حتى اذا اتيا أهل قرية استطعما أهلها فابوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض فاقامه . قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا : اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت ان أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . واما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا . فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فاراد ربك ان يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا . »

فهذا نبي من الانبياء لم يصبر ولا مرة واحدة من الثلاثة حتى اعترض على ذلك الانسان الذي كان يعمل تلك الحوادث الظاهر خارجها ظلما مع عدالة بواطنها بامر الله تعالى خاصة ليعلم الناس من مثل هذه القصة ان الله تعالي فى مثل تلك الامور المجهولة لا يقصد بها التعريض للحرية المقدسة لاي شخص فيما يفعل بل قد تكون فتنة عادلة لزيادة الرحمة على الجميع . فتكن (الحرية) المحترمة عند الخالق و (الاخلاص) لله تعالى مهما تقبلت الامور والحوادث والعزم علي (العمل) الصالح المفيد بثبات مهما تنوع :(شعار المسلم المقدس.)

ولذا نجد في القرآن العظيم نقطا ومقاصد شريفة جليلة المعانى حكيمة تنبهم على كثير من العقول الضعيفة فنذكر أمثالا فرضية للاشارة اليها . — لنفرض ان رجلا لصا صمم على قتل انسان غنى لينهب أمواله بلا حق ولكن فى نظام أم الكتاب العام لم يأذ الأوان لان يستحق هذا الغنى مثل هذا القتل لاحسانه الكثير ولعلل أخرى عادلة حكيمة . بل وجد فيه ان الذى يستحق القتل هو ذلك الاثيم لو خاطر بنفسه لتنفيذ ما يريد ارتكابه ضد هذا الغنى لسبوق ارتكابه أعمالا سيئة كثيرة ولعلة عادله حكيمة أيضا فتوجه هذا اللص بمسدسه في منتصف الليل وعمل كل حيلة حتى توصل الى باب غرفة الغني فكسر بابه بكل احتراس وبالتصادف كان عند الغنى كلب لا يفارق أقدام سيده فهجم على اللص بزعقة شديدة وعرقل هجومه قليلا بينما كان الغني استيقظ من نومه فجلب مسدسه فى الحال وهناك تقابل كل منهما أمام الآخر في حالك الظلام فضرب كل منهما مسدسه في وقت واحد فأخطأت ضربة اللص وأما ضربة الغنى فأصابت مقتل هذا الاثيم فى رأسه فتجندل الاخير يتخبط فى دمه غير مأسوف عليه

فهذه الحكاية بالنسبة لظواهر نتائجها تعد عكس حكاية ابنى آدم السابق ايضاحها ولكن علل كل منهما حكيمه حقة وعادلة . فاذا قيل فى القرآن العظيم : وما تشاؤن الا أن يشاء الله فليس ذلك يفهم منه كما يعتقد أغلب الناس اننا مقيدون بحديد الهى لننتظر ما يعهده الله تعالى لنا من خير أو شر مكتوب لكل نفس بالذات ! .... كلا .... بل معناه :— وما تشاؤن من عمل تتوهمونه حقا أو باطلا لا يتنفذ الا أن يشاء الله تعالى بحق وعدل محكم

معقول مع حفظ حرية كل فى العمل الحق أو الباطل الذى شاءه لذاته . — وذلك كاشاءة ابن آدم في قتل أخيه بتمام حريته واختياره . فشاء الله ذلك بحق وتنفذ لعلة انه خلق القاتل حرا لايمس حريته فيما يريد وتركه ينفذ هذا العمل لانه الحق لعلة قبوله بتلك الحرية سوء النتائج التى ستصيبه فى الآخرة من الجحيم من هذا القتل ولعلم المقتول نفسه وقبوله بحريته حسن النتيجة العادلة التى ستصيبه في الجنة في الآخرة أيضا . فكانت اشاءة الله تعالى فى وقوع هذا الحادث حقة وعادلة لكل من الطرفين مع حفظ حرية كل منهما فيما أراد وقبل على نفسه بمطلق حريته وان ذلك مكتوب فى أم الكتاب بصفة عامة على من تكون حريتهم في الاعمال مشابهة لهذا الحادث بلا تخصيص من قبل لهؤلاء وحدهم

فهكذا يقال عن اللص وان كان يقصد قتل هذا الغنى كما أراد ابن آدم القاتل . ولكن سوابق كل منهما فيما فعل بحريته تقضى بأن نظام الله تعالى العام فى هذه الحادثة بالنسبة لحسنات هذا وسيئات ذلك المعتدى الكثيرة يحكم بقتل ذلك اللص لاستحقاقه ذلك بعمله الذاتى بحريته أيضا . فكان عدل الله تعالى ونظامه العام المكتوب في أم الكتاب وتنفيذه حائلا بحق وعدل دون نفاذ اشاءة هذا اللص الاخير بل شاء الله تعالى الا أن يكون الحق واقع فقط طبقا لاجمال عمل كل منهما بحريته وليس لقصد حبس هذه الحرية المقدسة .

فوان كان للانسان ارادة واشاءة حرة غير ان الله تعالى له اشاءة حرة يستعملها بحق وعدل مطلق لحفظ النظام والعدالة بين الجميع فقط . فاذا قيل وما تشاؤن من عمل تتوهمه حقا أو باطلا فالا أن يشاء الله ذلك بحق وعدل لاتردد فيه مع عدم مساس حرية أحد الا اذا اقتضاه نظام الله العام مع مراعاة الله تعالى منح الرحمة بحق من أقرب طريق عند كل عمل . « وهو القاهر فوق عباده وهو اللطيف الخبير »

واذا قرأنا في القرآن العظيم قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من فى الارض جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » فيكون معنى ذلك كما يأتى :

« ولو شاء ربك » : أي بحق مطلق وعدل بنظام عام مكتوب

ومتى يشاء الله تعالى بحق فى هذه الحياة أن يؤمن الناس جميعاً ؟ ...

الجواب : عند مايريدون ذلك بأنفسهم وحريتهم التى ملكهم الله تعالى لها وهى

أساس وجودهم في هذه الحياة ...

وهل يجوز أن يكرههم الله تعالى بقدرته الخاصة على الايمان فيها؟

الجواب : كلا ... هذا مستحيل لانهم خلقوا لغرض منحهم الحرية التي يستحيل مسها وسبقت كلمة الله تعالى في عدم مساسها أيضا ...

وهل يحق لاحد غير الله تعالى .. أو يكون له قدرة ما لعمل مثل هذا الاكراه ليجعلهم مؤمنين ؟ ....

الجواب : حاشا ... وكلا .. حتى انه قال تعالى لنبيه « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . لاستحالة ذلك عليه بالمرة .. لان الله تعالى كان أحق بذلك الاكراه ان كان الاكراه حق وعدل لانه على كل شيء قدير ....

وكذا اذا قرأنا قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » فمعنى ذلك هو :

« ولو شاء ربك » أى بحق مطلق ونظام عام محكم ...

« لجعل الناس أمة واحدة » : أى مؤمنة مخلصة بقدرته لانه قادر على كل شيء ليجعلهم متحدين في كل شيء ...

وهل من العدل أن يجعلهم تعالى بقدرته الخاصة في هذه الحياة أمة مؤمنة واحدة متحدين في كل شيء بالاكراه ؟...

الجواب : كلا ... لانه تعالى خلقهم فى هذه الحياة ليمنحهم حرية مطلقة هى كل الحق فيستحيل أن يجعلهم بقدرته الخاصة كذلك من غير أن يريدوها لانفسهم بحريتهم أيضا .....

ومتى يمكنهم أن يكونوا أمة واحدة في هذه الحياة ؟ .....

الجواب : عندما يؤمنوا جميعهم بلا استثناء بالخالق بحريتهم أيضا ففى الحال يهديهم جميعا لانهم أقدموا على ذلك بأنفسهم فيرحمهم كذلك لانه كتب على نفسه الرحمة ، ان علينا للهدى).

وهل اذا لم يؤمنوا جميعاً بحريتهم يستحيل أن يكونوا أمة واحدة متفقين في كل شيء ؟ ....

الجواب : نعم ولا يزالون مختلفين بحريتهم أيضا لعدم الاتحاد فى الايمان و لاخلاص....

وهل اذا آمن بالله بعضهم بدرجة واحدة يكونون اخوانا متحدين كشخص واحد

ويرحمهم الخالق ؟ ...

الجواب : نعم ... اذا أرادوا ذلك فقد رحمهم الله تعالى أيضا بالرحمة والاتحاد وائتلاف القلوب « لو أنفقت مافى الارض جميعاً ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » ...

وهل الغرض من الخلق أن يمنح الانسان بحق «مطلق الحرية» فى هذه الحياة ليقدم لله تعالى العبودية والشكر بها ؟ .....

الجواب ... نعم ... « ولذلك خلقهم » أي لهذا الغرض الحق المطلق خلقهم ...

وكذا اذا قيل فى القرآن العظيم : « يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء » فلا يجب أن نفهم ان ذلك غرض بالهوى أو بلا نظام عدل مطلق كما يقول بعض المتكبرين من الناس أنا أفعل ماأشاء وأترك ماأشاء بهواه بلا حق وعدل لمجرد تملكه وتصرفه . فان الله تعالى عدل مطلق حق فان قيل عنه يعذب من يشاء فمعناه بحق وعدل ونظام عام مكتوب محكم واذا قيل يغفر لمن يشاء فمعناه بحق وعدل أيضا ونظام عام مكتوب محكم

وكذا قوله تعالى : « ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غداً الا أن يشاء الله » فليس الغرض من ذلك أن يتجنب الانسان حسن التدبير ويتيئس كل مسة بل حسن ويعمل له باجتهاد ونشاط .... كلا .. بل ذلك ليفهم الله تعالى الانسان .. وهو وان كان حراً مطلقاً فى كل مايفعل وسبقت كلمة الله تعالى فى عدم مساس حريته فى كل شيء الا بحق . غير ان لله تعالى أيضاً نظام وجزاء عادل هو فوق الكل .. فاذا اعترضت ارادة الله تعالى مشروع عمل أي انسان فلايكون ذلك داعيا ليأسه وجبنه وقنوطه اذ أن ذلك ليس لحبس حريته المقدسة فيما يريد بل قد يكون لما اقتضاه حسن النظام العام بحق مطلق أيضا نجهل حكمته مؤقتا

وكذا قوله تعالى : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » ... فبيان ذلك ان الله تعالى من نظامه العام أن ينتقم من الظالم جزاء له على عمله بحريته بأى وسيلة للانتقام فقد انتقم من بعض الامم بالصواعق أو الغرق كقوم نوح وموسى ... الخ وكذا قد يوقع انتقامه العادل من حوادث نفس الافراد والامم مع بعضها « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » فقول الله تعالى « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » دليل على ان رمية النبي صلى الله عليه وسلم وقت الحرب ما كانت مصيبة مقتل المتحاربين من

الاعـداء ولو تركت كما رماها النبي بحريتـه لذهبت فى الهواء بلا تأثير ... ولـكن .... لاستحقاق المتحاربين القتل والانتقام لـكفرهم وسوء أعمالهم السالفة طبقا لنظام الله تعالى العام العادل ان جعل بقدرته الخصوصـية تلك الرمية الغير مصيبة مؤثره وأحكمها بيده فى المتحاربين لاستحقاقهم ذلك باعمالهم بحريتهم ... فكانت لذلك رمية حقـة وعادلة من الخالق ... فالنبي اذا لم يرمها هذه الرمية القاتلة ... بـل رماها الخالق بحق مطلق وعـدل طبقا لنظامه العام المحكم أيضا

ومن ذلك قوله تعالى : « ومن يضلل الله فماله من هاد » فالله تعـالى مخصص نفسه للهداية وحدها كما سـبق .. ولـكن سبقت كلمته أيضا بحق ان لا يمس حرية أي انسان للضلال أو الهداية الا بارادة الانسان الخصوصية باستقلال ... فاذا اراد انسان الضـلال بحريته فيستحيل الى الابدان يهتدى الا بيد الخالق وحده ... كما انه يستحيل ان يهـديه الله تعالى بقدرته الخصوصية ان لم يؤمن بآيات الله ويرغب الهداية بحريتـه « ان الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهـم الله » لذلك كان ان ضـل انسان نفسه بحريتـه فالله هو المضل لعلة سبوق كلمته ان يتركه ضالا على حاله من غير ان يمسه مادام لا يرغب الرجوع عن الضلال بحريته المقدسة ولاستحالة ان يجد له فى العالم كله هاديا للنفس آخر غير الخالق الذى خصص نفسه تعالى للهداية وهو يقبله ويهديه حالا ان رجع بحريتـه أيضا « ان الله بالناس لرؤف رحيم » . وكذا قوله تعالى : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » فليس الغرض ان لـكل انسان شيء مكتوب بالذات مهما فعل لا ينقذ منه .... كلا .... بل ان الانسان يستحيل ان يصيبه فى العالم ممـا كتب الله تعالى بصفة عامـة على الجميع الا بحق واستحقاق ... فاذا استقام انسان فلا خوف عليه من الضرر ... واذا أعوج انسان فى سيره فلا يأمن العطب فقول الله تعالى : « قـل لن يصيبنا » أي من الجزآت الالهية من خير أو شر « الا ما كتب الله لنا » أى بحق وعدل بنظام عام مكتوب طبقا لحريه أعمالنا وما نستحقه أيضا

فكل مايصيب الناس فى الحياة حق مطلق وان جهلنا الاسباب مع حفظ حرية كل فى العمل ... فالشقى يمكنه ان يتحول الى سعيد بحريته وعمله كما ان السعيد يمكنه بكل سهولة

ان يتحول في أي وقت الى الشقاء بحريته وعمله أيضا.

هذا موضوع قد حير عقول الفلاسفة والعلماء وقد عجزوا للآن ان يكشفوا أسراره الجميلة مع انه الامر البسيط السهل... وبهذا الموضوع قد نسبوا الله تعالى مالا يليق ان ينسب لمخلوق فضلا عن خالق كامل. فقالوا ماشاؤا ان يقولوا وكتبوا ماشاؤا أن يكتبوا وكتبهم مازالت موجودة تشهد على أرائهم. وان كان بعضهم يكتب بجهل لايتعمد السوء. ولكنهم كتبوا مالا يعلمون وكتبوا مايجهلونه جهلا تاما. لانى لم أجد للآن واحدا عرف أسباب الخلقه ولزومها وكيفيتها ببراهين معقولة كما أوضحنا ذلك في الابواب السالفة. وقد بنى على خطئهم فى هذا الموضوع ارتباك الامة الاسلامية باسرها من بدء الخلفاء الراشدين الى الآن وعقولهم كلت وأفكارهم وهنت ولم يعرفوا كيف يوفقون بين آيات الله تعالى والحقيقة. والناظر لآرائهم لايحكم الا بمناقضتها حكما قطعا مهما لطفوا من تحوير التأويل حسب فروضهم الوهمية. وما نشاء ذلك الا من جهلهم الاساس الذى خلق الله تعالى من أجله العالم ومن بنى على غير أساس كالذى يبني فوق سطح بحر عميق لاقرار له مع ان الامر سهل بسيط لايحتاج الا الى الامعان والتفكر القليل.

فالمبادىء السالفة التى أيدناها بالعقل والقرآن علاوة على كونها ظاهرة بديهية فان كل موضوع يلحق ماقبله يؤيده وان الفتنة في الباب السابق لم تك الا ليعلم الله تعالى ميل الانسان الى أحد الجهتين الايمان مع الثبات عليه أو عدمه وهى النقطة الوحيدة التى لم يخلق الانسان فى الحقيقة الا لاجلها.

فاذا نظرنا بعد كل ماتقدم الى موضوع القضاء والقدر الذى اختبط فيه علماء الاسلام كعادتهم في أغلب الامور الدينية يندهش الانسان بل يندهل شدة الاندهال من موضوع خطير لم يك عنوانه الا منع الخوف من الانسان ليقدم على جلائل الاعمال الحقة بقلب حديدى مهما كلفه الامر حيث ان الله تعالى يكلف كل نفس مؤمنة ان تعمل للخير والاصلاح بقدر مافى وسعها من قوة المال والنفس وغيرهما. فاذ باع الانسان نفسه وماله لله تعالى كان الربح أكثر من غيره. ولاجل ان أقدم على الخير تأكد انه فاز عمن لايفعل الخير وهكذا.. فالدين شقيق العقل. والعقل والدين متلازمان مرتبطان لاينفكان الى الابد.

فنظام القضاء والقدر لم يك الا لاطمئنان النفوس وعدم خوفها . وكتابة الله تعالى لكل شيء قبل الخلق لم يك الا لزيادة الرحمة على المخلوقات لتقدم على كل عمل غير خائفة ولا حزينة . فان الثقة بعدل الله تعالي وحسن نظامه فى كل مايعمله الانسان وتأكد الانسان بانه لاتوجد يد أخرى عاملة فى الجزاء فى الدنيا والآخرة غير الله تعالى ثم علم الانسان بان الله تعالى لاتفوته الصغيرة والكبيرة بمراقبته الخاصة وانه لايصاب بشيء في الدنيا والآخرة الا بمقدار ماعمل . وان هذه الحياة ليست خالدة بل جعل الايمان فيها ثمنا للحياة المقبلة الفائقة فى الجمال ... كل ذلك يسهل على الانسان أن لايترك لحظة صغيرة في هذه الحياة من غير أن يعمل فيها مايرفعه درجة فى الآخرة «ولكل درجات مما عملوا» مع تحفظه على الايمان والشكر . وان ثقة الانسان بالله الخالق في كونه يعطى بالضبط بقدر العمل فى الدنيا والآخرة «وما تجزون الا ما كنتم تعملون» حسب النظامات السالفة مما يجعله فى حركة مستمرة في هذه الحياة لاتقف ولا تغمض مطلقا وان يترك سفاسف الامور ولا يطلب ولا يعمل الا للحصول على مايؤيد له المجد والشرف فى الدنيا وحسن الجزاء فى الآخرة . — القضاء والقدر من أول الامور التى تجعل النفس تقدم على جلائل الاعمال العظيمة لايعوقها شيء مطلقا فان الحياة جعلت ميدانا واسعا للجميع بلا استثناء وقدجعل الله تعالى نفسه رقيبا على اعمال الجميع وهو الذي يمد كل انسان بالضبط حسب ماعمل ومن الاسف الاكبر بل من العار العظيم — بل من الخجل المحزن والاثم الفظيع ان يقلب علماء الاسلام موضوع القضاء والقدر قلبا كليا بطنا لظهر وقالوا باوهام لاوجود لها فى القرآن الحكيم مطلقا ولا فى العقل ولا في العالم . — فتوهموا وكذبوا على ربهم وظلموا أنفسهم بقولهم ان معنى القضاء والقدر هو ان الانسان مكتوب لذاته شيء مخصوص لايحيد عنه شعرة ولا يزيد ولا ينقص . أو ان الانسان واعماله وحركاته خلق لله بلا اختيار ذاتى ... أو ... أو ... فتبا لاولئك المضلين ... تبا لهم ألف مرة ماأعمى قلوبهم عن الحق الخالص قدأوقعوا الامة الاسلامية في هاوية عميقة . فلبئس مايقولون !! ... ان هم الا يظنون . ان كثيرا من علماء الاسلام يقيدون عقولهم ولا يطلقون جياد أفكارهم فى العلم بما يملى عليهم حرية الضمير والعقل السليم باتباع الآراء الصحيحة النافعة كالسنن

الشرعية والاوامر الالهية التي تطابق الفطرة الطبيعية في الارتقاء بتوهمهم قدر الله في كل شيء معكوسا حتى نسبوا للدين مايبعد عنه الدين

واذا كانت هذه الاوهام المضلة متسلطنة على جميع علماء الاسلام الى ان كانت سببا في خمولهم وتقييد عقولهم وعدم استنباطهم شيئا جديدا في العلم حتى غرب العلم عنهم وكاد يتبرأ منهم . — فان افراد الامم الاسلامية أيضا من غير العلماء في نفس هذه الضلة تبعا لهم في كافة أعمالهم وأقوالهم حتى تربت فيهم ملكة الكسل والخمول في كل شيء فاستوى بذلك كل الطبقات علما وعملا وقولا لاعتقادهم في القضاء والقدر اعتقادا زائغا عن الحقيقة . — ولو رغبنا ان نقابل بين الامم الاسلامية وبقية الامم الاخري الراقية في المدنية بنشاطهم وحسن أعمالهم لرأينا فرقا عظيما وبونا شاسعا . — وهذا والله مما يفتت الاكباد ويذيب الفؤاد ويجعل الانسان في حيرة واندهاش مستفهما : هل هذ الدين الحنيف هو الذى أسبل عليهم هذا الجهل والتأخر كما يتهمهم بعض الامم أم أنفسهم الامارة بالسوء هى السبب في اضمحلالهم وتقهقرهم لنسبتهم للدين أمورا ليست منه في شيء ويقولون نحن نسير بالدين؟....

تالله لوسألتني عن ذلك لاجبتك ان الدين بريء من الخمول . برى من التأخر شديد التمسك بكل ماهو أحسن . ولو قسنا تقدم كثير من الامم في سبيل العمران والعلم والميل الى العدل بين أفرادها والمساواة والحرية الفعلية وتأسيس المشروعات الهائلة الوطنية والخيرية التي ترفع شأن بني الانسان والحث على اقتناء العلم والعمل الصالح لقلنا ان ذلك هو من دين الاسلام وروحه التي يدعو اليها والغرض الصالح الذى يعمله كل من آمن بالله واليوم الآخر.

ان المرء ليحار اذا أراد أن يوفق بين ماتعمله الامم النير اسلامية من مجد بازخ وعمل صالح وبين مايعمله المسلمون من الانشقاق وانغماسهم في الاوهام واللذات حتى اضمحلوا بهذه الصورة مما يتبرأ القرآن منه كل مبراء . — ولو تأمل الانسان قليلا الى هذه الاحوال المكدرة لوجد لها أسبابا كثيرة تأصلت في نفوس القوم من جهلهم حتى ظلموا أنفسهم بنسبتها الى الله والدين « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا » والعلماء لاشتراكهم مع العامة في هذا الفهم المضل لايبحثون ولا يتدبرون القرآن لاستخراج العقائد الصالحة الظاهرة كالشمس لتستقيم أحوالهم ويأمنوا على دينهم القويم الباهر « وقال الرسول يارب

ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا » فمن هذه الاسباب فهمهم القضاء والقدر مقلوبا مما زاد فى خمولهم وجمودهم . فاذا سرق أحد العامة من المسلمين شيئا وضبطه العدل وسيق للسجن وسألته عن سبب سجنه لاجابك بان الله تعالى قدر عليه هذا السجن لشخصه وهو نطفة في بطن أمه وقبل ان يعمله مع ان الله تعالى يتبرأ من عمله وكلامه . — ولولا اقدام نفسه الشريرة على ارتكاب هذا الجرم لما قدر الله عليه شيئا مما وقع فيه . — واذا سألت مدمن خمر لم تتألم من صحتك ... ولم تشرب الخمر ؟ ... لاجابك بان الله تعالى قدر عليه شربها لشخصه قبل ان يخلق العالم ولا مفر من ذلك . فذلك الشرب مكتوب على جبينه كما يقول ذلك جميع المسلمين من رجال ونساء عند مايعملون أي عمل تهان به الفضيلة أو تداس به العفة تحت الاقدام فانتشر بذلك الفساد بين طبقات الامة وقد يحترم المجرم الاثيم لاحتمال ان يكون قد كتبه الله تعالى قبل ايجاد الخلق من أهل الجنة سعيدا عمن قد يكون مستقيما صالحا لاحتمال ان يكون قد كتب الله تعالى له الشقاء من الازل فتساوت الفضيلة والرزيلة في أعين القوم حتى انتشر فساد الاخلاق في الجميع . فاذا اعترض عاقل على عمل ما . . . رجع الجميع الى سلاح الدين الماضى . . . لاتعترض فذلك ماقدره الله لنا فى أم الكتاب قبل ان يخلق العالم ... وهل ذلك حقيقة فى الدين كما يدعون ؟ .....

اذا كانت الامة تسير فى هذا البحر المظلم الهالك بلا تأمل وتفكر فانهم يسيرون مجدين خلف قادتهم من الائمة العلماء الذين وضعوا تلك المبادىء بجراءة غريبة

يقول أحد مشاهير أئمة المسلمين ومن رؤساء علمائهم وهو المدعو : الامام عز الدين ابن غانم المقدسى المتوفي سنة ٩٧٨ هجريه عن هذا الموضوع بما مؤداه : ان الله تعالى له أمر بالكلام وارادة للفعل فقط ثم هو قبل ان يخلق الناس قسمهم هذا للجنة والسعادة والعمل الصالح وذاك للنار والشقاء وعمل الفساد . فاذا وجدوا فى هذه الحياة وابتداء الشقى ان يقتل مثلا أو يزنى أو يسرق فيأمره الله بالكلام فقط لاتقتل . لاتزن .. لاتسرق ولكنه في آن واحد يجره بقوته الخفية الى أن يقتل أو يزنى أو يسرق لعلة انه يستحيل أن يفعل غير ذلك لانه مكتوب قبل وجود العالم شقى للنار والامر الذي يقوله الله تعالى له فى الدين لاتقتل . لاتزن . لاتسرق ليس الا صورة بصفة حجة ظاهرية فقط لا تأثير منها ولا فائدة

فى منعه عن القتل . أو السرقة أو الزنى حتى قد يجوز اذا كان عمل اعمالا طيبة صالحة الى النهاية وكان مكتوبا من الاشقياء (كابليس) فهى لاتنفعه مطلقا وكانها فى هباء وبالعكس أى اذا كان مكتوبا له السعادة وارتكب أعظم الآثام فلا تؤثر فيه فكل انسان يسير الى النقطة المقررة له من الازل . فخلاصة مبدأه ان الله تعالى له أمر بالقول فقط لايعتد به بازاء حقيقة مايفعله بالارادة فهو النافذ الواقع لامحالة رغم أنوف الناس لاينفع العقل ولا الحيلة فى الخلاص منه مطلقا وكانه تعالى بذلك يفعل بقوته الالهية مالا يقول ثم يقول مالا يفعل ... واذا تأمل العاقل لمثل هذه التهمة الشنيعة ضد الخالق حكم من أول وهلة ان المتصف بها من أول الكذابين ... بل من أول الغشاشين المخادعين ... بل من أول الظالمين ..... وهل هذا الوهم السحرى له حظ من الحقيقة ؟ .... وهل ذلك يا الهى .. يليق لمقامك الاسمى ؟ ... حاشاك .... ما أرفع مقامك وما أرحمك على الجميع ... من البديهى ان الانسان الذى يقول أقوالا يفعل بضدها ليس الا أن يكون مسلوب العقل بالمرة أو يكون غشاشا كذوبا ... فلننظر الى المجانين الذين بالمارستانات نجد من بعضهم أقوالا مفيدة حسنة ثم يدفعهم الجنون الى ضد ماقالوا عملا .... أوقد يطلب تلميذ من والده التوجه الى مدرسته ويصرح لوالده بضرورة التوجه اليها ثم بعد مفارقته له يتوجه الى أحد محلات اللهو والرزيلة ... ألم يغش هذا التلميذ والده ويكذب عليه لانه قال لوالده قولا ثم هو عمل عملا آخر يخالف أقواله ؟ هذه أمور بديهية لاشك في حقيقتها !!!

قال هذا الامام المسلم الذى تتخذه الامة وأمثاله رئيسا مقدسا معمولا بكلامه فى كل مايقول عن هذا الموضوع في كتابه المدعو « تفليس ابليس » صحيفة ٤ بخصوص هذا التقسيم السالف عن ارادة الله تعالى فى الفعل وأمره بالقول ما يأتى : « فالامر يهب. والارادة تنهب . فما وهبه الآمر . نهبته الارادة . الآمر يقول افعل والارادة تقول لاتفعل » اه فهو يقصد بذلك ان الله تعالى يهب الامر لرجل كتب له الشقاء قبل ان يخلقه وهذا الامر فى القرآن بقوله له : لاتقتل عند مايدفع الى القتل ولكن في الحقيقة هذا القول لافائدة فيه وليس له علة لغرض المنع المفهوم من معنى النهى عن القتل لان لله تعالى شىء آخر يسمى ارادة بخلاف هذا القول يعجز هذا الرجل ان يقاومه عجزا مطلقا وهو ان يجره الله

تعالى حتما الى أن يفعل هـذا القتل بقدرته الالهية .... ثم يقول هذا الامام المسلم .... ن الله تعالى له حجة قوية على هـذا الرجل يوم القيامة عند مايعذبه فى جهنم ... وما هى هذه الحجة ؟ هى انه أمره في القرآن بهذا الامر بقوله : لاتقتل .. . فاذا اعترض هذا المسكين طبقا لهذا الامام المسلم فى مبدئه من أن قوة الله الخفية وهى الارادة التي يقول عنها هـذا الامام هى التى جعلته يقتل بما يعجز عن مقاومته عجزا مطلقا ..... وقف هـذا الامام فى وجهه وقال له : اسكت لاتتكلم ولا تتفوه بعد ذلك بكلمه ... . الله يفعل (زي) مايحب فلا تسئله عن ذلك ! ! ! ! ! فيخرس هذا المسكين مضطربا عقله فيموت شهيدا سرار التضليل فى الدين . « فليحملن أوزارهم واوزار الذين يضلونهم بغير علم الاساء مايزرون . » .. فاذا رفع رأسه عاقل حر نقاد واستفتى هـذا الامام المسلم بقوله : وما السبب فى ان يصدر أوامره في القرآن بالعمل أوالنهى أليس ذلك لعلة معقولة ؟ .... أجابه هـذا الامام الذى تقدس مبادئه الامة في صحيفة (٣٨) من هـذا الكتاب بقوله : في الحقيقة لاعلة لامره ...... فاذ تأمل هـذا المستفتى قليلا بثاقب فكره لهذا المجنون وسأله ثانيا بقوله : وهـل يقول لله تعالى أمرا بلا علة معقولة كما تقول ثم هو بعـد ذلك يتخذه أيضا حجة وسببا ظاهريا يوم القيامة في عذاب هذا المسكين فى الجحيم مع أن المفهوم الآن من هذه المبادىء انه جره بقوته وارادته الفعالة الى القتل وسيجره بمثلها الى الجحيم بما لايمكنه ان يقاوم فى شىء أويتخلص حتى ولو عمل كل الفضائل .... ألم يك فى الحقيقة الخالصة المعقولة ان ذلك الرجل سيعذب بلا سبب من نفسه صريح واضح ؟ .... فماذا يجاوب هـذا الامام المسلم ؟ ... يقول في صحيفة (٣٩) : فله ان يعذب بلا سبب (أى الله) وان يسعد بلا نسب ولا مكتسب .. . الى أن يقول ... لايسئل عما يفعل ! ! ! فهل ذلك حقيقة في الدين كما يدعون ؟ .....

يقول الله تعالى فى القرآن الحكيم عن أمره انه مقرونا بالارادة فان أراد شيئا قال عنه صريحا فالارادة منطبقة على القول كما ان القول مطابق للارادة واذا أراد الله تعالى ان يأمر عبدا لاطاعة أوامره بمطلق حريته التى ملكه اليها فليس معناه بعـد ذلك ان يضطره على نتيجة الامر اضطرارا فـكل ارادة وأمر غرض ترمى اليه ولانطباق الامر مع الارادة

عند ما يريد تنفيذ شيء وجب وقوعه حقا أو خلقه قال تعالى في الآية : « انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » مما يدل على انطباق القول مع الارادة انطباقا متلازما . وأما أوامره تعالى فى القرآن فليست الا للتذكير فقط حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فان قال تعالى للناس لاتقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق فلا يريد من ذلك الا مطلق التذكير حتى اذا اعتدى أحد بحريته وقتل نفسا بلا حق نفذ ارادته تعالى من حيث جزاءه بالجحيم وتلك الارادة هى التى أعلنها للناس أيضا بقصد الانذار والتذكير وبمثل ذلك يقال عند ما يأمرنا بعمل البر والاحسان أو الايمان

وبخلاف ذلك فانه تعالى أنب فى القرآن ومقت كل مؤمن يقول قولا فيه فائدة ما أو عملا صحيحا صالحا بسيطا من غير ان يقرن القول بالفعل بلا تردد وانتظار فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون » .. فاذا كان تعالى يمقت كل مؤمن يقول قولا ولا ينفذه بمثل هذا المقت الأكبر فهل يصح للخالق سبحانه ان يقول أقوالا بلا علة لاارتباط لها بأفعاله أو ان أفعاله لاارتباط لها بأقواله ؟ ... ألم تك تلك النقيصة هى نقيصة الكذب والخداع صريحا ؟ ! .... على هذه المبادىء التى تسير عليها الامة الاسلامية خلف هؤلاء الائمة ... اذا نظر رجل أخاه يسرق وكان هذا الاثم لايمس الناظر فقد يتركه يؤدى عمله الفظيع لعلة ... انه اذا كان الله كتب عليه ان يقبض ويجازى فعل ... وربما اذا طلب الشهادة ضده لايقول الحق لعلة انه اذا كان الله تعالى كتب له الاذية فسيمدها اليه من غير الشهادة .... وبذلك انتشر الكذب بين افراد الامة والباطل وكذا المرأة قد يدفعها فقرها الى الخدمة ولكنها لاتقصد الخدمة الشريفة بل تبيع عفتها وتدوسها لالعلة اضطرارها بل لعلة ان الله تعالى اذا كان لم يكتب عليها مثل هذا العمل الفظيع منعها عنها واذا كانت لها الجنة من الازل فلا يؤثر هذا المنكر على حرمانها .. كما انها اذا عملت أشرف الاعمال فى خدمتها وكان ذلك في امكانها فلا يفيدها شيء مطلقا ان كان الله تعالى كتب لها النار من الازل وبذلك انتشر الفساد بين طبقات الامة وبمثله الرجال أيضا في جميع الاعمال والاحوال وكم من حكاية خرافية منتشرة بين افراد الامة يؤدى غرضها الى ان أكثر المفسدين ربما كانوا أرفع مقاما عند الخالق

من افراد مخلصين مستقيمين لتأييد مثل هذه البادىء الوهميه ـ بمثل هذه المبادىء اذا واجهت صانعا مسلما خمولا وسألته عن علة عدم اتقانه صنعته أجابك بان الله تعالى ان كان كتب له ان يكون سعيدا بلا صنعة فلا مانع ولا فائدة من اتقان الصنعة واذا كتب له الفقر من الازل واصلح صنعته واجتهد فيها مهما اجتهد فلا يفيده اتقانها شيئاً فيستمر فى موت الوهم حتى ماتت الصنائع وخمدت القرائح ..... بمثل هذه المبادىء الوهمية اذا واجهت تاجرا مسلما . وسألته عن علة عدم تحسين حاله باقدامه ونشاطه وحسن معاملته... أجابك بنفس جواب الصانع ... ومثل أولئك جواب الغنى في شحه ... والفقير فى كسله.... والزارع في أرضه .... فانتشر الكذب وعم الفساد وفشت المحرمات وديست الفضيلة .. وضاع الشرف وفقد البر والاحسان . وكثر الحسد والانتقام فانعدم شكل الأمه وكادت ان تكون مع الهالكين .

على هذه النغمات الوهمية يضرب ائمة الاسلام وعلمائه فى الدين وبها ملؤا آذان الامة من رفيع ووضيع بنثرهم وشعرهم حتى قال على مثل هذه النغمة عينها الامام وشيخ الاسلام ابن تيميه المتوفى سنة ٧٢٨ هجريه حيث يقول :

فمن كان من أهل السعادة أثرت أوامره فيه بتيسير صنعة
ومن كان من أهل الشقاوة لم ينل بامر ولا نهى بتقدير شقوة

فهل كل هذه الادعاآت الباطلة ضد الله تعالى صحيحة وهل هى فى الدين ؟ ...

كيف يدعى المسلم ان كل بلاء ينزل به أوكل منكر يأتيه ينسبه لقضاء الله وقدره القديم بانه كان مكتوب له بالذات قبل ان ينفذه مع انه تعالى جعل في كل نفس وجدانا يوقظها للخير والشر فقال جل شأنه : « ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها » هذا بخلاف الاوامر والنواهى المختلفة والفروض التى فرضها الله من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والصوم والحج والحث على عمل البر والاحسان وفصل كل شىء تفصيلا ليعمل كل انسان بها ويستنير بنتائجها .

سل المسلمين الآن عن سبب تأخرهم عن الامم الحية الراقية يجيبونك كل شىء قدره الله قديما .ولو أراد الله لنا شيئا لفعل .أما نحن فلا عمل لنا .نعم ان الله على كل شىء قدير.

ولكن الوقوف بلا عمل مما أنتم فيه من الاوهام السطحيه مستسلمين للقدر هى وساوس باطلة يجب الاقلاع عنها واعملوا الاحسن بحريتكم فستجدون بعد ذلك قدر الله أيضا!!...

فاذا أردنا خيرا لانفسنا فعلينا اتباع شريعة الله وحقائق نورها الظاهر بحريتنا ... وعمل الوسائط التي يرشدنا اليها عقلاء الامة للخدمة الخاصة والعامه حتى بح صوت الاكثرين فما بالنا عن ندائهم صامتين وما زلنا في بحر الاوهام هائمين

كل يوم ينادى عقلاء الامة بوجوب انتشار التعليم المؤسس على المبادىء الصحيحة والصنائع والعلوم العصرية على اختلافها بين افراد الامة لانها البلسم الوحيد لشفائها من مرض جهلها فما وجدنا غير الخمول مع انعدام المدارس العالية الاهلية بين الامة وهو دليل يظهر على كمون الجمود فى اعصاب الامة من مرض القضاء والقدر القديم المزعج الفتاك للارواح والفضائل

فالله لايقضى على المرء بشىء ولا يسوق للامة شيئاً الا اذا أقدمت على أي عمل بنفسها ان خيرا وان شرا و « الحرية في العمل » أول شيء قدسه الخالق « فالله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » وان القضاء والقدر بالشكل الذى يعتقده المسلمون من قرون مضت الى الآن بهذا الشكل المرتبك الذى لايوافق طبيعة العقل ونصوص القرآن الصريحة سبب من الاسباب الكبرى المهمة التي ينسبها الامم الاخرى لتأخر المسلمين . وهم محقون في زعمم لان هذا الوباء الفتاك قد تمكن من نفوس عامة المسلمين وعلمائهم مع ارتباك عقول الناشئة الحديثة الراقية فى هذا الموضوع المقلوب عن الحقيقة . ومن المحتمل اذا سألت بعضا من المتعمقين في هذه الاوهام عن الفرق بين تأخرنا وتقدم الامم التى لاتعتنق الدين الاسلامى لاجابوك بان هؤلاء كفرة لهم الدنيا والتمتع بها وأما نحن فلنا الفقر والمسكنة وان حالتنا هذه التى نحن بها هى ماقدره الله لنا وكتبه من القدم لكل فريق وكل شيء سيراه الانسان مكتوب ومخصص له بالذات من الازل فالنوم والراحة والبخل هما المكسب الحلال « ولبئس مايدعون »

لم لا تتمتع معاشر المسلمين بالسعادة والتقدم والعلم والعمران والايمان كما تتمتع الامم الراقية ومعنا كتاب الله الحكيم : ألم يقل الله تعالى لنبيه : « قل من حرم زينة الله التى

أخرج لعباده والطيبات من الرزق» فأي مانع يمنعنا عن السعادة والتقدم ؟ .. ومن الذي يحرم علينا الجد والنشاط والعمل الصالح لنتحصل على طيبات الرزق مادمنا بشريعة الله متمسكين بتروٍ وعقل وحكمة ..... ألا يجوز للمسلم ان يتقدم باجتهاده فى كل علم وفن واصلاح ويفوق عموم الامم والشعوب كما فاق جدوده من المسلمين فى السابق بعلومهم وحريتهم واجتهادهم واستقامتهم وتسامحهم بحكمة أهل الارض . — ان القضاء والقدر شيء عام لاتخصيص فيه لاحد أولامة . أى انه تعالى جعل لكل شيء قدرا معلوما بصفة عامه . فقدر مثلا للقاتل عمدا جهنم ... كما قدر ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . فاذا أقام أى انسان الصلاة لله واستمر على أدائها باخلاص ولدت فى قلبه الكره للفحشاء والمنكر وكفاها فائدة بخلاف ماإذا تركها فانه يصير أقرب للوقوع فى الفحشاء والمنكر مما لو أقامها .. كما قدر ان العلم على تنوعه المفيد يقوي الامة وينيرها « هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون » وان انقسام الامة يوجب ضعفها و زوالها . « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » كل هذه الاشياء وأمثالها التى ذكرها تعالى لنا فى كتابه العزيز والتي علمنا بها بالسنن الطبيعية والشرعية قدرها كنظام ثابت عام لاتخصيص فيه لامة أوانسان فهو لايتغير الى الابد « ولا تجد لسنة الله تحويلا »

كيف يكون الامر كذلك وندعى أن جميع البلايا التى تحيق بنا من انحطاطنا وسوء أعمالنا وأنفسنا شيء قدره الله لنا بكيفية انه مكتوب لنا بالذات بلا علة وهو يسوقنا اليه مع ان الله لايدعونا الا الى الخير دائما « بيدك الخير انك على كل شيء قدير » . فاذا أصاب الانسان سيئة كان ذلك من نفسه وعمله وبمثل الفرد تكون الامة اذ قال جل شأنه : « ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » . — كيف نعرف ذلك وكل انسان حر فى ارادته ويجازي بكل ماتسول له نفسه ان خيرا وان شرا ثم نقول ان فلانا قدر له هذا الشيء وكتب باسمه من القدم وذاك قدر له هذا الشيء الآخر وأحدهما فى النعيم والآخر فى الشقاء . — اذا اعتقدنا ذلك مع تساوى الفردين لنسبنا له تعالى عدم المساواة والظلم ... ان صرحنا بانه خص هذا بالشقاء قديما وذاك بالسعادة من الازل ... اذ أن الناس أجمعين كانوا في الفطرة الروحية مؤمنين مخلصين امة واحدة

فاختلفوا بانفسهم بعد خروجهم في هـذه الحياة بالحرية الممنوحة لهم بحق مطلق من الخالق وبحسب ماأراد كل فرد واختار لنفسه فصار لكل فرد غرض يرمى اليه ويعامله الله تعالى بمقتضاه وان قضاء الله وقدره القديم أمر عمومى لاتخصيص فيه لاحداذ قال تعالى : « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا » أي بحريتهم في هذه الحياة

فحاشا لله ان يكون ظالما ليخص زيدا من القـدم بالشقاء وعمراً بالسعادة من الازل بلا سبب فهو تعالى مع ظلم الانسان لنفسه لاختياره طرق الشقاء بحريته كتب على نفسه الرحمة قبل ايجاد الخلق ليكون فى الرحمة أعم .. والعفو خليق بقادر خالق رؤف رحيم ....

ان المنتقد الخبير اذا نظر على يمينـه وحول بصره الى الامم التى لاتدين بالاسـلام لرأى منهم اقداماً ونشاطاً يحير الالباب بما يظهرونه من آيات الله ونعمه المدفونة فى العالم من كل اختراع جديد واكتشاف مهم ولما حصر الجمعيات الخيرية المتعددة فى بلادهم والشركات الكبرى والاحتفالات بالمعارض والصناعات والتبرعات الهائلة من كرام المحسـنين لخير الوطن والرفق بالايتام والفقراء والاموال الجزيلة لانشاء الاساطيـل وغـيرها مما لايعد ولا يحصيه العقل والفكر مما يدل على الحياة الجميلة العالية حتى صارت هـذه الامم أبهج من نور الشمس بعلومها وقوتها واجتهادها وسهرها على ماينفعهم فى جميع امورهم وكادوا يبتلعون الارض وما عليها من نعم وخيرات ومنافع عديده !!..

فاذا حول بصره الى الجهة الاخرى ونظر الى الامم الاسلامية على اختـلافها لرأى الانقسام والتباغض والتحاسد والجهل والتأخر على أكثرهم ولعـلم ان الجميع في مرض صار مزمنا يعز شـفاؤه ويكاد الانسان ييأس من وجود دواء لشـفائه وسببه فى الغالب الخمول الناتج من فهـم القضاء والقدر مقلوباً وهذا ليس بغريب اذا تمسكت الامة بشىء ليس من الدين مطلقا ولا فى أي ناموس في العالم!!!

« اللهم الا في المخايلات السحريه فانه يتخيل لناظر ظواهرها أنها حق مع ان باطنها كله الباطل » بل هى أوهام تمسكوا بها بخلطهم فى معنى القضاء والقدر القديم من غير تدبـير آيات الله ومشوا عليها جميعا بلا استثناء مما كان سببا فى جمود الامم الاسـلامية كافة بعد النهضة الاولى للاسلام بقوم قد اغترفوا من بحر العلم والعلوم بجهد استطاعتهم بما وافق

روح القرآن وحكمته البالغة فكانوا على الارض كالبرق اللامع المنير .

فاذا كانت الامم الاسلامية سائقة نفسها على حسب كلام الله تعالى فيما يختص بقضاء الله وقدره الموضح حقيقته الكلية الخالصة فى القرآن لما ارتفعت امة من الامم على الاطلاق على الاسلام ولدامت الامة الاسلامية هى النور الساطع الى الابد فوق الارض وهى لابد ان تنهض من كبوتها (لو أرادوا بعد اليوم ان يتمسكوا بحقيقة مبادئ الدين) لتكون كذلك حتى لاترجع أبداً الى ماوقعت فيه .

اذا فرضنا وسنت الحكومة قانونا لرعاياها ان من يزنى من الرعية يكوى بقطعة من حديد مثلا فى يده ... فهذا القانون المسنون أشبه بلا تمثيل لقضاء الله وقدره للناس فى هذه الحياة أجمع . وان الرعية نفسها للحكومة أشبه تماما بلا تمثيل للمخلوقات امام الله القادر

فاذا فرضنا وضبطت الحكومة رجلا يزنى وعلم لها من انه وقع فى الجرم الذى سنت له هذا القانون .. فلا شك انها تكويه فى يده بقطعة الحديد كما سنت ذلك في قانونها أيضا .... أفهل يقال ان الحكومة كتبت اسم هذا الزانى الذى وقع فى يدها في قانونها وكتبت جريمته .... كلا ... ان ذلك ليس هو قانون الحكومة ... بل القانون عام لاتخصيص فيه لاحد من الرعية ولكنه ينفذ على كل فرد من الرعية كلما أراد أحد بنفسه الوقوع فيه كهذا الذى وقع ثم كتبته عليه فى صحيفة الخاصة بدفتر قلم السوابق !! ..

فكذلك قضاء الله وقدره في عباده ومخلوقاته فانه تعالى خلق الانسان حرا ومنحه حرية مقدسة ليختار ويفعل مايشاء فكل مايحدث منه أو يقع فيه يكون له من الله قدرا عادلا بحسب ماتقدر فى أم الكتاب بصفة عامة فلا شيء مكتوبا لذات من الانفس بالتخصيص وبعد نفاذ الجزاء يكون مقيدا على الانسان أوله بمعرفة الملائكة الكتبة فى صحيفته الخصوصية « وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون » كما قيدت الحكومة جريمة السارق السالف مع جزائه في دفتر سوابقه الذي هو شيء آخر خلاف القانون العام ... فبقدر الحل تكون النتيجة ... ولكن الفرق بين الله والحكومة . . ان الله تعالى رقيب على كل شيء صغيرا مهما كان كحبة من خردل أو ذرة أو كبيرا كحجم السماء والارض فهو الذى لايخفى عليه خافية وهو بكل شيء عليم وعليم بذات الصدور . « وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا

حبة في ظلمات البر والبحر ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين . »

أوهل ان وقوع الرجل المذكور مع حكومته ومجازاته غير شياء مما سنته الحكومة في قانونها أم القانون محفوظ لايتغير ؟ ! ؛ نعم ان القانون لايتغير .

أوهل اذا لم يفعل الرجل هذا الاثم ولم تجازه الحكومة هل يغير ذلك كلمة واحدة مما سنته الحكومة فى قانونها ؟ .. أم القانون مازال مكتوبا ومازال ثابتا موجودا لايتغير ! ! ! نعم . . . ان وقوع الرجل في هذا الجرم ومجازاته وعدم وقوعه وعدم مجازاته لايغير شيئا من القانون المذكور لانه مسنونا من قبل كما كتب الله تعالى كل شىء فى أم الكتاب عن اختلاف الحوادث والاعمال لجميع الخلق بصفة عامة قبل ان يوجد العالمين

فقضاء الله وقدره مع الخلق أشبه تماما بلا تمثيل لقانون الحكومة ... ويكون الامر كذلك اذا سنت الحكومة قانونا لعمل الخير أولمكافئة أحذق صانع من رعيتها في عمل ما فالقانون موجود لاتغير فيه والرعية تعامل به بلا تمييز بكل دقة ... وهكذا القضاء والقدر شىء عام يسير على الجميع بسنة واحدة وعدل حق مطلق .. ..

وكذلك اذا قلنا انه اذا زنى زان وأصيب بمرض توفي به على الاثر .... هل نقول ان زناه واصابته وموته كتبهم الله تعالى لذاته بالتخصيص من القدم قبل ان يفعل وقدرهم عليه حتما ثم ندعى ان ذلك هو قضاء الله وقدره ... أم نقول ان قضاء الله وقدره أشبه بلا تمثيل لقانون الحكومة لايخص ذاتا أوانسانا ... وان حالته التى صار بها هذا الشخص قد أمده الله بها تبعا لاعماله الذاتية بحريته بحسب القوانين التى أوجدها في علمه وهى القضاء والقدر المذكور العام على الجميع وانه موجود قبل ان يخلق هذا الشخص وقبل ان يقدم على أعماله . بحيث كان فى امكانه ان يغير سيره القبيح الذى أوقعه فى هذا الهلاك عما هو أحسن وليجازى بالحسنى أيضا ؟ ... نعم .... ان الحقيقة هى كذلك

الا تخجلون أيها المضلون ان تقولوا كتب الله لكل نفس ماقدره عليها من القدم بالتخصيص وهو يصيبها رغما عنها مع انكم تقرؤن قول الله : فما تكسب كل نفس الا عليها . الا تخجلون أيها المخرفون من أن تقولوا كتب الله لكل انسان حركته وسكونه وخيره وشره بالتخصيص من القدم وسينفذ عليه بلا زيادة ولا نقصان مع انكم تقرؤن

قول الله : اعملوا ماشئتم انى بما تعملون عليم مع قوله تعالى : فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .... فما معنى ان يعمل العبد مايشاء من خير أوشر أويكفر أويؤمن ؟ . ومامعنى ان يكون قد كتب الله كل ماير دعلى الانسان لشخصه من خير أو شر قبل ان يختاره ومحتم عليه نفاذه قبل الوقوع فيه ! .٠. وأين هى حرية النفس المفهوم أمرها من نص هذا الامر .... وما الداعى لصدور أمر ان كان هناك شيء مقرر يصيب الانسان أياما كان من خير اوشر ! ! ألم يك ذلك داعيا الى الفهم من أقوالكم حصول الخداع من الله وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. أما تخجلون أيها المدعون على الله بالباطل بمثل تلك الاوهام مع انكم تعلمون ان الله يرسل النبيين والرسل للناس ليمنعونهم بحريتهم عما هم فيه من الفساد وارتكاب الآثام بجهلهم بالقاء أوامر الله تعالى عليهم ! ! وما الفائدة من ارسال الرسل والكتب السموية ان كان هناك أمر مقرر بالتخصيص لكل انسان ينفذ عليه على كل حال ... أهل يفعل الله ذلك خداعا للبشر .... كلا .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ولبئس ماتدعون. أيها المفترون على الله كذبا قد نخر سوسه فى عظام أفهام الامة قد ضللتم أنفسكم وأضللتم غيركم ضلالا كبيرا « ان الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون » وأوقعتم الامة في هاوية الدمار والتقهقر والموت بتمسككم بأمر تجهلونه جهلا كبيرا وقد فتنتم أنفسكم بفهمكم القضاء والقدر بهذا الشكل المريع .

ومن الغريب انك تجد لكل فريق من المسلمين أوعالم من علمائهم مبدأ خاصا واعتقادا غريبا فى هذا الموضوع . حتى تشتت عقولهم وتمزقت من التضارب أفهامهم فهذا يتمسك بظاهر آية ويترك أخري وآخر يتمسك باقوال عالم أوحديث . . وهكذا واذا قست كل ذلك على منبع الجميع وهو القرآن العظيم وجدت فشلا وتضادا فى الجميع لايرجع الى أصل ثابت . وما ذلك الا لعدم الوصول الى أصل الحقيقة فى هذا الموضوع وانه كان يمكنهم أن يعلموا بزيغان أنفسهم جميعا من نفس القرآن الحكيم القائل : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) . فلم هذا الاختلاف اللامتناهى ؟ ...

فترى بعضهم ان أراد أن يعترض على مبدأ آخر ليؤيد مبدأه الخاص يتخذ آية من القرآن الحكيم ويجزم بانها ترمى لغرض كذا وكذا مما يكون وضعها ومقصدها بعيدا بعدا

كليا عن جوهر الموضوع ولا علاقة لها به وانما لو تؤملت بزيغان القلب عن الحقيقة الخالصة ربما تؤيد وهما خياليا يظهر بطلانه مجسما بالبداهة والعقل ومن آيات أخرى ثابتة حكيمة... ولكنهم مع ذلك يتمسكون بهذا الضلال منعا للحيرة التي تختبط أفكارهم فيما اذا لم يلتجؤا الى قصد يظهر لهم أصل الغرض تاركين العقل وكل شيء يعترض سبيل فروضهم الوهمية المذكورة

من ذلك قول الامة بأسرها من عالم وجاهل وأمي وقارىء في منتصف شهر شعبان هذا اليوم الذي تتصاعد فيه أصوات الدعاء فتملأ الفضاء مع انها لا تتعدى جدران الجوامع اذ لا يقبلها الله . فهم يناجونه تعالى بتهمة ضده سيجازيهم بها ان لم يتوبوا فكيف تصل اليه أو تلقى منه قبولا فيقولون : « اللهم ان كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً أو محروما أو مقتراً عليَّ في الرزق . فامح الله شقاوتي واقتار رزقي وحرماني واثبتني عندك في أم الكتاب سعيداً موفقاً للخيرات فانك قلت وقولك الحق في كتابك المنزل يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. »

هذا هو الدعاء الذي تقشعر منه الفضيلة والايمان خجلا وألماً يتبتلون به في الجوامع وقد مرت عليهم القرون والاعوام وهم فيه لا يتفكرون .

فهم يقولون في دعائهم : اللهم ان كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيا.. أو الخ مع ان الله تعالى لم يكتب أحداً منهم في أم الكتاب لا شقيا ولا سعيداً بالتخصيص ولكنهم يقولون ذلك بلا تعقل لاستنادهم على آية يذكر الله تعالى فيها انه كتب كل شيء قبل أن يخلق الخلق وهي : « ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها » مع ان الله تعالى يقصد بذلك كل نظامه العام كالجزاء بالخير والشر وكيفية حدوثه ونفاذه وما يترتب عليه وكذا كل حدث ممكن حصوله في الارض أو في السماء بصفة عامة تحصر نوع الاعمال الممكن حدوثها في العالم بلا تخصيص فيها لاحد شيئاً بالذات فهم عوضا عن ان يتصوروها كذلك أيدوا على أنفسهم باطلا بأن كل انسان تخصص له منها بالذات نصيبه ويساق اليه حتما .... ولكن لم هذا التخصيص ؟... وهل اذا كان كل شيء عاما في الكتاب على الجميع لاظهار العدل والمساواة في معاملة العباد وليكون لكل نفس

ما كسبت بحريتها وعليها ما اكتسبت تحت هذا القانون العام ... ألم يك ذلك أقرب الى كمال الخالق العادل ؟ .... نعم ... وهذه هى الحقيقة الكلية التى لانزاع فيها.

وليتهم اقتصروا على ذلك بل نسبوا الله تعالى عملا لم يعمله قط وهو المحو والاثبات فى أم الكتاب ثم هم يقيمون الحجة بقولهم : فانك قلت وقولك الحق على لسان نبيك المرسل : « يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب »

فبادعائهم هذا الباطل ضد الله تعالى بكونه يمحو ويثبت في أم الكتاب لكل شخص منهم هى تهمة لم يقلها أحد فى العالمين قبل هذه الامة المسكينة حتى ولا الشيطان الذي تعمد الكفر بعلم وتكبر لم يتفوه بتهمة هذا مقدار فظاعتها . — فأم الكتاب دستور الله تعالى العام وقانونه الحق المطلق الذى كتبه بيده لا يتغير ولا يتبدل وهو كقانون الحكومة العام الذي تسنه لتنفيذ نظامها على الامة التى تحكمها . والمحو والاثبات المذكوران لله تعالى هو في كتاب الانسان الخاص المكلف به ملكان طاهران صادقان يعلمان ويكتبان بالدقة والحق كل مايعمله الانسان . — ولعلهم تركوا وراء ظهورهم قول الله تعالى : « وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون » — فما فيه المحو والاثبات هو كتاب الانسان الخاص الذى سيقول له الله تعالى عنه « اقرأ كتابك » فهو المعرض للمحو والاثبات من ارتكاب الآثام أوالفضائل بحرية الانسان وعمله فيجوز مثلا ان يرتكب الانسان اثما بلا قصد ولو باللفظ « مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » ثم يتفكر انه حدث خطاء منه فليعلم انه كتب عليه فى الحال في صحيفته بلا تأخير . فان لم يعجل فى أن يطلب عنه المغفرة من الله تعالى ليمحى من صحيفته ثبت عليه ويحاسب عليه وانه لايمحى من صحيفته الا ان يطلب من الخالق العفو فهناك يأمر الله الملكين بمحوه من صحيفته أيضا طبقا للنظام العام المكتوب فى أم الكتاب وهو : « من عمل منكم سوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم »

فغفران الله تعالى للخاطىء هذا هو ان يمحو من صحيفته بالكلية بواسطة ملكيه هذا الخطاء الذي لم يتعمده بعد تطلب الغفران ولكن ليس هذا المحو فى أم الكتاب بل أم الكتاب فيها فقط « من عمل منكم سوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور

رحيم » فلا اختصاص فيـه لزيد من الناس بالاسم والذات بل هو كقانون عام ينفذه الله تعالى كدستور على الجميع بلا استثناء .

وأيضا . اذا فرض وقتل رجل أخا له مؤمنا عمدا فيكتب في صحيفته أيضا في الحال كيفية القتل وكل ماحدث حتى تم هـذا الجرم الفظيع .. ولكن مطلق طلب الغفران بعد ذلك لايفيد — فمثل هذا لاغفران له مطلقا ان لم يك جزاؤه في الدنيا ففى الآخرة « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم » فطلب الغفران من الله تعالى لايعتبر كقاعدة عامه لمحو الذنوب من كتاب الانسان الخاص بلا جزاء بالمرة ... كلا .. بل كل شيء له حد ونظام في أم الكتاب مرجعه العدل المقرون بالرحمة بقدر الامكان فهو كقانون الحكومة العام الذى ترجع اليه فى تنوع واختلاف الجزآت حسب أهميتها وظروفها وأحوالها على الاشخاص .

ولذا يقول الله تعالى : « يمحو الله مايشاء ويثبت » فهو تعالى يقول مايشاء (أي بحق وعدل ورحمه) وليس ذلك كمن يدعى من الناس الاستبداد في الحكم كما تشتهيه النفس بلا رجوع الى قانون ودستور وأصول عادلة حقه رحيمة .... بل هو يقول ذلك ثم يوضح لنا ان اشاءته هـذه يرجع بها الى قانون مؤيد سابق حق أيده بنفسـه وهو مافي أم الكتاب المذكور اذ قال تعالى بعد ذلك : « وعنـده أم الكتاب » أي يتنفذ المحو والاثبات طبقا لقوانينها العامة على الجميع . فالمرتكب ذنبا خطاء لايتساوى بالمرتكب جريمة القتـل عمدا فذلك له نظام في أم الكتاب وجزاء والآخر له نظام عام أيضا وجزاء حتى ولو فرض وتطالب كل منهما المغفرة لمحو ذنبه . — فان مافى أم الكتاب نفسه من نظام حق لايمس ولا يتغير بل يتبع بالدقة والاحكام .

وبهذه الكيفية يمكننا ان نقدر فظاعة النسبة التي ينسبها المسلمون لله تعالى من قرون مضت من انه جعل اناسا مخصوصين للشقاء والجحيم وآخرين للرحمة والجنـة والسعادة بلا سبب ثم هم يضيفون الى ذلك انه يمحو ويثبت فى أم الكتاب بلا نظام معقول .

والحقيقة ان الله تعالى يوضح لنا هذا النظام العادل الحق ليعلمنا من هذه الحكم العاليه أشرف عمل دستورى هو أساس سعادة البشر ان تمسكوا بمبادئه الحقة القويمة . واذا كان هذا النظام الحق سائرا في مسئلة كتابة الاعمال ومحوها واثباتها فى صحيفة الانسان الخاصة

فان جزاء الله تعالى لعباده عن الاعمال المختلفة صالحة وطالحة يتفاوت أيضا بقدر أهمية العمل وظروفه وأحواله كما فى الآية : لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعدو قاتلوا وكلاً وعد الله الحسني والله بما تعملون خبير. » .... وبذلك يتضح جليا حسن النظام ودقة المراقبة في منح كل ذى حق حقه حسب أهمية اقدامه واعماله « ولا تظلمون فتيلا »

حتى اذا فرض وكان الانسان في غاية الايمان والاستقامة ثم انقلب بحريته الخصوصية الى الآثام والكفر والفساد فهناك يتنفذ عليه بلا تأخير في الحال حسب النظام المسنون في أم الكتاب لكل نوع من الاعمال مااقتضاه عمله الاخير السيىء الذى ارتكبه بحريته الممنوحة له من الخالق قال تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون . »

ومن المحزن ان الانسان اذا ناقش عالما من حزب التقهقر واعترض عليه قائلا : كيف تدعى ان الله تعالى كتب على كل انسان من القدم هذا شقى بالذات ... وهذا سعيد بالذات مما يثبت عدم الفائدة من طلب الغفران أو الاوامر والنواهى الدينية ثم تطلب بالثانى بمثل دعاء شعبان الكاذب المحو والاثبات فى أم الكتاب من الشقاء الى السعادة مع كونك تعلم كما تدعى انه كتب نهائيا : هذا مؤمن من الازل وذاك كافر حتما من الازل .... ألم يك ذلك تناقض لا يرتاح له العقل والضمير ؟ .... فماذا جوابه ؟ ... وما الذى ينطوي في صدر ضلاله ؟ .... يجاوبك في الحال كما قدمنا بآية قرآنية بعيدة عن الموضوع بعد الارض عن السماء فيقول : « لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون » فهو يقصد بذلك ان هذا الآله « سبحانه ويتعالى عن ذلك » حاكم استبدادى مطلق فهو يعذب بلا سبب ولا علة ويرحم بلا سبب وعلة فهو خلق بقدرته الخلق فان عذب فلا أحد يسأله ولا يقدر أن يتفوه بكلمة اعتراض وان رحم وغفر فلا علة أيضا ... فاذا سألته وقلت : اذا كان يا أستاذ هذا لا نظام له معلوم كما تدعى فى استبداد وعذاب ورحمة ... أما كان الاولى أن يجعلنا كالحجارة صما كما جعلك حتى لا يكون لنا عقول تتأمل فى مثل هذا الظلم المجهول

العلة أو شعور أو قلوب تتأثر من هذه القوة الهائلة التي تدعى كذبا أن لانظام لها حيث يسألنا هو ويعذبنا ويحاسبنا من غير اعتراض ونظام ؟ .... أجابك ان هذا خروج عن حد الادب والدين وكفر وضلال مبين فالزم الصمت وعدم الكلام والا فقارقني بسلام ....

هذه هي مناظرة علماء الضلال في هذا الموضوع الهام ولعل استبداد الملوك والحكام فوق الامم الاسلامية بدرجة ان جعلوا أفراد الامم أرقاء مستعبدين لايبدون شيأ مهما وقع الظلم عليهم حتى انك لتجد ان أغلب الامم الاسلامية كالاموات أو الانعام المسلوبي الارادة خاضعين مستسلمين لكل ذل وهوان نتيجة من نتائج هذه الاعتقادات التي بثها علماء الضلال في عقول الملوك والحكام المستبدين بأنهم خلفاء الله في الارض لهم من السلطة التي لاتقاوم من غير اعتراض عليها ولا تحديد . — وان المطلع على تواريخ الممالك الاسلامية لايجهل هذه الحقيقة المتأصلة في النفوس الى الآن حتى انهم استبدوا بالنفوس بدرجة كاد الجبن والاستسلام أن يكون فطرة للنفوس بل كاد الخضوع لكل دنيئة أمر طبيعي لاتأثر منه ولا شعور .

والحقيقة ان الله تعالى لم يذكر في القرآن الحكيم الآية : « لايسئل عما يفعل وهم يسئلون » لهذا الغرض الرديء المقلوب السيء . بل لغرض أسمى وأشرف وأعظم وهو انه تعالى من تمام عدله وأحكام جزائه بالحق ومع تمام حرية النفوس في أن تجادله تعالى في الآخرة جهد طاقتها بكل مايصيبها به وتسأله عن أسبابه « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها » فانه لايجد بعد كل ذلك نفسا واحدة تسئله بحق معترضة على ماأصابها بحق بل الجميع على ماهم فيه من النعيم أو الآلام يعترفون بعدل الجزاء وأحقيته بتمام حريتهم بل يجدون علاوة على ذلك بأنفسهم أنهم أحق بالتقريع والسؤال عند العذاب فهو تعالى « لايسئل عما يفعل » أي من جزاء حق عادل لانهم سيحكمون على أنفسهم بعدالته الحقة « وهم يسئلون » أي عما كانوا يعملون من الضلال والكفران لان ذلك حق أيضا .

واذا كان أستاذ حزب التقهقر التزم الصمت في ختام الكلام عند ما تناقش حالما افترى على الله كذبا لا يقال ولا يطاق ... فهل ما نذكره الآن من المقاصد الحقة له دليل في القرآن الحكيم ؟ . . . . نعم له ألف دليل . بل آلاف . فالنور يسيرنا للامام والظلام

يوقفنا فى الطريق المخيف . . . . . . فمن ضمن مناقشة بعض الناس يوم القيامة فى القرآن الحكيم أن يقولوا لله تعالى : ان قوتك العظيمة في الحياة الدنيا كانت أعظم لتردعنا بها عما كنا فيه من المنكرات والفساد والشرك فيقول الله : بما مؤداه نعم ان ذلك حق من حيث كونه قادرا على ذلك ولكنه تعالى جعلنا بنظام ودستور ثابت حق أيضا منه وجوب منح الحرية للانسان فى هذه الحياة ليقدم بها تمام الشكر باخلاص الى الخالق سبحانه وسبقت كلمته تعالى فى أم الكتاب بعدم مساسها مطلقا الا بحق كما أيدناه في الابواب السالفة . . . فاحتجاج هذا الفريق بأن قدرة الله تعالى كانت أعظم لتردعهم عن الفساد احتجاج من أنكر الحق وعدالة وجوب عدم مساس حريتهم فى هذه الحياة وكان لا لزوم اذاً لنظام ولا لغيره بل كانت هذه الحياة والخلق فى ذاته باطل وهو محال لان الباطل لا يصدر الا عن باطل . قال تعالى عن ذلك : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنامن دونه من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » فالله تعالى من اعتراضهم هذا يسألهم هل لهم حجة عقلية أو علم يثبتون به هذه الحجة الباطلة والادعاء الكاذب ؟ . . . ان كان لهم فليظهروه وليجادلوا به ما شاؤا . . . ولكنهم لا يجدون حجة ولا كلاما . . . بل هم يخرصون عن الكلام كما خرص بالصمت أستاذ حزب التقهقر والضلال .

وقال تعالى فى موضوع آخر يثبت قبول النفوس عدالة الحكم الآلهى الاخير في الجزاء : « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » فنري من هذه الآية ان الفئة التابعة لغيرها في الضلال والكفر لمجرد الاستسلام لها بأي سبب تتطلب زيادة الجزاء فى الجحيم لمن تبعتها مع ان المتبوعة مهما كان لها من السلطة الوقتية لا ذنب لها مطلقا لان لا عذر لانسان مطلقا أن يدعى بتقييد حريته في هذه الحياة أو ان أحدا يسوقه الى غير ارادته الباطنية فى الكفر أو الايمان حيث جعل تعالى حرية النفس فوق كل شي ولم يجعل

سلطانا عليها من أحد مطلقا فقد يجوز أن يكره انسان بالتظاهر بالكفر ولكن قلبه يستحيل أن يتحول الى الكفر اذا أراد بحريته الايمان « الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » .

— فطلبها زيادة الجزاء للمتبوعة طلب هى أحق به لانها تدعى كذبا انها أضلتها الى الكفر مع ان ذلك محال وهى التى أضلت نفسها بتمام اختيارها . ولذا أجابها تعالى بالقول : « قال لكل ضعف » .لان ذلك هو الحق . وان هذا ما يثبت يقين تلك النفوس بعدالة هذا الحكم الشديد ما داموا يتطلبون لبعضهم مضاعفة العذاب « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب » وبذلك يتضح للقارىء أن مقصد هذه الفئة الضالة من كلام الله تعالى بعيدا عن الحقائق المقصودة من هذا القرآن الابهج المنير .

وفى هذه الملحوظات القليلة البديهة الثابتة تلميحا لمن يضع كلام الله تعالى في غير موضعه بقصد المجادلة الفارغة والضلال البعيد .

فاذا كانت الامة الاسلامية تتمسك بمثل هذه الاوهام وتنسبها للدين فالدين يتبرأ من ذلك وروح الاسلام مبنية على مبادىء عالية توصل المتمسك بحقائقها الى اعلا الدرجات الدنيوية والاخروية

اذا كانت الامم الاسلامية تشكوا تقهقرا واضمحلالا فهو لجهلهم أهم نقطة في الدين وهو الاعتقاد فى القضاء والقدر اعتقادا مقلوبا عن الحقيقة قلبا كليا — يكاد المسلم الحر أن ينفطر قلبه كلما رأي تلك الامم الاسلامية التى كانت كشعلة من نور أضاء الكون واكتسب من آداب الاسلام ومبادئه الجميلة ما جعل تلك الامم الراقية الحديثة تعض عليه بالنواجذ ونحن لاعمال الاوائل تاركون والقرآن العظيم ما زال هو المصباح الذي استضاؤا به وبهداه يبهر أعيننا بمبادئه الفائقة الموصلة لكل تقدم وارتقاء ونحن عنه غافلون وفى بحر الاوهام وزيغان الاعتقاد تائهون . . . . لا . . . بل يكاد الانسان ييأس من معرفة دواء لشفاء هذه الامم الاسلامية لعدم التمكن من وجود وسيلة ترشدهم الى هذه الروح العالية والحركة الكبري والحياة الحقيقية التى عليها الغربيون وغيرهم وهم يرونها بأعينهم ويسمعونها بآذانهم مما يدهش الابصار ويسر الفؤاد ويتمنى كل انسان محب لوطنه ودينه وأمته أن يقول فى سره وجهره : لو أن لى أمة فى مثل هذه العظمة والقوة وعمل البر والاحسان والفخار . —

حقا ... ان الامم الاسلامية صارت كالمريض الذى وقع فى مرض شديد حتى تمرض جسمه واذا سأله الطبيب عن مركز المرض قال له جميع أجزاء الجسم مريضة ولا أعرف مركز المرض فافحصنى بذكائك وبما أعطاك الله من حكمة .. والافاتركني أموت لاستريح من هذا العناء . — فاذا حار الطبيب مع هذه الامم وقال لهم : اشربوا الدواء الذى يريحكم وينعش جسمكم وفؤادكم لانى تحيرت في مرضكم وشفائكم . لاجابوه بصوت واحد وجواب صريح ظاهر ونية خالصة : ان دواءنا الوحيد الذى نستريح فيه وتستريح عليه قلوبنا وأجسامنا وعقولنا هو : الاسلام و « دين الاسلام » دون غيره ولنعم مايتمسكون بالالفاظ وما أعظم مايختارون بالقول والكلام .

لانه لو قبض بيده على (القرآن العظيم) وأخذه بقوة وقلبه سورة فسورة وآية فآية وكلمة فكلمة ثم حلل بميزان عقله وثواقب فكره ماجاء في هذا الكتاب المبين لم يجد فيه خلاصة ولو خيالية ترسب في قاع حقائقه بل يجده كله بلا استثناء نورا وقوة وانعاشا ورقيا للعقل والجسم والروح والامة بل ولجميع الامم ويخاطبهم بلسان فصيح : (انى هدي ورحمة للعالمين)

فاذا أعاد الكرة وارجع بصره الى تلك الروح العالية (القرآن) التي يستاق المسلمون منها صباحا ومساء وكل يوم وكل ساعة لعلم (اذا عقلوه وتدبروه) انهم أحق من جميع الناس والامم بالقوة والعظمة والعلم والاختراع والاستعمار والفخر والصبر والجلد والاقدام على جلائل الاعمال العظيمة كما كان أجدادهم العقلاء من قبل في مثل هذه النعم العديدة ولكذبوا فى آن واحد بأقوى الحجج دعوى بعض الامم التى لاتدين بالاسلام ويتعدون بجهل على الاسلام ويرمونه بانه مصدر الضعف والانحطاط لعدم وجود تأثير منه على أهله لترقيهم في المدنية وهم يحرصون عليه حرص البخيل على درهمه .

ولكنى أقول لهذا الطبيب الماهر الذى علم كيف تتغذي هذه الامم الاسلامية باكسير الحياة الحقيقية والسعادة الابدية بقرآنها ولم يشفوا من مرضهم ويقوموا من رقدتهم ! لاتعجب ولا تتحير .... فان هذه الامم تدعى المرض وهى أدرى به من غيرها ولكنها تجهل حقيقة أسبابه والاسلام وروحه العالية يتبرآن من تلك السموم القتالة الرديئة . فلو علمت أن أغلب

المسلمين المنتشرين على الارض يتجرعون سموما قوية قتالة وهم بأيديهم يدخلونها فى روح الاسلام العالية جهلا وظنا منهم انها تساعد على راحتهم واطمئنانهم كما تظن الام الجاهلة في اعطاء ابنها وفلذة كبدها أبو النوم سما زعافا تتوهم به راحة ابنها ومنامه مطمئنا مستريحا وهى لاتدرى انها تسوقه بيدها الى الهلاك العاجل لتوضحت لك فى تلك الامم أسباب المرض واعراضه أيضا . فهم لذلك كالمدمن على الحشيش الذى يتخيل فيه القوة والسرور وهو يساق به الى الضعف والجنون رغم أنفه .

ولذا أقول ان سموم الاوهام والاعتقادات الباطلة بانتسابها للدين أوقفت الامم الاسلامية بلا حركة ولاعمل مفيد واوقعت نفسها وأوطانها في البلاء الجسيم . وانى أحمد الله وأشكره باخلاص على التوفيق لان أظهر هذا الموضوع الذى يهم كل مسلم في الارض حيث قد طرقه كثير من العلماء والمؤلفين والفلاسفة فخبطوا فيه خبط عشواء .... وكثير من علماء الاسلام للآن في نفس هذا الموضوع مازالوا فى الاوهام يتخبطون ولا يقولون فيه قولا صريحا يوافق كلام الله تعالى والسنن الطبيعية والنظاميه .

فانا بذلك أصف الدواء لمرض قد عرفت حقيقة مركزه فهو أصل الخمول ومن الواجب على ان أظهر الآلام الناتجة عن سم هذه الاعتقادات المقلوبة وأشخص اعراضها وأوضح أوصافها حتى اذا تأكدت الامة من اضرارها الجسيمة تركتها ليكون دين الله الحق كما هو صافيا وخاليا من الشوائب ولذا يقوم تأثيره في النفوس فتنهض كالاسود من رقدتها الطويلة فى الاوهام

ان الامم الاسلامية لو وجدت لها نصيرا من علمائها وعقلاء افرادها الذين حنكتهم التجارب والعلوم وثبتوا في عقولهم حقيقة الاعتقاد الصحيح بما جاء به القرآن كما أنزل الله من غير زيغان كهذا يتوهمونه في نفوسهم حتى أوقعهم في مثل هذا الاضمحلال المميت ثم الزموا أنفسهم بالترقى حسب النواميس الالهيه والعمرانية والطبيعية المطابقة تماما لما جاء في آيات القرآن الباهرة لكانت الامم الاسلامية مازالت من أفضل الامم وأقومها في المبادي العادلة الجميلة . -- ان مبادى الدين الاسلامى دونها المبادى الوطنية العالية والمبادىء البشرية العظيمة . — ان الدين الاسلامى ومبادئه مع العقل والنواميس الطبيعية الثابتة

شقيقان لا يفترقان شعرة أو ما يقل عن الذرة .

ان كلمة واحدة قد اتفق عليها علماء الاسلام عدة قرون جلبت على أنفسهم وعلى الامة الاسلامية وبالا يذوقون طعمه الآن حتى خلفوا من أوهامهم ذرية ضعافا لا يزال سوس أوهامهم ينخر في عظام البقية الباقية منهم وهم لا يزالون يضلون الناس باوهام القضاء والقدر المكتوب لكل انسان وما سيحصل له من أكل وشراب ومنام ونكاح وسعادة وشقاء بحيث لا مناص له منه حتى وقف كل فرد ينتظر ما قد تقدر عليه وكتبه الله عليه من القدم فاماتوا أنفسهم موتاً ونسوا أمر الدفاع عن شرف دينهم بسوء أعمالهم واعتقاداتهم ووقفوا مستسلمين أمام كل رزيلة كأنهم لا يعقلون ولا يبصرون وبآيات الله لا يتفكرون

اذا سألت عالماً من علماء الاسلام أو عامياً من عامة الامة الاسلامية وقلت له : لم لا تتوجه الى البلاد السودانية مثلا لتتاجر أو لتعمل عملا ينفعك . أو لم لا تتوجه الى الاقطار الحجازية لتؤدى فريضة الحج ؟ .. لاجابك بانه اذا كان الله تعالى كتب له في أم الكتاب أن يحج الى بيته لتوجه .. وان لم يكتب عنده ذلك من الازل فما أنا بمتوجه ... أو لقال لك ... اذا كان الله تعالى كتب له من الازل أن يطأ أرض السودان فهو يطاؤها وان لم يكتب له ذلك من القدم فلا يطؤها الى الابد ... هكذا يقول كل فرد من أفراد الامة الاسلامية ويعتقد في أي عمل أو حادث ... أفهل ذلك يطابق الدين المنير يا علماء الاسلام؟....

كلا .. وألف مرة كلا أنا لا أقول ولا أعتقد أن الله تعالى كتب عنده في أم الكتاب النقط التي يتوجه الانسان اليها مخصصة اليه بالذات ... بل أقول طبقاً لما ظهر من الحق في البراهين السالفة الواضحة أن الانسان حر في كل شيء « الا في ما يستحقه حتما من جزاء الله تعالي من نتيجة أعماله » وانه اذا قام في بلده وعمل كذا أصابه الله بكذا وان توجه الى السودان وفعل كذا أصابه الله بكذا مع علم الله تعالى بكل محل وبكل ما يمكن للانسان عمله في هذه الحياة قبل أن يعمله بلا تخصيص بحيث لو أمكن وكشف الله عنا بحيث يمكننا أن نختار أحد الطرفين أو كلا العملين المتغايرين لبعضها تغايراً كلياً ونفذ أحدهما أو كلاهما فان ذلك لا يغير شيئاً من قضاء الله وقدره الثابت من قبل أن يخلق الارض والناس أجمعين

قال الله تعالى في كتابه العزيز : « ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن

يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون . »

فهذا كلام الله تعالى عن أهل المدينة يقول بانهم اذا أصابهم ظمأ في سبيل الله كتب الله لهم به عملا صالحاً .. فلا نقول أن الله تعالى كتب لبعضهم من الازل الظمأ ليقرر الله تعالى له قبل حصوله العمل الصالح ... بل نقول . ان كتابة الله تعالى لبعضهم عملا صالحا بسبب ظمأهم فى سبيل الله تعالى متوقف على حدوثه عند اقتحامهم ذلك . . وهكذا يقال اذا وطئوا موطئاً يغيظ الكفار أو نالوا من عدوهم نيلا .... أما مثل هذه الاعمال فهي مكتوبة في أم الكتاب مع جزاآتها قبل الخلق بصفة قانون لجميع المؤمنين من أهل المدينة والسابقين واللاحقين لهم من الامم الاخرى ... وليست مخصصة لاهل المدينة بالذات بحيث اذا أصاب غيرهم من المؤمنين شيء من ذلك في سبيل الله أيضاً كتب الله تعالى لهم نفس العمل الصالح الذى كتب لهؤلاء .... وان قول الله تعالى ولا يقطعون واديا الا كتب لهم . دليل واضح على أن الكتابة لهم بالتخصيص عن هذا العمل أو غيره ليس مكتوبا لهم من قبل كما يدعي المضلون بل متوقف على اجتيازهم أى واد يقطعونه بحيث اذا فرضنا انهم لم يجتازوا واديا لم يكتب لهم شيء من ذلك بل يكتب لهم بالتخصيص نوع العمل الذى يعملونه بالذات فقط

يقول علماء الاسلام السابقين في كتبهم الدينية ووافقهم عليه الامة الاسلامية ان آدم عليه السلام حاج موسى عليه السلام بحديث وقالوا ان آدم غلب موسى في الحجة . فقال له كيف تقول اني أهبطت بني الانسان من الجنة الى الارض؟ هل لم تعلم أن الله تعالى كتب عليّ ذلك قبل أن يخلقني باربعين سنة وانه حتم عليّ نفاذه من الازل وانه لا قوة لي ولا حيلة فى ارادته؟ . — ولم نعلم من أين سمعوا هذه المحاجة ! ! ! . ولمَ لمْ نسمع محاجة أحد للآن ؟ .. ولم هذا الدليل لتأويل كلام الله تعالي تأويلا رديئا يقصد به التثبت من غرض جهلوا أساسه تمام الجهل .. وما تأييدهم لمثل تلك الاوهام الا لجهلهم الاكبر بكتاب الله وبعلم الله وانهم لفى ضلال بعيد .... يقولون ان الله تعالى قدر وقوع آدم في هذا العصيان ليأكل من الشجرة

لتكون على الارض كما نحن الآن وهو تعالى يعلم بالتخصيص ان آدم سيأ كل منها قبل ان يمد يده اليها ... فاذا سألهم سائل كيف تعتبرون ذلك والقرآن الحكيم امام أعينكم فيه يقول الله لآدم وزوجته بهذا النهى الصريح الواضح : « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » ... فكيف هذا الظلم اذا كان بنفسه سبحانه قرر حصول ذلك حتما كما تدعون وهو يعلم به قبل وقوعه بانه لا بد أن يأ كل من الشجرة ... فاذا شربتم في قلوبكم مثل هذه النسبة الظالمة لله تعالي واقتنتم فهو عنوان اثم عظيم لكم في هذه المسئلة .... وكيف يقول آدم بنفسه : « ربنا ظلمنا أنفسنا » ؟ ؟ .... ألم تكونوا بذلك أيضاً أيدتم رياء آدم عليه السلام من أنه يخاطب موسى خطابا يؤيد به براءته ثم يخاطب الله تعالى في القرآن العظيم بخطاب آخر بانه ظلم نفسه بنفسه في الا كل من الشجرة ! ! ! .... لا تلوموني اذا قلت لكم أنكم لا تدركون شيئاً وأنكم في تيه وضلال مبين

أيها العلماء ... نعم ... ان الله قضى وقدر قبل أن يخلق آدم عليه السلام انه اذا أ كل من الشجرة يهبط به الي الارض وعلمه بذلك في الامكان .. ولكنه تعالى قضى وقدر أيضاً أنه اذا كان لم يأ كل منها لكان في قدره وعلمه شيء آخر ولحصل لبنى آدم تاريخا بحيث تكون النسبة فيه كما نحن الآن من حيث أداء الغرض من الخلقه بما لا نعلمه ... وان آدم عليه السلام أ كل من الشجرة بمطلق حريته وكان في امكانه عدم الا كل من الشجرة المذكورة اذ هو باستقلاله الذاتي عصى ربه وما ترتب له من جزاء هو الحق المقرر .. بحيث اذا لم يأ كل منها لكان في قدر الله تعالي شيء آخر أيضاً فمن عمل النفس بحريتها ينتفذ عليها رغماً عنها القدر « وربك على كل شيء قدير »

قال تعالى في كتابه العزيز : أولما أصابتكم مصيبة » أى بواقعة (أحد) التى كان فيها النبي عليه الصلاة والسلام وقتل فيها سبعون نفراً من أصحابه الشهداء « قد أصبتم مثليها » أي بواقعة (بدر) المشهوره حيث قتل المسلمون من المشركين سبعين وأسروا سبعين أيضاً مثلهم والنبي صلى الله عليه وسلم معهم « قلتم » أى للنبي متعجبين في نفوسكم « أنى » أى من أين لنا « هذا » الخزلان فى واقعة (أحد) مع أننا مسلمون ونحن مع رسول الله وموجود وقت الحرب في وسطنا ؟ ....

هذا ما قاله أصحاب النبي صلي الله عليه وسلم بعد هذه الواقعة وتعجبوا كيف يقتل منهم

فرد واحد بسبب وجودهم مع رسول الله . . اذ كان بالطبع قادرا على أن لا يجرح واحد منهم أو في امكانه أن ينزل على الاعداء صاعقة تأخذهم من غير حرب أو قتال .... ولكن الله تعالى عادل لا يحابي أحداً بلا حق مهما كان مركزه .... ولو استعمل الناس الذين قتلوا تمام البسالة وعدم الجبن واتخذوا طريقا غير الذى سلكوه لما ماتوا في هذه الواقعة ... ولكنهم قتلوا بحق مطلق لتركهم مراكزهم في القتال فكان جزاؤهم من الله القتل من يد أعدائهم ... لان حالتهم هذه ربما تكون سببا لتزعزع جميع المتحاربين في أحرج المواقف أمام الاعداء مما يكون منه الفشل للجميع

ولقد أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي قائلا لهم عز وجل بما علمه تعالى من حالة المقتولين وسبب قتلهم لتركهم مراكزهم فقال : « قل » أى لقومك يا محمد جوابا لسؤالهم « هو من عند أنفسكم » أى انهم أنفسهم هم السبب فى قتل السبعين الذين قتلوا في تلك الواقعه ... وكان قتلهم بالطبع هو كما في أم الكتاب أشبه بالقانون العادل العام الذي يسيره الله تعالى في جميع عباده لا فرق ولا تمييز ولا تخصيص ... وان هؤلاء المقتولين لولم يرتكبوا هذا الخطأ ما قتلوا ولعاشوا من المحتمل أضعاف أعمارهم ... وهذا التغير والانقلاب الذي عملوه لا يغير شيئاً مما كتبه الله تعالى كدستور عام على جميع عباده وقد أعقب الله تعالى قوله السالف بقوله : « ان الله على كل شئ قدير » ليتثبت أولئك السائلون من أن الله تعالى سريع الحساب ليوقع الجزاء بحق ولو في اللحظات القليلة التي يشتبك فيها بالقتال مع احتمال سرعة تقلب القلوب وقت الشدة وفي آن واحد ذكر لهم ذلك منعا لتوهم أولئك السائلين فيما يحتمل اعتقاده فى قدرة الله تعالى من أنه قادر أن لا يوجد هذه الحرب « ولكن بحق » أو لو شاء لهلاك الاعداء بلا حرب « ولكن بحق » أو أن يهديهم جميعاً للايمان « ولكن بحق »

وعلى كل حال فقد سيرهم على النظام العادل المكتوب في أم الكتاب وهو الذي جعله على جميع عباده بلا استثناء -- فيصيب كل مخلوق بما اختار بحيث أن تغير القلوب والامور والحوادث أو الاعتقادات أو اختلاف تيار الاعمال من بني الانسان لا يغير شيئاً من قضاء الله وقدره كما سبق البيان بل الجزاء حتما على قدر العمل حيث قال تعالى بخصوص جبنهم في الحرب أيضاً : « ان الذين تولوا منكم يوم التقي الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا

ولقد عفا الله عنهم » وهذا يؤيد ما أوضحناه باجلى بيان أيضاً

هذا ويجب على كل فرد من أفراد الامة الاسلامية أن يتمسك بالايمان أولا ثم يطلق عنان فكره فى كل علم وعمل صالح وأن يقدم عليه بثبات وقلب حديدى وأن روح القرآن لا تدعو الا الى كل شعور حسن وعمل نافع مهما تنوع مع المحافظة على حدود الله وان الاوهام السطحية وانغماس المسلم في الوهم والمنكرات ناسباً ذلك لقضاء الله وقدره القديم مخصصاً له بالذات من ضمن الآثام ولم يقل به الله في كتابه العزيز ويتبرأ منه القرآن كل مبرأ

واني متأكد من أن هذا السهم سيصيب كبد الحقيقة لايقاظ الامة الاسلامية من أحلامها وليكذب في آن واحد كل من كان يتكئ منهم في علمه وعمله وأحلامه على اعتقاد مقلوب من الاوهام والوساوس .

وليت الامم الاسلامية قلدوا غيرهم في الفضائل من باقى الامم الراقية في الاقدام على كل عمل صالح من غير أن ينسبوا شيئاً للدين ... ولكنهم أضافوا الى ذنوبهم اثما آخرجسيما لاتكائهم على القضاء والقدروفهم الغرض منه فهمامقلوبا فاوقفوا أنفسهم بالاوهام والوساوس الشيطانية للتاخر والاضمحلال حتى عم ذلك أفرادالامة وصار يترنم به الصغير والكبير . —

قال تعالى في كتابه العزيز : « وأن ليس للانسان الا ما سعي وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفي » ففى هذه الكلمات الصغيرة الكبيرة جمع الله تعالى أصل الغرض من الخلقة ثم مآلها ثم نتيجتها .... فاذا كان كتب لاى انسان شيء من الازل قبل أن يسعى اليه بحريته كما يدعي الجاهلون لقيل : « وأن ليس للانسان الا ما كتب عليه » عوضاً عن هذه الآية الحقة الكريمة.... ولكن ذلك محال الا أن يدعى بها ظلما مبطل كافر . وعلى هذه البراهين القوية البديهية يجب على كل مسلم أن يكون في جهاد ونضال لعدم الاقدام على عمل ردئ أو مضر سواء كان ذلك للنفس أو للغير ... بل كم من فوائد تفوت المسلم في تقاعده وضياع الوقت سدى ... وعدم انتهاز الفرص في الاقدام على كل عمل مفيد وتنفيذ كل فكر حسن يتأمل منه فائدته أو منفعة غيره أووطنه ... اذ لا جدال ولا شك فيه أن الدنيا دار عمل وتنافس للتسابق للخيرات الدنيوية والاخروية لا دار خمول وتقاعد وانتظار للقضاء والقدر ... يؤيد ذلك الله والقرآن والرسول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك

تموت غدا » وجميع السنن الدينية والطبيعية والعقلية والاوامر الالهية وليس كما يساق لنا من الوساوس والاوهام . ولا نعجب بعد ذلك اذا تمسك كثير من الامم الراقية التي لا تعرف حقائق القرآن بمبادئ وأمثال لا تقل في حكمتها عن مجموع ما أوضحت حتى ترقوا على الامم الاسلامية الآن المتمسكة بالاوهام والخمول كقولهم « الوقت مال » يقصدون بذلك دوام العمل الصالح بلا كلل ولا ملل في كل أمر نافع وعدم ضياع وقت ولو قصيراً في عدم التفكر فيما يرفع شأنهم وأوطانهم ويقوي ملكهم . . . وهم لا يقرؤن مثلنا صباحاً ومساءً هذا القرآن العظيم الذي يهدي للتي هى أقوم . . . ويفصل كل شيءٍ أجمل ايضاح وتفصيل . . . وهو يدعونا ويحثنا على العمل بهذه الروح العالية . . . فما أجهل الامم الاسلامية بروح الاسلام الجليلة .

ان الاسلام يحث بكل قواه لكل عمل صالح ينفع بني الانسان وللتقرب الى الله بأنواع العبادة والبر والاحسان العام . . . بل ويدعو لكل تقدم وعلم نافع وحرية وأخاء عام وتعاضد ومساواة وتكاتف واختراع واستنباط وتبصر وتفكر وطلب المزيد من القوة والثروة ونفع الوطن والاستقلال والتمتع بكل ما تخرجه الارض والنظر في خلق الله في السماء والارض وانه لآيات بالغة أوج الكمال من الحكمة لقوم يتفكرون .

وعلى ذلك .. فالاحسن للمسلم ان يختار الطريق الذي يوصله للسعادتين الدنيوية والاخروية « فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » ويجتهد فى كل عمل يؤمل منه النفع بلا تردد سواء كان لنفسه أو لغيره من غير تمييز فى الجنسية « الا من اعتدى بلا حق » أو لبني وطنه وان يكون متصفاً بكل أوصاف الرجولية التي تشرفه وتعلي قدره مع الايمان بالله والاخلاص له في جميع الامور والصبر والجلد وعدم اليأس في نوال المقصود مهما طال أمده والاقدام والثبات وحسن التوكل والتسابق في عمل البر والاحسان وتنفيذ الاوامر التي يحثنا البارى جل شأنه للتمسك بها الحكم نعلمها أو نجهلها مؤقتاً ثم مراجعة العقل والضمير دائماً في جميع الاعمال والاحوال وفي ذلك ذكرى لقوم يعقلون

كيف تكون سعيداً

علاوة على ما قدمناه من الدلائل والشواهد عن موضوع « القضاء والقدر » فاننا نجد

هذا الموضوع هو الحجر الوحيد الذي وقف عثراً امام تمدن الامم الاسلامية وارتقائها عدة قرون ... بل نجد ان أكثر الفلاسفة والعلماء أجهدوا عقولهم فيه كثيراً ورجعوا منه بالفشل الاكبر حتى تسبب منه انقسام الآراء وانهكت قوة الاسلام من الخمول والجمود .. ولذا نحن نعاود الرجوع من وقت الى آخر لطرق الابواب التي طرقها العلماء والفلاسفه فيه لنبين حقائقها .. وكيف ان آيات القرآن الحكيم تسير كلها مع العقل جنباً لجنب بلا خلاف بمبادئ هى في الحقيقة أساس للتقدم الانساني بحريته الذاتيه .. فلننظر الآن مسئلة الاختيار الذاتى في الاكتساب فنقول .

الاختيار : هو التخصيص بحرية النفس بأحد الشيئين المتضادين في وقت واحد معين بحيث لا يجوز الجمع بينهما مطلقاً عند وقوع الاختيار أو التخصيص بأحدهما قبل حلوله ووقوعه ولذا كان من « المحال » ان يعلم الاختيار نفسه الذي هو تخصيص أحد المتضادين لمن يختار الا في وقت وقوعه ممن يفعله .... فاذا كان أمامك برتقالة وتفاحة معاً وقلنا أن لك احداهما فقط بالاختيار فالتصريح منا لك بالاختيار المذكور موجب حتما لتأجيل «علمنا» بالتخصيص بواحدة منهما لك لوقت وقوع الاختيار أو التخصيص منك فعلا ... فان لم يقع هذا التخصيص .. فالقول منا بالتخصيص بواحدة أو « علمنا » به قبل الاختيار ووقوعه فعلا « محال » ... اللهم الا اذا امتنع هذا الاختيار وانتفى فرض حصوله .... وعلى ذلك يمكن استيفاء « معنى الاختيار » بوجود الاربع نقط الآتية بحيث اذا عدم احداها عدم الباقي أيضاً كما توضح وانتفى الاختيار ووجب ضده وهو التقييد أو الاضطرار وهذه النقط هى :

(١) الحرية لمن يختار

(٢) وجود أمرين متضادين معاً لا يمكن جمعهما في وقت واحد ومعلومين

(٣) تأجيل « العلم » بالمختار لوقت وقوع تخصيصه ممن يختار بشخصه

(٤) عدم تخصيص أحد الامرين قبل وقوع الاختيار

لانه اذا وقع الاختيار على واحدة منهما بمعرفتك من « المحال » ان تكون لك الاخرى في الوقت نفسه والا امتنع الاختيار أيضا .. فاذا فرض ووجدت واحدة فقط بدل

الاثنتين قبل الاختيار وكان لابد لك من الاختيار . . فعدم وجود الاخرى ينفي هذا الاختيار أيضاً بل ويزيله . . . ولذا فالاختيار لا بد وان يكون بين أمرين متضادين موجودين فعلا وان العلم بالتخصيص بالمختار منهما مرتبط بوقت وقوعه فعلا ممن يختار وليس قبله لان ذلك « محال »

فاذا قلنا باحتمال وقوع الاختيار على أحد المتضادين المعلومين « فالعلم » بالمختار اذ ذاك « واقع » في حيز الامكان لافي حيز التخصيص . . . اذ من المحال التأكد بالعلم بالتخصيص لاحداهما الا اذا انتفى الاختيار نفسه وصار لا وجود له بالمرة كما تقدمت العلل والاسباب . فيقال عن هذا العلم الامكاني قبل وقوع الاختيار : أنا أعلم انه يمكنك ان تختار البرتقاله . . . وأنا أعلم انه يمكنك ان تختار التفاحه . . على ان « علمي بالتخصيص » لاحدهما لك قبل وقوع الاختيار منك فعلا « محال » كما تقدم

ولكن . . . هل عدم علمي بالتخصيص لما تختار منهما يوجب الفهم بنقص علمي بالبرتقاله أو التفاحه أو بشخصك الذي سيختار أحداهما أو كيفية تقلب نفسك على الحالتين عند الاختيار لكل منهما أو بالوقت الممكن تخصيصه لتفعل فيه الاختيار أو بنوع أخذك البرتقاله أو التفاحه وقت الاختيار ؟ . . . كلا . . . . كل ذلك معلوم لى من قبل « بالفرض » ولكن تجدني اذا أعطيتك الاختيار فالجمع بين تقرير علمي بالتخصيص لاحداهما لك وتقرير الاختيار نفسه في وقت واحد «محال » اذ هذا العلم الذى هو التخصيص متوقف على تخصيص من يختار بنفسه لا على من قرر الاختيار والا امتنع الاختيار — هذا مع كون علمي « بالامكان » واقع قبل حدوث الاختيار كالعلم بالتخصيص بالضبط بلا زيادة ولا نقصان . . . . والفرق بين العلم « بالامكان » والعلم «بالتخصيص» هو أن الاخير من طريق واحد ولكن العلم بالامكان من طريقين متضادين مع عدم تغير العلم فيهما مطلقا لا بالزيادة ولا بالنقصان لا قبل الاختيار ولابعده ولا وقته ولكن العلم بالتخصيص مع وجود الاختيار وقبل وقوعه في آن واحد من « المحال » . . . اللهم الا اذا انتفي الاختيار وتحول الى التقييد أو الاضطرار كما ذكر

فاذا تقرر هذا عقلا وحقيقة فلننظر هل الاختيار موجود في الدين ؟ وهل هذه النقط

الاربع موجودة فيه أيضا ؟ . . اذا كانت هذه النقط موجودة في القرآن الحكيم فالاختيار من الله تعالى للانسان في الاكتساب واقع من طبيعته لامحاله

الاولى - عن « الحرية » يقول تعالى : فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . . . وهذا واضح

والثانية - عن الطريقين المتضادين الغير ممكن جمعهما فى وقت واحد يقول تعالى: « وهديناه النجدين » أي الطريقين طريق الخير وطريق الشر أو طريق الايمان وطريق الكفر

والثالثة - عن تأجيل علمه تعالى بتخصيص المختار لمن يختار لوقت وقوع تخصيصه ممن يختار بنفسه يقول تعالى : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا « لنعلم » من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه »

فهو تعالى يعلم من قبل وجود الخلق بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم كل مافى « النجدين » وفتحهما لهم بلا ممانعة لاختيارهم الذاتى فى حياتهم لا « نجدا » واحدا منهما وعلم تعالى أيضا : انه في الوقت الذى امكنهم انهم لم يتبعوا فيه النبى صلى الله عليه وسلم من طرف كان يمكنهم بحريتهم أيضا ان يتبعوه فيه ويؤمنوا به من الطرف الآخر . . . ويعلم تعالى أيضا بالذى سيجازيهم به وكيفية ايمانهم ان تبعوه ويعلم في آن واحد ماسيجازيهم به تعالى ويصيبهم وكيفية كفرهم ان لم يتبعوه أيضا فهو تعالى يريد ان يعلم اختيارهم أى التخصيص فقط لا نفسهم بحريتهم أحد الطريقين المعلومين لله تعالى من قبل هذا الاختيار ... فالذي يتأيد هو التخصيص فقط وهو بالبداهة مما لا يزيد علم الله تعالى ولا ينقصه لان هذا العلم نفسه قبل الاختيار كان معلوما لله تعالى باكمله لهم غير انه فى حيز الامكان لا في حيز التخصيص لكونه من طريقين متضادين محال ان يجمع الانسان بينهما فى وقت واحد وضرورة تفرقهما هو العلة الوحيدة في وقوع العلم بهما عند الله للانسان فى حيز الامكان وانهما له معاً في وقت واحد للاختيار ولولاهما ما كان الاختيار ... ولولا الاختيار ما كان التخصيص لازماً من الانسان .... فعلم الله تعالى قبل الاختيار قديم ثابت لا يتغير . . ولكن من طريقين متضادين دائما لذات واحدة

في جميع الاوقات وهما مفتوحان امام اختيار الانسان الذي له طريق واحد فقط في وقت واحد وان كان يتقلب في الطريقين في أوقات مختلفة طبقا لاختياره الذاتي فكان هذا الاختيار علة التخصيص من الانسان لاحدهما بحريته لا من الخالق «سبحانه» ولذا بعد اختيارهم الطريق الذى وقع عليه الاختيار سيصيبهم تعالى بما اختاروا فقط واغمض عن أعينهم في الوقت نفسه ما كان فى الطريق الآخر الذى لم يتبعوه وكان مفتوحا امام اختيارهم أيضا بل ومعلوماً لله تعالى قبل وجودهم وقبل اختيارهم الطريق الآخر ولم يزل معلوما لله تعالى دائما كما كان بعد تخصيص أنفسهم لما اختاروه.غير انه مع نتائجه خفى عنهم . . . . . وبذا نقول ان الله تعالى يغير الاقدار في العالم ويوقعها أو يخفيها طبقا لحرية الانسان واختياره.مع عدم تغيير علم الله تعالى مطلقا ولذا قال تعالى : « ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابانفسهم » أى انه تعالى يغير الاقدار على الناس تبعا لتغير اختيارهم وحريتهم.

والرابعة — : عن عدم تخصيص أحد المتضادين قبل وقوع الاختيار يقول تعالى : « وما كان الله ليضيع ايمانكم » أى قبل ان يضيعوه بانفسهم وحريتهم . . . وهذا يثبت عدم تخصيص ضياع الايمان الذى هو الكفر قبل ان يتخصص بالاختيار منهم ... وبذلك أيضا يتأيد لنا حتما لزوم الاختيار في الدين لا الجبر ولا الاضطرار

واذا كان كل ذلك بديهيا فيظهر ان نقطة واحدة هى التي أضلت افهام علماء الاسلام السابقين فى كيفية فهم نظام الله تعالى فى هذا الموضوع الا وهى مايسمونه : « علم الله تعالى بجزئيات الاحوال وكلياتها » وذلك كعلمه تعالى بان الانسان سيفعل حسنة قبل وقوعها باكرا أوسيفعل سيئة بعد باكر أوسيدخل الجنة في الآخرة أولا يدخلها بل سيدخل النار على انه تعالى جعل فعل الحسنة باكرا ان وقعت في حيز الامكان قبل وقوعها لا في حيز الجبر والاضطرار مع كونها معلومة وجعل فعل السيئة بعد باكر كذلك ان وقعت في حيز الامكان قبل وقوعها لا في حيز الاضطرار مع كونها معلومة وكذا دخول النار أوالجنة في الآخرة في حيز الامكان لا الاضطرار والتقييد والجبر .... لان الله تعالى لم يقرر للانسان طريقا واحدا بل قرر له طريقين متضادين يسيران متوازيين في وقت واحد وجعل سبحانه الاختيار للسير في أحدهما أوفى كل منهما على التناوب لذات الانسان وحريته الممنوحة له

بحق بمعنى انه تعالى كتب فى أم الكتاب ان الانسان طبقا للوسط الذى يتواجد فيه يمكن ان تكون له الجنه ويمكن ان تكون له النار ... وعلم سبحانه كيفية السير تبعا لهذا الوسط الى كل منهما غير انه تعالى أيضا ترك الانسان بحريته يسير الى أحدهما ولو بالتناوب اذ محال على الانسان أن يسير الى كليهما معا فى وقت واحد بل لاحدهما فقط من غير ان تخصص له جهة دون أخرى من قبل بل له الطريقان مفتوحان فسيره بالطبع لايكون الا في طريق واحد في وقت واحد والتناوب ممكن له أيضا فى كل منهما فى أوقات مختلفه .. وان قدر الله تعالى الذي يصيبه من أحدهما هو اذا نتيجة ما اختاره الانسان بنفسه وحريته ليس الا... ولذا قال تعالى : « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » أي هديناه السبيل الموصل الى كل منهما لا الى طريق واحد فيقال ان الانسان يمكنه أن يشكر الله تعالى ويمكنه ان يكفر بالله أيضا ... وان الوقت الذى شكر الله تعالى فيه كان يمكنه ان يكفر بالله فيه بدل الشكر المذكور أيضا .... ولكن محال عليه ان يجمع بين الاثنين المتضادين في وقت واحد .. فهو اما شاكر الله تعالى كما يقال اما يسير في طريق الخير واما كفورا كما يقال واما أن يسير فى طريق الشر ... على ان الشكر أو الكفر أو طريق الشر وطريق الخير كتبهما الله تعالى في أم الكتاب مع كيفية سير هذا الانسان في كل منهما طبقا للوسط الذي يتواجد فيه ولكن بلا تخصيص له طريق واحد دون الآخر ... لانه لو كان مخصصا له أحدهما بالذات دون الآخر حتما لكان امامه اذذاك طريق واحد لاطريقين وبذلك ينتفى ويبطل كلام الله تعالى القائل «وهديناه النجدين» ويعتبر لاغيا وهذا محال كما ينتفي الاختيار ومعه « الحرية » أيضا وكلها أمور بالبداهة والعقل من المحال .

فهو تعالى اذ ذاك يعلم « بالكليات » عن هذا الانسان أي كل ما يمكن ان يصيبه من طريق الخير أو من طريق الشر أو من طريق الشكر أو من طريق الكفر وكذلك «بالجزئيات» الممكن ان تصيبه بالذات أو عملها ولكن ليست من طريق واحد بل من الطريقين أيضا.. على ان الجزئيات المذكورة وان كان معلوم لله تعالى كيفية حدوثها وتنفيذ جزائها من كلا الطريقين غير انها لم تتقرر للانسان من طريق واحد وتكتب عليه بالتخصيص الا عند اختيارها بنفسه وحريته التى ملكه الله لها ... بمعنى اذا شكر الانسان ربه باكرا فى وقت

معين فقد كان معلوما لله تعالى ذلك في حيز الامكان من قبل كما قد حصل وان هذا الشكر « الجزئى » الذى وقع هو نوع واحد من الشكر « الكلى » الكثير الانواع وان كانت هذه الانواع فى طريق واحد وجهة واحدة ... ولكن من الجهة الاخرى معلوم لله تعالى أيضا فى آن واحد ان هذا الذى شكر كان يمكنه ان يكفر في الوقت نفسه بنوع من الكفر بدل هذا الشكر الذى وقع وكيفية الكفر نفسه معلومة لله تعالى من قبل أيضا ... غير ان الانسان لما وقع اختياره على الشكر المعلوم لله من قبل بدل الكفر المعلوم لله من قبل في الوقت نفسه أيضا ... بعد عن علم الانسان اختياره للكفر أو كيفيته المتنوعة لعدم وقوع نفسه فيه بحريته وصار هذا العلم بالكفر غائبا عن الانسان لانه لم يطرق مفتاح بابه «وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو » وان هذا الكفر لم يكتب عليه في صحيفته الخاصة كما كتب له الشكر بها لعدم اختياره له ولكنه مكتوب في أم الكتاب ومعلوم من قبل لله كما تقدم من الطريقين للانسان ... وبهذا نقول ان الله تعالى يعلم بالجزئيات والكليات وبكل مايعمل الانسان ويختار ... بل وكتب قبل الخلق نظام كل شيء وكيفيته عنده ولكن عن الطريقين المتضادين فى آن واحد لفرد واحد لا عن طريق واحد ... وانه تعالى لايخصص للانسان بالذات حتما الا ماقد وقع عليه اختياره بحريته فقط .

ولما كانت الحرية الممنوحة للانسان من الخالق تجوز له ان يسير دفعة واحدة في طريق واحد أو بالتبادل مرة هنا ومرة هناك طبقا لاختياره من الطريقين المتضادين أخذ الله تعالى على نفسه الرقابة على كل نفس بما تختار وتكتسب من أحدهما « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » ليكتب لها أو عليها « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » طبقا لحريتها « ان الله كان عليكم رقيبا » واتخذ سبحانه من الملائكة والرسل والناس شهودا على أعمال الانسان واختياره الحر حتى لو تلفظ بكلمة « مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد» ليوضع فى الآخرة بلا ظلم في نقطة هى خلاصة أعماله العامة في الحياة لازائدا ولا ناقصا « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « اليوم تجزي كل نفس ما كسبت لاظلم اليوم ان الله سريع الحساب »

اما علم الغيب الذى يعلمه الله تعالى فهو العلم الذى أخفاه عن الانسان عند اختياره

أحد الطريقين وكان فى امكانه العلم به لو وقع منه على طريقه الاختيار « اذلاشىء غائباعن علم الخالق » ولـكن اذا فرض وعلم الغائب الذى لم يقع عليه الاختيار لـكان الذىوقع عايه الاختيار من الانسان وعلم له يكون غائبا ... اذ من المحال الجمع بين الطريقين في اختيار واحد .... قال تعالى : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » أي بنتيجة هى ضد ماوقع عليه الاختيار ... فهو غائب بالنسبة للـكل لابالنسبة للخالق سبحانه فاذا كان زيد في القاهرة وبكر فى الاسكندرية وأحدهما لايعلم بما عند الآخر فليس هذا هو علم الغيب الذى أخفاه الله تعالى عنا ليخفيه للبعض ويظهره للآخر ... كلا ... بل هو ماغاب عن الخلق بلااستثناء عما كان في الامكان حصوله لو وقع عليه الاختيار من الوجهة الثانية الغير معلومة ... فانه لم يظهره لاحد فى العالم مطلقا مع كونه معلوما له تعالى وحده وهو يعد علما غائبا بالنسبة لنا فقط « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » اذ هو سبحانه على كل حال « بكل شىء عليم » ... فمثلا ... عصيان آدم عليه السلام ... فانه كان فى امكانه ان لايأكل من الشجرة . . . ولكن « العلم بما كان » اذا لم يأكل منها يعلمه الله تعالى وحده لاغيره في العالم . . . وكذا « ابليس » اذا أطاع الله تعالى وسجد لآدم عليه السلام لـكان فى قدرالله تعالى شىء آخر من المحال ان يعلمه أحدالآن .... ومع كل ذلك فعلم الله تعالى كما هو البديهى للعقل لايتغير ولن يتغير الى الابد .. وانه تعالى يسير علينا الاقدار بقدر استحقاقنا الذاتى وما سعينا اليه بالاختيار « وان ليس للانسان الا ماسعى »

قال الامام « أبو حنيفه » رضى الله عنه فى رسالة التوحيد (مجموعة بقلم نسخ نمرة ١٢٧ بالـكتبخانه الخديويه ن ع ٢٣٧٢)مايأتى :

« لم يجبر الله تعالى أحدا على الـكفر ولا على الايمان ولا خلقهم مؤمنا ولا كافرا ولـكن خلقهم أشخاصا . . والايمان والـكفر فعل العباد . . . يعلم الله تعالى من يكفر فى حال كفره كافرا . . فاذا آمن بعد ذلك علمه مؤمنا في حال ايمانه واحبه من غير ان يتغير علمه وصفته وجميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة . اه »

فقول هذا الامام رضي الله عنه ينطبق على ماقلناه وان لم يكن فيه تفصيل كما ذكرناه ليطابق كل آيات القرآن الحكيم فى معانيه بلا اختلاف . . مما انبهم على عقول العلماء

قرونا كثيرة وتسبب منه تقرير أوهام كانت سببا فى بلاء الامم الاسلامية مما لايمكن حصره نذكر من ذلك مثالاً . . . قال شيخ الاسلام « ابراهيم البيجورى » فى شرحه (تحفة المريد على جوهرة التوحيد) صحيفة ٨٣ ما يأتى :

« وبالجملة فليس للعبد تأثير ما فهو مجبور من الله باطنا مختار ظاهراً .. فان قيل اذا كان مجبوراً باطنا فلا معني للاختيار الظاهرى لان الله قد علم وقوع الفعل ولا بد وخلق فى العبد القدرة عليه اجيب بان الله لايسئل عما يفعل . » اه .

أفهل مثل هذه الأوهام لها حظ من الحقيقة فى دين الاسلام ؟ . . ألم يك ذاك افتراء « وان كان غير مقصود » على الله والقرآن والحقيقة وما قاله أبو حنيفة ؟ . . .

وبناء على ماقررناه نقول : ان من يؤمن بالله تعالى فى وقت يمكنه فيه ان يكون كافرا .. ولكن اذا وقع الكفر من المحال فى الوقت نفسه ان يكون معه الايمان ... وان الذى يضر فى وقت يمكنه فيه ان يكون نافعا .. وان الذي يفقد ماله فى القمار في وقت يمكنه فيه ان يكون بهذا المال باراً ومحسناً . . وان الذي يكون سكرانا فى وقت كان يمكنه فيه ان يكون لله شاكرا وساجدا . . وان الذي يضر وطنه فى وقت يمكنه فيه ان يكون نافعا مفيداً . . ولكن من المحال اذا وقع الضر ان يكون معه النفع في آن واحد . . فان طريقى الخير والشر يسيران فى وقت واحد جنبا الى جنب فلك ان تسير في أحدهما ولو على التناوب ولكن الجمع بينهما محال . فان تواجدت فى أحدهما محال ان تكون في الوقت نفسه في الآخر . . قال تعالى : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله » فهذا دليل على عدم الممانعة فى امكان حصول الايمان مع كونه معلوما لله من قبل كما كان الكفر الذي اختاروه معلوما له تعالى ايضا .. اذ جعل لهم « النجدين » لانجداً واحداً وعلم كلا منهما ايضا . . . ولذا أمر تعالى بانتهاز الفرص وعدم ضياع الوقت بلا تفكر للاقدام على كل عمل مفيد بلا تأخير كالاية « ولتنظر نفس ماقدمت لغد » أي فلتحاسب كل نفس ذاتها فى كل وقت عما ستقدمه غدا لذاتها عند الله فان ضياع الوقت ضياع لكثير من المنافع التى تغمض عنا فيما لو لم نقدم على العمل الصالح فيه .

المثل الانكليزى يقول : « الوقت مال » ولكن القرآن يقول « الوقت مال وأغلي

من المال بكثير بما لا يقدر » كالآية : « فان يتقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا » فان كان حسن العمل مال فى هذه الحياة فى الاخري لا يقدر بمال « فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . . . . قال تعالى أيضا عمن يندمون على سوء أعمالهم فى الآخرة « يقول ياليتنى قدمت لحياتى » فهذا ليس ذكره عبثا . . . بل هو يؤيد بكل قوة هذه الحقائق بان هذا المتندم كان في امكانه ان يعمل الصالح في هذه الحياة بدل الفساد الذي أوقعه في مثل هذا الندم . . . وقال تعالى أيضا « قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها » فالذي يتطلب الرجوع الى الحياة بعد فوات أوقاتها ليعمل صالحا بدل الفساد سيصرخ بالندم وطلب العودة اليها . . . . على ان ذكر الله تعالى ذلك دليل واضح يثبت على ان عمل الخير كان فى الامكان وقوعه في الوقت الذي اختار الانسان فيه الشر أو الكفر بحريته واختياره وان علم الله تعالى بعمل الانسان صالحا قبل اختياره الفساد كان في حيز الامكان كما سبق البيان ... ولكن اذا فعل الشر فى وقت محال في الوقت نفسه أن يعمل الصالح أو يعود الوقت الذي فات .... وقال تعالى أيضا : « ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون » فهذا يؤيد أيضا انه كان فى امكانهم عمل الاحسن ليتجنبوا الوقوع فى الجحيم الذي وقعوا فيه .... وان عملهم الصالح الذى يتطلبون الرجوع لعمله ليدخلوا به الجنة بدل الجحيم كان فى علم الله تعالى قبل اختيارهم الفساد بحريتهم في « حيز الامكان » لهم لا في حيز التخصيص ولكن الذى اختاروه لانفسهم من الشقاء هو الذي وقعوا فيه أيضا وفى نتائجه الوخيمة فلا سعادة لاحد من الناس من الازل ولا شقاء لاحد مكتوبا بالتخصيص قبل خلق العالمين ... وقال تعالى أيضا « ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل » ... وهذا كما سبق يدل على ان اجابة الرسل كانت ممكنة في الوقت الذي اختاروا فيه عدم اجابة الرسل مما يثبت أيضا ان علم الله تعالى بالطريقين قبل الاختيار فى حيز الامكان لا في حيز التخصيص وان هذا التخصيص ماحصل الامن أنفسهم التى كان في امكانها ان تخصص لذاتها الطريق الآخر فكان ما اختاروه لهم لا لغيره اذ من المحال تغييره أو استبدال نتائجه أيضا ... فاوقات الحياة ثمينة جدا ولكنها مبنية على (الحرية) الذاتية ومن استهان بها كانت استهانته على أم رأسه وعمل الانسان عائد

على ذاته ... فاذا خاف الانسان فليكن خوفه من نفسه وتقصيرها عن السعى وراء الحق والفضيلة .. ولذا كان الدين والرسل للتذكير أيضا وليس للجبر ولا للاضطرار فى شىء رحمة من الله تعالى في هذه الحياة على الناس (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) ليس الا . . « انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر »وان فائدة « الوعاظ »و « المرشدين »هى للتذكير ايضا اذ الاضطرار على كل حال « محال » ... فاذا كنت متعودا ان تتوجه كل يوم في وقت معين لتشرب بعض كاسات من الخمر فى حانة وفى الطريق أثناء توجهك اليها يوما ما عزمت على التوجه الى المسجد للصلاة كعزمك على التوجه الى الحانة فتأكد انك لن تجد أحدا مطلقا لامن الله ولا من الناس « تحت مسؤليتى » يقبض عليك ويجرك بقوة الى الخمارة . . . ولكن اذا سجدت لله فى المسجد شاكرا . لاتقل لماذا لاأشرب الخمر فى وقته المعين . . . فان هذا الوقت قد فات ومحال ان يعود كما انه من المحال ان تحرم حسن جزاء شكرك للخالق — فهل تستعظم على علم الله تعالى ان يعلم ان الوقت الذى فيه يمكنك التوجه الى الحانة من طرف يمكنك فيه ان تتوجه الى المسجد من الطرف الآخر ... عقلك وضميرك لاينكر ان ذلك

على ان علم الله تعالى بمن خلق من المخلوقات قبل وجودها هو « فى حيز الامكان » لافى حيز التخصيص أيضا (الا أن يخصص الله بمطلق ارادته) فالعالم قبل وجوده كان ممكن لله تعالى ان يوجده قبل الوقت الذي بدأ وجوده فيه وهو تعالى يعلم بذلك وقادر ان يوجد عالما آخر مثله الآن « وهو الخلاق العليم » وبعد الآن الى مالا نهاية له اذ هو على كل شىء قدير وعليم في جميع الاوقات فهو تعالى حر مطلق فى كل مايريد لاسلطان عليه ولا علة لما يريد من الخلق غير مطلق القدرة ومطلق الحرية فيما يفعل .. ولكن اذا قلنا انه تعالى أراد أن يخلق هذا العالم فى وقت كما قد حصل وأراد فمن المحال ان يتأجل أويتأخر لوقت آخر أوان يوجد في وقت لم يخصصه تعالى من نفسه ومطلق حريته وعلمه .. فلا يجوز ان تقول ان علم الله تعالى بالمخلوقات الحالية قبل وجودها كان في حيز التخصيص والاضطرار ... بل فى حيز الامكان غير انها لم تخصص في وجودها كما وجدت الا باختيار الله تعالى المطلق وارادته الحرة وتخصيصه الذاتى فكانت منه حقا . لان كل مخلوق يتطلب لنفسه دوام

الوجود بعد ان وجد ويجاهد بكل قوته الفعلية للتباعد عن الوقوع في الفناء والزوال ...
ولهذا كان الانسان على « صورة » الخالق سبحانه لا من حيث التماثل في الذات بل من حيث منح الله تعالي له أعظم المنح المعنوية التي هى للخالق سبحانه بلا تمثيل .. كالحياة والارادة والاختيار والعلم والعمل والسمع والبصر ... والخ فهي صورية في الانسان فقط بها وحدها يعرف قدر خالقه الاكبر مع احتجابه عن افهامه — فهل تستعظم على علم الله تعالى ان يعلم ان الوقت الذي فيه يمكنك ان تكفر به يمكنك ان تشكره فيه أيضا ؟ .... هل يدهشك ان الله تعالى خلقك على هذا الشكل الكامل الجميل وجعلك قادراً ان تصعد الجبل أو تقع بنفسك في حفره ؟ .. هل يدهشك منحه لك « الحرية » المقدسة وأن لا يمسك اذا صعدت الي الجبل أو نزلت الى الحفرة ؟ ... هل يدهشك انه ألقى مسئولية أعمالك بهذه الحرية على عاتقك لانه في نظير ذلك منحك « عقلا » يدلك على نتائج مافي الحفرة ويدلك على طريقها ونتائج صعودك على الجبل وعلى طريقه أيضا ؟ ... هكذا منحك « الحرية » العظيمة وهكذا منحك لاجلها « العقل » وهكذا فتح امامك طريق الجبل وطريق الحفرة لا طريقاً واحداً وكتب عنده تعالى قبل ان يخلقك كيف تسير في هذا وكيف تسير في الآخر وكتب عنده تعالى نتائج كل أيضا ونتائج كل عمل مع جزائه الحق فيجوز لك ان تصعد الجبل دون ان ترى الحفرة ويجوز لك ان تذهب الى الحفرة دون ان ترى الجبل ويجوز لك ان تقترب من قمة الجبل ثم ترجع القهقرى الي الحفرة أو تكون على رأس الحفرة فترجع الي الجبل ....
هكذا فتح لك الطريقين وعلم كيف يمكنك ان تسير في كل منهما ولكن اذا وقعت في الحفرة لا تقل لماذا لا أصعد الجبل .... الوقت فات ... الوقت الذي أمكنك فيه ان تقع فى الحفرة كان يمكنك فيه ان تصعد على الجبل .... الله تعالي يعلم مافي طريق الجبل وكيف كان يصيبك منه لو سلكت فيه ولكن اذا وقعت في الحفرة وسألت عما على الجبل لا يجيبك اسئل نفسك عن نتائج الطريق الذي سلكت فيه بحريتك واختيارك تجدها لك معلومة وعادلة .... ومن المحال ان تكون في الحفرة وعلى الجبل فى آن واحد ولكن الله تعالي فتح لك الاثنين معاً وأوقفك في نقطة تقاطعهما وقال لك « انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا » ولكن من المحال ان تكون شاكراً وكفوراً في آن واحد اذ قال تعالي أيضا

« وهديناه النجدين » فاختر لنفسك منهما ما تريد هو يعلم قبل ان توجد كيف يمكنك أن تسير فى كل منهما ولكنه لايصيبك بشيء الا بنتائج ما تسير فيه فقط دون ان يعلمك بنتائج الطريق الثاني الذي تركته « فلا يظهر على غيبه أحدا »

فاذا أردت ان تكون « سعيدا » وتنتظر مني أن أفيدك بالجواب عن ذلك فاسئل « نفسك » أولا وراجع بعدها « عقلك » و « ضميرك » فانك أعلم « بالوسط » الذي أنت فيه أكثر مني طاقات كثيرة . وبنفسك تعرف « الوقت » الذي فيه « تعمل » الصالح والاحسن من كل شيء بدل ان تتركه « ولا يكلف الله نفساً الا وسعها » « فبعقلك » و « بحريتك » المقدسة و « باخلاصك » لله تعالي و « بدونى » يمكنك ان تكون سعيدا

ولكني أذكر نصيحة «لنفسي» ولكنها «لك» أيضاً وأردتها بحريتك الشخصية وربما اعتبرتها « جديدة » وهى : (لا تستسلم نفسك للاقدار بلا تفكر وامعان فذلك جبن منك وهزيمة بل وخسارة على نفسك عظيمة لا تعرف مقدار سوء نتائجها اذ أن ذلك ليس من الدين في شيء ولكن « اعمل بلا تأخير » وبتعقل ما فيه سعادتك ونوال الحق والفضيلة فان « الاقدار » تسعى خلف خطواتك الخصوصية بتمام حريتك في العمل فيمكنك في هذه الحياة أن تقلب « النار » « فردوسا » ويمكنك بقدر سرعة سيرك أن تقلب الظلم عدلا والباطل حقا »

الحرية

(أول مواهب الله للانسان)

(ولماذا ؟)

أنت ترى في بيتك خادما من خدمك تقول له توجه الى الشرق فيتوجه واذهب الى الغرب فيذهب وكل ما تأمره به يفعل ويعمل ... لماذا ؟ ... لانه محتاج لخيرك ومرتبك وحنانك عليه ورحمتك من غير أن يجد عنها بديلا ... فهو ان أمكنه أن يعيش بدونك وينال تلك المقاصد بغيرك ما رأته عينك ... فهو « خادمك » لنعمك عليه وأنت « سيده » لانك تملك كل ما هو محتاج اليه ... وما دام هذا التناسب ثابتا فسيادتك عليه ثابتة وخدمته لك واجبة وواقعة ... ولكن كيف تعرف هذه النسبة ؟ ... فهل تقبل على نفسك أن تنادي خادمك وتضطره بقوتك « على فرض انه فى امكانك التسلط على قلبه أيضاً » لتقول

له : لازم عليك أن تقول أني سيدك بحق واخلاص ثم تعترف أنك خادمي كذلك .. لانك ترى نعمي عليك وترى احتياجك لي واضحا ؟ ... هذا يجوز ان أردت أن تضع نفسك في موضع السفه وعدم الكمال والنقص الادبي .... لانك تعلم أن هذا الخادم لو قام بهذا الواجب بمطلق حريته التي تطلقها له لكان ذلك داعياً لاظهار معنى حقيقة الشكر الذي هو خلاصة الرضى بالاقرار بالنعم .... اذ لولا الرضى لانعدم معنى الشكر .... وعندها تكلل سيادتك عليه بالشرف والوقار لا بالعجرفة والاضطرار ويظهر نفسه خادما أمينا شريفا عالما بمقدار النعم لائقا لان يضع نفسه في موضع احترامك الذاتي اليه والعناية به أكثر من ذي قبل وعلى ما تقدم تجد أن منح « الحرية » يجب أن يكون الاساس الاول لوجود الخادم والحجر الاول لمعنى السيادة وكمال السيد وشرفه ... فاذا أدرت نفس هذه النظرية على شخصك بالنسبة لوجودك العام امام الله تعالى لوجدت سماء جميلة تظلك وأرضا تحملك وشمسا تشرق وتغرب لاجلك وقمرا يضئ ليلا لاهتدائك ونجوما تزين السماء لتسير بها في البحار المتسعه والقفار المجهولة وأنهراً تسير فوقها بالفلك والبواخر ... تقتنص منها صيدا ولحما طريا كما في البر تمرح وتتقلب بين زروع وجنات — تجدنهارا لعملك وليلا لراحتك ... ومثلا لقوام حياتك ونعمة تثبت بها وجودك وصحة تعمل بها ما تحب وعقلا يرفعك من الحضيض به تمت لك السيادة العامة على الحيوانات والوحوش تركب منها ما تشاء وتأكل منها ما تشاء وتتمتع منها بالنظر والسمع بما تشاء .... كل ذلك و.. لا تقدر عليه أن تحصيه من النعم « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » يحيط بك وتعجز أن تعده عدا أو تحصي له قدرا ... فهل تعرف من الذي أوجدك وأحاطك بكل هاته النعم ؟ .... أن ضميرك يقول لك حقا وبلا مناقشة انه هو « الله » وحده ... فان كنت تعلم من نفسك القدرة على الخروج من هذا العالم الذى أوجدك الله فيه وتقوم بنفسك من غير أن يساعدك بشئ من هذه النعم فافعل .... واني « أضمن » أن لا يعارضك الله تعالى في ذلك مطلقا ! ! ... « يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا » فان عجزت وكنت بطبيعة وجودك عاجزا عن الهرب من العالم ولا تقدر أن تستقل بنفسك دون الله تعالى ورأيت أنك محتاج كل الاحتياج لان تستعمل قوتك العظمى لتنهب من هذه النعم الالهية ما تقدر عليه مما فيه

نفاذ آمالك ... فلا تشبع من عمر طويل ... ولا تقنع بعلم ... ولا تقف جامدا ... الحياة تملؤك ... والعلم ينيرك ... والعالم تحت سيادتك فانت بطبيعتك الذاتيه « عبد » لله تعالى بهذه النعم وأسير فضائله وهو « الملك » الحق الذي لا شريك له اذ لا تستغني عن شيء قليل منها .... فان نقص منك بعضها تمرغت في التذلل اليه لطلب اتمامه ورجوعه الى ما كان قبل فقدانه .... فهو « الاله » الواحد لانه تعالى ليس كالسيد السالف مع خادمه يحتاج اليه فيرسله في مطالبه الخصوصية أو يناوله رزقا أو طعاما .... بل هو سبحانه مستغن عنك « بالمرة » « ان الله غني عن العالمين » فكل ما عملت من حسن فهو لنفسك وكل ما في العالم فهو لاجلك ومن رزقك « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين »

اذا تقرر هذا وكانت « عبوديتك » أمر طبيعي لله تعالى « حتي ولو تجحدها » فماهى النسبة الحقيقية الكائنة بينك وبينه تعالى ؟ .... لا شك هي الاعتراف الحق منك بهذه العبودية والشكر باخلاص ... وبالوهيته الحقة الوحيدة على ذاتك وعلى العالمين ... فان ذلك يترجم عن معني الوجود العام وخلاصته الكلية ... ولكن ... هل يليق لله تعالى الذي هو مستغن « بالمره » عن شكرك هذا أن يضطرك على أدائه بقوته مع علمك أنه أول واجب طبيعي على شخصك بالنسبة اليه ؟ ... كلا ! ! ! اذا كنت لا تقبل أن تفعل ذلك مع خادمك الذي تقدر عليه والذي يمكنك الاستغناء عنه لان ذلك لنفسك نقصاً أدبيا « فمحال » أن يفعل الله تعالى ما فيه النقص وعدم الكمال ... اذاً ... اللائق من جهة العزة الالهية ، بل اللائق عقلا ... بل الحق الواقع الذى لا شك فيه هو أن يمنحك الله تعالي بمطلق ارادته الكمالية وبما يليق لعزة نفسه وعلو مقامه « الحرية » المطلقة في أداء هذا الشكر الحق « ان الله عزيز حكيم » فان ذلك هو اللائق لتفرده في الكمال والالوهية واستغنائه عن الشكر وعمن خلق أجمعين ... وبغير رضاك وتمام حريتك محال أن يقبل منك شكرا وأكرر قولي محال ثم محال .... فان شكرته تعالى فهو يقبله منك بمزيد الالتفات والعناية والرضى بل ويرد لك كلمة الشكر بالتبادل وزياده « فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » أي فاذكروني بالشكر أذكركم بمثله أيضا ليعلمنا سبحانه بمثل هذا التبادل تنازل عظمته الكبرى

لرعاية حقوق الشكر من كل مخاص بالشكر ولزيادة شكرنا اليه تعالى الذي فيه رحمته وسعادتنا « ان شكرتم لازيدنكم » وليعلم المتكبرون من كل أمة أن المشكور مهما كان عظيما ومهما كان مركزه محتم عليه أدبيا أن يرد الشكر بمثله لغيره مهما كان حقيرا فان ذلك واجب أدبي الهي عظيم « ان الله شاكر عليم » أي عليم بمن يشكره باخلاص أيضاً . . . فان لم تشكر الله تعالى بحريتك وكفرت به وبنعمه فان ذلك تنزيل من مقام ذاتك لا يمس الله تعالي منه شيئا وانما الله تعالى بعدم مساسه حريتك قد فعل معك اللائق لمقامه تعالي لغرض الشكر لا اللائق لمقامك لغرض الكفر اذ أنه تعالى قادر أن يرغمك بقدرته على الشكر الاضطراري ولكن عزة نفسه تأبي الا أن يكون بتمام رضاك وحريتك الذاتية « ان تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم » فهو تعالي يرضى لك الشكر اليه لان ذلك هو الحق الطبيعي ولان فيه سعادتك الطبيعية . . . وفي آن واحد لا يرضى لك الكفر لا لانه ليس بقادر أن يمنعك عنه أو لغرض الكفر نفسه . . . كلا . . كلا . . . بل لعلة أنه تعالى لا بد أن يترك لك « الحرية » الكاملة علك تعود بها للشكر الخالص ثانيا . . وانه لولا امكانك الكفر بحريتك ما علمت مطلقا أنك في ذاتك حر أو أن الله منحك « الحرية » المطلقة في هذه الحياة لغرض هذا الشكر الواجب والذي يأبي الله تعالى في عزة نفسه الكمالية ألا يقبله الا بهذا الشكل الشريف الكامل . ولهذا السبب نفسه تعلم العلة الاولى الحقة التي بسببها فتح الله تعالي لك « النجدين » أى طريق الايمان والشكر والخير وطريق الكفر والشر والجمود فان ذلك « حق مطلق » لعلة عزة الله الوحيدة فاعمل بذلك ما تشاء منهما وما تحبه من النتائج لذاتك ولذا كانت « الحرية » أول أساس ثابت وضعه الله تعالي لوجود كل مخلوق وأول منحة من الله تعالي للانسان بل هي أول كلمة سبقت من الله تعالى لتقريرها بحق لكل مخلوق وأن لا يمسها فه مطلقا ولا ينقضها ما دامت هذه الحياة باقية وان كل ما قيل في القرآن العظيم من الآيات المماثلة لقوله تعالى : « ولولا كلمة سبقت من ربك » أى كل شيء قبل الخلق فتأكد « تحت مسئوليتي » انما هى الكلمة التي جعلت أساسا أوليا للسعادة والشقاء بحق لكل مخلوق الا وهى « الحرية » المقدسة الذاتية . . لذلك كانت هي « أول ما وهب الله للانسان » أيضا

ان الشيطان عند ما أقسم بالله تعالى وقال « فبعزتك » فهو يقصد عزة الله تعالى التي قضت بحق منح « الحرية لكل مخلوق » وبأنه تعالى لا يمسها مطلقاً في هذه الحياة مهما فعل من الكفر بالله أو عمل الباطل فان ذلك عائد على ذات من يكفر وان علة سبوقها لا لعلة الكفر نفسه بل لعلة الشكر الذي لايقبل الا بمزيد الرضى وتمام « الحرية » المذكوره .... وان قسم الشيطان الثاني الذي هو مرادف للسابق في قوله « فبما أغويتني » أي بالكلمة التي لا تنقضها بسبب عزة ألوهيتك العظمى وهي منحي مطلق « الحرية » في الكفر « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » أي لغرض التضليل ما داموا أحراراً للضلال أيضاً مثلي مدة هذه الحياة مطلقا . فاذا كان هذا النظام معقولا وحقاً وليس فيه ظلم مطلقاً على أحد وان « ما تكسب كل نفس الا عليها » فتأكد وتحقق من الآن « ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .... ان القرآن العظيم بنزوله من الله تعالى وايضاحه أول نقطة في نظام الله تعالى في العالم وهى « الحرية » الذاتية للافراد والامم والشعوب قد أزال سلطة الملوك المستبدين من الوجود زوالا نهائياً — ذلك الاستبداد التي كانت تئن منه شعوب دولة الفرس والرومان قبل الفتح الاسلامي حتى هدمه الاسلام من جدرانه وأحل محله شورى الاحكام ودستور الله العادل .

ولقد غاب عن عيون الامة الاسلامية هذا الاساس الهام « الحرية » كل هذه القرون الطويله حتي رجعوا بعد الخلفاء مباشرة الي الحكم المطلق والانقسام والاستبداد الهادم لكل ترق وتقدم وارتقاء ... حتي أحيت هذا الاساس الامة الفرنساوية بدمائها الشريفه فكان منه نور هو مازال الاساس لسعادة البشر .... واذا كان لا ارتياب في ذلك .. فاحكم على الحكومات الاسلامية الماضية والحالية وقل معي مندهشا : « أين مركزها من الاسلام ؟ »

حل العقدة الدينية

(هل صحيح في الاسلام ؟ « كل شئ قسمه »)

لا نبالغ اذا قلنا ان عقدة « القضاء والقدر » التي تبعثرت أمامها عقول فلاسفة الاسلام وعلمائه من صدر الاسلام للآن كانت لهم أشبه « بالديناميت » الفتاك التي يبعثر بقوة ماحوله

لاقل ملامسة كما يعلم من المؤلفات الضخمة الكثيرة والانقسامات المتنوعة بين الاحزاب الكثيرة التي بها كان خزلان الامم الاسلامية في الارض الى الآن .... فالديناميت ليس لتحطيم قوى المادة العتيدة والاحجار .. بل وجد ديناميت كامن في العقول الاسلامية اذا لمس مزقها شر ممزق .. وهو قديم المكوث يستعملونه ضد أنفسهم لا ضد أحد في العالم وقد وضعه على مايظهر أعداء الدين في صدر الاسلام فنبت وتفرع وصار أصلا للعقول .. يبدد حقائقها متى شاء .. فتقف أمام قوته الوهمية مبعثرة لا تدري كيف تسير ... فلا ترى منها في كل زمان الا فشلا .. ولن تجد في كل أرض اسلامية الا دماراً ووبالا ... تقارن بين حقيقة القرآن ونتائج الاحوال بينهم يظهر لك من اعتقادهم بالقضاء والقدر ديناً مستعاراً يطلق عليه اسم الاسلام ... فاذا أردت فحصه بنظارة العقول وجدته مبعثراً بشظايا الديناميت الكامن .. واذا تراجع على الاصل في القرآن الحكيم وجدت العقول نفسها تحوم متفرقة لا تنظر ولا تبصر لشيء يريح الضمائر

كل المصائب الانسانية التي تحل بالنوع الانساني باسم الدين سببها ديناميت الوهم الكاذب في الارواح فيشتعل بالعقول ويرجعها عن أصول الدين .. فاذا تبعثرت صعب ارجاعها الى أصولها ... وأقوى ديناميت في تاريخ البشر بث باطلا في العقول هو الذي تبني عليه الامم الاسلامية فشلها وخزي تقهقرها من قرون مضت الى الآن ... ولم تعرف كيف تحوز المدنية الصحيحة والكمال الانساني بل لم تعرف كيف تتخلص باحتراس من أصل بلائها ووبائها الفتاك .. وباء الاعتقاد المعكوس « بالقضاء والقدر » اذ هو ديناميت الاسلام الفتاك ... ان الانسان في جميع الازمان يخترع للعقول ديناميتاً من تراكيب كيمياء الوهم ويدخله في أصول الدين ... فيتبعثر الحق والفضيلة حتى يرسل الله تعالى رسولا يظهر حقيقة جوهر الدين فيلم شتات العقول ويرجع كل شيء الى أصله .... ولعلة ختام ارسال الرسل أنزل سبحانه هذا القرآن وعهد الى ذاته الكريمة أن لا يمس كغيره ... فكان للآن كما أشار « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .. فبالرغم عن ثبوت القرآن وعدم تغيره ما لبث هذا الانسان حتى رجع بنفسه الى الاوهام واختراع المهلكات باسم الدين للارواح والعقول باقوى ديناميت وهمي وقف عثرة عن التقدم الانساني بشمس نيرة هادية قوية مثل

« القرآن المجيد »

أمر غريب ... وحكمة عالية ... القرآن ليس كالاديان الاخرى التي نزلت وبعثرها اللاعبون بل هو واقف كأنه الروح الوحيدة التي لا يؤثر فيها نوع ما من ديناميت الاوهام وان العقول الاسلامية نفسها تفننت كثيراً في الهجمة عليه ولكنها تجد نفسها نسفت نسفاً شديداً بأباطيلها الوهمية حتى توهم الذين لايعرفون القرآن يقولون انه أصل للبلايا التاريخية المتتابعة في كل جو اسلامي ... ولكننا نحمد الله كثيراً على ثبوت جوهره فسيظهر للكل نقاوة أصله وطلاء جوهره ... وانه قانون الانسانية الحقة والتقدم والعمران ... « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ... اخترعت الامم الاسلامية أعظم قوة من ديناميت الاوهام لم يسبقها أمة قبلها في التفنن في اتقانه فأعظم نيشان « الوهم » في التاريخ يجب أن تمنحه الامم الاسلامية الماضية .. فقد صنعته ضد نفسها أولا وضد القرآن ثانيا .. لانها هجمت به أزماناً على هذا الكتاب المنير لتلبسه اياه فتبعثرت هى تبعثراً شديداً بقدرة قوة هجومها .. ومعاناة اقدامها مع ثبوت القرآن مما نرى آثار النزع في روحها في كل مكان الى الآن ... فان أفاقت قليلا .. فلا تكون الا كالسكران الذي يوهم تمالك قوته بالجمجمة واللسان .. مع تأصل الخمول الكامن في جوفه من سموم التخدير بأوهام القضاء والقدر المعكوس ... هذا الديناميت الوهمي تسرب لعقول الامة الاسلامية من بعد خلفاء الاسلام الاولى .. وكان واضعوه على ما يظهر من أمهر الملقحين لسل التضليل .. فامتلأت منه العقول وكثرت جراثيمه حتى كان منه فراش الخمول « كل شيء قسمه » فالمتأخرون الحاليون لا يرون منه تأثيراً واضحاً لعدم كشف أسراره وتأثيره الا أن يروا أنفسهم بالنسبة لغيرهم في غاية الضعف والفشل والاضمحلال حتى كان رأي كل مسلم عند كل حادث كما قال المستر « ديسى » الانكليزى : « الدين الاسلامي يميل بالمسلمين الي الاعتقاد بالقضاء والقدر ومن كلمة « قسمة » نفهم رأى الشرقى في جميع الحوادث » ... فالمسلمون في اجمال أحوالهم الآن في هذا الموضوع أشبه بالمريض الوارث أمراض السل من أبويه فلا يعرف قيمة الصحة الحقيقية الا اذا تجرد من جراثيم مرضه القتال .

نزل القرآن الحكيم بين أمة العرب التي كانت متنافرة متهالكة في العداء الداخلى ..

فاحل بينهم وازع التواد والرحمة .. وكانوا من أجهل أهل الارض بالمدنية والفضيلة والعمران ... فاخذوا به يبثون المدنية والالفة والنظام بقدر ما سمح به الوسط بين ممالك الفرس والروم التى كانت عند البعثة المحمدية عنوان الظلم والفساد والاحن .. ولكن كان أداء ذلك بالنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الذين عرفوا وفهموا مهمة القرآن الحكيم وعلموا حكمة ما أنزل اليهم وصار العمل المجيد الذى قام به الاسلام بينهم في مدة قصيرة داعيا للدهشة والاعجاب في صفحة التاريخ وسلما للمدنية الحديثة ... ولكن الامم التالية الاسلامية بعد الخلفاء الاول تركوا دستور القرآن الانتخابى المؤدي لكل تقدم وحرية وكان من الممكن تحسين نظامه تدريجيا شأن كل جديد الا انهم لغوه بالمرة و استبدلوا بالاحكام الا ستبداديه الى الآن .. فهل كان يرجى لحكومات الاستبداد عدل تام واقامة حقيقة أو نفع عام لترقى العلوم تدريجيا الي الكمال اللامتناهي؟ هكذا استمرت الاحكام الى الآن فضعفت النفوس والعقول وانحصر تعليم حقائق الدين والعلوم في فئة قليلة نفعت قليلا وأضرت كثيرا .. اذ أخذت تثبت من خمول الافكار فى دلائل القرآن النيرة ما جمدت به أعصاب الامة وتخدرت به العقول .. وأول مواد التقهقر كان موضوع « القضاء والقدر » فكان بمثابة الديناميت الفكرى للعقول ومركز الدائرة في كل فشل عام فى جسم الاسلام من بعد الخلفاء الى الآن ... تجد أهم فيلسوف في فلاسفة الاسلام يبحث وينقب ويرفع ويوضع ويغير ويفرض ... وفي النهاية تجده واقفا أمام هذا الموضوع باهتاً وعاجزا لايدرى ماذا يفعل .. ألفت المؤلفات من فطاحل فلاسفة الاسلام وعلمائه وأهدوها للامة هدية من قال : « هذه آخر طاقتى » فكانت تلك الهدايا الاليمة كمنح الطفل كرة من الديناميت الخطر المهلك ... قال علماء الاسلام كثيرا وكتبوا كثيرا وفرضوا كثيرا ثم ردوا القهقري الى الآن وكان هذا داع لوقوف الامم التالية جامدة تحت هذه الهزيمة العظيمة .. وكما فشلوا في هذا الموضوع فشلوا في كثير من النقط الهامة « سنوضحها في الجزء التالي » التى رمت بحقائق القرآن عنهم من مكان بعيد ... وصل مركز الاسلام بهذه الضربات الى الآن لان يكون أغلب أممه عنوان الخرافات والتعاويذ الوهمية والقلاقل باوهام المهدوية مما بثه المضلون فيه .. والقرآن الحكيم أمام هذه الهجمات واقفا معجبا ومتأسفا على ما يرمى به من تلك النسب والاوهام المضحكة المبكية .. عجيب أن

تمر القرون دون أن يعثر فيه أحد الى حقيقة معني « القضاء والقدر » .. منه جمدت الامم الاسلامية فصارت عنوان الجمود وطاشت بها الاحلام فصارت عنوان الفساد والظلم ... تنوع العالم وتحول ... تتقدم الامم وتتبدل .. والامة الاسلامية هى هى واقفة أمام هزيمة القضاء والقدر .. وأى هزيمة يستحقها من افترى على الله الكذب .. وبدل النور في كلام الله ظلاما .. اذا سألت أمة مسلمة أو شخصا مسلما أصابه خطب قال لك كما يقول المستر « ديسي » هذا « قسمة » فلا تعليل للحوادث ولا تحوط لنتائج ما فات لاتقاء فشل جديد اذ معنى كلمة « قسمه » هو أن لا تدبير في يده لامكان تنوع الحادث أو تلطيفه وان ما أصيب به كان كتبه الله تعالى لذاته من القدم ولا بد في اليوم والساعة التي أصيب فيها يحصل له ذلك مما لا مفر له منه على أى حالة فهو قسمته من الله تعالى وحظه المحتوم من الخالق لانه يقول ان القرآن وأصول الدين الاسلامي تؤيد ذلك .. فاذا سألته عما اذا كان في الامكان أن يغير الخطة التى أدت الى هذا المصاب أو كان في الامكان ان يغيره الله تعالى بمصاب آخر مما لو سلك مسلكا غيره ... أجابك ان هـذا محال فكل شئ مكتوب مقرر لا يتبدل ولا يتغير فيصدق عليه قول سنكا حكيم الرومان اذ يقول : « من الناس من يعيش بلا غرض أو غاية فيعبر في هذا العالم كالعصافة على سطح ماء النهر لا تسير من نفسها بل يحملها الماء من مكان الي مكان » فهل ذلك حقيقى في دين الاسلام ؟ وهل مما علمت مما كتبناه في الابواب السالفة يقول القرآن أو يشير اليه بحرف ؟ ... كلا ... محال أن يكون للانسان قسمة مخصوصة من القدم لا يتعداها ... بل مجال الاقدار متسع فسيح يسير وراء ارادة الانسان الحرة .. فمن كان اليوم شقيا يمكنه بحريته أن ينقلب في الغد سعيداً ... ومن كان اليوم سعيداً يمكنه أن ينقلب بحريته ليكون في الغد شقياً ... يقول المسلم باستحالة الفرض بامكان تنوع ما حصل من « القسمة » فيما لو سار بخطة أحسن لان هذه « القسمة » شيء لازم حتما على كل حال ولكن شكسبير يقول : « يغلب أن يكون علاج مصائبنا فينا » والقرآن الحكيم يقول: « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » فاى القولين أصح ؟ ... أقول صريحا كذب المسلم في ادعاء « قسمته » الثابتة وصدق القرآن وشكسبير اذ لا شيء يقسم للانسان الا بعمله الذاتي وارادته الحرة المملوكة ليده من الخالق ...

يقول المسلمون « بالقسمة » على الوجه السالف وقد علمت مما ذكرناه مقدار مركزه وبعده عن الحقيقة ولكن اللورد « افبرى » الانكليزي يقول : « ان معظم ما يصيبنا مما نكره تعود تبعته علينا فاذا لم يكن لخطاء ارتكبناه فلتساهلنا واهمالنا » ويقول أيضاً : « قل ان تدنوا المصائب منا والغالب أن نسعى اليها » فاى القولين أصح ؟ .. أقول كذب المسلمون في ادعائهم وصدق القرآن الحكيم القائل « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » وصدق « افبرى » أيضا

ان آيات القرآن العظيم حكيمة عالية أعجزت مشاهير الفلاسفة والعلماء من المسلمين عن أن يدركوا حقائقها بالنسبة لهذا الموضوع « القضاء والقدر » فكان فشلهم مؤديا الى فشل أفراد الامة الذين يحترمون كل ما يقول العلماء من الاستسلام لجمود الاقدار من كل قلوبهم.. فقلما تجد الفرد يهتم لامر في الحياة الا اضطراراً أو بالارتكان على الغير أو بعامل التحكك في الامم العاملة الساهرة التي اشترت « الحرية » وانتهاز الفرص في كل عمل نافع للمدنية وحب الانسانية بدماء الجد والتعقل . . . فلا ميل طبيعيا عند الكل لمبدأ « وجوب التفكر والعمل » ولذا أن همو الامر وجدته مشوشا وان نفروا لمهمة كثيرا ما تجدها خرافية أو وهمية مكسوة بطلاء مستعار باسم الدين . . . وكل ذلك ولا شك ناتج من اختمار مبدأ « القضاء والقدر » بالعقول بشكل وهمى كاذب . . . يقول الفيلسوف المسلم الشهير « بن رشد » في كتابه « فصل المقال » عن موضوع القضاء والقدر ما يأتي « وهذه المسألة من أعوص المسائل الشرعية وذلك اذا تؤمل دلائل السمع في ذلك وجدت متعارضة وكذلك حجج المعقول » اه هذا ما قال به هذا الفيلسوف من أن التعارض والتضاد موجود فعلا في المسموع والمعقول سواء في القرآن والسنة ... ولكنى أقول صراحة انه « لا وجود لهذا الخلاف بالمرة » لا في المسموع ولا في المعقول — ولقد انقسم قادة الافكار الاسلامية السابقين الي فرق كثيرة في هذا الموضوع الهام . . . أهمها ثلاث فرق كبرى كلها مضحكة مبكية لا يلتوى العقل فيها الي حقيقة تشبع شره العقول فالله تعالي يقول فى القرآن انه نزل لضم جراح الامم التى تهالكت من كل اختلاف سواء في الاعتقادات والاعمال بل نزل « ليبين للناس ما اختلفوا فيه » يكون لهم كشمس هادية في كل اعتقاد . . . ثم يخاطب الكل فيه بلسان التذكر والمثابرة

على التأمل في عدم الاختلاف بقوله « وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد » ثم يضع لهم مقدما مبدأ البحث في فهم معانيه المتحدة في كل عمل واعتقاد بقوله « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » ولكنهم خالفوا ذلك بالمرة فتجد شعار المنقطعين للعلوم الدينية في كل مسئلة وخصوصا في هذا الموضوع هو شعار : « فيه خلاف » أقول صراحة : كذب المختلفون وصدق القرآن كلام الله العظيم ...

أمر غريب بل أمر يدهش ... هل سمعت بكتاب واضح نير كالقرآن الحكيم يفهمه العامي تتيه فيه عقول الفلاسفة والعلماء في موضوع هو أساس كل ارتقاء مادي ومعنوى بل أساس كل عمل « باستقلال النفس » الذاتى ... فينقسمون فيه ويخذلون به وتتقهقر الامم الاسلامية أمامه في التاريخ الى هذا الحد المخجل ؟ .. عجب كثير ... أمر مخجل ... لقد علمت مما أوضحناه في هذا الكتاب على اختلاف الآيات القرآنية أن « لا خلاف » في القرآن في موضوع « القضاء والقدر » بل ولا في غيره مما سنشرحه في الاجزاء التالية وان كل ما قيل في هذه القرون العديدة افك على الله والقرآن الحكيم .

ان المذاهب الكبرى الثلاثة التي انقسم اليها قادة الافكار الاسلامية هى : اولا مذهب « الجبرية » وهم القائلون بان الانسان « مجبور » من الله تعالى فعلا وتقديراً على كل مايحدث منه سواء له أو عليه ... فلا يوجهون لانفسهم حجة أوامر الله تعالي في الدين من اتباع الخير والتباعد عن الشر والكفر فقالوا نحن على أى حال فيهما مجبورون بحكمته مقهورون بمشيئته وقدرته فلو شاء لهدانا ... وهذا في الغالب رأى الاكثرين من عامة الامة وخواصها .. والثاني مذهب « المعتزلة » وهم الذين اعتقدوا عكس الاعتقاد المتقدم وتمسكوا به فقالوا ان الله تعالي لم يجاز بالشر ولم يقدره فى نظامه وأن ليس له تعالى فيه ارادة مطلقا ... والثالث مذهب « الاشعرية » وهم الذين أرادوا أن يتوسطوا بين هذين الاعتقادين المتطرفين فقالوا ان للانسان كسبا للخير والشر معا ولكنهم جعلوا هذا الكسب بقدرة الله تعالى وارادته الازلية أيضا ونسبوه للانسان تقديراً لا حقيقة لعلة ملامسة ذات الانسان لفعل الخير أو الشر فقط فجعلوه أمام الله تعالي أشبه بقلم الكاتب الذي يكتب فيقال عن القلم انه كاتب لتعرض ذاته للكتابة ولكن حقيقة الكاتب الذي يكتب هو القابض على القلم نفسه ... فهى نسبة

تقديرية ليس الا ... فان قيل « فعل هذا الانسان خيرا » فهو لتعرض ذاته لهذا العمل فقط كآلة للفعل ولكن الفاعل في الحقيقة هو الله تعالي ... وان قيل « فعل هذا الانسان شراً » فهو لتعرض ذاته لاكتساب الشر فقط كآلة جامدة ولكن الفاعل في الحقيقة هو الخالق أيضاً ... وهذا رأى أغلب العلماء ومتنورى الامة وغرضهم من نسبة العمل للانسان تقديراً لعدم لغو التكاليف الالهية لفظا فقط ... فهم في الباطن تابعون لمذهب « الجبرية » في الحقيقة كما قال شيخ الاسلام « ابراهيم الباجورى » وغيره كما سبق حيث يقول « وبالجملة فليس للعبد تأثير ما فهو مجبور باطنا مختار ظاهراً فان قيل اذا كان مجبوراً باطنا فلا معني للاختيار الظاهرى لان الله قد علم وقوع الفعل ولا بد وخلق في العبد القدرة عليه أجيب بانه تعالى لا يسئل عما يفعل »

هذه خلاصة هذه الاعتقادات الثلاثة ... واني أقول صراحة أنها كلها « باطلة » وأن لا وجود لنتائجها الحقيقية طبقا لهذه الفروض الوهمية .. وان نظام الله تعالي في القرآن الحكيم فيما يختص باكتساب الانسان وعلاقته بالله تعالى فوق كل ذلك ... بل ما في القرآن الحكيم من هذا المقصد يطابق العقل في كل مراقيه العالية والتقدم الانساني اللامتناهى مع ثبوت عزة الله تعالى وكماله وعدله في كل حال لا فرضا ولا تأدبا كما يتوهمون ... بل يسير الكمال العقلى والقرآن في هذا الموضوع جنبا لجنب متآخيان وبشرط أن تحد جميع آيات القرآن الحكيم في هذا المقصد اتحاداً محكما بحيث لا تري رائحة بسيطة من رائحة التضاد المزعوم فى أي آية بالنسبة للاخري كما هو واضح مما أبدناه في هذا الكتاب ... وترى النتيجة العامة هى قول الله تعالي « وأن ليس للانسان الا ما سعى » بتمام « حريته » واختياره الذاتى باستقلال تام سواء في فعل الخير أو الشر وأنه لا يصاب من الله تعالى بشيء من خير أو شر الا جزاء حقا عما عمل هذا الانسان بحريته التامة في كل منهما « وما تجزون الا ما كنتم تعملون »

أما عدم ملاءمة هذه المذاهب الثلاثة للحقيقة والقرآن والعقل فواضح بديهي « فالجبر » من الله تعالى على الانسان في كل ما يعمل لا وجود له مطلقا بالبداهة العقلية وحرية الانسان الواضحة في الاكتساب وكل الآيات القرآنية تؤيد ذلك مما يجعل الانفراد بهذا الاعتقاد

محال ... وكذا فرض « المعتزلة » فهو محال أيضاً لان الله تعالى فتح للانسان الطريقين في وقت واحد « وهديناه النجدين » وان من أراد الكفر بحريته محال أن يرده الله تعالي الي الايمان الا اذا رجع اليه بحريته كما أنه تعالي يجازي بالشر وقدره لمن يختار الكفر بحريته المذكورة « وهل نجازي الا الكفور » أو يعمل عملا ما يستحق الجزاء « وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله » وكل ذلك ينفي فرض المعتزلة نفياً قاطعاً أيضاً .... وأما مذهب « الاشعرية » الذين يريدون جمع هذين الطرفين المتضادين فهو أكثر « استحالة » منهما .. لان من النظريات الطبيعية الثابتة أن الجمع بين الضدين فى وقت واحد وذات واحدة محال .... فمع فرضهم الغير مقبول طبيعة وعقلا من أول وهلة فهو باطل أيضاً لانه يرجع بطبيعة العقل والحقيقة الى مذهب « الجبرية » وان كان فيه « فرضاً » نوع اكتساب نسبي أو تقديري للانسان . قال الفيلسوف « بن رشد » عن مذهب « الاشعرية » وعدم انطباقه على الحقيقة ما يأتي : « وأما التوسط الذي تروم الاشعرية ان تكون هي صاحبة الحق بوجوده فليس له وجود أصلا اذ لا يجعلون للانسان من اسم الاكتساب الا الفرق الذي يدركه الانسان من حركة يده عند الرعشة وتحريك يده باختياره فانه لامعنى لاعترافهم بهذا الفرق اذ قالوا ان الحركتين ليستا من قبلنا . لانه اذا لم تكن من قبلنا فليس لنا قدرة على الامتناع منها فنحن مضطرون . اه »

ونحن نقول ان الصعوبات الكثيرة التى افترضها بن رشد نفسه وغيره من الفلاسفة أو أرباب هذه المذاهب الثلاثة للتوفيق بين مذاهبهم والقرآن والعقل والحقيقة مما أقسم القرآن على نفسه مع انه بعكس ذلك وهو بعيد عن مقاصدهم المتضاده ... ونحن لانريد ان تذكر كل الوجوه التي يذكرها كل فريق فقد كتب فيه كثيرون يرجع اليه كل من أراد الوقوف عليه .... ولكنهم جميعاً رجعوا القهقرى عن الحقيقة كما أشرنا الى خلاصة مذاهبهم باختصار .... حتى اعتبر كثيرون من العقلاء ان هذه المسئلة « غير قابلة للحل » فكانت هزيمة قادة الافكار امام أسوار حصارها « هزيمة كبرى » أسرار حقائقها كانت لم تزل غامضة عنهم للآن .... وان عدم اختلاف الآيات القرآنية في معانيها بالنسبة لهذا الموضوع كما يقول القرآن : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » .. أمر

كان يعد فوق العقول البشرية عندهم للآن أيضا . . . . هذا أمر غريب . . . بل مدهش أيضا . . . ان يقول القرآن « لاخلاف » وان يصرح الكل بعده بالقول « فيه خلاف » أو يقولون ان كان لاخلاف كما هو الصحيح فنحن عجزنا عن التوفيق بين آياته . . . . نعم . . . . عجز الجميع عن الوصول الى اكتناه الحقيقة للتوفيق بين العقل والحقيقة والقرآن وآخرهم من صرح بهذا « العجز » هو ذاك الفاضل العلامة المرحوم الشيخ « محمد عبده » فقد اكتفى هو أيضاً بهزيمة السالفين ولم يبد رأياً قاطعاً عن القرآن بالنسبة لهذا الموضوع . . ولم يبت فيه قولا غير انه أبدى رأياً عقلياً محضا خلاصته : « ان للانسان اكتساباً وارادة مستقلة ولكن الله تعالى له قوة قد تكون فوق ارادته أحيانا » وهذا الرأي بالطبع حق بديهي للعقل للكل . . غير ان الضالة المنشودة هى : كيف نطبق آيات الله تعالى كلها في القرآن العظيم مع هذه الحقائق العقلية المشاهدة ؟ بل كيف يوجد شيء في الدين هو أساس السعادة والشقاء يسمى « القضاء والقدر » ثم يترك بلا حل ليتخذ منه كل فرد رأيا حسب أهوائه مما عرض جوهر القرآن للانقسام والنسف الذي يتبرأ منه الى الابد ؟ حتي أثر هذا الفشل في جسم الامة ورمت نفسها منه في احضان الجمود . . . . أقول ان ما نراه بالمعقول المحض الذي يرتاح له الضمير والحقيقة يسير في هذا الموضوع مع القرآن الحكيم متآخياً الى النهايه . . . ولكنه رحمه الله أعرض عنه « عاجزا » عن هذا التوفيق كغيره من العقلاء الذين رأوا ان التوافق مع فروض وهمية لا توافق العقل والحقيقة توجب اتساع الخرق مع كونه رأى ان السالفين لم يتركوا باباً الا طرقوه للحل وكانت نتيجتهم الفشل أيضا . . . قال في كتابه : « رسالة التوحيد » عن ذلك ما يأتي : « ان البحث فيما وراء ذلك (أى وراء رأيه العقلى السالف الذى ذكرناه) من التوفيق بين ماقام عليه الدليل من احاطة علم الله تعالى وارادته وبين ماتشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار هو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه لانه اشتغال بما لاتكاد تصل العقول اليه . . وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث ابتدأوا وغاية مافعلوا ان فرقوا وشتتوا فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلالها المطلق وهو غرور ظاهر ومنهم من قال « بالجبر » وهو هدم للشريعة ومحو

للتكاليف وابطال لحكم العقل البديهي وهو عماد الايمان اهـ . » هذا ما قاله المرحوم الشيخ محمد عبده .. ونحن نقول ان هـذا التوفيق الذى يقول عنه انه « من طلب سر القدر » صار الآن بما أوضحناه في الابواب السالفة محلولا ومعلوماً بوضوح .. وان هذه العقدة الدينية صار حلها الآن حلا نهائيًا مرضيا .

الخلاصة

نريد ان نذكر هنا خلاصة ما كتبناه في الابواب السالفة بوجه التقريب لننكشف العلل الحقة الاولى التي كان يدونها الاعتقاد « بالقضاء والقدر » الى الآن خطأ كبيرا ومحوّرا الى « الباطل » بدل « الحق الصريح » الذي يوضحه القرآن العظيم فنقول :

ان الله تعالى بمطلق ارادته خلق الانسان بحق « ماخلق الله السموات والارض الا بالحق » وصوره على أحسن شكل لانه تعالى قادر على ذلك في كل وقت وهو « سبحانه » لمزته الكمالية يريد ان يمنحه بالتدرج الكمال اللامتناهي . فبعد وجوده في هذه الحياة علم الانسان من نفسه انوجوده الذاتي حق وجميل لانه يتمنى دائماً دوام الوجود والتمتع بالحياة الكمالية فيه حتي ان الشيطان عند ما أراد أن يغر آدم عليه السلام بالاماني الباطلة غره باعظم شئ في أمانيه الذاتية وهو دوام البقاء بلا موت والخلد فى الحياة لدوام التمتع « قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلي » — فكان في مركزه الحالي وهو في منتصف الطريق من الكمال المذكور عليه واجب أدبى نحو الله تعالي الذى يريد أن يهبه هـذا الكمال اللامتناهى في المستقبل « جعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون » وهـذا الواجب هو «شكر الله » تعالي باخلاص واطاعته لغرض المزيد من تلك المواهب في الحياتين .. وقلنا انه واجب « أدبي » لان الله تعالي في الحقيقة مستغن عن هذا الشكر « بالمره » لولا انه واجب « مقدس » على الانسان لانه ان لم يؤده فلا بد طبعاً ان يسير في ضده وهو الكفر « اذ هو لا بد ان يسير على كل حال » مما يؤول به الى العذاب بالحرمان الابدي من كل شئ هو فى يده ويتمتع به الآن « من كفر فعليه كفره » فكانت أهمية الشكر بالنسبة لذات الانسان في الحقيقة عظيمة الى النهاية بل ولا تقدر لانه بها سيزداد في هذه الحياة نعمة ورحمة مع منحه أعظم منها في المستقبل أيضا بقدر درجة اخلاصه « ان شكرتم لأزيدنكم »

فلا نبالغ اذا قلنا ان علة وجوده وسعادته الكلية تنحصر في آداء هذا الشكر الذي تجتمع كل معانيه الحقة فى « العبودية » والاعتراف بكمال الله الواهب كل شيء وألوهيته الفردة الحقة فى العالم « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ... اما عزة الله تعالى وأنفة جلاله العظيم وكبريائه الذاتى الكمالى « تتعالى » عن أن يؤدي هذا الانسان له هذا الشكر (باضطرار) أولغرض الاحتياج اليه ... كلا ... (ان الله غني عن العالمين) ... بل من هذه الوجهة كان واجبا مقدسا لله ولكن بكيفية تليق لعزة الله تعالى وكماله أيضا فى آن واحدوهى : ان يكون هذا الشكر بتمام رضى الانسان وارتياح ضميره ارتياحا تاما لا نقص فيه بقدر وضع خلقته التي وضعه الله عليها وهى انه فى امكانه القيام به أو عدمه وبقدر مايحتاط به من النعم فى الحياة . . . ولهذا السبب الوحيد منحه الله تعالى بمطلق ارادته (الحرية) المطلقة لانها الحق لعلة (عزة) الله تعالى الذاتية التى لاتقبله الا بتمام الرضى المذكور وهذا لايكون الا بالحرية المذكورة مع تتميم الله تعالى للخلقة الانسانية من حياة وقدرة وعقل (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) وسبقت كلمته تعالى بعدم مساس هذه الحرية اثناء هذه الحياة لانها لم تك الا للشكر المذكور بالكيفية الكاملة السالفة . . . فكانت لهذا الغرض وحده أيضا قصيرة ومحدودة « أولم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والارض الا بالحق وأجل مسمى » حتى بعد ان يؤدى هذا الواجب السهل البسيط ترقى في حياة اخري في هذا الكمال الموعود الذي يرى بعينه الآن بعضا منه مما كان لم يعلم به من قبل مطلقا « أو لم ير الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » وان الله الذى أوصله الى هذا المركز الحالى يمكنه « بالطبع » ان يوصله الى ماهو أحسن منه بكثير مما يذكره القرآن عن الحياة الثانية « فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » ولاجل ان يعرف الانسان نفسه انه فى تمام « الحرية » لاداء هذا الشكر والاطاعة لما فيه رحمته وليعلم ان عليه هذا الواجب المقدس أم لا منحه الله تعالى « الامانة » بازاء الحرية المذكورة أيضا وهى « العقل » فيعلم به حقيقة مركزه في الوجود وبه يقدر نعم الله تعالى التى تحيط به فيعمل بقدر استطاعته والوسط الذي يتواجد فيه « ولا يكلف الله نفسا الا وسعها » مايشير عليه هذا العقل من كل واجب مطلوب .... وبسبب هذه « الحرية » مع « العقل »

اللذين هما في الحقيقة لاجل عزة الله الذاتيـة كما سبق لغرض الشكر بالصورة السالفة .. فتح الله تعالى للانسان الطريقين في آن واحـد « وهديناه النجـدين » أى طريق الشكر المطلوب وطريق الكفر . — . لانه لولا امكانه الكفر بحريته فى أى وقت بلا معارضة ماعلم انه « حر » فى ذاته لغرض هـذا الشكر الواجب أداؤه الا بحريته المذكورة وتمام رضاه . . . فان شكر فان الله تعالى يرضى لهـذا الشكر لانه لم يخلق ويمنح كل هذه المنح المتعددة الا لاجله .. وان كفر بدل الشكر فالله تعالى لايهمه ذلك مطلقا ولكنه لرحمته لايرضاه له وفي آن واحد لايمنعه عن هذا الكفر بقـدرته مطلقا . . . لانه تعالى لو أكره انسانا وأرجعه عن الكفر « اذ هو على كل شيء قدير » لعاد الى ضده وهو الشكر ولكان هذا الشكر بعدها باضطرار وا كراه ومن « المحال » ان يقبله الله تعالى بهذا الشكل بعد نعمة العقل اذ ان ذلك ينفى أيضا عزة الله الذاتية التى كانت هى العلة الوحيدة فى منح هذه الحرية مع العقل بل وينفى فى آن واحد الغرض من وجود هذا العالم وما فيه لاجل مسمى محدود « ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم . . . ولذا سبقت كلمة الله أيضا بحق بعدم مساس هذه « الحريه » المقدسة في هذه الحياة مطلقا « ولولا كلمة سبقت من ربك » ليتأكد الانسان ان انهماكه وتماديه فى الكفر مهما كان حتى الى الموت لايردعه الله تعالى عنه مطلقا لان ذلك عائد بالحرمان من الرحمة على نفسه . . . فهو تعالى قدر الكفر ولكن فتح طريقه لحرية الجميع حتى في امكان كل أهـل الارض الكفر بالله « وقال موسي ان تكفروا أنتم ومن في الارض جميعا فان الله غنى عن العالمين » ولكل انسان ان يشكر أو يكفر « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » فى أى وقت شاء .

ولما كان فى امكان كل انسان ان يختلف بحريته بين طريق الايمان والكفر حيثما شاء أخذ سبحانه الرقابة على كل نفس « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » وجعل من رحمته جزاء حسنا مضاعفا فى طريق الايمان والاحسان « من جاء بالحسنة فله خير منها » وجزاء سيئا بسيطا فى طريق الكفر بقدر أهمية السيئة « وجزاء سيئة سيئة مثلها » لا لغرض المنع البات من الكفر بل لغرض التنبيه فى عدم التوغل فيه بقصد الرحمـة فكان في حكمه الدستورى وقضائه العادل خير حاكم رحيم « وهو خير الحاكمين » . . .. ومن تمام عدله

أيضا وكمال علمه الذاتي ورحمته أعلن الانسان بان معاملته تعالى فى الجزاء المذكور عن الطريقين يرجع به تعالى الى قانون حق عام مكتوب بيده « كدستور الهى » على الجميع « وعنده ام الكتاب » بلا تمييز فيه لاحد من الناس فى الاصل الفطرى « كان الناس امة واحدة » وهو نظام القضاء والقدر العام كى تعمل كل نفس باجتهادها الذاتى ماستطاعت من خير أو شر وبقوتها ماقدرت عليه في الحياة ولتقدم على كل شىء من النوعين غير خائفة ظلما من أحد اذ هو سبحانه الكفيل وحده بضمانة العدل العام المطلق طبقا لبنوده على الجميع « ولا يشرك فى حكمه أحدا » فلا نبيا ولا وليا ولا ملا كا يشارك الله تعالى فى حكمه . . . . بل فى هذا القانون العادل كل مايمكن لكل انسان ان يعمل فى الطريقين في آن واحد وفى كل وقت وفي أى وسط « ان الله بكل شىء عليم » وعلى أي حالة مع نتائجها الكلية والجزئية في الحياتين بعدل مطلق فمع حرية الانسان المطلقة في الاكتساب من الخير أو الشر من غير ان يخصص الله شيئاً منهما من الازل فهو تعالى يعلم قبل ان يوجد الخلق كل مايمكن ان يعمله الانسان من الطريقين في أي وسط بل وكتبه أيضا بالدقة مهما تنوع الاختيار « ألم تعلم ان الله يعلم مافي السماء والارض ان ذلك فى كتاب ان ذلك على الله يسير »

فان فعل الانسان خيراً ما فقد كان معلوما له عند الله تعالى قبل اختياره له فى حيز الامكان لا في حيز التخصيص والاضطرار وذلك لعلة فتوح طريق الشر فى الوقت نفسه الذي كان فى امكانه أن يعمل فيه شرا ما وكان معلوما لله تعالى أيضا من قبل في حيز الامكان مع فعل الخير الذي اختاره الانسان . . . ولكن لتباعد الانسان عن عمل مافي الطريق المتضاد كان مافيه خفيا عن علمه وغائبا عن افكاره لولا انه معلوم لله تعالى ولكنه لم يطلعه عليه مطلقا « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » . . . وكتب فيه سبحانه أيضا بحق جزاء كل عمل مما فى الطريقين ليوقعه ويصيب به كل من يختار أي نوع منهما بالعدل « ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » بلا تخصيص لاحد شيئاً من الازل ولكنه تعالى لرحمته من نتائج حوادث الامم وانهما كها في المنكرات قد يختار بعض افراد بعلم عادل أيضا ليجعلهم أنبياء ورسلا ليوحى اليهم مايشاء من الاوامر الرحيمه « الله

يخلق مايشاء ويختار » ... اذ في هذ القانون الالهى « كتب على نفسه الرحمه » أيضا فخص نقسه كذلك بالهداية للايمان ترغيبا للناس في تحويل ارادتهم بحريتهم المقدسة اليه « ان علينا للهدي » وتلك المساعدة بقدر ميل الانسان الى الاخلاص وبشرط التحفظ على مبدأ « الحرية » العظيم « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .. فكان هذا النظام الحق داعيا لطالبه تعالى التسابق فى نوال كل خير ومغفرة ورحمة اذ لولا النظام الذي ذكرناه ما كان لزوم لاعلان هذا التسابق الذي يدحض أيضا عدم كتابة شيء مخصوص ومحدود لاحد من الناس « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السموات والارض » قبل اختياره الذاتى ولذا كان لامانع مطلقا لاحد من الناس ان يؤمن بدل ان يكفر « وماذا عليهم لو آمنوا بالله » وكان المتفضل عندالله تعالى تبعا لذلك من كان أكثر تقوى لله بقدر اجتهاده وحريته « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ... وبخلاف ذلك فانه لما كان الشكر لازما بتمام الحريه الانسانية جعل تعالى أيضا من ضمن نظامه الحق فى الكتاب « الفتنة » أوالتجربة أوالامتحان ليعلم منها سبحانه قوة اختيار الانسان للايمان أوالكفر وهل يرجع لاقل شيء من الشكر الى الكفر ؟ .... وانه تعالى في هذه الحاله مهما اختار الانسان بعد ذلك من الثبات على الشكر أوالرجوع الى الكفر بأى كيفية وعلى أى حالة يعلم بها الله تعالى تمام العلم قبل وقوعها في حيز الامكان لافى حيز التخصيص لكونها مفتوحة للانسان من طريقين متضادين فى آن واحد والتخصيص نفسه المطلوب معلومينه متروك لاختيار الانسان طبعا ولما يرتضيه ضميره وما يؤيده له عقله اذ ليس للانسان الا اختيار واحدمن الطريقين بحريته فعلم الله تعالى اذا لايتغير مطلقا لاقبل الاختيار ولابعده ولا وقته ولاقبل وجود الانسان ولا بعد وجوده . . فاذا اختار الانسان مافي طريق الايمان مثلا علم به الانسان وخصصه الله تعالى له نهائيا مع نتائجه في الحياتين مع كونه معلوما لله تعالى له فى حيز امكان ان يختاره لامخصصا له ليصاب أيضا بنتائجه التى ستصيبه بعد اختياره المذكور وفى آن واحد بعد عن علم الانسان مافى طريق الكفر وبعدت عنه نتائجه فى الحياتين أيضا مع كون الله تعالى يعلم به وبنتائجه وكان مفتوحا لاختيار الانسان فى الوقت نفسه الذى اختار فيه الايمان السالف وكان في امكانه الوقوع فيه بدل الايمان المذكور .. فترى من

ذلك ثبوت علم الله تعالى بلا تغيير مطلقا لاقبل الاختيار ولا وقته ولا بعده

فان أصاب الله تعالى مؤمنا بمصيبة فى الحياة فهى لغرض الامتحان أوالفتنة حتي اذا ثبت بها على الاخلاص كان له الاجر العظيم ... ومن تأمل لاساس هـذه النتائج كلها علم أنها مبنية على وجوب « عزة » الله الذاتية وتفرده الكمالى المطلق مراعيا عباده مع هـذا النظام بكل رحمة ولذا أبعد عن رحمته كل انسان يحط من قدر هذه « العزة » الالهية ... كان ينسب لله البنات كما فعل بعض الامم « وجعلوا لله البنات سبحانه » أوان يدعى ان الله تعالى يحل في جسم ثور كما يفعل الهنود أوفي جسم انسان ... أويعتقد ان لبعض المخلوقات واسطة بين الله ... أو .. أو ... كل ذلك مما يوضحه القرآن يزيل حقيقة التدين المبنى أساسه مع الغرض من الوجود فى هذه الحياة للجميع على « عزة » الله تعالى وكماله المطلق وبازائها حرية الانسان العاقل مدة هذه الحياة المذكوره

واذا راجع المطالع ما كتبناه في الابواب السالفة عن هذه المواضيع علم عللها الاصلية بأيضاح أكثر وأتم .. وانما هذه الخلاصة لتقريب الفهم من الحقيقة اذلا ضرورة ان نذكر علة كل نظام لله تعالى يذكره القرآن فى العالم بل نريد ان نستخرج مما سبق نتيجة بديهية وهى « بطلان » كل المذاهب القديمة بطلانا واضحا فيما يختص با كتساب الانسان مع بطلان الاعتقاد بالقضاء والقدر بالشكل المقلوب الحالى وكونه صار تواء مالاسم الاسلام في كل بلد لاتعرف الاسلام حتى رجع به الاسلام القهقرى الى النهاية .. فكلها آراء خارجة عن الحق والدين وان ماذكرناه هنا يطابق كل آيات القرآن الحكيم والعقل والحقيقة والنواميس العالمية بلااستثناء...وسنداوم ايضاح جميع النقط التى يتوهم منها البعض الرجوع الى الافكار القديمة وكل آت قريب

فما أيدناه هنا لو رجعنا به الى مذهب « الجبرية » مثلا لوجدناه بالبداهة «محالا» وكذا مذهب « المعتزلة» الذين يتبرؤن من عدم تقرير الله تعالى لطريق الكفر أوالشر .. أوعدم جزاءه أحدا بشر في نظير سوء أعماله فهو « باطل » أيضاوكذا مذهب «الاشعرية» فهو باطل أيضا لانه يرجع بالعقل الى « الجبرية » وبطلان التوهم بان الله تعالى خص اناسا من القدم بالشقاء بلا سبب وآخرين للتمتع والنعيم بلاعلة — فكل ذلك « محال » ولا يليق

انتسابه لله تعالى

هذا ويوجد كثير من الغلطات الكبرى في مواضيع أخرى فى الدين ويعتقده كثير من كبار المسلمين أصولا للدين ويدرسونه الآن مع ان القرآن الحكيم يتبرأ منه أيضا وسنشرحه فى الاجزاء التالية «دع عنك خرافات العامة اللامتناهيه» وسنعود كلما سنحت الفرصة لايضاح أغلب الآيات القرآنية وتطبيقها علما وعقلا وعملا على مايؤيد الحق والحقيقة بحيث لا تنافر ولا تضاد بل كلها كما يقول القرآن فى مستو واحد « ولو كان من غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » بل كلها ترجع الى عزة الله تعالى وكماله ورحمته والى حرية المخلوق فى الاكتساب ففى يده السعادة والشقاء « وأن ليس للانسان الا ما سعى » ولا ينبئك مثل خبير

اساس الدين الاسلامى

علمنا مما سبق أن نظام الله تعالى العام مبنى على أساس ألوهيته الحقة ودعائم حرية المخلوق الذاتية لعبادته ولو أردنا أن نسأل أنفسنا عن الواقع المشاهد في كل مخلوق وعن حالته الطبيعية فى الوجود «حتى الجراثيم التى يتكون منها بعض الاجزاء الحية » لا يمكننا أن ننكر استقلاله الذاتى في نفسه مهما كان جنسه وشكله .... فكم من طائر حقير تقترب من عشه فيضربك بقوة جناحيه ما لم تظهر له المسالمة وتتظاهر له بها وذلك دفاعا عن نفسه ليستمر فى حالته الطبيعية بحريته التي وضعه البارى بها وخلق فطرته عليها . . . ولو سألته وأمكنك أن تفهم كلامه لاجابك بقوله : أيها الانسان انى خلقت في هذه الحياة بهذا الاستقلال والحرية الذاتية وجعل الله تعالى في نفسى ما يجعلنى مثلك أدافع عن هذا الثمن الغالى اذ به وحده كان الغرض من حياتى وبه خلقنى الله تعالى لاعبده باختياري وتأملى... وان كنت لا تعلم باطنى ولكن من ظاهر دفاعى تعلم أن في روح تشعر مثلك تماما . . . وبها أدافع عن نفسى كما تدفع عن نفسك كل الطواريء المخيفة لحفظ كيانك الوجودى وليس لك ذلك الا اذا استمددت قوتك ونشاطك ودفاعك من الايمان بالله القادر . . . . أفهل هذا الطير يقول كما يقول علماء الاسلام ان الله تعالى اذا كان كتب له أن يصاب بأذية

ممن قد اقترب على قفصه فيها ... وان لم يكتب له ذلك من الازل نجى ؟... كلا ... ما أقبح هذا المقال وما اكبر مسئولية قائله عند الخالق سبحانه .... فان الطير يشعر فى ضميره أن دفاعه الذاتى هذا وحده هو الذي ينجيه وان كان يجهل قوة المغتصب فهو يفعل أمرا طبيعيا وضعه الله تعالى فى نفسه وبه سيحاسب كالانسان تماما اذا فرض واستسلم لخصمه بلا دفاع مع ان استسلامه مستحيلا اللهم الا اذا عدمت قوته وصار لا حول له ولا حيلة غير قدرة خالقه التى ينتظرها لمجرد ايمانه فقط وثباته عليه

فالاساس الفطري لجميع الخلائق على اختلاف أشكالها هو : « الاستقلال الذاتى » في الوجود لان ذلك هو الغرض الوحيد من الخلقة بل ذلك هو الغرض الشريف الذي أراده الله تعالى للخلق عموما وجعلهم بنظام عام جميل به يري كيف تعمل تلك الخلائق المتعددة بهذا الاستقلال ومعه منحه المختلفة في أنفسهم لاداء واجب مقدس هو الشكر الخالص لالوهيته المقدسة « وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وما علاقة المخلوقات ببعضها سواء كانت انسانية أو حيوانية أو نباتية أو جمادية لا علاقة نظامية فقط لا تأثير لاحد أو شيء على الآخر الا بنواميس طبيعية غاية في الجمال والترتيب بحيث لا تمس هذا الاستقلال مطلقا . —

واذا كان الاستقلال الذاتى هو أساس كل مخلوق ... فان الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى يوضح كيفية هذا الاستقلال الذاتى في الانسان الذى هو أشرف الموجودات ولوازمه التى تلحق به ... وقد وضحه الله تعالى في كتابه العزيز « لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون » وأبان أن الغرض منه هو نفس الغرض الذى به منح هذا الاستقلال للجميع ولكن بشكل يلائم مواهب الانسان العديدة فى كيفية وجوده . . . وعلى ذلك فيمكننا أن نحصر اجمالا أساس الدين الاسلامى في هذه الكلمات الثلاثة الآتية :

(١) الاستقلال الذاتى (٢) التعقل (٣) الايمان بالله تعالى وما يتبعه واذا أردنا أن نقول عن هذه النقط الثلاثة بتعبير آخر يمكننا أن نقول أيضا ان أساس الدين الاسلامى هو :

(١) الحرية (٢) العلم (٣) الايمان بالله تعالى والثلاثة تجتمع فى كلمة واحدة هى : « دين الاسلام » أي الدين الفطرى للمخلوقات اذ ان هذه النقط بعينها هى المبنى عليها وجود كل موجود

في العالم على اختلاف جنسه وشكله ووضعه ونوعه ... فاذا أردنا أن نختبر حيوانا أعجميا منها بقطع النظر عن الانسان لاجابنا بها لسان حاله لولا عجز الانسان عن معرفة لغة الحيوانات المذكورة .

فاذا تقابلنا بحيوان من صنف الغزال في البرية مثلا وسألناه ماذا تفعل في هذه الهضاب الجميلة وما هذا الانعزال عن العالم ... بل ماهذا النفور وحبك الاستقلال ؟ .. ولو انتظرنا الجواب لاجابنا لسان حاله ... بأن الله تعالى وضعه وخلقه لهذا الغرض نفسه .أى ليكون كل نوع بعمله الذاتى ولقال:

عن الاستقلال

أنى أمرح وآكل وأتمتع كيف أشاء بما تشتهيه نفسى من أنواع الحشائش منة على من الخالق سبحانه وأسير فى الارض كيف أشاء كما خلق تعالى للانسان أيضا كل ما في الارض يأخذ منها ماشاء ان يأخذ ويتعلم فيما شاء ويتفكر في السماء ويتأمل فى عجائب الطبيعة بحريته واستقلاله لايمنعه الله تعالى عن شيء مطلقا . . وانى لم أقل كعلماء الاسلام السابقين ان الله تعالى كتب لى جزاء مخصوصا من الحشيش الاخضر بالذات فى ام الكتاب من الازل لايزيد ولا ينقص كما كتب خطواتى التي أخطوها قبل ان افعلها في تلك الفيافى وجنات الاحراش والغابات بصفة خصوصية !! كلا !! .. بل خلقنى الله تعالى على هذا الوضع والتقدير الفائق مستقلا في نفسى تمام الاستقلال . . وترك لى سبحانه تمام الحريه بحق في كل أعمالى وأحوالى وخلق في نفسى مايرشدنى الى كل حقيقة فى العالم بنسبة تركيبي الطبيعى وخلقتى التى وضعنى عليها . . . فكلما خطوت خطوة علم بها وكتبها علىّ وكل حركة من حركاتى وفكرة من أفكاري يعلمها تمام العلم لاول وهلة .. وكذلك يعلم بالحشيش الذي يدخل فى جوفي وما ينتعش به فؤادي من الماء القراح ... وانه تعالى يعلم كثيرا مما يمكنى عمله ويعمله نوعى وتتقلب فيه قبل ان يوجدنا ولكنه تعالى أوجدنا على تلك الحرية وجمال الخلقة ليعلم من كل منا ماذا يريد لنفسه من طيب وخبيث بحريته من كل مايعلم سبحانه وانى أشعر في نفسي بهذا الاستقلال لااوهام اعتقدها فيمن كان مثلى أوأعظم منى وليس بين عيني غير نقطة واحدة رئيسة هى التمسك بالايمان العظيم فالتجارب أثبتت لى انه أساس كل نجاة وأساس كل فضيلة .

وعن العـلم

تراني لا أعبد الانسان هذا المخلوق ذو الهيبة المؤثرة على مثلي وما هو أشد مني ومن نوعى ومن جميع الحيوانات ... ولا أعتقد فيه شيئاً من فعل خير أو شر ضدى ... ولكن بما خلق الله في نفسي من تلك الفطنة مع الاستقلال تراني أفر من قساوته بمهارة داخل الغابات وجنات النبات .. وبتأملى الذاتى وتبصري المستديم من صغري أحضر قبل شروق الشمس من الجبل وأهبط الوادى الجميل قريباً من هذا النيل الـكريم لاشرب منه ماء حلوا ذلالا قبل أن ترتفع حرارة الشمس أو تزدحم الارجل الانسانية التى لا ترحمني على النهر ... فكم منهم يغازلنى على بعد فاذا أمنت لريائه لا يلبث أن يخدعنى ويوقعني في فخ الاسر والضيق فيحرمني لذة الاستقلال والحرية فبعلمى بتلك الاحوال وحذرى صرت سعيدا وبتجاربي أسير حراً فطناً خبيراً

وعن الايمان بالله تعالى

أنظر من بعيد بتلك الاعين التي منحني الله اياها لعدوي الاسد والنمر وأمثالهما العديدين .. فاستجير منهما بخالقى الذي أوحده وأؤمن به كلما لمحت أحدهما من بعيد وأدعوه أن يكفيني شره حفظاً لحياتى العزيزة فلا ألبث حتي أختبأ حيث أشاء وحيث شاءت رحمة الخالق بي ... واذا سألتني كيف أعرف ذلك لقلت لك أنا روح مثلك في الحياة لا في الدرجة وجعل في الاله سبحانه ميزانا حقا كعقلك ولكن يناسب خلقتي ومركز وجودى في العالم « قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه » وبه وضعنى على هـذا الشكل بحريتى لافعل ما أشاء ولاقوم بواجب واحد مقدس بعد تعقلى الكثير مما تراه من أعمالي وحركاتي وما لم تعلمه ... وهذا الواجب « هو الشكر لله تعالي باخلاص » على هذه المنن المتعددة الكثيرة مع الثبات على الايمان ... وانه تعالي لم يجعـل لنا الاسد وأمثاله من الحيوانات التي تفترسنا وقساوة بنى الانسان كلما سنحت لهم الفرصة الا ليكونوا لنا «فتنة» فقط من غير أن يضرونا بشيء مطلقاً الا بحق يؤيد وقوعه الخالق لعلل عادلة رحيمة ... حتى اذا سهى أحدنا عن ذكر الله تعالى قيض الله له أسداً أو انسانا يلتقمه في الحال ... فلا يشعر الا وهو فى العذاب المهين انتقاما لـكفره ولعدم أدائه الواجب ... كما أنه تعالى جعلنا أيضاً طعمة للجائع أحيانا لخلل لذلك اصطيادنا لهذا الانسان الذى أكرمه ونعمه حتى في اقتناص الارواح فاذا وقع أحدنا في فخه

أو ناره ... أو مع أسد جائع أو نمر وكان بايمانه صابراً وثابتاً كان له من الله تعالى في الآخرة الاجر العظيم « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء »

فترى من اجمال مقالى وحقيقة أعمالي وأحوالى .. ان وجودى الطبيعى مبني على مبدأ لزوم التسليم للخالق فهو المبدأ الحق الذى يحب الله تعالي أن يتمسك به كل مخلوق بحريته لانه وحده الموصل لكمال السعادة ... والله من رحمته يرغب السعادة الروحية والابدية للجميع « فديني هو الاسلام » وكما رأيت من اجمال افصاحي انه بني على ثلاث نقط : أولها الاستقلال الذاتي مع الحرية وثانيها التعقل والتأمل أو العلم بكل ما حولى وثالثها الايمان بالله تعالى الذى هو نهاية أغراضي فتراني أتمسك بالنواجذ بكل ما ذكرت فبذلك وحده تأكدت نوال السعادة والهناء وكذلك ستدوم فطرتي في السعادة المقبلة الابدية — هذا حقا ما يمكن ترجمته عن لسان هذا الحيوان اذ على هذه النقط نفسها يدور محور الدين الاسلامي الجليل في كافة مواضعه المختلفة المتنوعة بل عليها كان القرآن معجز البشر يدور على مركزه بما فيه من ألفاظ ومعان سامية ... بل عليها بني الله العالم من أساسه وهى لذلك مفتاح جميع المواهب الالهية الظاهرة والخفية لسعادة البشر . —

فالاستقلال الذاتي للمخلوقات على تنوعها مع النواميس المتعددة التى تحفظ كيان الجميع على هذا الشكل رمز لكمال قدرة الله الخالق فى جمال الابداع والتعقل مع الاستقلال رمز لاظهار مواهب الله المختلفة الموجودة في كل مخلوق اذ ثمرة هذا التعقل هى العلوم على اختلافها وما ينتج عنها . والايمان بالله تعالى مع الشكر له هو الغرض من الاثنين بل هو النتيجة العامة الحقة لكل علم وحكمة « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » .— فالثمرة الوحيدة العامة من خلاصة الوجود بمشتملاته من العلوم والحكمة هو الايمان بالله تعالى مع الشكر ولذا كان من الايمان كل فضيلة في العالم « ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » ومن نظر نظرة سطحية الى أحوال الامم المختلفة من ابتداء البعثة المحمديه الى الآن لاندهش جداً من تقدم الامة الاسلامية في ابتداء نشأتها تقدما سريعا بسبب سيرها على أساس الدين المحكم ثم انطفائها دفعة واحدة الى الآن ... حتى يتخيل

للناظر أنها لن تقوم لها قائمة الى الابد بسبب هـذا الجهل المطلق باساس الدين وهو النقط الثـلاثة التي أوضحناها الآ ن . — ولو كانت استمرت على حقائقه الي الآ ن لـكان وجه المعمورة اكتسب شكلا غير شـكله الحالي ولوصل الى حد الكمال من الرونق والتقـدم والارتقاء — ولقد أظهر الله فى العالم كثيراً من الامم التي مزقت شمل استبداد الملوك وغيرهم للوقوف تحت لواء الحرية ومنهم تلك الامـة الفرنساوية التي كانت سبباً في تنور أوروبا الى حقيقة الفضائل الانسانيـة المختبئة في الحرية فبنت ملـكها الواسع ومجد رجالها العظاء على ثلاث كلمات لا تخرج في مبناها عن الحجر الاول من أساس الدين الاسلامي وهى : الحرية والأخاء والمساواة ... ومجموعها الاسـتقلال الذاتي بلوازمه ... ومنهم أيضاً تلك الامـة الانكليزية التى حنكتها تجارب الازمان قروناً حتى استخرجوا قوانينهم الدستورية التى تحفظ حقوق الجميع وكل منهم يردد كلمة هي عنوان مجدهم للآن وهي الاستقلال الذاتي أو « الاعتماد على النفس » كما يقولون فالفرد منهم أمة في ذاته والـكل سائرون بنظامات دستورية وضع أساسها الشعب في حرية أعماله العامة . وقد حذا حذو أولئك الامم كثير من الامم الاوروبية والامريكية وصاروا كما هم الآ ن متمسكين بالنواجذ على هذه المبادئ الجميلة التي خلق الله الانسان على نظامها ... بل قد تمسكوا أيضاً بالمبدأ الثاني للديانة الاسلامية وهو التعقل بحق لا كتساب العلوم بانواعها وفوائدها قلت وكثرت لجني نتائجها العظيمة فتجلت لهم لذلك المدنية فى ثوبها الجميل وأظهروا بكدهم الذاتي كثيرا مما اختبأ من الفضائل الانسانية ونحن مع احترامنا الـكلي «لحرية» كل انسان وكل أمة فيما تتدين به وتعتقد فيه أنه الاحسن من كل دين « لـكم دينكم ولي دين » نقول ان فرنسا ظهرت كعادتها في سبق الامم لاجتلاء الحقائق العقلية في الدين فتبرأت علناً من بعض تعليمات لرؤسـاء الدين لا ترى من الوجوب تقييد حريتها بها ... كما نتبرأ نحن من أوهام دخيلة في الاسلام أما النقطة الثالثة من أساس الدين الاسلامي وهى الايمان بالله تعالي وحده ووجوب تنزيهه والتي هى خلاصة الحياة وأس الاسلام فالسعى خلفها ضعيف الا من بعض الفلاسفة الفرنساويين وغيرهم ممن خطوا لانفسهم ديناً خاصاً سموه « الدين الطبيعي » فهم يؤيدون في مبادئهم وجوب تنزيه الخالق تنزيها تاما أما غيرهم فما زالوا يعبدون الله تعالي بنوع من الاعتقاد بشرك التثليث وألوهية المسيح عليه

السلام ... لذلك كانت هذه المدينة أقرب الى التسمية « بالمدينة المادية » فقط دون مدينة القرآن التى تعتبر في نظامها الديني « مدنية مادية وروحية » في آن واحد كالحديث « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » وكقوله تعالى « فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » ويظهر أنهم لم يوجهوا لهذا الموضوع اهتماما خاصاً من الكل يذكر كغيره . ولم يميروه قسطا من تعقلهم الذاتي كما يتعقلون في كل أمر ... ولعل عدم اهتمامهم بالامور الدينية والاعتقادات مما يجعلهم متأكدين ان تلك الابحاث الاعتقادية هي فوق العقول البشرية كما كان يقول علماء الاسلام للآن ان عقيدة القضاء والقدر هى فوق العقول البشرية أيضاً . ولو فقهوا أسرار هذه الحقائق كلها من القرآن العظيم لعلموا

أولا — ان الاستقلال الذاتي والحرية يجب ان تكون لافراد البشر على السواء كفرض لازم للكل . . . هذا ان أرادوا خيراً لانفسهم ولغيرهم فذلك أساس نظام الخالق الطبيعي لكل موجود في العالم

ثانياً — نشر العلوم المفيدة على اختلافها مهما كانت وكل يدرس مايلائم ميله الفطري ويجب ان يكون عاماً بين جميع أفراد البشر على السواء ليعلم كل فرد حقيقة الحياة فانه لاحياة بلا علم

ثالثاً — الاخاء العام بلا تمييز في الجنسية بكيفية لا تمس الشرطين السالفين وهذا لا يكون الا باتخاذ مبدإ واحد يتحد فيه جميع البشر في الوجهة والمقصد ، ويشترط ان يكون أحق جميع المبادئ وأسماها وأشرفها عقلا وحقيقة وأرجع بها الى طبيعة الانسان الفطرية في كل تقلباتها الى الموت (راجع من صحيفة ٣ لغاية صحيفة ٩) وهذا بالطبع لا يكون الا بمبدأ « الايمان بالله تعالى وحده والاخلاص اليه » اذ هو مبدأ الانسانية الفطري فهناك يكون الاخاء العام الطاهر المبني على أساس متين لايتزعزع « انما المؤمنون اخوة » وتبعاً له تتبع أوامر الله تعالى من اجتناب الخمر والميسر الهادم للبيوت والفسق المفقد للشرف والفضيلة ووجوب الزكاة والصيام والصلاة فضلا عن فوائدها الصحية فان ذلك من أول مطهرات القلوب ولحصول التسامح ونشر السلام في العالم من تقليل مصائب الفقر وردع فساد الفوضوية وأمراض المشروبات الروحية المهلكة وحدها لكثير من أفراد البشر .

وبما ان الايمان من الامور الباطنية المحضة التي لا يعلم بها الا الخالق وحده حيث

يجوز ان يتقلب الانسان في الايمان والكفر في لحظة بحريته من غير أن يعلم به من هو بجانبه ولولم يتكلم فان القرآن جعل دلالة بواطن الانسان ظاهر عمله وأقواله . . فاذاً يمكنا أن نميز المؤمن بعمله وأقواله وسيماه كذلك . . وغيره بالمثل . . . وبما ان الايمان هو أشرف ما يتمسك به الانسان كان كل مايصدر من المؤمن مشترط فيه الكمالات الانسانية بانواعها مهما تقلبت على أي شكل . . . وكفى هذا القول الموجز دلالة على حسن نتائج الايمان الصحيح . . اذ من موجباته الاولية الاخاء العام في البشر . لان القرآن وحده الذي هو امام المؤمنين العام يعد مهمة جميع الرسل بلا استثناء لغرض آلهي مطلوب من كل نفس بشرية لسعادة ذاتها خاصة وليس لعلة الرسل أنفسهم واتخاذ كل فريق من الناس رسولا لنفسه يتفضل به على الآخرين ويقول انه أحق بالاتباع من غيره . . . كلا . . . بل يوضح ان اجمال الغرض من الجميع هو : « الايمان بالله تعالى وحده » وعبادته ليس الا : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » اذ كل الرسل على اختلافهم لم يكونوا الا لهذا الغرض الاساسي وحده قال تعالى « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون » هذا وان تغيير الكتب السموية بالتتابع كالتوراة والانجيل والقرآن في تنوع الشرائع واختلاف المعجزات لم يك الا لما اقتضاه الوسط وترقي الانسان التدريجي في العالم وما زال في الاستمرار حتى ختمت بهذا القرآن الحكيم الجامع لأصول شتات الجميع على الوجه الاكمل الموافق للطبائع البشرية المختلفة على مرور الاعوام . وهو الذى يحث العقول بالتقاط شرائعه ومبادئه المسعدة الجميلة مع مطابقتها لفطرة الترقي التدريجي الانساني الى مالا نهايه .

فجميع الرسل والانبياء في نظر الله واحد وجميع الخلق المرسل اليهم كواحد لا تفاضل الا بتفاضل العمل الذاتي والتفاوت في الاخلاص . « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » فاذا وجدنا زنجياً مؤمناً بالله تعالى ويعمل عملا صالحاً مجيدا . . . فالاسلام والقرآن لا يحقر مثل هذا السواد بشرته كما يفعل الامريكان وغيرهم بل يفضله على أبيض البشرة ممن يكون شريراً ضعيف الايمان بالله قليل العمل المفيد أو عديمه . « ولعبد مؤمن خير من مشرك

ولو أعجبكم ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم . » فالتفاضل في هذا الدين لا يكون الا حيث تظهر الفضيلة الصحيحة بالايمان وطهارة القلب بالاقوال والاعمال الحقة المفيدة . . . والعكس يحدث حيث تظهر الرذيلة أو مايوصل اليها في جميع البشر . وليس بعد ذلك مبدأ حق يمتاز عليه أى مبدأ عام لتأييد السلام العام في العالم . اذ أساسه الاخوية البشرية العامة والفضيلة الروحية بالايمان بالله والاعمال الصالحة المفيدة ونتيجة كل ذلك بالطبع السعادة العامة المؤكدة .

ان ديناً أساس مبادئه أن لايكون فرق بين أفراد البشر مهما اختلفت اللغة والجنسية والشكل الا بما يكتسبه الفرد من الايمان بالله المطهر للقلوب والعلم والفضائل الانسانية والاعمال المفيدة لهو دين الحق والعدالة . ان ديناً يجعل سائر البشر بكلمة واحدة هى « الايمان بالله » وحده اخوة كما كانوا في الاصل الروحاني لهو دين الفطرة والانسانيه . . . دين لايجعل لغير الله تعالى سلطة في العالم سائدة فوق الكل حتي ان أضعف ضعيف يمكنه بنور الايمان ان يقف أمام أعظم قوة رهيبة لتأكده من سطوة الله الآخذة بالعدل لهو دين التوحيد العام لجميع المبادئ الانسانية المختلفة الى أصلها الطبيعي . . . . . دين يتبرأ من الدخيل فيه تبرأ السليم من الاجرب وان توج نفسه ظاهراً بكل ألفاظ الاسلام والايمان والشرف وأعماله السيئة تغاير ألفاظه وادعاءه ثم يرميه بالنفاق لهو دين العقل والشرف « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا » . . . . دين يحض متبعوه بقوة على أشرف عمل في العالم وهو دوام التعقل فى كل شئ والتبحر في العلوم الفلكية والطبيعية مهما كان نوعها وشكلها ليعلم الناس منها كيف يكون فناء العالم المؤكد حصوله كما يشير القرآن في آياته وليستفيدوا ويعلموا قدرة الله في تركيبه الجميل المدهش لهو دين العلوم العامة وميدان العقول الخصب الفسيح . « قل انظروا ماذا في السموات والارض » . . . . . دين يتبرأ من الخائن مهما نسب الي أعظم عظيم في الامة لهو دين الحق والمساواة والفضيلة « وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » ولا ريب في أن بعضا من أفراد الامة

الاسلامية المتنورين من المتأخرين الذين نظروا الى دواء الامة من بعيد ورأوا كيف تنقذ من جمودها الحالي وضعوا بعضا من الحقائق الخالصة بصفة نصائح فلسفية تبعا لحالة الوسط الذى يعيشون فيه من نتيجة اختبارهم وتجاربهم الحقة العالمية لكونها هى السلم الاول والبلسم الوحيد لكل أمة قامت على دعائم القوة المتينة التى لا تتزعزع ... فمنهم المرحوم السيد احمد خان مؤسس كلية عليكره الهنديه فقد قال عند تأسيسها : « ان خلاصنا لا يكون الا في الوقت الذى يصبح فيه أمر التعليم بيدنا فلا تسترقنا مدارس الحكومة بنظاماتها يومئذ نأخذ العلوم بيميننا والفلسفة بشمالنا . وعلى رؤسنا تاج « لا اله الا الله محمد رسول الله » . ومن تأمل لخلاصة هذه النصيحة وقلبها كيفما شاء وجدها تشتمل على طلب المذكور الاستقلال الذاتي والحرية أولا فى التعليم ثم التقدم في العلوم العالمية والفلسفة وغيرها ثم تاج لا اله الا الله محمد رسول الله الذى هو الايمان باخلاص الى الخالق وهي لا تخرج عن النقط التي نشير اليها في شيء وان كانت دائرة الحرية التي حددها فى كلامه محصورة .

ومع أهمية تلك النصيحة فانها قد تلقى من بعض أحزاب التقهقر اعتراضا وذلك لعدم ارتكازهم فيها على أصول دينية من القرآن تلجم أفواههم عند النعيق بخلاف ما اذا قيل الآن وثبت للجميع بالبراهين المتعددة من المبادىء السالفة ان أساس الدين الاسلامي .. بل الاساس المطالب به كل مسلم أو كل فرد في العالم أمام خالقه قبل أن يعرف كل حقائق الدين ان يحافظ على النقط الثلاثة الآتية أولا والتي لا يتم الدين الا بها وهي :

(١) الحريه أو الاستقلال الذاتي للنفس فى العالم

(٢) تعلم العلوم على اختلافها بقدر وسعه فيما تميل اليه فطرته

(٣) الايمان بالله تعالى الذى يشمل كل الكمالات الانسانيه

فكل فرد مطالب امام الله ونفسه ودينه والحقيقة والصالح العام ان يعمل لهذه المبادىء الثلاثة العامة الثمينه ... اذ ان السعادة العامه الدنيويه والاخروية متوقفة خصوصاً على نوالها بكل قوة نفسيه وماليه وسنذكر فى « الجزء الثاني » ان ابراهيم الخليل عليه السلام كان يسير على هذه المبادىء أيضاً — ونحن لا يمكننا أن نزيد على ما قدمناه من الشواهد العديدة التي يشهد بها العقل والعلم والنواميس العمرانية وغيرها على ثبوت بناء أساس الدين الاسلامي

على هذه المبادئ غير لزوم التأمل من كل مسلم مخلص الى كلام الله تعالى .. فمن ذلك الحكاية الآتية عن محاجة أهل الجنة لاهل النار مما يزيد ما أبديناه ايضاحا وتثبيتا قال تعالي « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الي يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون . فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون » فمن هذه الحكاية نعلم أن أساس السعادة المقبلة مبني على التعلم في هذه الحياة ثم الرضوخ بنتائج العلوم الحقة الى الايمان بالله تعالي وحده الهاً اذ أن الحجة التى انتصربها فريق الجنة على المجرمين هو قولهم : « ولكنكم كنتم لا تعلمون » وقول الله تعالى بثبوتها « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون » ... أي أنهم لم يصلوا الي الدرجة الثانية من أساس الدين الاسلامى وهو لزوم « العلم » توصلا به الي الايمان .. ولم يقولوا لهم ولكنكم لا تؤمنون اشارة الى أنه لا ايمان حق بغير علم والعلم مهما اختلف شكل حقائقه يوصل الى الايمان الصحيح فلا يشترط ان يكون علما خاصا وان كان كتاب الله تعالى أحسن ما يتوصل به للايمان بل مطلق العلوم الصحيحة توصل أيضاً الى الايمان ... لان العلم لم يك الا لتشغيل العقل وتشغيل العقل في الحقائق العالمية على اختلافها هو كل العلم بالدين وبآيات الله حتى قال تعالى توصلا للايمان بالعلم ان مطلق النظر لما في السماء أو الارض كاف لذلك : « قل انظروا ماذا فى السموات والارض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » وان قول الله تعالى « وقال الذين أوتوا العلم والايمان » اشارة واضحة للمنتصرين بحجتهم لاستوفائهم أساسات الدين الاسلامي الذي لا يقبل غيره يوم القيامة : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » وبالطبع فان « الحريه » التى هى الاساس الاول في الحياة كانت ثابتة لكل من الطرفين المتحاجين . ولولاها ما كانت هذه المحاجة والمعايرة في التقصير عن التعقل لنوال العلوم التى بها يسهل الوصول الى درجة الايمان العظيمة وما أحسن تلاوة القرآن توصلا الى الايمان من أقرب طريق . اه



الحكم الاسلامية . والمواعظ الفلسفية الدينية

١ — بعد اختبار حق متواصل . رأيت القرآن أفضل معجزات الرسل

٢ — يستحيل أن تطرق باب الاخلاص . ولا يهديك الله لنور الحقيقة

٣ — لا شيء في العقل محال على الخالق . ولكنه تعالى لا يعمل الا مايقتضيه كماله المطلق

٤ — الارادة الانسانية أشد قوة فعالة في العالم فهي أعظم من قوة الحديد والنار ولا شيء يقدر على اعتراض سيرها مطلقا مهما كان الا قوة « الخالق وحده » بحق ولكن ليس بقصد ايقافها بل لحفظ النظام بين ارادات متضادة السير

٥ — أجمل تاريخ للانسانية . من بدء نزول الآيات القرآنية

٦ — الايمان بالله تعالى تابع للفطرة . ولكن حرية النفس عند الخالق أول أمر مقدس

٧ — أراد الله وقضى بحق أن يكون : للقلب اختيار مطلق . لا شيء يؤثر عليه في العالم

٨ — المخلوق لنفسه والله للجميع

٩ — من الشرك . سوء الظن بالخالق

١٠ — جزاء الله تعالى للخلق في بحر هذه الحياة بقصد الرحمة . لا بقصد الانتقام

١١ — سعادة الروح بدوام العمل مع التقوي

١٢ — لا حزن في هذه الحياة الا للجهول أو المسرف

١٣ — ان فعلت حسنا ووجدت سيئاً . فهو لسيئاتك الماضية

١٤ — المؤمن رزين عامل عاقل . الفرح والحزن ليسا من صفاته

١٥ — المؤمن يصاب . ولكن لمغفرة الذنوب أو الفتنة

١٦ — القلب لا يتعلق بالله وبغيره . فانت مخير

١٧ — عمل الفساد والتقوى لا يجتمعان أبداً

١٨ — اذا أردت أن تعرف معني كلمة «مالانهاية» فهي المسافة الكائنة بين الخمول والتقوى

١٩ — حسن الانشاء والتفكر موهبة نادره

٢٠ — طمع الانسان فى الخالق بكل الاماني واجب . ولكن البدء بالشكر على مافي اليد أوجب

٢١ — ان الله تعالى ليس تحت مشيئة أحد في العالم . ولكنه تعالى ينيل الانسان من الخير كل ما يطلبه بالدقه

٢٢ — مركز طائر الانسان والهام الله تعالى للانسان في المذكرة

٢٣ — هل تعرف أول الكذابين ؟ . . من قال أقوالا عن الدين تخرج عن حد العقل والتجارب العلمية الصحيحة

٢٤ — فرق في الحياتين بين من آمن بالله يوما وبين من آمن بالله يومين

٢٥ — الدين شقيق العقل . . . وما غمض في القرآن العظيم موضح فيه ولكن الله تعالى يعطى الحكمة بقدر ما يشاء بنظام عدل وحق

٢٦ — ضياع الدين في جميع الازمان . . . ممن يدعون الرئاسة فيه بجهل

٢٧ — من أول صفات الخالق الاستقلال والحرية والعدل . وهي في الانسان لو آمن

٢٨ — بين المؤمن والكافر حجاب كثيف لا يرى أحدهما منه حالة الاخر وان كان الاثنان في وسط واحد .

٢٩ — قد يختار القلب بحريته الذاتية في لحظة قصيرة الايمان والكفر بالتتابع

٣٠ — ان لم تشغل يدك وقوتك في العمل النافع المفيد فاشغل لسانك بذكر الخالق

٣١ — أكثر الدين بالاعمال لا بالاقوال

٣٢ — صبر المؤمن درس مفيد لطهارة الروح

٣٣ — القليل من الناس من يعرف حقائق الحكم

٣٤ — نعم الطائر المرشد الحق . . . طائر الانسان عند الخالق

٣٥ — يمد الله تعالى يده في هذه الحياة لكل من طلبه وأراده مهما كان . الا في الآخرة

٣٦ — يأسف الله تعالى عليك ان لم تتخذه أول محبوب لنفسك

٣٧ — هل تعرف لماذا خلقت ؟ لتستعمل مواهب خلقتك الذاتية فيما وضعت لاجله . وفي نفسك دليل ماهر

٣٨ — مهما فعل الانسان فلا يبني سماء ولا يخلق بعوضة وأداء الواجب هو الحقيقة

٣٩ — اختبرت العالم طويلا بحرية تامة وامعان حق . فرأيت أحق ما يجب أن يقال

إن القرآن ليس من صنع البشر

٤٠ — عجبت لامم تدعى الاسلام ويحكمون بملوك مطلقين حتي بالوراثة

٤١ — عهد الخالق للناس الرحمه . وعهد الناس للخالق الايمان مع الاخلاص

٤٢ — أقدس شيئ في المخلوق حرية الارادة . ولذا سبقت كلمة الله تعالي أن لا يمسها في هذه الحياة وان كان سبحانه يفعل ما يشاء بنظام حق

٤٣ — معالجة الارواح بالفضيلة . أربح وأحق من معالجة الاجساد بالحياة مع الرزيلة

٤٤ — يعجب ضعيف الايمان لذكر الآخرة . ونفسه تشعر بالابدية

٤٥ — النفس حارسة لشجرة ايمانها . فقد تعرضها للزوال فى لحظة

٤٦ — لا تقف الروح مطلقا في هذه الحياة . فهى في علو او انخفاض

٤٧ — النفس كاتب ماهر دقيق لا يخطأ في درج الصادر والوارد

٤٨ — حسن نتائج العلوم . زيادة نور الايمان

٤٩ — كلمة اليأس لا وجود لها في العالم . الا في قاموس الجاهل

٥٠ — الاقدام على العمل النافع من أول واجبات المخلوق . وحسن النتيجة من شؤون الخالق

٥١ — قارئ القرآن بعقل . لا يحتاج الاستفهام من أحد

٥٢ — الانسان سفينة دفتها العقل يديرها كيفما شاء بحرية تامة مطلقة وأم الكتاب بحرها الغير محدود

٥٣ — من لم يصبر بحريته في هذه الحياة لنوال الحق على الشديد . فسيصبر في الاخرى بالرغم على الاشد

٥٤ — لو أنالنى الله تعالي طلبي في اكتشاف المجهول ... لاستخرجت ما اختبأ من علوم العالم من القرآن

٥٥ — اذا هرم تاريخ الانسان ... فقد هرم تاريخ العالم

٥٦ — كل شيئ يعوض بما هو أجمل وأحسن الا خسران النفس بالكفران

٥٧ — بنزول القرآن قد بلغ الانسان الرشد . فلا ملك مطلق ولا مانع للحرية الاّ بحق

٥٨ — قد خسر الغالون فى الدين بلا علم

٥٩ أشد الناس جهلا من بالله كفر ، وان كان أعلم البشر

٦٠ — من اشتاق لتأثير بعض مبادئ السحر فلينظر لمن يكفر

٦١ — الامي اذا تبصر عقل القرآن .. فهو لا يحتاج لاتهام الكاذبين

٦٢ — قد وصلت الامة الاسلامية بفتنة القرآن درجة رديئة لم تكن لامة من الامم

٦٣ — لولا الغاوون مع الشعراء ... لكان أفضل الغزل في الايمان

٦٤ — رب حقير في الرعية ، افضل من الملك عند الخالق

٦٥ — طريق الانسان في الحياة وعر مؤلم . ولكن لذة الحياة في التغلب على المصاعب

٦٦ — خلقنا لنعلم ... فالحياة هى العلوم .

٦٧ — ثبات القرآن بلا تغيير ، ما زال الرحمة الكبرى للبشر

٦٨ — اقرض القرآن اوروبا درسا ازهر ثم اثمر ... ومن فوايظه ستقرض اوروبا بني الاسلام دروس ماغمض عن ابصارهم في القرآن ... وسيعلم التاريخ ان صحيفته الوحيدة الطاهرة البيضاء في تاريخ بني الانسان هى : تاريخ حقيقة الاسلام

٦٩ — قد تتباين الافكار في موضوع واحد . الا من أوتى من الله الحكمة

٧٠ — قد يغير الله سوء القدر .. بتغيير سوء النيه

٧١ — اذا كان ولا بد من اجتياز المصاعب فلا بد من التدرج السهل العادل حتي لا تشعر النفس بالملل

٧٢ — نظام ارسال الانبياء والرسل . كنظام تدرج مدارك عمر الانسان . ونعم الختام القرآن

٧٣ — لاتندهش من كثرة العلوم الحقة في العالم . فالله تعالى قد وزع المواهب

٧٤ — كل مؤمن امام في الدين . وكل امام عن جوهر الدين مسئول

٧٥ — موردة القرآن تسع عقول بني الانسان

٧٦ — دين الله تعالى لا يضعف ... ولكن يضعف المتدين

٧٧ — حصول الغفران من الخالق اسهل شيء في الحياة . ولكن يتوقف على الطالب ولو بالاشارة فما اجهل المذنب الغافل .

٧٨ — الهام الله تعالي في النفس رسول صادق ولكن لا اكراه فى الدين

٧٩ – الانسان كلمة الخالق

٨٠ – لو تجسم كل الجمال في صوره – لكان القرآن للعقل اجمل

٨١ – أدع للآباء بالرحمة وان اورثاك الضر – فلا تكلف نفس الا وسعها

٨٢ – من اتي بمثل القرآن امكنه ان يخلق مثل العالم

٨٣ – اذا قام كل فرد بواجبه تكون واجب الكل من نفسه

٨٤ – نزل الدين لتبديد الاوهام فتشعبت الاوهام في الدين وهو برآء

٨٥ – تصريف الآيات القرآنيه . اشبه بتنويع الآيات العالميه وكلاهما لازم للجمال والكمال

٨٦ – لم يخلق الله تعالى ناموسا يعارض النفس في حريتها المطلقة في التدين

٨٧ – ليت الآثام تقتصر على اضرارها الذاتيه بل تتعدى الى بعد القلوب عن اكتساب الفضائل

٨٨ – اول واجب على خليفة الاسلام . نشر اللغة العربيه في العالم

٨٩ – اساس الفطرة الانسانيه العجز عن ان تحيط بكل شيئ علما في العالم . فليتخذ الانسان الاحسن من كل شيء حتى في الدين

٩٠ – اذا اختلف رؤساء الدين في امر فانت مسئول فقط عما تفهمه عنه بنفسك باخلاص من القرآن وليس منهم

٩١ – لا تأويل في القرآن . ولا تكلف نفس فوق طاقتها

٩٢ – العالم والقرآن يترجمان عن الحقيقة

٣٩ – يتغير قدر الله تعالى على الناس بقدر تقلب قلوبهم الا من حقت عليه كلمة الله بسبب أعماله

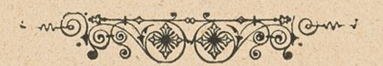
٩٤ – دستور الله تعالى في هذه الحياة واحد على جميع البشر على السواء الا في الآخرة . فدستور كل ما فعل

٩٥ – كثير مشركون بالانبياء والاولياء ويدعون الايمان ومن الاسف انهم يفتخرون بذلك

٩٦ – القرآن العظيم . هو الكنز الثمين في العالم

﴿ تم الجزء الاول ﴾

فهرست الكتاب



أهم الخطأ والصواب . الواقع في هـذا الـكتاب

سطر	صحيفـه	خطأ	صواب
٢	١٥	زيفهم	زيفانهم
٢٤	١٦	في آخر الصحيفه يضاف جملة:	أنظر الى الناس الذين يولدون
١٧	٢٨	بمنزل	بمعزل
٩	٣١	قمن	فمن
١٥	٣٨	اشاراة	اشارات
٢٤	٣٩	فالهمهما	فالهمها
٨	٤٠	الطيبه	الطبيه
٢١	٤٦	بينهاً	بينهما
٤	٥٢	اذ طفي لم تري	اذا طفئ لم تر
٦	٥٨	لغصن	لغرض
١٨	٥٨	أسفلنا	أسلفنا
٩	٥٩	في بني	من بني

سطر	صحيفه	خطأ	صواب
٣	٦٠	(بل يخطئ هو الروح نفسها الذى)	(بل ما يخطئ هي الروح نفسها التى)
٨	٦٠	منجمات	متممات
١٣	٦٥	فليتق	فلاتعي
٤	٦٧	للمبني	للنبي
٧	٦٧	ينكس	ينكث
٥	٧١	يلهون	يلهمون
١٣	٧٥	يرجون	يرجعون
١	٧٨	بعضنا	بعضنا بعضا
٩	٧٨	العلم	العمل
٢١	٧٩	يحلوا	يخلوا
١	٨١	بقولهم	بقوله
١١	٨١	لا يطليق	لا يليق
٧	١٧٦	يدونها	بدونها

كتاب

فلسفة الاسلام ومدنية القرآن

تأليف

﴿ أحمد بدوى النقاش ﴾

الجزء الثاني

طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

سنة ١٣٢٩ هـ — ١٩١١ م



القرآن العظيم هو الكنز الثمين في العالم
احمد بدوي النقاشه ولد سنة ١٨٧٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل ١٢

١٨٨

ماذا نتعلم للدين

يوجد كثير من المسلمين من لا يقبل على عمل مفيد ولا يتجلد ويتفانى فى شيء من مصاعب الحياة الا اذا كان منسوبا لأمر دينى واضح — أو كان مفتى عنه بصفة خاصة — كأن الدين جوهر بمعزل عن الحياة العالمية يخشى عليه من التجزء مع أن الدين فى كل شيء وفى فطر النفوس الحقة فبعضهم اذا رأى اختراعا جديداً نفر وخشى منه على دينه وبعضهم اذا اضطرته الظروف لعمل مالى وطنى ينقذ به المسلمين من أيدى السالبين أحجم عنه لانه لم يفت عنه عالم من العلماء — وكل هذا من علماء السوء الذين يوهمون الناس بأن لا ثواب فى الدنيا والآخرة إلا فيما يتمشدقون به من قشور الدين — مع أن الكتاب ما فرّط الله فيه من شيء مهما تنوّع الحادث والعلم (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) فبجمودهم على التقليد البالى واتباعنا خطواتهم كان أصل دائنا الذى نشكو امنه

ومع كل هذه الصيحات التى تهددنا من كل جانب تجد كثيراً من هؤلاء الذين تريد الأمة أن يكونوا قادتها لاهين بأنفسهم ولا يهمهم فى الحياة إلا المباحثات الكلامية أو المناقشات اللفظية التافهة — وهل هى تؤدى الى الكفر أو الأيمان حتى كادت الأمة أن تكون أمة « الكلام » لا أمة الاعمال المختلفة بتوجه النيات

كم من نبيه يجادل بالعقل « الذى هو أساس التدين » بعضاً منهم فى أمر جوهرى بتمام التبصر والاختبار — ثم لاختلاف المواهب الالهية والألفاظ دون المقاصد الحقة يرميه

المحتكر للدين بالكفر والبعد عن الدين — لماذا ؟ — لأنه لم يتضلع فى درس حاشية لأحد المشايخ بل الأعجب من ذلك أن يقال من بعضهم عن بعض العلوم دينية والأخرى غير دينية أو خارجة عن الدين لا يهمهم أمرها مهما أظهرت من حسن النتائج والفوائد — مع أن دين الاسلام هو الدين العام الفطرى لجميع الخلائق وبحر العلوم المختلفة الغير محدود وانه بكل قوّته دائماً يتآخى مع العقل حيثما جال ويتبرّأ من مثل هذا التقسيم المخجل — اذ كل عمل يسترشد به العقل لأى منفعة أو حكمة أو أى آية تدل على حسن ابداع الخالق وما بثّ فى الخلق من جمال الأسرار هو من الدين أيضاً ومتمم للدين — قال الله تعالي (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) فهذا ليعلموا بكل ما فى السماء والأرض كلّ حسب ميله الفطرى فى علم ما ليتوصل به الى التثبت من الايمان الحق — فأى شيء أو علم خرج عن هذا التعميم ؟ . . ومن قال لم أن هذا العلم دينى يقبل عليه والآخر غير دينى ؟ لا ينفع ؟ . . ان الزارع الذى يختصر على حرث الارض وانباتها اذا وضع البذور فى الأرض ثم تأمل بفكره بحرّيته كيف هى تنبت ثم قدّس الله الخالق الذى هو وحده ينبتها مما خلق لها من ماء ومواد وتحليل ثم حمده تعالى وشكره على هذه المنحة ليقتات ويتغذى ويهنأ بما تخرجه الأرض — فهل نقول ان علم بذر الأرض للانبات على بساطته خرج عن الدين ؟ . . أم هو قد أدّى الى كل الدين ؟ . . هل لم يطلب ابراهيم عليه السلام وهو أبو المؤمنين وامامهم من ذاك الذى جحد بالله وكفر به بحرّيته أن يتأمل أبسط تأمل يعرفه كل انسان وهو : من يأتى بالشمس من المشرق الى المغرب ؟ . . فهل يقال عن مثل هذا التأمل البسيط أو عمن يتعلم كيفية سير النجوم والشمس وعلوم الفلك أنه يتعلم علماً غير دينى ؟ . . . ان الدين فطرى فى النفوس وان أقل التفات من الانسان لأى شيء يؤيد له وجوب شكر الله الخالق وتقرير وحدته فى الألوهيـة وتنزيهه عن العالمين — وهذا بالطبع كل الدين — فأى شيء نحتكره لنقول ان هذا علم الدين ؟ ؟ وأى علم مفيد نخرجه عن دائرة الدين ؟ . . أللهم الا اذا أريد الاختصاص بكتاب الهى معلوم أو بموضوع ينحصر ذكره فى الكتب السموية . . اذ قد يكون هذا الذى انفرد باكتشاف خزائن الطبيعة وما وضع الله فيها من الأسرار الدالة على قدرته وكماله المطلق أقرب الى الله بالايمان من ذاك الذي احتكر لنفسه الدين باطلامبر ثاغيره

منه فان الهداية من خصائص الله تعالى (هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)

١٨٩

﴿ بعض الفقهاء والعلوم ﴾

ان فقيهاً قد يكرّ القرآن الحكيم بلسانه كرّا وكله الحكم العالية والمواعظ الحسنة ولكنه قد يلوي عن التفكر فى شىء فيه يسعد به ذاته بل يحتمل أن يحول اهتمامه فى درس «أوجه الخلاف» فى نقط فى مسائله لا تغنى عن الحق شيئاً فان سألته عن وجود الشمس وهى تضىء فى نصف النهار لانبالغ ... أن يجيب بقوله «فيه خلاف» فلا يعقل إلا ألفاظا محفوظة ولا يتصرف فى ملك الله تعالى فى شىء بحكمة إلا أن يسجن نفسه فى ضيق الشك بالأوهام — قال تعالى (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت) وقال تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) وقال تعالى (أفلا ينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلباً وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم) كل ذلك لاطلاق الفكر فى أنواع علوم العالم

١٩٠

﴿ احتكار الدين ﴾

نحن لا نذم علما من العلوم مطلقاً مهما كان شكله وصفته مادام يؤيد حقيقة عقلية أو فائدة ما ولكن نريد أن نؤيد أن احتكار الدين لفئة خاصة ثم هى وحدها تقسم بيدها العلوم بادعاء باطل الى علوم دينية وأخرى غير دينية ويقصدون بذلك تبرأ الدين منها أمر يتبرّأ منه الاسلام وحقيقة الدين . فالاسلام دين العلوم الحقة كلها على اختلافها وعدوّ الباطل والضلال والتضليل فهو كما يحض على محاربة الباطل بقوة أشعته النيرة ليبدّد ظلامه فهو يحض أيضاً على التمسك بأي حقيقة فى العالم وتعلم أي علم مفيد مهما تنوّع . فكل مافى العالم خلق الله . وكل مافى العالم بلا استثنا يعطينا منه الله تعالى يوميا برهانا جديداً وعلوما يحلو لنا كشف نتائجها العظيمة لتزيدنا قوّة ويقيناً على وحدة ألوهية الخالق وتنزيهه وكماله المطلق الذي هو كل الدين والغرض من الوجود والحياة والدين

١٩١

﴿ زمن سليمان ﴾

ان « هدهد » سليمان عليه السلام على ضعفه وبعد نسبته من الانسان الذى يقرب من الكمال كان يعمل ويتفانى بتمام حرّيته وبما منحه الله تعالى من علم خاص وحكمة في كيفية البحث والتنقيب واقتناء الأخبار الحقة . . . حتى توعده سليمان فى غيابه بالعذاب أو الذبح وعندحضوره أجابه جوابا مسكتاً دلّ على علوّ نفسه وأفهمه منه أنه يعمل بمواهب الله الذاتية فى نفسه بحق وحرية مما لم يعمله سليمان نفسه مع اتساع ملكه وقوّة بطشه وسلطانه اذ قال له : (أحطتُ بما لم تحط به وجئتك من سبإٍ بنبإٍ يقين) ومثال ذلك الانسان الذى تعلم من الكتاب كيف ينقل عروش الملوك فى أقل من لمح البصر اذ قيل عنه فى القرآن وهو يخاطب سليمان (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ اليك طرفك . فلما رآه مستقرّاً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلوَنى أأشكر أم أكفر) — فكل هؤلاء خلقهم وعلومهم وأعمالهم مختلفة متباينة ولكنهم جميعاً يرمون الى تأدية الواجب الحق العام الذى يشعر به كل منهم طبقاً لمواهب الله الذاتية فيه — اذ أن مواهب الله فى الخلق عديدة لا تعد ولا تحصر مما يعجز الفرد الواحد تتميم وعمل الكل أو العلم به — فكلّ يعمل بحريته ليتمم واجبه جهد طاقته والله يكلف كل نفس أن تعمل للحق مهما اختلف شكله بقدر وسعها وقوّتها وما يمدّها به الله فى الحياة من منح مختلفة عديدة — إن أعمال الانسان الدنيوية التى تهم حياته ووجوده الذاتى مهما اختلفت هى من الدين وهى كل الدين مادام الايمان بالله تعالى نصب عينيه — فكل مسئلة مهما كان شكلها مادامت غايتها العدل والفضيلة والشرف ونصر الحق فهى من الايمان والدين — فالقاضى فى عدله والمحامى فى دفاعه والمدرس والصحافى والمالى والصانع والتاجر والمحارب والكاتب والحاسب والخادم والسيد والعامل والمخترع والمؤلف والحاكم والمحكوم . . . الخ الخ كلهم فى أعمالهم سائرون فى الدين . وكل يعلم بنفسه كيف يكون السير المستقيم الجاذب لله ورضاه وان العقل الانسانى لا يخطأ مطلقاً ان تعمد الحق وتفرغ من كل شىء لاظهار الحقيقة

١٩٢

﴿ ملخص الدين ﴾

إن ملخص الدين كلمتان ايمان أو كفر بالله تعالى والأعمال البشرية كثيرة لا حدّ لها ولاتحصر فى تنوّعها وكيفيتها وظروفها ولكنها لا تخرج أيضاً عن اثنين عمل فيه الفضيلة وعمل فيه الرزيلة — فكل عمل فيه الفضيلة مهما تنوّع ضفه على القسم الأول من الدين وهو الايمان ما دام العامل رائده الايمان بالله وحده وبالعكس . فان كان الايمان والكفر لا يجتمعان فان الفضيلة والرزيلة ضدان

إن تفكر ابراهيم عليه السلام فى حالة قومه وعلمه بمايعتقدون ويعملون من تلك الاديان الوهمية ثم حياته فى تنفيذ ما رغب من تكسير الأصنام لعلة أن يتفكروا بحق فى حقيقة معبوداتهم كما تفكر هو يلجئنا للقول ان هذا العلم من الدين وما عداه ليس من الدين ؟ . . كلاّ ! !

١٩٣

﴿ الطبيعة والقرآن ﴾

قال الدكتور بشاره زلزل فى كتابه «تنوير الأذهان فى علم حياة الحيوان والانسان» «وتفاوت الأمم فى المدنية والعمران» فى صحيفة ٩١ تحت عنوان «علم تكوين الأجنة» ما يأتى: هذا السر المكتوم فى الطبيعة وأعنى به كيف يتولد الحيوان ويتخلق وكيف تتصل الحياة به وتنتقل خصائص الأبوين اليه بالارث مازالت الأفكار تحوم لاستجلاء حقيقته منذ القدم حتى الآن . ولا شىء فى عجائب المخلوقات أعجب من أن يرى الانسان نفسه مخلوقا من نطفة أمشاج ثم يصير جنيناً تتوالى عليه أطوار من التحوّل حتى يخرج من حشى الأمّ طفلا تام الخلق . فحرىّ بالعاقل أن يعرف أصله وفصله ولا يتهيأ له ذلك مالم يعرف السنن الطبيعية الجارية أحكامها على الحيوانات كافة

وقد بحث القدماء فى كيفية تكوين الانسان وأوضح أريسطو الأطوار التى تتعاقب على الجنين وتابعه القزوينى والكتبى وغيرهما من علماء العرب فوصفوه نطفة فعلقة فمضغة فعظاما يكسوها اللحم حتى يتم خلقا آخر . قال الكتبى : « يتم خلق الانسان بعد أن يمرّ عليه ستة أطوار

هى المشار اليها فى الآية (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر) وهذا التطوّر العجيب ينطبق على ماثبت بالمكتشفات الحديثة واتخذه الفلاسفة الطبيعيون حجة على أن أطوار خلق الجنين توافق الأطوار التى نشأت فيها أصول الحيوانات فى الأزمنة العريقة فى القدم قبل خلق الانسان بأدهار طويلة وذلك لأن الانسان يكون فى الطور الأول من نشوءه نطفة أشبه بالحيوانات السافلة المسماة بذوات الجوف ثم يستحيل الى علقة فيصير أشبه بالسمك ثم ينسلخ مضغة فيكون شبيها بالحيوانات المائية البرية « ذوات العمرين » وبعد ذلك يتحوّل الى مشابهة أدنى مراتب الحيوانات اللبونة وهو حينئذ فى بدء الطور الذى ينمو فيه خلقا سويا متميزاً بخصائصه النوعية . اه

.. فهذه آية صغيرة من القرآن العظيم تتركب من كلمات قصيرة معدودة كانت أمام الأعين من ١٣ قرنا وزيادة يكرّها الانسان كرّا وربما كانت تؤدى الى استغراب بعض الجاحدين عن تصديق تطوّر الانسان فى بدء خلقته بهذا الشكل فيهز رأسه متهزأ كما يتهزأ كثير ممن يجهلون القرآن الآن من جميع الملل ويدعون ان ذاك النبى الأمى الذى ولد فى أحشاء الجاهلية ووادى البساطة والبداوة قد أتى به من نفسه وادعى به النبوّة كذبا . . . فكيف يعقل أن قرشياً كمحمد صلى الله عليه وسلم عاش فى وسط جاف من كل علم كهذا يذكر تطوّر خلق الجنين بتعاقب أدواره النظامية الحقة — ثم يتكاتف العلماء الطبيعيون بكل قواهم العقلية والعملية فى أدهار طويلة متعاقبة يبحثون ويشرحون ويكبرون وينفون ويؤيدون ويكتبون ويوصفون وفى القرن العشرين المسيحى الذى يعتبرونه عصر العلم والاكتشاف وشبوبية المدنية والاختراع يتأكدون بل يعضون بالنواجذ على ماذكره ذلك القرشى الأمى من أنه هو آخر تجاربهم واكتشافاتهم الحقة الصحيحة الحديثة — ألم يك ذلك مدهشا فى بابه ؟ . . ألم يك ذلك داعياً الى العجب على الأقل من هذا القرآن الذى يتعجب منه هذا المؤلف « المسيحى » القائل « وهذا التطوّر العجيب (فى القرآن) ينطبق على ماثبت بالمكتشفات الحديثة واتخذه الفلاسفة والطبيعيون حجة » ! . . ان ذلك العجب الكبير الذى نتج من آية صغيرة من القرآن الحكيم ليس هو الأمر الوحيد — بل ما سبق تأييده — وما سنذكره أكثر عجبا لأنه

أساس المدنية الحقة وكمال الترقى الانسانى — بل قبل الجميع قالت الجن حقا بما علمت من نوره فى الآية (إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى الى الرشد) بل ذلك ليس هو كل العجب بل الاكثر عجباً من كل ما تقدم أن يقال أن ذلك القرشى الذى يجهل القراءة والكتابة قد أتى بنفسه بهذا القرآن المؤيد لدعائم المدنية الصحيحة والكمال الانسانى ثم ادعاه لنفسه أنه من الله تعالى كذبا ليدعى به النبوة الكاذبة ثم يظهر أن فطاحل فلاسفة البشر وعلمائهم الطبيعيين فى أصعب بحث وبعد مرور آلاف من السنين على تمحيص العلم والدرس والانكباب على التجارب بأدق وأحسن الآلات الكشافة والملحوظات العلمية عن أدوار كافة الحيوانات من بدء الخليقة أن يطابق علمهم قول ذاك الذى نقضوا عهد الله بتكذيب رسالته . . . ولكنى أقول كما قال الله تعالى فى الآية (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أليس ذلك صحيحا ؟ . . أليس حقا ما يقول الله تعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه) — نعم — ان ما تقدم من قول الله تعالى لمحمد (ص) فى زمن الجاهلية بتلك الآية عن هذا التطور العجيب الذى لم يثبت للعلماء وفطاحل الفلاسفة على الوجه الأتم إلا فى القرن العشرين يؤيد بلا تردد أن واحداً كمحمد (ص) أُميا يستحيل عليه أن يذكره بنفسه ويذكر هذا التطور على أدواره المتعاقبة كاكتشاف العلوم كما فى الآية إلا أن يكون القائل للآية هو الخالق وحده علام حقيقة الغيب فى جميع الأزمان ! . اذ أعلمنا سبحانه أيضا فى الكتاب أن كلامه تعالى سيثبته باكتشاف العلوم للأمم على ممر الأزمان حتى يعرفوا جميعا فى النهاية أنه الحق الذى كان يجب التسليم بقبوله دينا حقا بلا شرط غير الاستسلام أو الاسلام لأوامر الله فى الكتاب (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) واذا كان القرآن أظهر كل حقائق «علم تكوين الأجنه» وهذه النتيجة الحسنة التى تلجم أفواه الجاحدين بالايمان بالله ورسوله وكتابه — وان هذا العلم هو فرع بسيط من العلوم الطبيعية — فهل نقول ان أمثال هذا العلم من الدين ؟ . . أم نخرجه عن الدين ؟ ؟ — كلا — بل صار حجة قوية فى يد المؤمنين وكان الأولى أن يكتشفه علماء المسلمون لا علماء المسيحية فى هذه الأزمان الأخيرة تبعا للطرق الحديثة

* * *

١٩٤

﴿ الآثار القديمة والدين ﴾

قال تعالى أيضا فى القرآن (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد » . . . فأين هذه القصور المشيدة فى العالم والآبار المعطلة من الأمم والبلدان القديمة الهالكة ؟ . . بالطبع هى أمثال الآثار القديمة التى يتهافت على اكتشافها أولئك الذين لم يقرؤا كلمة واحدة من القرآن أيضا — فيعلمون منها كيف شيدت الأمم السالفة الهالكة وما كانت عليه أخلاقهم وعلومهم وآدابهم وأسباب سقوطهم وارتفاعهم والظالم منهم والمظلوم والنتائج التى حلت بهم وكيف يتعبدون ويعتقدون ويتعلمون . . . ألم يك كل ذلك هو « علم اكتشاف الآثار القديمة » الذى يحثنا الله تعالى على تعلمه كما فى الآية السالفة وأمثالها كقوله تعالى (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها) — أفهل بعد ذلك نقول ان هذا العلم أيضا من الدين أم نخرجه من الدين ؟؟ وكيف نعلم بأحوال الأمم البائدة ان لم ندرس تاريخها ولغاتها وعلومها و . . . و . . . الخ مما نرى آثاره بين الأمم الحية العظيمة

١٩٥

﴿ العلوم الطبيعية ﴾

اذا تأملنا للعلم الذى علمه الله تعالى لذاك الذى اتبعه موسى عليه السلام ولم يستطع هذا صبرا على السكوت حسب تعهده له حتى يعلمه بتأويل نتائجه العادلة الحكيمة مع أنه نبى لله رسول ثم تبرأ من مصاحبته فى قوله (هذا فراق بينى وبينك سأُنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) — فماذا نجد ؟ ؟ نجد أن موسى عليه السلام كان يجهله ! . فهل هذا العلم المجهول لذاك النبى وهو من الله نعتبره من الدين ؟ أم نخرجه من الدين ؟؟ وهل عدم علم موسى به كلية مع كونه نبيا ورسولا يلجئنا للتقول عنه أنه جهل جزء من الدين ؟ ؟ ان الطبيب الذى يشغل نفسه فى بحث الامراض وكيفية تأثيرها أو منافع بعضا من المواد الطبيعية أو مضارها ثم لم تمكنه الظروف ان يتعلم شيئا من مناسك الحج — فهل تقول له انك جاهل بالدين مادام يؤمن بالله ويوحده ؟ ؟ أم علمه هو أيضا من الدين ؟ ؟ اذا كانت مناسك الحج من العبادات

والدين فان اثبات صدق كلام الله تعالى مثل اكتشاف حقيقة تطوّر الجنين بالتجارب العلمية ثم اكتشاف العلوم الطبيعية على تنوّعها تأييداً لمعجزة القرآن ونبوّة محمد (ص) هو من أهم الدين أيضا . . . وهو الغرض الوحيد من دعوة الناس الى الدين الحق بالحكمة والاكتشافات الطبيعية والموعظة الحسنة فى الآية (أدعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) لأن القرآن اذا كان حقا وجب أن تؤيده جميع العلوم الحقة كما ظهر وان البحث وراء كل حقيقة يطلبها القرآن ويتلمس اكتشافها لأنه أساس كل حقيقة

مَن مِن علماء الاسلام الحاليين والماضيين من بدء نزول القرآن الى الآن بحث عن علم ذاك الذى نقل عرش الملكة « بلقيس » فى أقل من لمح البصر الى مقر سليمان عليه السلام والذى يقول الله تعالى عنه (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ اليك طرفك » — الجواب — لا واحدا . . . فاذا كان هذا العلم فى الكتاب والكتاب فى أيدينا صباحا ومساء وليلا ونهاراً فكيف نعلمه ؟ . . لا شك بالبحث والتنقيب فى كل علم وتشغيل العقل فى جميع الأمور العالمية وعدم محاربة علم من العلوم مهما قلت فائدته — فنعلمه كما تعلم أولئك الطبيعيون كيف يكون التطوّر فى نشوء الجنين — وكتبوا بأيديهم بكل فخر بعد آلاف من السنين فى البحث والتنقيب نتيجة آية من القرآن عن هذا التطور الذى يقولون عنه « عجيب » مع أننا نقرأ تلك الآية آلافا من المرات ونمرّ عليها مرّ السحاب بألفاظ حكيمة قرآنية تخرج من شفاهنا وليس لها نتائج علمية فى أذهاننا — فهل بعد ذلك نقول ان هذا العلم وأمثاله من الدين ؟ أم نخرجه من الدين ؟ . . ان خلاصة الدين هو الايمان بالله تعالى وحده وعبادته وهذا فطرى فى كل نفس اذا أخلصت فى التأمل ببساطة حتى لقد يكون الأمى الذى لم يدرس شيئا ولم يتعلم أى علم رقيق الشعور أثبت فى الايمان ممن تعلم وكفر بحريته على تمام علمه — ولكن المتعلم اذا اتجه بعلمه الى الاخلاص كان أحسن وأثبت وهذا متوقف على حرية النفس الباطنية . فتعلم العلوم يؤيد الدين ولا يعارضه

على كل حال اذا لم يرافق هذا الايمان والعبادة لله قوّة تحفظها من تعدّى من تمسك بضدها

خشى عليها من التعدى والزوال — وهذا لا يكون الا بالتمسك والحصول على كل قوّة علمية فى العالم يرشد الله عقولنا لممارستها وتعلمها ولو لمحاجة كل من أراد التضليل بعلم يخفى على بعض العقول — فهى علاوة على وجوبها قد تظهر لنا قوّة براهين جديدة متنوّعة على آيات الله تعالى فى العالم والتى يتوقف صدق الايمان علي ممارستها واقناع العقلا بها وهذا لا يكون الا بالبحث فى كل علم نتلمس معرفته سواء كان فى الأرض أو السماء (قل انظروا ماذا فى السموات والارض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) — وبالطبع فان الانسان بمفرده يعجز عن أن يعرف كل علم فى العالم فايمانه بالله تعالى وحده كاف لأن يعرف حقيقة أساس الدين وممارسته بعد ذلك أى علم من العلوم مهما اختلف فى الفائدة هو تتميم للدين أيضاً فان كان الايمان بالله تعالى هو أس الدين ومركزه العام فالعلم ونتائج العلوم على اختلافها مهما كانت وتنوّعت هى النقط المختلفة التى تتشكل منها دائرة الدين — فزوال أى نقطة من الدائرة أو ضعفها تهديد لمركز الدائرة العام وخطر يعرض هذا المركز للضعف والزوال — ولذا أمر الله تعالى المؤمن أن يكون من أول مبادئه التمسك بأعظم قوّة مادية أولاً كسلاح مدافع لحفظ كيان ايمانه من تضليل الغير بالقوّة ونفسه من تهديد قوّة الضد ليرهبه بتلك القوّة على بعد وحتى يكون بايمانه وقوّته على نفسه مطمئنا حرا وحافظاً لشرف مركزه العظيم اللائق لقوّة ايمانه — قال تعالى (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم) فجعل الغرض من القوّات المادية هو ارهاب العدو المعتدى بلا حق وتخويفه عند اللزوم وهذا لا يكون إلا بدوام الاستعداد والأهبة وازدياد القوّة على الغير مهما كانت والتحفظ على هذا المركز حتى يؤدّى الغرض المطلوب من التخويف والرهبة وليخضع العدوّ بلا عناء كبير وهذا لا يكون الا بالتنافس والسبق فى العلوم والاختراع والصناعة والفنون واتقان المعدات والانتظام والثروة والائتلاف كما نرى آثار ذلك دائماً فى الأمم الراقية المتمدنة المستنيرة بالعلوم والمعارف وحتى قيل « الحق للقوّة » — وكل ذلك لا يكون إلا أن يختص كل فرد من الأمة بعلم خاص ينفرد به ويتقوى فيه حتى يسد كل نقص تحتاج له اجماع القوّة الرهيبة

فالزارع يحتاج الى النجار والحداد والطبيعي والنباتي والمخترع و . . . و . . . الخ ومن المستحيل أن يكون مزارعا وهو وحده يؤدي كل ما تقدم — وبمثله يحتاج المدرس الى غيره وكل ذي علم وكل ذي حرفة أوصناعة أو وظيفة محتاج للآخر فالأمة لاتوجد أو «الايمان بالله وحده بقوته الرهيبة العادلة» لا يوجد على الوجه الأتم فى أمة الا حيث يوجد معه ويرافقه مرافقة الظل اتقان العلوم على اختلاف المواهب العالمية والأعمال . فاذا ضعف عضو من الأمة أحس بضعفه الجميع وصار مركزها عرضة للضعف والزوال العام

فالمزارع فى زرعه مادام يؤمن بالله تعالى وحده آلها فان الزرع الذى ينقطع لعمله هو من الدين أيضا ويعتبر أنه من كل الدين . فان فقد الزارع وحده يجعل الكل عرضة للزوال أيضا فالجزء هو فى ذاته الكل وان كان مركزه صغيراً ولكن بفقده يعرض الكل للضياع أيضا وبمثله يقال عن كل ذى حرفة وصناعة أو فن أو وظيفة أو علم مافيه فائدة وان الاستخفاف بأي علم أو أي عمل مفيد هو الاستخفاف بالجميع وبالايمان أيضا . اذ أن الله تعالى خلق كل ما فى الأرض من أعمال وعلوم للجميع ويستحيل أن يقوم به فرد واحد (هو الذي خلق لكم ما فى الأرض جميعا)

١٩٧

﴿ أعداء الدين والتقدم ﴾

ان فئة تحتكر جزء مخصوصا من العلوم والأعمال ثم تقول هذا كل الدين وماعدا ذلك من العلوم والأعمال لا يعرفه الدين ويتبرأ منه لهى فئة قد أقسمت الدين على نفسه وعرضته للخطر والزوال وهى الفئة الوحيدة التى تحارب الدين بسهم الهلاك المصيب ... اذا كان علما ما من أوليات العلوم الدينية فلا يقال أن باقى العلوم خارجة عن دائرة الدين المتسعة فذلك جهل بماهية الدين فقط — اذ كل ما فى العالم من العلوم من الدين أيضا وان الايمان بالله تعالى وحده مادام رائدا للكل كاف لأن يكون هو مركز الدائرة التى تجمع الكل وتؤلف بين الجميع

ان الدين فى اجمال معانيه فى الأمة أشبه باجمال وجود الانسان من حيث كونه جسما وروحا — فاذا كان التدين خاصا بالروح وتعبد الخالق سبحانه حتى تطهر بالاخلاص والاسلام

اليه تعالى فان حياتها لاتدوم أبداً لأداء هذه العبادة على الوجه الأتم الا بالتحفظ على وجودها وبقائها حية . فاذا أضعفنا جسمها المادى أو قطعنا الأكل والشراب عنها بضعة أيام لهلكت الروح وزالت من غير أن تتم هذا (الايمان) الواجب العظيم الذى يرفعها ويرقيها . . . ومادام وجودها وحياتها مرتبطان بأكلها وشرابها وصحة جسمها مع كسائها ومعالجتها والتحفظ على كيانها و . . . و . . . من كل ماهو لازم للحياة الهنية فيمكننا أن نعتبر كل ذلك من لزومياتها الكلية — بل ونعده منها وانه لا يتجزأ عنها اذ لا تدوم الا ببقائه — وبمثل ذلك يقال عن بناء حقيقة الدين فى الأمة — فالعلوم المختلفة ونتائجها العظيمة والوسائط التى تحفظ قوة الأمة من الزوال والتقهقر واسعادها بكل مايلزم لمرافق حياتها — كل ذلك كالمادة المغذية للروح والاجزاء والوسائل الحافظة لحياتها — اذ لولاها لتعرض الدين كالروح للضعف فالفناء بلا نتيجة حسنة مرضية ولا قام على الوجه الأتم المرغوب . وان ضعف الأمم الاسلامية الحالى المادى أدى من طبيعته الى امتهان الأمم القوية للاسلام ولو بلاحق كما هو ظاهر للعيان

ان القاضى فى حكمه لا يمنعه مانع أن يمجد الله تعالى ويشكره من نتيجة عمله الحسن فى اقامة العدل والانصاف بين ظالم ومظلوم — والمحامى لا يمنعه مانع أن يمجد الله تعالى ويسبحه لاظهار حق ضعيف مهضوم باجتهاده وحسن دفاعه — والصحافى لا يمنعه مانع أن يمجد الله تعالى ويشكره على تنبيه غافل عن واجب متروك — والمدرس لا يمنعه مانع من أن يسبح الله تعالى ويشكره لأن يبث من فوائد العلوم والآداب ماتستنير به العقول وتهدي به الأرواح والنفوس الى الحقيقة — والخادم فى الأمة لا يمنعه مانع أن يحمد الله تعالى ويشكره أن يؤدى واجباً بأمانة لغيره فى احتياج اليه — والتاجر لا يمنعه مانع أن يسبح الله ويقدسه أثناء بيعه وشرائه وتجارته ليفيد الأمة بأمواله وكسبه (رجال لا تلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) — والمريض لا يمنعه مانع من أن يجد طبيبا صادقا يمده بالاسعاف عند الخطر أو الاصابة بما يجهل معالجته فيقدس الله تعالى ويشكره على رحمته . . . وهكذا . . . وهكذا فأى علم نخرجه من الدين والكل سائرون فى الدين وبهم يتكون هيكل الدين الكامل . . . ومن ذا الذى يحتكر علما للدين خاصة ويدعى بابتعاد الآخرين عن الدين والدين لله فى الحركة والسكون!

ان احتكار فئة لعلم أو تعليم وادعائها بمركز خاص لتقول هذا كل الدين لاغيره قد يؤدى الى تشويش الأفكار وانزعاج النفوس فى سكونها واعمالها المختلفة لتتخلى عما هى فيه من أعمال مختلفة ومواهب متعددة لايتم الدين الا بوجودها واتمامها على الوجه الأكمل ولتنظر وتتعلم ذلك العلم الذى هو وحده كل الدين ومحتكرا للتدين فقط فيختل بذلك نظام الأمة وتقع فى الفناء والتحليل المهين

١٩٨

﴿ الدين لله ﴾

ان كل الدين هو ما أنزل الله تعالى من الوحى للبشر بما لا يختلف الغرض منه مع الجميع وهذا القرآن الحكيم هو نهاية الوحى واجمال الغرض من الكل على الوجه الأكمل يتباهى أن يعجز العقول البشرية بأن لاتأتى بقوانين مثله من الحقائق المشيرة الى أصول حقائق العلوم كافة سواء كانت فى السموات أو الأرض وهو أول حاض على تعلم كل شىء على اختلافه (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ليعلم الناس من العلوم ومطابقة حقائقها عليه فى النهاية أنه كلام الله الحق المبين . . . ان الدين لله وحده والكل يعلم أن (لله ما فى السموات وما فى الأرض) — فالانسان والملائكة والجن والطيور والهوام والدواب والشجر والجبال والشمس والقمر والنجوم و . . . و . . . يدينون جميعا بالله تعالى بما لا نعلم كيفيته (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) ففى أى وسط وعلم صحيح مهما كان قد تدين النفس لربها الكريم مادام الايمان بالله تعالى وحده هو مركز الدائرة المعترف بها حقا من الجميع . . . لا يخرج من الدين الا الباطل والاستبداد بلا حق وعمل الفساد وعدم الاصلاح والضلال والتضليل والتعدى على الحقوق وان الدين مملوء بكل علم وعمل ليحارب به الباطل بكل سلاح ويزهقه أينما وجد (إن الباطل كان زهوقا) فأى علم مفيد ولو قليلا نخرجه من الدين

١٩٩

﴿ الاسلام والعلم ﴾

إن كل علم فى العالم مما فى السماء والأرض يؤيد الدين ويؤاخيه ويرتبط به ارتباطا كليا محكما فلا يتبرأ من أى علم إلا من أراد أن يتبرأ من الدين نفسه — قال تعالى (قل هل عندكم

من علم فتخرجوه لنا) فالله تعالى يطلب الحجة من الكافر يوم القيامة ليظهر أى علم فى العالم مهما كان اختلافه ليؤيد به عدم وحدة الله تعالى فى الألوهية وتنزيهه عن العالمين ... وهذا وحده دليل على أن أى علم فى العالم مهما كان يؤدى بلاشك الى حقيقة التدين الحق بلا استثناء . وان محاربة العلوم الصحيحة وما ينجم عنها من الفوائد محاربة للدين وسهم جارح للمدعين فيهلكون أنفسهم ومايشعرون

اذا كان الكتاب مافرّط من شىء ومن أى علم فى الأرض والسماء (ما فرّطنا فى الكتاب من شىء) والكتاب هو كل الدين فكيف نخرج علما ما من الدين لنقول هذا من الدين وذاك ليس من الدين ؟ ... ان تأمل ابراهيم بتعقل فى ملكوت الله مما فى السماء والأرض ليتيقن بعلمه بالايمان مما هو فيها مثال للزوم اطلاق حرية العقول فى أى علم وأحسن موعظة للعالمين . أمر الله تعالى أن يتعلم الانسان أى علم فيه فائدة ما ويسأل غيره عنه ممن يتقنه حتى يتحصل به على فائدته المطلوبة اذ قال تعالى (فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون) وكفى الحديث المشهور القائل : (اطلبوا العلم ولو فى الصين) أن يكون الدين من أول المحرضين على نوال العلوم المختلفة

فصل ١٣

٢٠٠
الخرافات الدينية

﴿ وسوء تأثيرها فى المجتمع الاسلامى ﴾

يمكننا أن نعدّ مسئلة القضاء والقدر بالشكل القديم الذى يعتقده المسلمون من قرون مضت هى أساس الخرافات المبثوثة باطلا فى الدين الاسلامى بل أنها أول فأس هدمت أول حجر من أساس مجد الاسلام — ولا غرابة اذا قلنا أن كشف حقيقة هذا الاعتقاد كما بيناه

من الكتاب أول منبه لوضع أساس حديدي لمستقبل مجيد ثماره التقدم والارتقاء بحرية النفوس وأعمالها الذاتية بل أول حجر للتمدن الاسلامى الطاهر . . . فما تفرع من الخرافات التواكل وعدم الاقدام على الأعمال المجيدة واتخاذ الأوهام واسطة لتفيذ مآرب النفوس الهامدة بسوط الخضوع للقضاء والقدر حتى استوى فى ذلك كل طبقات الأمة تقريبا حتى من يتخذ الزعامة فيهم فلا يلبثون غير ساعة يرون فيها ثلج أعمالهم الوهمية تذوب بأشعة نور العلم والحق الساطع فى سماء العدالة الالهية حتى يضربوا بسوط أوهامهم ثم ينقلبوا صاغرين

٢٠١

﴿ أوهام العامة ﴾

من أوهام العامة اندفاع بعض الناس على البسطاء والمعتوهين والمجانين والاعتقاد بأنهم يعلمون الغيب الذي خص الله نفسه به دون أحد من عباده . . فاذا تشنج أحدهم بتشنج الجنون وتلفظ بكلمة أخذها المعتقد من رجل وامرأة على شواهد حاله وبما توسوس له شياطين الضلال ثم يقول فلان الشيخ يعرف الغيب ويعرف الأمراض وهو ولى من أولياء الله المقربين والأدهى والأمرّ أن نساءنا الجاهلات لا يفعلون شيئا إلا اذا استخاروا فيه أولئك البلة من رجال ونساء حتى اذا أشاروا بشئ فيه ضرر أبنائهن أو رجالهن ما لبثوا أن يفعلوه تنفيذاً لأوهامهم واعتقادهم وضلالهم وهم عن روح الاسلام بعيدون بعداً شاسعاً الى النهاية حتى اعتقدوا فى أشياء كثيرة كالجان وغيرها واتخذوا (الزار) المشهور فى جميع بلاد القطر إماما لاظهار كل غيب ولسدّ احتياجاتهن من صيغ ومتاع من رجالهن الذين يؤمنون بأوهامهن ولا يتكلمون بكلمة إلا ويدعون الله أن يكون كلامهم خفيفاً على هذه الجان الوهمية وما هى الا أمراض الجهل مختلطة بأمراض عصبية

٢٠٢

﴿ خرافة القطط ونتيجة الخرافات عند الغربيين ﴾

بعض من العامة يقول ويعتقد أن بعض القطط ملائكة من السماء أنزلها الله تمشى على الأرض لتتأمل ما ذا يفعل الناس أو غير ذلك مما لا تحويه المجلدات حتي صار الغربيون يعتقدون أن الاسلام خرافات وجهل بالآداب وضلال عن الحقائق العقلية كما قال المستر «ديسى»

الانكليزى فى كتابه « مستقبل مصر » عن نشر الخرافات الدينية فى القطر المصرى :
« قد عمت الخرافات جمهور المصريين كما هو ظاهر من حملهم التعاويذ والتمائم وثقتهم بالدجالين والمنجمين » الخ الخ

٢٠٣

﴿ الغلوّ فى الدين ﴾

إن كثيراً من العامة المسلمين يقول فى مصر ويكرّر فى الحارات والشوارع والبلدان والكفور والموالد : لولا النبي صلى الله عليه وسلم ما خلق الله انسانا على الأرض ولا خلق الشمس ولا القمر ولا الملائكة ولا السماء ولا الأرض ولا أى شىء كان فجميع من خلق الله لأجل النبي وحده ! ولم ندر ما هى الحكمة فى هذا الغلوّ مع أن النبي نفسه خلق ليكون عبداً لله وليعبد الله ككل انسان وكل مخلوق أوجده الله فى العالم (وما خلقتُ الجن والانس إلا ليعبدون) وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصرح بنفسه وبوحى القرآن بأنه عبد من عباد الله تعالى يصدع لكل أمر واشارة من الله القاهر كغيره من الرسل . . . ولكنهم على ما يظهر يقصدون بذلك تعظيم النبي واجلاله بما يخرج عن حدّ المعقول

وما ذا يقلّ من مقامه الأرفع لو صرّحنا كما يصرّح هو ويقول الله عنه من أنه عبد من عباده ونبي أرسله للناس ليكون نذيراً وبشيراً بما أوحى الله اليه بكلامه وهو فى مهمته بنسبته لله كباقى الرسل التى سبقته فى الأمم البائدة (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) . . وهو أرفع عند الله من أن يحتاج لمثل هذه المبالغات الكاذبة اذ بمثل هذا الغلوّ تضحك علينا الأمم التى لا تدين بالاسلام ويقولون هذا جنون وكلام لا يقبله العقل والضمير مع مخالفة ذلك للقرآن ولو تأمل الانسان لبعض ما يتقوّله الكثيرون بخلاف ما توضح لتأكد البصير أنهم يشركون بالله بأقوالهم ولا رادع لهم ولا ناصح واذا خاطبهم أحد بتلطيف ما يعتقدون عدوّه كافراً وجاحداً وإنهم إلا يكذبون

*
* *

٢٠٤

﴿ خرافة وكفر ﴾

إن مايدل على الكفر ما يتقوّله بعض العامة عن القرآن والنبي من أنه صلى الله عليه وسلم كان فوق العرش عندما كان جبريل عليه السلام يتلقى كلام الله تعالى لينزله على النبي كأمره فكان يرى النبي فوق السماء من وراء حجاب (كأنه الله) وعند ما ينزل جبريل عليه السلام الى مكة أو المدينة يراه بعينه فيقول له : « منك واليك يا محمد » أعنى ان القرآن من النبي فى السماء ويأتى اليه وهو على الأرض — وقصدهم بذلك تأليه النبي أو إجلال مقامه وهو كفر شديد ليس له نظير — إذ أن ذلك يشبه قول الذين قيل فيهم (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) ! . . وما يقرب من ذلك قول الذين قالوا ان القرآن ابتدعه النبي بمهارته نكرانا لرسالته ونبوّته ولكن ذلك باطل لانه لو كان مبتدعا لكان فى طاقة بعض أفراد البشر أن يأتوا بسورة مثله (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه)

٢٠٥

﴿ الاحترام المعقول ﴾

مما يجب على كل مسلم دينيا أن يؤمن بالله ورسله وبما جاؤا به وأن يكون فى صدره احترام واجلال لهم ولكن بما لا يخرج عن حدّ المبالغة الى الشرك أو الكفر أو التقوّل بالكذب ولو كان مدحا ظناً منه ان ذلك يرضى الله والنبي وينال به جزاء حسنا فهو افتراء وظلم للنفس (فمن أظلمُ ممن افترى على الله كذبا) فلكل شىء حدّ وقد جعل الله العقل ميزانا لكل شىء حتى أن الايمان ومعرفة الله أرجعها الله لارتياح العقول وبمايبثّ فيهامن الحقائق العالمية المقبولة . . فكيف بألفاظ لا يحتاج اليها الدين يهزأ منها عقلاء المسلمين قبل الأمم الذين يجدون أوهاما لا حقيقة لها وغلوّا ينسب الى الاسلام ويتخذونه حجة لاعارة الاسلام والمسلمين . . فمن فعل ذلك كان كالدخيل السوء وهو أشد الأعداء لله والاسلام والناس أجمعين — ولو أحصى الانسان مايتقوّله بعض المسلمين عن النبي صلى الله عليه وسلم بما يخرج عن حدّ المبالغة لملئت مجلدات بخلاف الأحاديث الكثيرة المحشوة فى الكتب — ولو تأملها

الانسان وراجعها على عقله وما ورد فى كتاب الله وطبقها على السنن الشرعية والطبيعية لما وجد لها محلاً — وكثير من الناس الذين يميلون الي الضلال من الطبقة المتعلمة ربما يرتكنون عليها والبعض يتهزأ بها على الدين لضعف تمسكهم بحقيقته ومن المحتمل أن تكون سلاحا لدوام هجر الدين والانغماس فى الخمر والفسق وأهواء النفس المختلفة والجحود

٢٠٦

﴿ تضليل الفقهاء ﴾

إن كثيراً من الفقهاء الذين يحفظون بعض أجزاء من القرآن للتسوّل بها يتفقهون فى الضلال والأكاذيب مع العامة والنساء وكثير من الأغنياء الذين لم تهذب أحلامهم فيجيبونهم على كل سؤال يوجهونه اليهم بقولهم : « إلا يا سى الشيخ الأمر الفلانى ما هو كذا وكذا » فيقول نعم — أولا — حتى الاستفتاء فى المأكل والمشرب فترى أمراً يحلله الله وهم يحرمونه أو العكس لغرض فى الأنفس واذا كذّب به كلام الله والعقل تملص بالقول ان ذلك حديث عن النبي (ص) أو كلام لأحد العلماء أو الأولياء ويبنون أحاديثهم عن الدين تبعاً لأهوائهم المتشعبة الكثيرة ... فلبئس مايشترون

٢٠٧

﴿ الطرق ﴾

اذا نظر العاقل الى الطرق التى يتمسك بها أغلب الأمم الاسلامية الان كالطريقة الاحمدية أو الشاذلية أو الرفاعية أو المرغنية أو . . . أو . . . مما لا يحصى ولا يعد يتأسف ويتألم لأنه صار لكل عالم تقريبا طريقة باسمه تختلف عن غيرها لايهام المسلمين للتمسك بها كأنها آية جديدة من الله لم يذكرها فى كتابه العزيز أو على لسان رسوله — مع أن الغرض الأصلى من الجميع ذكر الله وتقديسه وتوحيده - والله تعالى يأمرنا بأن يكون ذكر اسمه فى النفس مقرونا بالتضريع والخوف وليس كما يفعله الآن أرباب الطرق على اختلافها من الغوغاء والرقص قال تعالى (واذكر ربك فى نفسك تضرّعا وخيفة) اذ أن ذلك هو الذى كان يعمله أولئك الاولياء الصالحون أثناء حياتهم من عبادة الله وذكر اسمه الاعظم — وأن الطرق الحالية اذا فرض وكانت سليمة من العيوب فانها لا تخرج عن حدّ الخيار للاقتداء بالمخلصين

العاملين للتقرّب الى الله تعالى من غير تحزب — ولكن ماذا نقول وهذه الطرق الآن صارت طرق انقسام بين المسلمين لا طرق دين واحد يأمرنا بالتحابب والتآلف والاتفاق على مشرب واحد أساسه القرآن — فترى الأحمدى له مقاصد وأوهام خلاف الآخر المتمسك بطريقة أخرى حتى صاروا أحزابا وشيعاً وكل منهم يقول بأوهام وخرافات وأعمال خارقة للنواميس الالهية مفتخرا بنسبتها الى رئيس الطريقة حتى عم البلاء مع أن الله تعالى واحد وطريق الخضوع والعبادة لذاته واحد وموضح فى القرآن — فمامعنى اختلاف هذه الطرق وما فائدتها مع وجود القرآن ؟ وماذا نحصل عليه من تشيع المسلمين وانقسامهم شيعاً وأحزاباً يتبعون تلك الطرق مع اضافة أوهام وخرافات لتأييد أحديهما علي الأخرى ... وما أكثر أوهام العامة — مع أن الله تعالى يتبرأ من المؤمنين الذين يجعلون أنفسهم شيعاً مختلفة (إنّ الذين آمنوا وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء)

٢٠٨

﴿ الحكام والطرق الدينية ﴾

لا بأس من استعمال تعاليم مفيدة للعامة مقتبسة من الدين يحسن تفهيمها بحيث تكون خالصة لله من كل ما يشوبها ويجعلها خارجة عن الدين والنظام الذى خلق الله عباده عليه ... فان ذلك مرغوب فيه — ولكن الطرق الدينية الحالية ليست علي الأكثر إلا لانتشار الأحلام والأضاليل عن رؤساء هذه الطرق واتخاذها سلاحا للانقسام زيادة عما عليه المسلمون من الضلال فيصبح الأمر أعسر مما نحن فيه صعب التداوى علي الذين يغيرون علي الدين وعلي لفظة اسلام بين الأمم التى لا تدين به علاوة علي محاربة الدين ومخالفة الله تعالى فيما يريد

وأكتفى الآن بذكر جزء من تلك الخرافات لتكون علامة فقط على سوء نتائجها على أغلب المسلمين ان لم يتدارك الأمر ويبث الدين على حقائقه بين الناس — فمن ذلك قول كثير من الذين ينتمون الى الطريقة الأحمدية بأن السيد احمد البدوى رضى الله عنه قطب الوجود وأنه موكل من قبل الله عز وجل بادارة حركة الكون بأجمعه ونظام الأمم كافة بيده ! .. وقد قال لى أحدهم مرة مع أنه يحفظ القرآن ويحسن القراءة والكتابة ويعد نفسه من أول أنصار الدين ما مؤداه : أنه علاوة علي النسبة السالفة للسيد أحمد البدوى فانه يتزيا

فى كل زمان بزى" جديد حسب الحكام الذين يتولون شؤون العباد وهو بهذه الصفة يسمى « قطب الوقت » وقد أوضح لى ذلك وفهمنى بأن ضرب لى مثلا بوجود الانكليز فى مصر فقد قال عنهم : ان الانكليز أنفسهم لا يحكمون مصر بل الذى يحكمها السيد أحمد البدوى وأعوانه من الأولياء لأنه المطلق المتصرف فى الكون أجمع وهو يتزيا فى مصر بلبس البرنيطة وهو الذى يدير حركة الانكليز ويأمرهم بما ينفذوه علينا فيجب علينا اطاعتهم لأنهم وكلاء قطب الوجود فى مصر وهو الآن انكليزيا ! . . وقد فهمنى أنه يتزيا بزىّ فرنساوى أو تركى أو . . . أو . . . حسب الرؤساء الذين يتولون البلاد مع باقى الاولياء المنتشرين فى الممالك والبلدان الاسلامية . الخ وهذا بالبداهة هو الموت الاحمر بعينه للنفس والوطن والدين

ولعل هـذا سبب من الأسباب التى بها رمى علماء الغرب وكبار رجاله أمم الشرق وبالأخص المسلمين بضعف العقل كما قال اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » وهو أن عقل الشرقى ضعيف التنظيم والادراك لاعتقاده بالقضـاء والقدر ورضوخه لكل سلطة تتولى أموره » .. فاذا كانت عامة مصر وهم أغلب الأمة وأنور المسلمين فى البلدان الاخرى يقولون ما تقدم عن السيد احمد البدوى — فماذا يقول اللورد كرومر عن هذه العقول غير ذلك ؟ ؟ . . وآخرون يقولون أن الأقطاب الأربعـة موكلين من قبل الله تعـالى فى ادارة شؤون الكون . . وكل قطب منهم يدير حركة ربع الكون مع أتباعه من الأولياء والصالحين الذين اتبعوا طريقته ! . . وهذه الأوهام وغيرها منتشرة بين الفلاحين بلاد الأرياف على الأكثر انتشاراً غريبا ! . . وأن بعض المتشدّقين بالتدين يؤيدونها ويخرجون المعارض لها عن دائرة الدين ! . . فما أعمى أبصارهم ؟ . . .

٢٠٩
﴿ الأحلام الوهمية ﴾

بعض خرافات يدعيها مشايخ الطرق وأعوانهم مثل قولهم الشيخ الفلانى حضر لى فى المنام وقال لى كذا وكذا وأخبرنى بلزوم فعل كذا وكذا — وآخرون يقولون رأيت الرفاعى فى المنام بالشكل الفلانى وأخبرنى أنه سيحصل كذا وكذا — وهكذا حتى نقول أن الناس فى الحقيقة خرجت عن الحدّ من اتباع مسلك ما لتسبيح الخالق وتقديسه — اذ يجوز

لكل مسلم أن يسبح الله بما يشاء وبما يملى عليه عقله واهتداؤه بنور القرآن دون أن يشير الى كلمة واحدة من أحد هذه الطرق ... وليس غرضنا أن نشير بشىء يمس أحدا من عباد الله — بل نشير الى أن الناس مزجوا هذه الطرق بخرافات خرجت عن الحدّ الذى وضعه الله تعالى أصلا للتدين ويتقوّلون بأقوال خارجة عن الدين بالمرة ويأمرنا الدين بتجنبها لأنها لا توافق روح الاسلام على خط مستقيم ومن المستحيل ازالة هذه الخرافات إلا بلغو هذه الطرق التى لم تجعل إلا لهداية العامة فتحوّلت الى التضليل — وان هذا الزمن ليس كالأزمان السالفة لانتشار الكتب وطبعها وسهولة التعليم العام بحيث يسهل على كل فرد تناول الدين من أصوله بلا احتياج لخرافات صارت سببا لضلال الناس وتشهير الاسلام عند الجاهلين لزيغان حقيقته العالية العظيمة

٢١٠

﴿ نتائج الطرق ... وكرّ الأحزاب ﴾

إن قبول الله تعالى للعبد لم يك لمجرّد تلفظ الألفاظ أو كرّ الأحزاب الدينية على اللسان فكم من أناس يقرؤن كلام الله تعالى وأحزاب الأولياء وعلى قلوبهم غشاوة الافك والضلال وارتكاب الآثام — فهل يتساوى أولئك بمن أخلص لله فى السرّ والجهر وهو مؤمن وقرأ ما تيسر من القرآن ؟ .. فكان من الواجب على الرؤساء المسلمين الذين يديرون حركة هذه الطرق إن كانوا مخلصين أن يبينوا للناس الغرض الحقيقي من الدين إذ أن هذه الطرق لا تهم مع وجود القرآن العظيم وتفهيمهم كذب الخرافات المدسوسة فى هذه الطرق والرؤساء أنفسهم يعلمونها وربما كان بعضهم سببا فى اذاعتها سدا للمطامع الدنيوية والشهرة الكاذبة بين العامة مع أن ذلك ليس بالشىء الهين على الدين وشهرة الاسلام بين الأمم

وكفى ضرر هذه الطرق ما نسمعه كل وقت من عرض الذكيرين على اختلافهم وسفرهم من الأقطار الاسلامية الى الممالك الأوروبية والامريكية فى المعارض ليعرضوا أنفسهم وهم يذكرون كالثعابين بالرقص المخجل الذى يفعلونه أثناء ذكر اسم الله الأعظم بخلاف قولهم أه .. أه .. أه .. عوضا عن لفظ الجلالة الأكبر الذى لا يذكره قلب مخلص إلا ارتجف وخشع ثم هم يكتبون فى المعارض أفكارهم وأمثال الخرافات السالفة

وغيرها عن السيد احمد البدوي والرفاعي وغيرهما قائلين للافرنج هذا دين الاسلام والغرض من الاسلام ! هنالك ترى كيف يكثر ضحك الشامتين المستهزئين بهذا الدين ! أس الكمال ورأس المدنية والعقل ! . .

٢١١

(الشرك والطرق)

الشرك هو تحويل القلب لغير الله تعالي لغرض من الاغراض . . . واذا كان الامر كذلك لماذا يجعل الله تعالى السيد أحمد البدوى وكيلا عنه فى ادارة حركة الكون أو جزء منه ؟ ألم يكن ذلك شرك بالله القائل (والله على كل شئ وكيل) . . مع العلم أيضا ان اختصاص كل جزء من المسلمين بطريقة تثمر مثل هذه الخرافات السابقة لتمجيدها عن غيرها ادعى الى التفريق فى الدين وسببا لتوليد أحزاب جديدة مختلفة تشابه فى انقسامها أحزاب السنين والزيديين وغيرهم .. اذ قال جل شأنه . . (ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون) تالله لقد تبع المسلمون سنن الامم البائدة فى الضلال وتشابهوا فيه ولم يصغوا لتحذير الله لهم من هذا المسلك حتى انقسموا أحزاباً وطرقاً وصار كل حزب بما لديهم فرحون . فهل الله محتاجا لمثل هذه المساعدة من السيد البدوى مع ان الله تعالى يراقب حركة الأنفس الداخلية وهو على كل شئ وكيل !

٢١٢

(تبرؤ المسيح نفسه من الألوهية)

ان السيد البدوى لو بعث حيا وسئل عن هذا الادعاء الكاذب لتبرأ منه الى ربه كما تبرأ عيسى المسيح عليه السلام من الذين قالوا عنه بعد وفاته انه ابن الله أو هو آله قائلا لله عز وجل فى ملكوته بان لا علم له مطلقاً بأحد على الارض ولا هو رقيب على أحد يقول بمثل هذا القول . . وهذه هى الحكاية والخطاب الذى خاطبه الله تعالى لعيسى عليه السلام فى ملكوت الله وأنزله على نبنا عليه الصلاة والسلام ليكون دليلا وهادياً للمسلمين الذين يعتقدون أن أحداً من الاولياء أو الانبياء يدير حركة شئ على الارض مع الله أو أى شخص كان أو يراقبها أو يعلمها اللهم الا من الملائكة الكرام الذين أشار الله عنهم فى

الكتاب – اذا كان الأحياء الباقين الا ن على سطح الكرة الأرضية يمكنهم أن يتقولوا بشيء عن حالة من مات من الناس من قبلهم أو ايضاح شيء مما هم فيه عند ربهم فى السماء .. فأولئك الأموات أيضاً يمكنهم أن يعلموا شيئاً عن الأحياء الموجودين على الارض! (ألم يروا أنا أهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون) بل ان الله فاصل بين هؤلاء وأولئك بحجاب كثيف لا يمكن لأحد اختراقه مطلقاً قال عز وجل : (واذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس أتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك !! ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب .. ماقلت لهم إلا ماأمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم .. فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) فهذا المسيح عيسى عليه السلام يتبرأ الى الله مما ينسب اليه من الألوهية باطلا . . . وأن الغرض من اتيان هذه الآية هو تفهيم أولئك الذين يعتقدون فى ميت من الناس سواء كان نبيا أو وليا أنه يراقب شيئاً على الأرض أو العلم بأى شيء مطلقا على الأرض بعد موته إلا بما يريده الله تعالى بما لا نعلمه نحن أو نتقول فيه كقول عيسى عليه السلام السابق فى الاية (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) أى انه عليه السلام كان يعلم بكل مايقولونه وهو بين أيديهم حياً على الأرض قبل وفاته . . ولما توفى ورفعه الله تعالى اليه واحتجبت روحه فى السماء عند الله لم يعلم بشيء مطلقاً بما يقولون ويدعون فقد ترك الله رقيباً عليهم وعلى أقوالهم وأعمالهم كما كان رقيباً علي الجميع ويعلم بما قاله هذا النبي الكريم اليهم . . . ويمثل ذلك قول الله تعالى للذين يعتبرون عيسى عليه السلام آلها فى قوله (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) ثم أظهر تعالى فى كتابه أنه نبى فقط ورسول وانه كأحد البشر لا ينفع ولا يضر أحداً اذا عبدوه كما فى الآية : (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون .. قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم) فهذا نبىّ من الأنبياء المكرّمين الذين لهم درجات عالية عند الله يصرح الله تعالى فى الكتاب بما يعترف به عنده فى ملكوته بعدم علمه بشيء بعد وفاته

مماهو على الأرض وأنه لا ينفع ولا يضر فكيف بعد ذلك نقول أن أحد الأولياء والصالحين يفعل شيئاً على الارض أو يمكنه أن يأتى بشىء لأى انسان من نافع أو ضار ؟ ولِمَ ذلك ؟. أما كانت الانبياء أولى بذلك ؟ . وهل الله تعالى يصرّح بمثل هذه الخرافات فى الكتاب الكريم من أن بعض الأولياء يحكمون معه فى الأرض ؟ ؟ كلا ! (ولا يشرك فى حكمه أحدا)

٢١٣

﴿ فناء العالم ﴾

نعلم جيداً أن الله تعالى يقول (كل شىء هالك إلا وجهه) أى ان كل شئ يؤول الى الفناء بالموت أو الزوال بالتغيير - وهى سنة على جميع المخلوقات بلا استثناء -- فكم من نبى ورسول ماتوا (ورسلا قد قصصناهم عليك ورسلا لم نقصصهم عليك) وكم من أمم هلكت فى القرون العديدة الماضية ؟ هل نحسّ منهم من أحد ؟ أو نرى لأحدهم تأثيراً ؟ وإذا كانت سنة الله واحدة على كافة الخلق ! لم يتخذ المسلمون لأنفسهم أولياء من المسلمين كالأقطاب الأربعة وغيرهم كأحد الصالحين ويشركون بهم بالله وليقولوا على الله الكذب وعليهم بأنهم يديرون حركات العالم أو يرسلون لهم شيئاً ما نافعاً أو ضاراً أو أن لهم تأثيراً فى شىء ما أو على أحد ! . . ان ذلك لمخالف لروح الاسلام والقرآن فان سنة الله تعالى واحدة على الخلق أجمعين بلا فرق بين هذا وذلك فليتدبر الغافلون (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) . . . .

٢١٤

﴿ الاستغاثة بالأولياء ﴾

كم من رجل وامرأة مسلمة تقول لأختها فى خصامها معها ودعائها عليها بما مؤداه : إن السيدة عائشة أو السيدة زينب تعمى عينها بقدرتها لتصير ضريرة فى نظير ظلمها لها . . فتردّ عليها الأخرى بالقول : ان السيدة رضى الله عنها تعلم بى وبما أعمله وهى تعلم بك وبما تفعلينه أيضاً . . فاذا كنت حقيقة ظلمتك فهى تنتقم منى على عملي وإلا فبالعكس — هكذا يقول كثير من الرجال والنساء العامة وبعض الخاصة — وأمثال ذلك وما يشبهه لا يعدّ ولا يحصى — فأين ذلك مما سبق إيضاحه وهو لاشك مخالف لروح الاسلام مخالفة كلية

٢١٥

﴿ المقامات والمقابر ﴾

ان أخص شيء لمقامات الانبياء والصالحين وغيرهم علي الارض هو تذكير النفس بربها القاهر الذى (يحيي ويميت) وبما عمل أولئك الموتى من عمل صالح مفيد برؤيتها مقابرهم ولتتذكر تاريخهم وأعمالهم التى يمجدها العقلاء فتتخذ منه درسا تهتدى به فى طريق الحياة وليهدأ الضمير بما يراه من عمل يكون به الزلفى عند الله فى الآخرة ولكى يميل الى العمل الصالح التى تشكر عليه بعد الممات من الخلق والناس مثلهم ... وما أكثر العبر فى التواريخ والقرآن . — أما ما يختص باحوالهم بعد موتهم فأمر بعيد عن الظن والتنجيم فان ذلك من خصائص الله تعالى وحده - ومن الحرام البحت أن يعتقد أحد من المسلمين فى أحد مطلقا أن يفيده أو يعمل له أى شيء كان نافعاً أو مضرا - فمن يرد شيئا فليطلبه من الله وحده مباشرة دون الناس أو الأوليا أو الانبيا فهو تعالى أولى بالطلب والاستنجاد والاعتقاد الحسن فى فعل كل شيء يراد — اذ هو تعالى أقرب للانسان من روحه وعليم بسره وجهره — ولأن ذلك هو ما كان يفعله النبي صلي الله عليه وسلم فى حياته ويشير الله تعالى اليه فى القرآن عن نبيه من أنه لا يدرى بشيء مما يفعله الله تعالى بالناس أو يفعله الله تعالى فى نفس النبي (ص) إلا بما يوحيه الله به اليه ليتبعه قال جل شأنه : (قل ما كنتُ بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا مايوحى إلىّ وما أنا إلا نذير مبين) فهذا ما يقوله الله عن نبيه الكريم وهو يقول أيضاً : (قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا) واذا كان نبينا (ص) لا يملك لنفسه فى ملك الله الواسع شيئا من نافع أو ضارّ إلا بما شاء الله أن يمدّه به فماذا نقول عن الأولياء أو الصالحين أو أحداً فى العالمين ؟... لا شك غير الاعتقاد فى الله والالتجاء اليه فى كل أمر مهما كان دون أحد من الناس — هو ذلك أرادة الله والحقيقة وروح الدين وأصل الاسلام والقرآن العظيم

*
* *

٢١٦

﴿ اسم الله والقرآن ﴾

يقول بعض الناس أيضاً عن اسم الله الأعظم وآيات الله القرآنية بما يراد منه خرق النظام العام الذى أوجد الله فيه عباده . . . فكم من أناس يقولون أنه اذا قرأ الانسان كذا يمكنه أن ينال كذا أو يعطيه الله كذا أو يأتيه كذا مما هو بعيداً عنه بعد السماء والارض ولا ينيله الله تعالى أبداً هذا الأمر من غير النظام الطبيعى الموافق للعقل الذى خلق الناس كافة عليه .. وان مثل هذه الآيات القرآنية نعم تفيد قارئها . — ولكن ليس ليكون الله تعالى تحت مشيئتهم فيما يريدون من حق أو باطل بل نتيجتها تنقية قلوبهم وحسن تأثيرها علي عقولهم واسماعهم ان كانوا بما فيها يعقلون — ان القرآن العظيم ليس بطلاسم سحرية تذكر لحل أمر وهمى أو سحري بل هو آيات بينات لمن أراد أن يذكر الحقائق التى بنى عليها نظام الكون أو أراد من الله تقربا وشكوراً . . يجب أن يتلي القرآن من كل فرد من أفراد المسلمين ولكن ليس لتنفيذ غرض فى النفس بلا حق وبلا عمل فنوال الاغرض مفوّض لارادة الله المطلقة أو لما تشير به إلهامات الله فى العقول فتسير لنوالها حسب السنن الطبيعية التى خلق الله عباده عليها أجمعين

فقراءة القرآن يجب أن يقصد بها وجه الله ورحمته وهو بعد ذلك يفعل ما يشاء بحق ولكن من الخطأ الكبير والضلال ان نخص كلاما من كلام الله أو أوراداً أو أحزابا أو أشياء أُخرى لنقول انها جعلت لتنفيذ غرض معين من الاغراض ونعتقد انها آلة تجلب المطالب بلا حق ونحن قاعدون . . وان الله بمقتضى قراءتنا لها وتمسكنا بها يجيب طلباتنا حتى ولو كانت مستحيلة النوال ببداهة العقول فان ذلك فى الحقيقة خروج عن حدود الدين

٢١٧

﴿ الكفر وقراءة القرآن ﴾

اذا أحضرنا مجوسيا أو عابد صنم وقلنا له اقرأ القرآن فماذا يفيده القرآن ان كره كالضرير مع تمسكه بالكفر ؟ وماذا يفعل به القرآن وماذا تفيده الالفاظ القرآنية التى تخرج من فمه ان كان قلبه وعقله فى ضلال مبين ! — فكذلك اذا قرأ القرآن مسلم فالله تعالى يرحمه به بمقدار نيته الخالصة لله وحده ويمده من عطائه بحسب أعماله فقط ولا عبرة بالتكرار

ودوام القراءة ان كان هناك عمى فى العقل والبصيرة أو كان عمله يخالف ما يفهمه من آيات الله الحكيمة !!

٢١٨

﴿ سقوط الممالك الاسلامية من الخرافات الدينية ﴾

تصل الخرافات الدينية أيضا الى خواص الأمة وكبرائها من غير أن يتخذوا لأنفسهم سلاحا يتقون به تلك الأوهام أو يتدبرون القرآن ولو قليلا . . . ولو تأمل الانسان الى قيام كثير من الدول الاسلامية وسقوطها لحكم بأن سقوطها لم يك إلا بسبب تمسك أهلها بخرافات خارجة عن الدين . . حتى اذا ماأراد الله تعالى أن ينفذ عليهم سننه التى خلقها واحدة بين جميع الامم على اختلافها وهى موضحة توضيحاً كافياً فى القرآن .. انكشف خطاؤهم وزالت أحلامهم بزوال ملكهم وآمالهم الشيطانية غير مأسوف عليهم ولم ينلهم الله تعالى غير ما قدمت يداهم بقطع النظر عن نسبتهم اللفظية للاسلام بما ان أعمالهم تخالف أوامره العالية الحكيمة

٢١٩

﴿ العرابيون والدين ﴾

قد يبالغ بعض الناس أن العرابيين عند دخول الجنود الانكليزية من السويس والاسماعلية لمحاربتهم عوضا عن أن يأخذوا حذرهم منهم وعدتهم ضدهم بما تقتضيه التصميات العسكرية انقطعوا مع البلهاء لاعمال الاذكار مع المشايخ والاستخارات والتعزيم لصدهم عن الوطن فكانت نتيجة أوهامهم فى مثل هذه القراءة والازكار ومخالفة ذلك للسنن الالهية والطبيعية من مقابلة الضد بما يليق له حسب الحركات والتصميات التى يفعلها ان فروا هاربين ووراءهم الجنود كالاغنام حتى وقعوا فى أبشع حال مجرد عن كل شهامة وتمجيد بخلاف قولهم للعساكر بقراءة آيات بواسطتها يقع رصاص العدو ومدافعه بعيدا عنهم ولا يصل اليهم مما لايفيدهم ذلك أقل فائدة

ونحن وان كنا لا نجزم بهذه الاشاعة المبالغ فيها غير ان بعض الكتب التاريخية تؤيدها تقريبا ولذا ننقل هنا على سبيل الفكاهة والتذكير ماخطه أحد كبراء الثورة العرابية

وهو المرحوم «محمود باشا فهمى» المتوفى بجزيرة سيلان عما كان يفعله أحمد باشا عرابى رئيس الثورة العرابيــة وزعيمها فى كتابه المسمى « بالبحر الزاخر فى تاريخ الأوائل والأواخر » حيث يقول عنه فى الجزء الأول صحيفة ٢٣١ كما يأتى بالحرف :

وبعد ذلك أخذ الانكليز فى الاستعداد لأجل الهجوم على التل الكبير وكان فيه عرابى وتحت قيادته نحو أربعين ألف من المسلمين . وفى نفس الليلة التى استعدفيها الانكليز للهجوم على التل الكبير كتب على يوسف الى عرابى وكان فى المقدمة يخبره بعدم حركة العدو أو قربة من الموقع وانه لايخشى من شئ فقعد عرابى طول الليل مع الفقراء فى الصيوان الذى كان منصوبا لجلوسه فيه ومعه أولاد الشيخ عبد الجواد يذكرون الى النصف الأخير من الليل وعند قرب الفجر ناموا جميعاً وما يشعر عرابى الا ومقذوفات مدافع الانكليز داخلة فى صيوانه والعساكر هربانة ومبددة فى كل جهة فجاء على الروبى وقال انج بنفسك والا قتلت فما لحق أن يلبس هدومه وركب حصاناً وأسرع فى الجرى وما زال مدبرا حتى وصل محطة منيا القمح ونزل فى وابور الركاب وسار الى القاهرة ولبس فى منزله هدومه وتوجه الى ديوان الجهادية وأخبر وكيل الجهادية ومجلس الشورى بهزيمة التل الكبير وفراره وفرار الضباط والعساكر من واقعة استمرت عشرين دقيقة واستولى الانكليز على ماكان فى التل الكبير من ذخائر وأسلحة ومؤنات وغير ذلك من اعانة الامة المصرية . وفى موضع آخر من الكتاب بصحيفة ٢٣٦ يقول عن مقاصد عرابى باشا بالحرف الواحد : وكان قصده الاستبداد وان ينشىء حكومة وسلطنة عربية يكون هو سلطانها وكان عنده فى منزله دائما مغاربة ومشايخ يعدونه ويعنونه ويقرؤن له الاحزاب والاوراد لينال بهام رغوبه وهكذا فلما بلغنى هذا كله ورأيت ماعليه عرابى من الجهل وما هو الا جاهل فقى ريفى من « أصحاب الطرق الدجالين » . حمدت رب العالمين الذى لم يبلغ هؤلاء نواياهم ونفاهم وطردهم من البلاد وأراح منهم الارض والعباد.

٢٢٠

﴿ ضياع البلاد الاسلامية ﴾

اذا كان ماسبق هو مايقوله رجل كان يعد من أعظم المسلمين فى الأمة المصرية عن رئيس الثورة العرابية الذى كان يعد نفسه أول مسلم فى حادثته وثورته التى هى أعظم حادثة فى التاريخ غيرت وجه نظام الحكومة المصرية فما أكبر المصائب التى تأتينا اذاً من الدين : . ان كان ذلك كما يدعون من الدين : ولكن الشائع بين الناس حتى صار كالعادة أن كل انسان يتحاشى أن يقول له انسان آخر فائدة ما عن كلام الله أو عن جزء منه ثم هو يتعرّض لتكذيبها أو تكذيب قائلها ظنا منه أن ذلك يوقعه فى الكفر ... حاشا ... فان السير خلف الحقائق العملية المثبوتة دينياً وطبيعياً حسب ناموس الله فى خلقه أولى وأحق بالاتباع للنجاة من وخامة عاقبة الكذب على الله فيما لا يصرّح به فى كتابه العزيز عن مثل هذه الخرافات الوهمية فالحق أحق أن يتبع

٢٢١

﴿ كنوز الأرض والقرآن ﴾

دع عنك مافات فكثير من المشايخ المضلين يتخذون كلام الله وقراءة أحزاب أخرى وسيلة لاستخراج كنوز الارض وهؤلاء منتشرون فى بلاد الاسلام كالجراد وهم فى الحقيقة للتحيل والنصب ليشتروا بكلام الله ثمناً قليلا ومهما قرؤا منه وتظاهروا بالتقوى والاخلاص لله فمن المستحيل أن يغير الله لأجل ذلك نظامه الذى فطر الناس عليه لتنفيذ مآرب المضلين . فكم من بيت خرب وكم من مجد سقط بتتابع الناس لأولئك المضلين الذين يسلبون الناس أموالهم بالقرآن وهم لاجلالهم كلام الله لا يعارضونهم ولا يكذبون أوهامهم ودعواهم مع أنه لا دليل لهم فى القرآن عن ذلك . ومثل هؤلاء أشد الناس عداوة للدين لأنهم بثوا بأعمالهم خرافات لا حقيقة لها مع تقصير همة المسلمين وتفكرهم فى سنن الله التى أوضحها فى الكتاب وهى لا تخرج أبداً عن السنن الطبيعية الفطرية لكل شىء ولكل الحقائق العقلية المنيرة

٢٢٢

﴿حكومة المهدى بالسودان﴾

لنرجع ببصرنا لفتة ثانية الى أحوال السودان وقيام زعيمه السالف « محمد المهدى » هناك وتأسيس حكومة اسلامية مستقلة . — فلو أردنا أن نحصى أكاذيبه الكثيرة على الله والنبي والقرآن فى كيفية وصوله الى هذا المأرب العظيم لملأنا المجلدات الكثيرة ولكن لا مندوحة لنا من أن نشير الى أن هذا الرجل كان يحفظ القرآن فقط وعنده عقل ونباهة قد استعمله فى التمويه على الناس باسم الدين وأمكنه أن يتخذ الطرق التى تمكن من أعماق قلوب السودانيين حتى صدقه الاكثرون الا بعضا من العلماء المتضلعين فى الدين فقد وافقوه على أحلامه على كره منهم . وبعد ان طاب له المقام وأسس هذه المملكة كان اذا أراد أمراً ما من الأمور يجمع الأمراء والعظماء ويقول لهم . أتانى النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام وأمرنى بصفتى خليفته ان أفعل كذا وكذا فاصدعوا بالامر بلا تأخير . . وبمثل هذه المنامات كان يقتل من يقتل وينهب من ينهب ويسجن من يسجن ويعزل من يعزل باسم النبي عليه الصلاة والسلام . وأضاف الى ذلك أيضا أن الخضر عليه السلام كان يلازمه فى كل أعماله حيث يقولون انه لم يزل حيا يلازم خلفاء الاسلام على الارض لارشادهم على خفايا الأمور والأعمال . واذا تأمل الانسان لهذه الخرافات وما كان يقوله لتأكد أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يترك هذا المضل فى كل ليلة ساعة واحدة بل يتوهم الانسان أن النبي رجع الى الارض ليحكم السودانيين ويجعل « محمد المهدى » وكيلا عنه من وراء حجاب لتبليغ أوامره للناس حتى وصلت به الغيرة الى ارسال الدعوة للاسلام للملكة فكتوريا والى الخديوى الاسبق توفيق باشا للخضوع لسلطانه لانه الخليفة عن النبي وقد أمره فى المنام بذلك

هكذا قامت هذه المملكة الاسلامية على مثل هذه الخرافات المنسوبة للدين والنبي والقرآن والله يتبرأ منها ورسوله ولو استعمل أولئك القوم ما يجب عليهم من تأسيس ممالكهم على نظام عادل ثابت طبيعى موافقا لحقيقة الدين والسنن الآلهية فى الملك غير ناسين شيئا من الأوهام اليه لما بكت العين ولما اضمحل اسم الاسلام

ولكنهم يؤسسون ممالكهم على أوهام وخرافات لا أساس لها فى العقل ولا فى الدين حتى

اذا هلكوا زال ملكهم واضمحل بزوال أحلامهم لان من يخلفهم لا يتأتى له أن يحسن السبك فى غش الأمة باسم الدين مثلهم ولربما لا يقبل على نفسه هذا الاثم الاكبر فتتغير الأحوال وتقع البلاد فى فوضى لا آخر لها حتى تزول زوالا أبديا لا رجعة بعده كما زالت حكومة هذا المهدى الكذاب . بل بمثل ذلك نعرف أسباب اضمحلال جميع الامم الاسلامية الحالية

٢٢٣

﴿ الاسلام والامم الغربية ﴾

لو أردنا أن نحصر ما يقع فى قصور ملوك الامم الاسلامية وعظمائها من مثل هذه الخرافات لضاق بنا المقام وان وقوع الأمم الاسلامية فى مثل هذا الاضمحلال الظاهر لهم أحق به كما تقضيه سنن الله التى لا تتغير بأوهام تنسب للدين والدين يلمع كالسيف فوق كل حقيقة بخلاف النتيجة الرديئة التى أوجدها أولئك القوم على شهرة الاسلام فان الأمم المسيحية الغربية الراقية فى نور العرفان والتمدن بتأملها لأعمال الامم الاسلامية على اختلافها وارتفاعها وسقوطها على أوهام مثل هذه ظنوا أن الاسلام عنوان الجهل وهم معذورون لجهلهم بحقيقته بل قالوا طبقاً لما يرونه من سقوط الامم الاسلامية على الشكل السالف أنه مصدر الخرافات والتقهقر والظلم وما الاسلام الا براء من أعمال هؤلاء وكلام أولئك المسيحيين بل ذنب الجميع واقع بلا شك على رؤس أولئك المضلين من المسلمين وما هم بمسلمين (وليحملن أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم بغير علم الا ساء ما يزرون) .

وبهذه الحالة وبالأوهام تقع الامم الاسلامية تحت مخالب الامم المسيحية ويفتخرون عليهم ويعايرونهم بالقول : « ان الامم الاسلامية تقع فى يد الامم المسيحية لتأكلها كما يأكل الانسان (الخرشوف) ورقة بعد ورقة »

٢٢٤

﴿ تأصل الخرافات بين المسلمين ﴾

لو تأمل الانسان لاكثر المعتقدات عند المسلمين ووضح ما يتقولونه ويعتقدون فيه رجالا ونساء لحكم بأن الامم الاسلامية فى ظلام حالك وانهم ظلموا أنفسهم بتقاعدهم وصموت العقلاء والعلماء منهم عن تبديد مثل هذه الأوهام وتفهيمهم روح الاسلام الجميلة

كما تفعل الأديان الأخرى على الأقل بقطع النظر عن وجوب تفادى أنفسهم وأموالهم فى تأييـد كلمة الله حتى انتشرت الأضاليـل عن الاسـلام والمسلمين والعلماء والأغنياء نيام لايتحركون . نعم . انا أكثر الامة فى جهل ولكن لا نقول هم متعمدون هذا الجهل فانهم لو راؤا منبها وبالأخص من العلماء والفقهاء الذين يفـدون أنفسهم غيرة على الدين وآدابه الى حقيقة دينهم وروح الاسـلام لما تأخروا لحظة عن قبوله بكل ارتياح والعمل به والزود عنه اذا لزم الحال

٢٢٥

﴿من المسئول ؟﴾

ان ذنب الامة الاسلامية واقع على هؤلاء العلماء من المسلمين فالاغنياء فكان يجب عليهم أن يكون زبدة تعليمهم واجتهادهم وتنورهم واخلاصهم لله فى الدين هو تنوير الامة وتعليمها جهد الاستطاعة مهما وجدوا من اساءة أوتعد أو تعب أو نصب ليقتدوا بالرسـل عليهم الصلاة والسلام حيث يقول الله بخصوصهم : «حتي اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا» . — فأين من عمل منهم بهذه الروح واستيأس من بث روح الاسلام الحقيقية بين أفراد الامة الذين يتشوقون تشوق الظمآن من سماع كلمة ولو كذبا من فم عالم أو متنور أو فقيه . واذا كان الرسل عليهم السلام على تأكدهم من حقيقة رسالتهم من عند الله وأوامر ربهم يعملون جهدهم حتى يستيأسوا ويظنوا أن الناس عارضوهم بكل الوسائل لعدم قبول رسالتهم ويتأكدون بعد التعب الشديد أنهم قد كذبوا فأين من عمل شيئاً من خلاصة تعلمه وعلمه الذى لا يخرج عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأى وسيلة تفوه بها عالم أو فقيه لأمر بمعروف أو نهى عن منكر واستيأس منها وعجز عن مقاومتها؟ — اللهم الا فى جدران الازهر وأمكنة التعليم الخصوصيـة . — نحن بما عهدناه من أولئك انهـم يتصورون ان لاعضد لهـم من الحكومة أو من أحد الاغنياء . واذا فرضنا ذلك فلم لايؤدون وظائفهم كأوامر الله ولو تصلهم الاذية من الفقر أو من الغير ويكونوا كمن قال الله تعالى فى اجتهادهم (واوذوا فى سبيلى) ألم يك نشر أوامر الله ونواهيه من سـبيل الله فأين من يفعل ذلك ؟ . . .

٢٢٦

﴿ التشبه بالغير ﴾

ما أحق علماء الاسلام فى هذا الزمن أن يتشبهوا بالمبشرين من المسيحيين الذين يتحككون فى كل مسلم وهم ناظرون اليهم مع أنهم يتحملون بكل صبر وجلد متاعب الأسفار الكثيرة والغربة والتعذيب حتى انك لتجد فى كل جبل وبقعة من بقاع الارض مبشرا مسيحيا لبث روح دينهم بين المسلمين المتخلخلين فى دينهم والوثنيين والمتوحشين . ولنعم ما يفعلون من أداء الواجب عليهم . وكانت الأمم الاسلامية وفى مقدمتهم العلماء والفقهاء أحق بذلك ولو للتمسك بمبدأ واحد هو تبديد الأوهام كالضلالات السالفة التى هى نقطة من بحر من عقول المسلمين ليزدادوا تنوّراً فى توحيد الله وكلمة الدين وليس لنشر الاسلام فيمن لم تصلهم روح الاسلام ! . . . وما العمل وقد صار كل أمر نريده نجد المسيحيين سبقونا اليه بآلاف من الخطوات والأميال حتى صار كلامنا وحركاتنا حتى فى الدين مبنية على التشبه بأعمال المسيحيين ليقول الناس والتاريخ كما يقولون الآن أن المسلمين عجزوا أن يرتقوا بالاسلام فتشبهوا بالمسيحيين فى كل شىء مع أن القرآن ما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وفصلها تفصيلا شافياً وافياً . وماذا يجدى التفصيل والايضاح والتشبه لقوم لا يرغبون النهوض بما هم فيه وبما يحيط بهم لتهديد حياتهم ودينهم لا يعتبرون ! —

٢٢٧

﴿ لِمَ هذا الجمود ؟؟ ﴾

هل تتكئون أيها العلماء والفقهاء على قول الله لنبيه الكريم (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وتقعدون ولا تنصحون ولا تزجرون ولا تطالبون حا كما أو محكوما بما آتاكم الله من علم وهداية ظناً منكم أن لا فائدة من وعظكم وغيرتكم على الدين وأوامره مادمتم لا تهدون أحداً وليس بيدكم أن تهدوا أحداً من الناس ! . .

اذا فهمتم ذلك فكأنكم تفهمون كل شىء مقلوباً حتى صرتم على هذا التهاون . ولكن ليس الغرض من هذه الآية تسبيط الهمة فى الدعوة الى الله . بل الغرض منها ان يؤدى النبي (ص) وظيفته فى الدعوة والانذار والتبشير لجميع الناس بما أمره الله به وبما تعلمه من الله

بكل الوسائل التي أوحى اليه بها تاركا بعد ذلك الحرية التامة لمن أوصل اليهم أمر الله . لان الهداية شيء من خصائص الله بينه وبين من وصلت اليهم الدعوة . — واذا كان كل من طلبه النبي (ص) للاسلام يقبله ويسلم به لم تكون رسالته ونبوته نذيرا ! . . . ان النبي عليه الصلاة والسلام أرسل بشيراً بالقرآن لمن قبل دين الاسلام وعرفه ونذيراً لمن عرفه ونأى عنه وأعرض . فاذا لم يكن من بني الانسان من يعرض عن كلام الله ويهزأ به فما فائدة الانذار وما معنى الرسالة !...

فأهم شيء للنبي عليه الصلاة والسلام تبليغ الرسالة ليس إلا كما أمر الله وتنفيذ أوامر الله وليس عليه البحث فيما اذا كانت تهدى الناس أم تضلهم (ما على الرسول الا البلاغ) وسواء مدحها القوم أم كذبوها . ونفس هذه المهمة مطلوبة من كل مسلم إن أمكنه أيضاً ليؤديها بين الناس بالمعروف والحسنى غير خاش بأس أحد من الناس إلا الله سبحانه وتعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً)

فاذا فرضنا أن هؤلاء القوم الذين انقطعوا للدين وتعلمه وتعليمه أدوا وظائفهم في بيان روح الاسلام لمن جهلها ولو من المسلمين فقط — مع أن الاسلام يدعو الناس كافة — ثم وجدوا اعراضاً منهم وتكذيبا «عمداً» فهذا شيء لا يجب عليهم أن يهتموا به وييأسوا من روح الله بل كل ما يهتمون به أن يبثوا تعاليمهم المفيدة جهد استطاعتهم غير سائلين أطاعها الناس أم خالفوها (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغيّ) . فالاسلام دين الفطرة التى تطلبها النفوس وتبنى أعمالها عليه وبما جاء فيه فالأولى تركهم أحراراً فى قبوله أو رفضه انما العمل على كل حال واجب حتما ان كان هناك اخلاص لله فى الدين — ولقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يعمل بهذه الروح بين الناس والأمم حتى كان يتأسف فى نفسه عند ما يرى الاعراض من الكثيرين عن القبول بعد أن تصلهم الدعوة ونور الاسلام فقال له البارى جل شأنه : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) ولكن ليس لنا إلا أن نذكر قوله تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) ولعل الذكرى تنفع المؤمنين

*
* *

٢٢٨

﴿ شهرة الاسلام اليوم ﴾

ما أحوج الذين أوقفوا أنفسهم للخدمة الدينية للعمل بروح الاسلام لبثّ فضائله والغرض منه وفوائده مع تبديد الأوهام والضلالات التي ينشرها المعتوهون والمجانين عنه بين الناس . — ولو كان يوجد من المسلمين العاملين بين الأمة بقدر ما يوجد من هؤلاء المضلين رجالا ونساء لهان الأمر وما بكت العين ولقلنا أن أولئك على ضلال وأولئك على حق ولا بد من انتصار الحق على الباطل . — ولكن هذه النسبة معدومة كلية تقريبا وكأن لا وجود لأحد ممن يهمهم روح الاسلام حتى قالت الافرنج : « ان الأمم الاسلامية فى انحطاطها أشبه بالقرون المظلمة التي مضت على أجدادهم الأقدمين الذين كانوا منتشرين فى أواسط أوروبا وفى الغرب بينما كان الاسلام يتلألأ نوره فى الشرق ويبسط جناحيه على الممالك والنفوس والبلدان » مع ما يبثونه من التشهير على الاسلام والمسلمين مما يخجل الانسان من توضيحه حتى قال بعضهم : ان الاسلام مصدر الخرافات وسبب الانحطاط للمسلمين وانه لا توجد بعثة علمية فى المسلمين مطلقا يمكنها أن تناقش بعثة علمية مسيحية مناقشة عقلية — فأين ذلك مما كان يعمله المسلمون فى الزمن السابق . — لقد انقلب الأمر ! . . ولكن فى نفوس الأفراد والأمم . أما روح الاسلام فهى لا تزال تتلألأ بنورها وترفرف بجناحها فوق رؤوس الأمم على اختلافها منادية بالبراءة مما ينسب اليها قائلة للامم الاسلامية هذه يدى أمدّها اليكم لأنشلكم من أوهامكم وضلالكم واضمحلالكم فاسرعوا للانضمام الى صدى الحنون لأرفع مجدكم كما كان آباؤكم فلا تلبثون أن تسودوا الأمم بعلوّ آداب دينكم وبكنز القرآن الثمين الذى بين أيديكم — إن فى ذلك لبلاغا لقوم يتذكرون

فصل ١٤

٢٢٩

ماهى الارادة

الارادة هى تخصيص المراد بحرية النفس واختيارها بنظام ماسواء كان هذا التخصيص للذات المريدة أو للغير بشرط القدرة على ترك التخصيص المذكور قبل حصوله ليكون بوقوعه جديداً أو حادثا — وعليه فكل إرادة وقعت فعلا تكون حادثة — فان كان هناك دلائل تثبت امكان عدم القدرة على التخصيص المذكور من المخصص قبل حصوله انتفى معنى الارادة الى الاضطرار — فأساس الارادة اذاً هو امكان السلب والايجاب فى وقت ما فى ذات المريد عما يريده

٢٣٠

﴿ مثال التخصيص للذات المريدة ﴾

اذا قلت أريد ملابساً بيضاء «لنفسى» فهذا التخصيص هو ارادة ذاتية للنفس — فاذا دلت الدلائل على أن لبسى ما أردته لا أقدر أمنعه قبل هذا التخصيص انعدمت معنى الارادة الى الاضطرار

٢٣١

﴿ مثال التخصيص للغير بنظام ما ﴾

اذا قلت لمخاطب أريدلك أن تختار ملابسا بيضاء خفيفة فى الصيف وملابسا ثقيلة من الصوف فى الشتاء . فهذه ارادة على نظام ما كيفية مذكورة فيما توضح . . فان لم يكن لى القدرة على هذا التخصيص اللفظى قبل أن أخصصه انعدمت معنى الارادة أيضا الى الاضطرار

٢٣٢

﴿ حدّى الارادة ﴾

يتضح مما تقدم أن الارادة ذو حدّين متضادّين فكل منهما يسمى « مشيئة »

٢٣٣

﴿ معنى المشيئة ﴾

معنى المشيئة هو امكان تخصيص أحد المتضادين المذكورين لا التخصيص نفسه الذى بوقوعه على أحد الوجهين تتعين الارارة ويتم وقوعها

٢٣٤

﴿ كيف تتركب الارادة من المشيئتين ﴾

لا وجود للارادة إلا حيث يوجد المشيئتان المتضادّتان فى حيز الامكان قبل وقوعها كتخصيص النفى مع امكان الثبوت فهو ارادة لتخصيص مشيئة النفى مع وجود مشيئة الثبوت معها وكانت فى حيز امكان التخصيص مثلها قبل التخصيص بالنفى المذكور . . . وكتخصيص العدم مع امكان الوجود . . وكتخصيص الفعل مع امكان الترك . . وكتخصيص الترك مع امكان الفعل الخ

٢٣٥

﴿ مثـــال ﴾

يقال فلان أراد فعل كذا فلا يثبت له أنه ذو ارادة فى هذا الفعل إلا اذا كان بجانبه امكانه ترك الفعل المذكور قبل تخصيصه فاذا كان لا يمكنه منع نفسه من تخصيص الفعل المذكور قبل أن يخصصه انعدمت معنى الارادة الى الاضطرار . . . والا فان كان ذو ارادة فله مشيئة تخصيص الترك ومشيئة تخصيص الفعل المذكور وبوجودهما معاً له يثبت له معنى الارادة عند تخصيص أحدهما بالاختيار والحرية الذاتيـة ومتى تم التخصيص بحرية على أحد الطرفين المتضادين وقعت الارادة فعلا وتعينت

٢٣٦

﴿ الحرية أساس الارادة ﴾

الارادة فى الواقع ليست شيئاً معيناً محدوداً يعلم للغير مقدما بل هى صفة تقوم بالذات صاحبة الارادة أساسها الحرية والاستقلال الذاتى وقت الارادة وعلامتها تنفيذ احدى المشيئتين باستقلال تام بلا شريك ولا قوة دافعة فى الوقت المذكور

٢٣٧

﴿ مثـــال ﴾

أن وجود العالم هو بالارادة الآلهية . . وذلك لأنه كان عديم الوجود ثم وجد — فعدم وجود الخلق قبل أن يوجده الله تعالى كان فى حد مشيئة الخالق السلبية وهى اشاءته تعالى فى عدم وجوده — ثم وجود الخلق بعد عدم وجوده صار فى الحدّ الثانى من الارادة وهو مشيئة الخالق الايجابية فى وجوده . . أى تخصيص وجوده بعد ان كان لم يكن . . وكلا الطرفين فى مركز الارادة والتى لاتصلح للتعريف إلا بوجود المشيئتين فى حيز الامكان بحرية الله واستقلاله التام عند اختيار أحدهما وتخصيصه ... فان قلنا ان الله تعالى كان لا يقدر أن يمتنع عن تخصيص ماوقع من الخلق فى الوقت الذى خلقه فيه أدى ذلك الى انه خلقه مدفوعاً . . وهذا يستلزم وجود غيره أقوى كان أولى بالخلق ... وهو محال ... وبذلك يتعين لزوم سبوق مشيئة عدم الخلق عند الله قبل وجوده بحرية واستقلال تام أيضاً . . وان بداهة حداثة العالم الحالى مع أزلية الخالق تثبت وجود هـذه المشيئة السلبية السالفة وبتأيد منها ومن وجود العالم بالمشيئة الايجابية بالوجود الحاضر . . ان الله تعالى ذو ارادة مستقلة وان العالم وجد بالارادة والاختيار بنظاماته الحالية المتنوعة

٢٣٨

﴿ شرط الارادة التخصيص الحادث ﴾

من شروط الارادة المهمة عدم تحديد مافى النفس المريدة بواسطة الغير وان يتخصص المراد طبقاً لاختيار الذات المريدة باستقلال وكون التخصيص نفسه حادثا بوجه عام . فاذا قلت : انى أريد برتقالة فلا يقال ان تخصيص البرتقالة لنفسى بهذه الارادة أمر كان واجب

التخصيص قبل أن أخصصه بحريتي . . لأن ذلك من متعلقاتي وحريتي الذاتية . . وغاية ظهور التخصيص هو بيان بعض ما في نفسي مما كان يمكن لي تخصيصه دائما . . . وكقولك أراد الله خلق الانسان فخلقه . . فلا يقال أن تخصيص خلق الانسان كان أزليا بالحصر في نفس الخالق في لزوم وجوده في الوقت المعين . . لأن الازلية من صفات الذات الآلهية وحدها التي هي فوق العقول لا من صفات المخصص الحادث

ألا كل شيء ماخلا الله حادث   وكل حديث بعد ذلك كاذب

ولأن تخصيص حصر هذا الخلق الانساني في ذات الله تعالى من الأزل في وقت معين مما يستوجب نفي الارادة في اختيار خلقه حادثا في أي وقت يختاره الخالق... وغاية ما يقال ان خلق الله تعالى للانسان تخصص حادثاً وليس أزلياً وان وجوده مخلوقا أظهر شيئاً من بعض متعلقات الذات الالهية الأزلي ألا وهي الارادة مع القدرة المطلقة في أى وقت على مثل هذا الخلق وعلى هذه الكيفية المحدثة بحيث كان ممكن لله تعالى وجوده أيضا قبل أو بعد الوقت الذي أوجده فيه بمطلق حريته أيضا – وأن البحث عن علة السبب في التخصيص بهذا الشكل الذي وجد فعلا أمر من خصائص الصفات الكمالية لذات المريد وحده سبحانه دون غيره والذي هو فوق العقول البشرية لأنه ان تعين سببا خلاف الاختيار والحرية والكمال الذاتي لله امتنعت معنى الارادة وانقلبت الى الاضطرار وهو محال

٢٣٩

﴿ خطأ امتزاج مذهب الماديين بالتوحيد الاسلامي ﴾

من الأمور المحزنة التي قررها كثير من علماء الاسلام وفلاسفته السابقين دون أن يراجعوا أنفسهم في نتائجها امتزاجهم أعظم فرع من فروع التوحيد الاسلامي بمذهب الماديين فكان أس مبادئهم ماديا في الحقيقة أكثر منه توحيداً وذلك كتقريرهم أزلية تخصيص خلق العالم في نفس الخالق فقالوا أن تخصيص خلق العالم وما فيه كان أزليا في ذات الخالق أو قديما لا أول له واتبعوا ذلك عن القرآن الحكيم أيضا فقالوا أنه مخلوق أو أزلي في ذات الخالق كأن الله تعالى على زعمهم آلة تخرج ألفاظا محدودة في أوقات محدودة مع ان الله تعالى قادر أن يوحي لنا كل يوم قرآنا فنتج من تقريرهم هذا أن الله تعالى أشبه

بصورة ثابتة لها نتائج ثابتة تتغير في ذاتها بما يشبه التنوع الطبيعي الثابت . . وما دروا أن هذا الفرض مما يقرر امتزاج الخلق بنفس الخالق وان خروج العالم للوجود على هـذا النظام فى وقت ماوان كانوا ينسبونه لقدرة الخالق فهو أشبه بالتنوع من العدم الى الوجود من أصل له ثابت ومحتم وجوده ... بسبب تقريرهم تخصيص هذا الوجود فى نفس الخالق أزليا أو قديما

مع أن تاييد العدم قبل الوجود ينفى هذا التخصيص الأزلى بلزوم الوجود فى الوقت الذى وجد فيه بل قولهم ان التخصيص المذكور عن العالم فى ذات الخالق أزليا هو بعينه المذهب «المادّي» الذى يقول : «كان الله والمادة ممتزجان والله فقط هو الأصل المنفعل» أعنى أنه عند ما آن أوان الانفعال الطبيعى ليخرج هذا الوجود من نفس الخالق بنتائج ما لها ارتباط بالذات «وان كانت لنا ولهم مجهولة» حصل الانفعال فكان منه الوجود ... والفرق بين هؤلاء المسلمين وأولئك الماديين أن الأولين يقولون أن الله تعالى خالق العالم حادثاً مع لزوم هذا الخلق أزلا وارتباطه بالخالق حتما من القدم والأخيرين يقولون أن الله انفعل عند بدأ الوجود فكان من هذا الانفعال وجود العالم لأن المادة أو الوجود أزلى فى ذاته كما هو أزلى فيظهر من لفظة انفعال أنها موضوعة عند الماديين محل لفظة «كن» عند الآلهيين الذين يدعون بما تقدم مع بداهة بطلانه — فالاختلاف هو فى التعبير اللفظى فقط . . فالمسلمون ينسبون ألفاظ التوحيد الجميلة مع مبدأهم السالف . . وأما هؤلاء فتعريفهم واضح مع أن دليل التعريفين واحد

٢٤٠

﴿ أسباب الخطأ ﴾

إن ما أوقع المسلمين فى هذا التحريف المضل الذى هو فى الحقيقة جوهر المبدأ المادى تخوفهم من أوهام حاربهم بها الماديون ولم يمكنهم أن يتخلصوا منها وهى تقريرهم المبدأ المشهور «إن كل ماتغير فهو حادث» . . ثم قالوا هل العالم حادث ؟ فأجاب الآلهيون : نعم حادث . . ثم قالوا وهل إرادة الله تعالى فى وجوده حادثة أو قديمة؟ . . فان قال الآلهيون أن تخصيص الخلق حادثاً قال الماديون حينئذ قبل التخصيص بالخلق ما كان التخصيص موجوداً فى نفس الخالق فبوجوده يثبت حصول التغيير فى نفس الخالق !. . وان كل ماتغير

فهو حادث فيكون الخالق حادثاً طبقا للقاعدة وهو محال عند الآلهيين بالطبع

فماذا يفعل الآلهيون للخلاص من هذه الورطة ؟ قالوا نعم ! أن العالم حادث بالقدرة !.. ولكن تخصيص وجوده كان أزلياً فى ذات الخالق فهو كان لابد أن يكون كما صار الآن حتما بلا تقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقصان وبذلك ينتفى معنى التغيير فى ذات الخالق وان كل ما يحدث هو ثابت فى ذات الخالق أولا وكان من المحتم حصوله من القدم كما يقولون ذلك عن القرآن أيضاً ثم تسلسل من ذلك مسئلة الاعتقاد بالقضاء والقدر الكاذبة التى أوقعت الأمم الاسلامية فى الهاوية وكل ذلك للتخلص من وهم المبدأ السالف ! .. وما درى الآلهيون أنهم تخلصوا من الحق ليقرروا قبولهم الباطل على أنفسهم فكان مبدؤهم خلاصة المبدأ المادى وجوهره الذى يتعالى عنه الخالق الواحد الكامل — فوقعوا فيما كانوا يخشون حتى ألبسهم الله سنة الماضين وتمزقوا حتى حين

٢٤١

﴿ كيفية التخلص ﴾

ان التخلص كان سهل للالهيين بكيفية هى أن يقال : وان كان الخلق حادثاً فتخصيص وجوده حادث أيضاً لا أزلية له لان ثبوت أزلية هذا التخصيص فى نفس الخالق تؤيد بجانبها سلب الارادة ونفيها عن الخالق والتى معناها التخصيص أو الترك بمطلق الحرية فى أى وقت . . . وغاية ما نقرره بجانبها أن حدوث التخصيص نفسه لوجود العالم دال على بعض صفات الخالق وذاته وهو وجوده أزلا متصفا بالارادة والعلم والقدرة . . . واذا أردنا البحث وراء ذلك عن كيفية التخصيص نفسه فى ذات الخالق فهو تطاول للبحث فى الذات بعينها . . وهى النقطة التى يقف أمامها المادى والآلهى عاجزاً الى الأبد . . . وأن الآلهى عنده مبدأ ثابت عنها أساسه الايمان الخالص بأن الله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ! . . فهذه النقطة هى التى فرّقت بين المادى والالهى - فالأول لا يسلم بنتائج العقل من لزوم كمال الذات الالهية تسليما غيبيا لجانه فوق العقل فكان باعتقاده باشتراك الله مرتبطاً بالمادة دعى مشركا — والثانى يسلم بها باخلاص من نتائج ابحاث العقل مع اعترافه أن ذات الخالق فوق العقول فكان من ذلك «مسلما» ولله «موحداً» . . . . . . ثم كان فى إمكان الالهى أن يجعل لنفسه هذه النتيجة

بدل التورط فى هذا الهلاك البعيد

٢٤٢

﴿ النتيجـــة ﴾

يتضح للآلهى أو المسلم أن تطبيق قاعدة « كل مايتغـير فهو حادث » على ذات الخالق خطأ محض لأنه يؤيد تماثل ذاته تعالى لأحد الذوات العالمية التى تسرى عليها هذه القاعدة الطبيعية وهذا التماثل بالبداهة أول المحال — قال تعالى (لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً) فهو تعالى أصل الحوادث وأنه بحدوثها منه لا يجوز أن نلحقه بقاعدة « كل مايتغير فهو حادث » فهو الواحد الذى ليس له مثيل فى كل ما يحدث مع إمكانه التغيير والتبـديل وزيادة الخلق من العدم فى أى وقت وساعة مع كونه سبحانه لا يتغير ولا يتحوّل ولا تسرى عليه قاعدة طبيعية تنسب الى المحدثات الموجودة

٢٤٣

﴿ المشيئتين ﴾

إن التخصيص بأحد وجهى الارادة وهما المشيئتان المتضادتان قد يكون بالحصر للذات المريدة نفسها . . وقد يكون بالحصر للغير بحسب كيفية التخصيص

٣٤٤

(الارادة الذاتية للنفس)

نقصد بالارادة الذاتية للنفس تخصيص المراد بحرية النفس لذات المريد وحده لا لغيره . . فمن هذه الوجهة يقال عنها أيضا أنها تخصيص شىء للنفس بالحصر دون الجمع بين ضد الشىء المراد بالنسبة لذاته فى آن واحد .. مثلا : أريد أن أفعل كذا فلا يجتمع معه عدم الفعل بالنسبة للمفعول وبالنسبة لنفسى فى حصر وقوعه . . وإن كان معنى الارادة معلقة فى إمكان عـدم الفعل كما سبق . . ولـكن متى وقع التخصيص طبقا لما فى الذات من شكل الارادة بالاختيار فلا يصح اجتماع ضـده بعدها فى آن واحد . . فالمتضادان فى ذات واحـدة لا يجتمعان فى الارادة الذاتية لأن ذلك ينفيها — ولذا عرّف الله تعـالى عن ارادته الذاتية عنـد وقوع التخصيص أنها متبوعة بالحصر والتنفيذ الواقع فنتيجتها فى النفس والخارج لا تتغـير كقوله

تعالى (إنما أمرنا لشيء إذا أردناه) — أى لذاتنا بما تقتضيه الحكمة والكمال الذاتى — (أن نقول له كن فيكون) — أى يكون فى الخارج كما فى النفس المريدة تماما —

ولكن الارادة الذاتية المذكورة لا تمنع تخصيص شيئين هما فى ذاتهما متضادان فى وقت واحد كالحرارة والبرودة مع انفصال كل منهما عن الآخر واشتراكهما فى وقت واحد لمن يريد . . . مثال ذلك الاساءة والاحسان فيجوز أن أريد الاحسان بيد لذات من الناس والاساءة فى آن واحد لذات أخرى وإن كانا فى وقت واحد ... ولكن إرادة الاحسان مع الاساءة فى وقت واحد ولذات واحده محال أللهم إلا فى أوقات مختلفة

٢٤٥

(الارادة للغير كى يريد)

إن نتيجة الارادة بالنسبة للذات لا تقاس بنتيجة الارادة بالنسبة للغير الذى يكون له ارادة فى تلك النتيجة أى تمام الحرية فيما يريد منها ... مثلا : أقول إنى أريد أكل البرتقالة فهذه إرادة ذاتية لنفسى نتيجتها تخصيص البرتقالة لذاتى بطريق الحصر ... ولكن اذاقلت لمخاطبي أريد أن تأكل البرتقالة فالمعنى أريد (منك ... لا البرتقالة نفسها) أن (تريد) أكل البرتقالة فارادة المتكلم حتما واقعة وإرادة المخاطب حتما واقعة لمجرد سماع التبليغ إذ معنى إرادتى هناله هى حصول الأكل منه أو عدمه الذى هو معنى إرادته الذاتية لشخصه فى الأكل فلا يلتزم بأكلها جبراً بمجرد قولى وإرادتى المعلقة باختياره ... لأنه إذا جبر سلبت منه معنى الارادة التى أريد أن تكون له وخولته حق الأكل بها — فالفرق إذاً واضح جداً بين الارادة للنفس والذات والارادة بالنسبة لآخر له إرادة فيما أريد أن يريده بحريته الذاتية — لأن الأولى تفيد التخصيص والحصر الثابت والثانية تفيد مطلق الخيار للمخاطب فى تخصيص أحد وجهى الارادة المتضادين لنفسه — وفى كلا الحالتين إرادة المتكلم واقعة كما تقدم

٢٤٦

(الارادة الالهية والانسان)

« إنى جاعل فى الأرض خليفة »

إذا تقرر ما قدّمناه من تعريف الارادة فلننظر ماذا أراد الله تعالى لهذا الانسان فى الأرض — إذ قال تعالى عنه فى الكتاب (إنى جاعل فى الأرض خليفة) قبل أن يوجده فى فى العالم — ولا يخفى أن لفظة جاعل إسم فاعل تدل على الارادة الذاتية لله تعالى على العزم بتنفيذ خلق هذا الانسان بهذا الشكل المخصص ليكون حتما مخلوقا بشكل به يتمكن بذاته كما هو أن يكون عن الله تعالى فى الأرض « خليفة » أى نائبا عنه تعالى وصورة له سبحانه يظهر ما للخالق من تمام القدرة والكمال الذاتى

وإذا كان الانسان كخالقه فى الصورة بلا تماثل وأن قدره عظيما لهذه الدرجة وكان بهذا الشكل الحسن الكامل الظاهر (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم) فلا بد أن نعلم أنه متصف بأول وصف خاص لله تعالى ألا وهو الارادة وتمام الحرية والاستقلال الذاتى

٢٤٧

(الانسان ذو إرادة مستقلة)

الأدلة التى تثبت أن الانسان ذو إرادة مستقلة كثيرة — أولها البداهة . . ومنها أنه على صورة الخالق بلا تماثل — ومنها أن الله تعالى فتح للانسان طريق الخير وأراد له أن يريد هذا الطريق بحريته (لا أن يختص به اختصاصا ثابتا) ولكنه تعالى فتح له بجواره أيضاً من جهة أخرى طريق الشر لا لغرض أن يريد الشر نفسه ! . . كلا ! . . بل لغرض أن يتأكد الانسان أن سيره فى طريق الخير هو بالارادة أعنى بحريته واستقلاله الذاتى . . . فلا يكون له ارادة حقيقية إذاً فى الخير المذكور إلا إذا أمكنه أن يسير فى الطريق المضاد إذا رغب ترك الآخر « لأن ذلك هو معنى الارادة » ولذا قال تعالى (وهديناه النجدين) أى طريق الخير وبجانبه طريق الشر أيضا كى يفعل الخير بارادته المستقلة

ومنها قوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) فتحديد المشيئتين اللتين هما وجهى الارادة لاختيار الانسان دليل على وجودها فيه — ومنها : (وإن يروا سبيل الرشد

لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا) أى بحرية إرادتهم فى الطريقين

ومنها قوله تعالى (ولو أرادوا الخروج) — ومنها (وإن يريدوا خيانتك) — ومنها (وإن أردتم استبدال زوج) — ومنها (تريدون عرض الدنيا) — (ومن يرد فيه بالحاد بظلم) الخ مما لا يمكن حصره والبداهة أكبر شاهد

٢٤٨

(الارادة والقدر)

لما كانت الارادة الالهية هى موضوع اختلاف علماء الاسلام من مدة بعيدة فى القدر أيضا نريد أن نوضح ما غمض عن أعينهم من الحقائق التى بدونها كسروا أرجل « الدين الاسلامى » ويديه بلا ذنب غير كونهم أعجزوا أنفسهم عن المسير إلى الامام بل جمدوا وهم لا يشعرون ماذا يفعلون فنقول:

لما كان الانسان خليفة الله تعالى كانت أول إرادة الله تعالى له هى منحه الحرية والاستقلال الذاتى كما هو سبحانه فى وجوده الاسمى ليريد كخالقه مدة حياته . . فاذا قلنا كما يقول علماء الاسلام أن الارادة الالهية هى التخصيص بشىء واحد بالنسبة لذاته دون الجمع بين ضده . . وكانت حرية الانسان المطلقة واستقلاله الذاتى هى إرادة الله الذاتية بالنسبة اليه وأول أساس بنى وجوده عليه . . . لم نفهم معنى خروج علماء الاسلام السابقين عن حدود الله تعالى والعقل بتأييدهم مبدأ لا فى القرآن ولا فى العقل ولا ينطبق على معنى الارادة الالهية المطوّقة بالكمال والتى إذا قلنا عنها مهما قلنا لا تتقيد ولا تحدّ

نكرّر القول بأنا لم نفهم معنى تخصيص علماء الاسلام معنى الارادة الالهية بأنها اختصاص الذات الالهية بالارادة الانسانية !... فيقولون : فلان تسلق جدار منزل للسرقة — هل كان يريد الله تعالى أن يفعله أم لا ؟.. فان قلت لا يريد الله تعالى من هذا العبد أن يتسلق هذا الجدار أجابوك : اذاً ! قد يقع فى ملك الله تعالى ما لا يريده وهذا محال ... وإن قلت نعم أراد الله كما هى الحقيقة أجابوك اذاً خصص الله بتلك الارادة الالهية أناساً للشقاء وآخرين للهناء بلا سبب ! . . أعنى إذا وقع التسلق والسرقة وكان ذلك بالارادة الالهية كما تقدم ثبت عدم ضده بالنسبة لذاته : وهو عدم جواز وقوع ضد الفعل نفسه من السارق أى عدم نفيه .. إذ لا بد أن يقع كما حصل

وهذا فى الحقيقة خلط كبير جداً بل هو التضليل الكامل الذى منه تاهت الأمة فى بحار الجهالة — لأن هذا التعريف ينطبق على مثل هـذه الأفكار السقيمة لو قلنا أن الانسان ليس هو هذا الانسان خليفة الله الموجود — بل يجب أن يكون جماداً مجرداً عن شرف الخلافة الالهية — ولنفينا نفس الارادة الالهية الذاتيـة بالنسبة لوجود الانسان بأنه خليفته وذو إرادة ولسلبنا منه أعظم منحة من الله تعالى ألا وهى : تمام الخلقة مع الحرية والاستقلال الذاتى

٢٤٩

﴿ أسباب الخلط ﴾

يظهر أن علماء الاسلام السالفين كما اهتدى بعضهم بايات من القرآن كانت سبباً للترقى العقلى ضل الآخرون بآيات أخرى قلبوا معناها الي أن كانت سبباً فى الجمود العقلى الأخير ليتمّ بذلك قول الخالق : (يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلا الفاسقين) وليس ببعيد أن يكون سبب التضليل فى معنى الارادة الالهية بعض آيات فهمها البعض منهم مقلوبة تبعاً لأهوائهم بالطبع لا تبعا لحقيقتها التى كانت تتلألأ لو كان هناك شىء من الاخلاص ودقة البحث

نذكر من ذلك قوله تعالى (إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم) فان ضعيف الاخلاص قد يؤوّل معناها الى أن الله تعالى قد يريد الغواية لعباده وان كانت بواسطة بكيفية تتخصص بها الغواية حتما من الله بلا إرادة لمسببها وفاعلها ومتبعها

وهذا هو الذى قلنا عنه فى الباب السابق أنه كل التضليل على العقول والحقيقة لأنا لو راجعنا « الارادة للغير كى يريد » نجد أن هذه الآية الكريمة تدل على مثل الارادة الالهية عن أمر خوّل للناس فيه الحرية المطلقة — إذ لا يخفى أن الغواية هى للشيطان وحده ويتنزه عنها الخالق سبحانه وأن قول الرسول (إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم) هو أن إرادة الله تعالى فى الغواية وهو طريق الشر قد تقع ولكن لمن يريد الغواية المذكورة لنفسه من الناس بحريته لأن ذلك هو الوجهة الثانية أو المشيئة الثانية لارادة الخير أو الهداية التى يدعوهم اليها هذا الرسول باذن ربه كى يريدونها ولكن لا يلتزمون بهـا إلزاما بل ليكونوا أحراراً فى قبولها أو تركها الى الضد وهو هذه الغواية لأن اختيار الضد هو علامة منحهم الارادة الذاتية

ووجودها فى أنفسهم لقبول الهداية المذكورة ... إذ بغير ذلك تمتنع معنى الارادة فيهم وهو محال

فالمعنى هنا فى هذه الآية ليس التخصيص لذات الله تعالى بالغواية والضلال للناس بل المعنى إن كان الله يريد لكم أن تريدوا لأنفسكم الغواية والضلال من الشيطان (فهو ربكم) أى حق وعدل فى ذلك ... لأنه منحكم الحرية التامة فيما يريد لكم من الخير بدعوة الرسول فانقلبتم بارادتكم المذكورة الى الغواية بسبب الحرية الممنوحة لكم وأن ارادتكم لقبول الغواية من الشيطان ليست الزامية ولا موجبة أيضا بل بحريتكم وتمام استقلالكم .. فهى محتملة السلب الذى هو ضد الغواية « أى طريق الهداية » اذ يجوز لهم أن يريدوه بدل الضلال المذكور

ويظهر أن نبيهم (عليه السلام) ذكر لهم ذلك لما رأى من انهماكهم فى الغواية الى درجة كاد ألا يأمل منهم رجوعا وانصياعا الى الهداية بعد أن رموا بأنفسهم فى تيار التضليل الشديد فكان هذا الخطاب مظهراً غلبة اختيارهم للغواية الشيطانية كثيراً لما كانوا عليه من التعمق فى الفساد الذى لا يؤمل معه هداية وان كانت فى الوقت نفسه جائزة لا مستحيلة

٢٥٠

﴿ العمل الانسانى والارادة الآلهية ﴾

اذا أساء انسان ضد أخيه بسوء ما وقلنا أن الله تعالى أراد أن يسىء هذا الانسان لأخيه أم لا ؟... فالجواب . . نعم أراد الله تعالى أن (يريد) هذا الانسان لنفسه ما يفعل من الاساءة ضد أخيه ليجازى بنتيجتها بالسيء من الله تعالى بالحق بمعنى أن يكون عدم الاساءة فى الوقت نفسه جائزاً حصوله اذا لم يرد هذا الانسان بحريته وارادته فعل الاساءة المذكورة السالفة ... وبالعكس أى نقول اذا أحسن إنسان على فقير وقلنا أن الله تعالى أراد أن يحسن هذا أم لا؟ فنقول . . . . نعم . . أراد الله تعالى أن (يريد) هـذا الانسان لنفسه ما فعل من الاحسان ليجازى بنتيجته من الله بالحق بمعنى أن يكون عدم الاحسان فى الوقت نفسه كان جائزاً حصوله (راجع الارادة للغير كى يريد) — اذا لم يرد هذا الانسان بحريته وارادته فعل الاحسان المذكور السالف . . . وارادة الله تعالى على كلا الحالتين بالبداهة واقعة . . . لأن العبرة بارادة الله تعالى المخصصة هى (ارادة) الانسان التى لها السلب والايجاب السالف

٢٥١

﴿ نتيجة الارادة الالهية والعمل الانسانى ﴾

مما تقدم نرى أن نتيجة الارادة الالهية للانسان على الحقيقة هى تخصيص اختيار الانسان لأحد الطريقين المتضادين بحريته الذاتية كما قال تعالى (وهديناه النجدين) أى طريق الخير والشر ليفعل منهما بحريته ما يختار لنفسه

٢٥٢

﴿ المشيئتين والقرآن ﴾

ان الله تعالى خالق ذو ارادة مستقلة أو ذو مشيئتين متضادتين فان شاء أعطى وان شاء منع وان شاء خلق وان شاء لم يخلق والانسان ذو ارادة مستقلة أيضاً أو ذو مشيئتين متضادتين فان شاء فعل خيراً وان شاء لم يفعل وان شاء فعل ضراً وان شاء لم يفعل ولكن مشيئتى الله تعالى سابقة لمشيئتى الانسان فى وجودهما (بحسب حرية الانسان لأحدهما وليس فى تخصيص واحدة منهما) لأنه لولا مشيئة الله تعالى فى منح الانسان الارادة ما تواجد له هاتان المشيئتان المتضادتان المتركب منهما الارادة الانسانية ولذا كان من الممكن اذا شاء الانسان شيئاً بحريته أن ينسب ذلك لمشيئة الله تعالى أيضا لا بسبب أن الله تعالى حتم اشاءة ذلك لنفسه -- كلا -- بل بسبب كون الله تعالى شاء أن يعطى الفاعل مشيئة مستقلة ليختار بها ما يشاء ... فاذا لم تقع من الانسان مشيئة بالفرض على شىء ما ... فمشيئة الله تعالى مازالت واقعة بالنسبة لعدم المشيئة من الانسان ولذا نقول :—

« لا شىء فى العالم يقع سلباً أو ايجاباً من غير مشيئة الخالق »

ومن الأسف أن هذا المبدأ وان كان يقول به كل مسلم ويترنم به الصغير والكبير— غير أنه ليس مفهوما بالمعنى الذى أنا أقصده هنا الآن ... بل مفهوما عند الجميع بمعنى آخر يضاد العقل والقرآن وهو : أن كل شىء يقع من الانسان خاصة بمشيئة الله تعالى يكون بلا ارادة للانسان فيه أى يقصدون أن الانسان مسلوب الارادة على كل حال بازاء ذكر مشيئة الخالق هذه عن كل حادث انسانى مهما كان ... وحاشا أن أقصد ذلك مطلقا بل ذلك ما أحار به جهدى

وأظهر الخطأ الكبير الناتج عنه لأنه لولا اختيار الانسان وإرادته الحرة فيما يختار لما تعينت مشيئة الخالق المذكورة ولا تسمت عن هذا الشيء المختار بواسطة الانسان .. ولماذا ؟ ... لأنه هكذا أراد الله أن يكون للانسان إرادة مستقلة هو حر فيما يختار — فان وقع اختياره على شيء فمشيئة الله واقعة من جهة كونه تعالى خالق له قوة على الاختيار — وان لم يقع الاختيار على الشيء نفسه بالفرض فمشيئة الله تعالى واقعة أيضاً من جهة عدم الاختيار — لانه هكذا أراد الله تعالى أن يكون الانسان حراً فى عدم الاختيار — فترى من ذلك أن مشيئة الله تعالى على أى حال واقعة . — نعم .. قد يريد الله تعالى ما لا يريد الانسان لأن الانسان عرضة للخطأ وقد يوقع الله تعالى على الانسان ما يكرهه ولا يريده لغرض عادل لأن الله تعالى فى أفعاله الخاصة أيضاً حر عدل - ولكن — غرضى الآن أن أصرح بأن الفعل الانسانى الاختيارى بالارادة هو ذو مشيئتين متضادتين — فقد يقع من الانسان عمل ما فيقال ان أشاءة الله تعالى وقعت بوقوعه ... وان لم يقع الشيء نفسه بالفرض فاشاءة الله تعالى واقعة أيضاً بالسلب بعدم وقوعه ... لماذا ؟ ... لأنه هكذا شاء الله من قبل أن يخلق الانسان أن يكون له بعد وجوده اشاءتين متضادتين بالنسبة لذات واحدة (ارادة) وهو (أى الانسان) حرّ فى تخصيص احديهما لنفسه — وأن اختيار أحديهما فعلا وقوع لمشيئة الله السابقة

فصل ١٥

٢٥٤

اشاءة الله

وعلماء الاسلام السابقين

ان علماء الاسلام السابقين قد خلطوا كثيراً فى فهم آيات القرآن المجيد المتشابهة حتى اذا ذكر الله تعالى فعلا ما عن انسان أو أمة خصوه بالله تعالي وألصقوه بذاته الصاقا وذلك

كقولهم شاء الله أن يأكل آدم من الشجرة فهم يقصدون أن ارادة الله فى أكل آدم ذاتية أى كما يكون الأمر لذاته تعالى فى قوله (انما قولنا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) مع أن الأمر ليس كذلك فان الله تعالى خلق آدم ذو ارادة مستقلة فى نفسه وبها كان له مشيئتين متضادتين فى كل ما يؤمر فى أدائه من الله بحريته متحملا نتائج مخالفته بنفس حريته الممكنة له بها أن يعمل أى عمل كان وأن القرآن ذكر ذلك وبينه للناس ليظهر أن اشاءة الله تعالى تلحق عمل الانسان مهما كان طيباً أو خبيثا لا لغرض نسبة ذلك للذات الالهية فعلا — كلا — بل لغرض أن الله تعالى هو المانح للحرية أو الارادة للنفس التى قد تختار الطيب وقد تختار الخبيث لنفسها وبحريتها مع قدرتها على المنع وعمل الضد فى أحدى الجهتين — والغاية من هذه الآيات البينات ظهور مواهب الخالق ونتائج مايفعل بازائها المخلوق الكامل الخلقة (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم) ولذا نعلم السبب فى قوله تعالى (وما تشاؤن الا أن يشاء الله) أى أن اشاءة الله تعالى سبقت فى منحنا الحرية التى بها نشاء أى شىء كان خبيثاً أو طيباً — فان هذه الاشاءات هى خاصة لنا وليست خاصة بالذات الالهية التى لها اشاءات خاصة أيضا فى أى شىء لو أرادت لذاتها كالآية (انما قولنا لشىء اذا أردناه) — أى لذاتنا ومن حيث كونه حقا واجبا وقوعه — (أن نقول له كن فيكون) ...

ونذكر الآن فيما يأتى آيات قرآنية تدل على معنى اشاءة الله واشاءة المخلوق كما أيدناه الآن ... فمن ذلك قوله تعالى :

١ (ولو شاء الله ما اقتتلوا) أى ان الله تعالى قادر على منع اقتتالهم بقوته ان اراد منع هذا الاقتتال .. ولكنه تعالى لم يمنع اقتتالهم — لماذا ؟ .. لأنه تعالى خلقهم لغرض أن يمنحهم الحرية ويكون لهم ارادة أو اشاءة فى كل أعمالهم فاقتتلوا لذلك بحريتهم فوقعت تبعا لذلك اشاءة الله أيضاً باقتتالهم لاختيارهم ذلك بأنفسهم .. وانه كان فى امكانهم أن لا يقتتلوا أيضاً .. وانه طبقاً لاختيارهم الاقتتال سيجازيهم بما يراه نفسه تعالى أنه الحق حسب أعمالهم المذكورة لأنه هكذا كان الغرض من الحياة ... وقال تعالى أيضاً :

٢ (من يشاء الله يضلله) أى فيكفر بالله بحريته الممنوحة له من الخالق كالآية : (ومن شاء فليكفر) ويقال عندها اذا شاء الانسان الكفر فقد شاء الله له الكفر أو الضلال

أيضا لماذا ؟ . . لان الله تعالى هو الذى منحه الارادة ليشاء بها بحريته الكفر أو الضلال فتكون اذاً اشاءة الله تعالى واقعة . . . وكذا قوله تعالى : (ومن يشاء يجعله على صراط مستقيم) أى بعد أن يختار بنفسه الصراط المستقيم كالآية (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) أى بأنفسهم والعلل كالآية السابقة أيضا . . وقال تعالى :

٣ (ولو شاء ربك مافعلوه) والمعنى انه تعالى شاء مافعلوه من المنكر — فهذه الاشاءة ليست ذاتية للخالق وانه لم يرد ولم يشأ وقوع المنكر لذاته الالهية كالتخصيص المفهوم من الارادة الذاتية فى الآية (انما قولنا لشىء اذا أردناه) أى لذاتنا — كلا — بل انه تعالى لم يمنعهم عما يفعلوه من منكر أبدا وانه (لو شاء ما فعلوه) فيستعمل قدرته الخاصة لمنع هذا المنكر . . . ولكنه تعالى لا يمنعهم ولن يمنعهم !. لماذا ؟ . . . لأنه تعالى آراد أن يمنحهم الحرية ليختاروا بأنفسهم ما يشاؤن وما يريدون . . وأنهم من أنفسهم كان فى امكانهم أن لايفعلوه أيضا . . . اذ قال تعالى عن ادعاء المشركين الكاذب فى هذه الآية :

٤ (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا) والمعنى ان الله تعالى لو كان يريد أن لايشركوا فى الحياة الدنيا كما حصل ووقع منهم ما كانوا أشركوا ولا وقعوا فى الشرك الذى يعذبون به يوم القيامة فحجتهم الوحيدة هى ان الله تعالى كان فى امكانه أن يمنعهم عن الشرك الذى أرادوه باستعمال قدرته الكبيرة . . . ولكن هذا محال ! . . لماذا ؟ . لأن الله تعالى سبقت كلمته بحق أن لايتعرض لحرية أى شخص كان فى شىء ماله الخيار فيه . . . . فكما انهم بحريتهم أشركوا بالله فى الحياة الدنيا . . فانهم بنفس هذه الحرية كان يمكنهم الايمان أيضاً من غير لزوم الى قوة الله تعالى التى يدعونها لتردعهم عن الشرك المذكور ليتخلصوا مما هم فيه من العذاب ! . . لماذا ؟ لأن الحقيقة انهم أشركوا بحريتهم وانه كان فى امكانهم تجنب الشرك ليؤمنوا بالله ويخلصوا له حتى كان الله يساعدهم على الهداية لو طرقوا بابها . . ولكنهم لم يفعلوا . . فهم فى ادعائهم وارتكانهم على قدرة الله تعالى فى منعهم عن الشرك كاذبون . . بل منكرون حقيقة النظام الذى وضع الله تعالى نظام الخلق عليه من أنه تعالى لايتعرض لحرية أى انسان شاء الكفر والشرك أو شاء الايمان . ولذا فالله تعالى يكذبهم فى أدعائهم هذا (وهو ادعاء مذهب الجبرية الذى عليه أغلب المسلمين الان) وأعلن

فى الكتاب أنهم كاذبون كغيرهم ممن سبقهم وكذب الرسل بأي حجة واهية فقال تعالى (كذلك كذب الذين من قبلهم) أى دعوة الرسل وهداية الكتب السماوية كالقرآن وماتؤيده آياته من دلائل منح الحرية فى الشرك أو الايمان . . . وأنهم فى إمكانهم الهداية بها بسهولة كغيرهم وأن يتجنبوا كل شرك .. ولكن ذلك متوقف على مشيئتهم الحرة فى اجتناب الشرك لا على قدرة الخالق التى يدعونها كذباً . . اذ قال تعالى أيضاً

٥ (فلو شاء لهداكم أجمعين) أى ان قدرة الله تعالى نعم عظيمة وأنه تعالى فى إمكانه أن يهدى جميع الناس سواء أرادوها بحريتهم أو لم يريدوها . . . ولكن ذلك ليس هو نظامه الجميل . . بل نظامه وسننه الثابتة عكس ذلك . . . أى شاء أن يجعل كل انسان حراً فيما يشاء.. فان شاء الشرك فلنفسه وبحريته وان شاء الايمان والهداية فبنفسه وحريته وأن قوة الله تعالى لا تتعرض لحرية أى انسان فيما يشاء ! . . لماذا ؟... لأنه أراد أن يمنح الانسان تمام الحرية والارادة فلا داع هناك لسلبها منه مطلقاً إلا عند موته

٦ قال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أى باستعمال قدرته القادرة على كل شيء... ولكنه تعالى لم يشاء ولن يشاء ذلك مادامت الحياة .. بل شاء أن يتركهم أحراراً فاختلفوا بحريتهم فصاروا أمماً متفرقة متنوعة حتى لقد تختلف اللغة والعادات عن أصل الجدود الأقدمين فتتعدد الأمم فى الأرض الواحدة والجنس الواحد أنواعاً كقوله تعالى عن أصل الانسان الروحانى : (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا) أى بحريتهم وسبقت كلمته تعالى أن لا يتعرض لما يشاؤن من الاختلاف المتنوع كفراً وايمانا (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (ولا يزالون) أى بحريتهم مختلفين (إلا من رحم ربك) أى من الناس الذين يختارون الايمان بحريتهم لله فيتآلفون بطبيعتهم ويتآخون ويتحدون (ولذلك خلقهم) أى لمنحهم الحرية فيما يريدون فى هذه الحياة (فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون)

٧ وقال تعالى أيضاً (ولو شاء لهداكم أجمعين) والمعنى أنه تعالى لم يشاء ولن يشاء أن يهدى الناس أجمعين بقوته الاضطرارية القادرة . . بل شاء منحنا الحرية ليختار البعض الهداية بحريته أو الضلال فبحريته أيضاً ولو شاء الناس جميعاً أن يتعلقوا بالله ويهتدوا بحريتهم جميعا لأمكنهم ذلك بكل سهولة ولكان ذلك أول ما يرضى الله تعالى أيضا ... وقال تعالى :

٨ (ولو شاء لجعلكم أمة واحدة ولكن يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء) أى بحسب اختيار كل انسان طريقه (ولتسئلن عما كنتم تعلمون) أى من الكفر والايمان بهذه الحرية الممنوحة لكم من الله ومعها الأمانة أو العقل .. فمن شاء الضلال لنفسه فقد شاء الله له الضلال أيضا ومن شاء الهداية من الناس لنفسه فقد شاء الله له الهداية أيضا لأنه تعالى هكذا أراد منح الانسان الحرية من قبل ليكون له ماشاء من نفسه وأن الميزان أو العقل كاف لمعرفة الضارّ لاجتنابه ومعرفة الخير واختياره وأنه تعالى لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ... وقال تعالى أيضا

٩ (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) - أما الحق الذى يقول عنه تعالى فهو وضع المخلوقات بشكل كامل ثم منحها العقل أو الأمانة مع الحرية ليختار كل مخلوق ما يشاء لنفسه من ملك الله الواسع فمن شاء ضراً فلنفسه ومن شاء خيراً فلنفسه أيضا وقال تعالى أيضا :

١٠ (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حقّ القول منى لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين) والمعنى ان الله تعالى قادر أن يستعمل قدرته المطلقة ليهدى بها كل نفس فى العالم بلا استثناء . . . ولكن حاشا له تعالى أن يفعل ذلك ويستعمل قوته الذاتية فى هداية الناس فان ذلك ليس هو النظام الحق الشريف الذى قرره تعالى من قبل .. فانه تعالى خلق كل الناس بدرجة واحدة فى الاصل الروحانى ومنحهم العقل والحرية جميعا على السواء (كان الناس أمة واحدة) ليفعلوا بحريتهم مايشاؤن وأنه لافرق بين من يؤمن وبين من يكفر مطلقا إلا حرية كل منهما المطلقة فى اختيار الكفر أو الايمان بحيث فى إمكان أحدهما أن يتبدل بالآخر لو أراد وأن جزاء الكافر حق مطلق لأنه لنفسه أراد وبنفسه جحد مقابلة الله فى الآخرة فكان فى الأرض كنقطة فساد وبؤرة آثام ولذا ما قرّره الله تعالى بخصوص مثل هؤلاء من الجن أو الانس حقّ إذ يقول تعالى فى الآية : (لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين)

*
* *

٢٥٤

﴿ القرآن حادث ﴾

كثير من علماء الاسلام السابقين قالوا باطلا بالقسمة وهى التى أوقعت الأمة الاسلامية فى هاوية الحضيض كما هو حالهم من قرون الى الآن وأخذوا قول الله تعالى : (ولكن حق القول منى لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين) من ضمن الحجج الدالة على ذلك

فقالوا حق القول من الله بذلك قبل أن يخلق الناس فكأنه خصص أناسا للشقاء وأناسا للهناء بلا سبب اذ لولا ذلك ما كان لزوم لهذه الآية . . . وأنه تبعا لوهم التقسيم السالف قالوا عن القرآن كلاما يبكى العدوّ قبل الصديق فأيدوا أنه قديم أزلى ووروده على الشكل الذى جاءنا به أمر حتمى فجعلوا كل شىء من الله أصله صورة ثابتة لا تتغير كما قالوا عن أعمالهم أنها صورة أزلية ثابتة وان المصير الى جهنم عن الجن والانس المنوّه عنهم فى الآية السالفة كذلك أيضا فلا مفرّ ولا خلاص من الأزل

هكذا كان يفهم علماء الاسلام السابقين كل شىء مقلوبا فى كل شىء حتى صارت الأمة اسماً على لا شىء والحقيقة ان الله تعالى يمكنه أن يرسل لنا كل يوم قرآنا وان الله تعالى لم يوح الينا من أخبار الأمم الماضية إلا ما اختاروه بأنفسهم . . وان بنى الانسان لو سلكوا طرقا غير الذى كانوا طرقوها « وكان ذلك فى إمكانهم طبعا » لأسمعنا الله عنهم قرآنا يناسب ما وقع منهم ولأظهر لنا حكما يناسب حالنا وحالهم — وأنه عز وجل حرّ فيما يوحى به الينا فقد كان ينسى النبى آية ويمدّه بمثلها بما لا يخرج عن حكمتها أو بما يفوقها وأحسن منها وان الوقائع التى حدثت مدة النبيّ عليه الصلاة والسلام من العرب وغيرهم ممن نزل القرآن عنهم كان فى امكانهم أن يعملوا عكس كل ما فعلوا فيها ولكان الله عز وجل أسمعنا من قرآن بما يتفق على حالهم مع الحكمة الناتجة من دلالة أعمالهم وعلى الأمم على ممرّ الزمن الى الأبد ... كما هو القرآن الحالى المطابق للاعمال البشرية فى جميع الأزمان مع أن كثيراً منه كان عن وقائع حدثت مدّة النبي (ص) . . والخلاصة أن القرآن هو كلام الله تعالى حادث قد تكلم به الله تعالى وقت وحيه . . وانه تعالى يتكلم دائما ويمكنه أن يتكلم بعد وحى القرآن وقد تكلم قبله . . فلا داعى هناك لفرض أن القرآن قديم لأن هذا لا معنى له اللهم إلا أن يقصد بالقدم صفة الله الذاتية فى

التكلم فانها قائمة بذات الخالق ازلا وقت أن هو كما كان . . . . أما القرآن فقد دل بحدوثه على صفة الكمال للخالق عند التكلم .. وان كمال الكلام لا يكون إلا من كامل الصفات . . . . وقد تدرج بعضهم فى الوهم أن القرآن اذا كان حادثا من الله عز وجل دل ذلك على تغير صفته الذاتية .. كأنهم يريدون أن يكون الله عز وجل متفقا مع المخلوقات فيما يجرى عليها من السنن .. وحاشا ان يكون الله كذلك .. فهو متكلم بكل حديث بل هو كل يوم يتكلم ويأمر طبقا لاختلاف نيات المخلوقات واعمالها . . ولكنه تعالى فوق النواميس الطبيعية فكل ما فى العالم حادث ومتغير بقدرته .. فلا يجب أن ننسب لذاته الحداثه بسبب هذا التغيير العالمى أو التكلم الذاتى فانه تعالى : (ليس كمثله شىء)

أما قوله تعالى : (ولكن حق القول منى لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين) فلا يدل على التقسيم الأزلى الخاص كما يدعى الجاهلون .. بل يدل على ذكر حالة صار اليها الانس والجن الذين سبقوا وقت الوحى للنبى وذهبوا الى ربهم .. ثم إن الله عز وجل بعد فنائهم الى مدة النبي (ص) علم كثرة الضالين منهم والذين ماتوا وهم كفار بحريتهم فكان كافيا لان يملأ جهنم وخصوصا فقد تركوا آثار الفساد فى البر والبحر منتشراً مما علم الله منه أحقية ملء جهنم بهم وبغيرهم فكان ما أُوحى به حقا واقعا كما يقول تعالى عن القرى التى تفسد فى الارض (فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) أى بعد أن تقع منهم فعلا مايستحقون لأجله أحقية التدمير..نعم . . . ان الله عز وجل يتكلم طبقاً للقانون الذى سنه فى أم الكتاب قبل خلق العالم وان ما أُوحى به تعالى لايخرج عن حدود هذا القانون... غير أن بنى الانسان والجن لو لم يحصل منهم من الفسق والعصيان والفجور . . مما سبق وحصل باختيارهم مما يعلمه الله منهم فى الازمنة الماضية مااسمعنا الله عز وجل هذه الآية . . وان كلمته تعالى حقت عما تقدمت عنهم بسبب ماوقع منهم لا بسبب أنه مخصص لهم حتما من القدم بلا اختيار وحرية أو بما لا يمكنهم الخلاص منه من الأزل كما يدعى المبطلون . . . ولذلك كان تقرير الذين قالوا عن القرآن أنه مخلوق أو أزلى باطل كل البطلان . . . لأن الله عز وجل يوحى الينا من كمال كلامه بحسب مقتضى أحوالنا لا بحسب أنه مخلوق أو أزلى فان ذلك وهم سيسئل عن مقدار كذبه القائلون... وقال تعالى

١١ (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) أى أنه تعالى قادر وفى امكانه أن يطمس على أعينهم فى هذه الحياة لكفرهم وجحودهم ولكنه تعالى لم يشاء ذلك لأنه لايريد التعدى علي حرية أحد منهم بل أراد أن يتركهم أحراراً فى أعمالهم حتى تحق عليهم كلمة العذاب فى الدنيا والآخرة بسبب كثرة سوء أعمالهم .. وبمثل ذلك قوله تعالى : (ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم) وقال تعالى أيضاً :

١٢ (فاعبدوا ما شئتم من دونه) أى أنكم أحرار فيما تعبدون حتى من دون الله بما تشاؤن. لأن عبادة غير الله تعالى ان كانت خطأ أو كفراً فان نفوسهم أدرى بالحقيقة وانهم يشعرون فى ضمائرهم بمن هو الآله الحق المسيطر وبسبب هذا الشعور الذى لا يكترثون بالتنبه اليه والتزود منه سيحاسبون ثم يجازون ولو لم تصلهم دعوة الرسل ... وقال تعالى

١٣ (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) أى ان الله تعالى قادر أن يمنعهم على أن لايعبدوا غير الله عزوجل .. وحجتهم فى ذلك أنهم غير قادرين على تغير عاداتهم فى عبادتهم الكاذبة لغير الله تعالى لأنهم يقولون ان كان الله عز وجل يرى أن عبادتهم لغيره باطلة أو كفراً — فما أقدره أن يمنعهم ولو شاء لنفذ وفعل — هكذا يحتج أمثال أولئك القوم بقدرة الله التي يمكنها أن تضطر أى شيء مهما كان مستعصياً .. ولكن حجتهم هذه واهية وناتجة من جهلهم المطلق بنظام الله المقرر العادل والذى لا يمكن تغييره مطلقاً فالله تعالى لا يمس حريتهم ولا يحولها الا إذا كان ذلك بأنفسهم لأن ذلك سهل لهم وفى امكانهم أيضا .. فاذا كانوا هم يرتكنون على قدرة الله عز وجل فما أحراهم أن يرتكنوا على ارادتهم الحرة وعزمهم الشخصى من عبادة غير الله الى عبادة الله عز وجل .. فان الله سبقت كلمته بحق أن لا يمس حرية انسان مهما فعل من طيب أو خبيث بعد ان أكمل صورته ومنحه الأمانة ليهتدى بها «وهى العقل» ولذا قال تعالى عن جهل أولئك المدعين (مالهم بذلك من علم) أى انهم جاهلون الحقيقة وهذا الجهل لا يجعل الله عرضة لتغير نظامه عليهم وكفاهم إنذار الرسل أو من كان فى منزلتهم من المصلحين ممن يدعون الى الحق فى كل أمة وكثير ماهم .

*
* *

٢٥٥

﴿ جمود المسلمين مع ارتكانهم على قدرة الخالق ﴾

إنّ الشيء بالشيء يذكر — فبالنظر لوقوع أغلب البلاد الاسلامية فى أيدى الغير من المستعمرين سمعت كثيرا من المسلمين متنوّرين أو غير متنوّرين يقولون : ان استعمار الأجانب لبلادنا شيء أراده الله لنا — فهل اذ فعلنا مهما فعلنا كان يمكننا أن ندفع هؤلاء المستعمرين قبل اغارتهم ؟... أو يقولون : لقد مضى على الأجانب مستعمرين لبلادنا كذا من الاعوام ولا يمكننا إخرجهم الا عند ما يريد الله إخراجهم فهو يخرجهم ... ولا شك أن كل هذه الاعتبارات الخرافية عندهم دينية . . ولكن ماأ كذبها على الله ... وماأ كثر بعدها عن الحقيقة التي يؤديها القرآن والتى يسير الله عباده على نظامها . . فانه بمثل تلك الخرافات كان التأثير الأول والسبب الأكبر فى ضياع أغلب الممالك الاسلامية وفقدانها . . وان جمود المسلمين وتقصيرهم فى أداء الواجب النفسى نحو الوطن جهل مطلق بالدين قبل كل شيء . . لأنهم بجمودهم قد ارتكنوا بالوهم على قدرة الله فى ضياع البلاد وتسليمها لغيرهم من الحريصين المتيقظين من المستعمرين وان الله يتبرأ من جمودهم وارتكانهم الغير حقيقى على قدرته ! نعم . معلوم ان الله على كل شيء قدير وانه تعالى لو أراد شيئا ما لفعل ووقع — ولكن فات هؤلاء ان نظام الله المقرر فى معاملته للأفراد والأمم هو أن يترك كلا يفعل ما يشاء مع صاحبه ويجازي كلا بما يفعل إن خيراً وإن شراً — فاذا كان الأجانب المستعمرون للبلاد أحرارا من الله فى تصميماتهم واستعمارهم وابداء وعمل كل ما يتراءى لهم — فان أهل البلاد أيضا أحرار فى اتخاذ كل الطرق الممكن لهم عملها لدفعهم عن البلاد أو تقصير أجل الاستعمار أو ... أو ... فكل ذلك فى امكانهم وهم يعلمون ما هى الطرق التى توصلهم لأغراضهم — كما عرف المستعمرون ماهى الطرق التي أوصلتهم الى استعمار البلاد الخ ... الخ ... مع أن صاحب الدار أدرى بما فيه وان ادعاء أولئك الجامدين فى الدين بأنهم مرتكنون على قدرة الله وهم ليس من الدين فى شيء لأن هذا الادعاء مبنى على أن ماهم فيه سببه الله وقدرته مع أن أنفسهم هى أصل السبب والبلاء — وما قالوا ذلك وتقاعدوا الا من جهلهم وانهم يشبهون أولئك الذين أدعوا كذبا ان قدرة الله فى امكانها منعهم عن الشرك الذى اختاروه بحريتهم فقال تعالى عنهم : (ما لهم

بذلك من علم) . وان سموم هذه الاقوال هى التى قال بها كثير ممن سبقهم من المسلمين جهلا منهم فماتوا وهم بالدين جاهلون وان مايدل على عدم تداخل الله حتى يين من يؤمن أو يكفر قوله تعالى فى الآية : (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوَ بعضكم ببعض) أى أن الله تعالى لو يشاء لاستعمل قدرته الخاصة فى قهر المعتدين الكافرين لأجل المؤمنين المخلصين « إلا فى أحوال مخصوصة عند مايوشك الباطل يتغلب على الحق لضعف القوة المحقة) .. ولكن حاشا لله أن يستعمل قدرته الخاصة فى قهر أناس لأناس وان كان بعضهم مؤمناً والآخر كافرا — بل هو يقول تعالى انه يترك كلا يفعل بحريته ما يشاء هذا بايمانه وهذا بكفره ليختبر كلا من فعله مادام اصل العباد كلهم فى نظره واحد — فاذا كان عدم التداخل من الله واقعا وقت الحرب والكرب والشدة مع ثبوت وجود فرقة مؤمنة وأُخرى كافرة — فالأولى أن يكون هذا نظامه ايضا مع امم تدعي الاسلام واكثرهم عن اعمال المؤمنين المخلصين بعيدون

نعم — يتداخل الله بين عباده فى أحوال مخصوصة وهذا بعد أن يعملوا كل مافى وسعهم أولا وحينما يظهر أن الباطل سينتصر علي الحق فهناك يكون التداخل حقا وعدلا لأن الله تعالى مكلف كل نفس مؤمنة ان تعمل اولا كل ما فى وسعها (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) وبعد ذلك تأتى قدرة الله بالتداخل للزومها (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) ومثال ذلك فى القرآن الحكيم امداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة عند ضعفهم وقلتهم يحاربون معهم تقوية لهم لأنهم صابرون ومستعملون كل مافى وسعهم وعلي قلتهم كانوا على الحق وأعداؤهم علي الباطل على كثرتهم فكان لذلك حقا نصرتهم ومساعدتهم بتداخل الله وقدرته (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) أما إذا لم يثبتوا علي ايمانهم ولم يستعملوا كل ما فى وسعهم فهناك عدم التداخل ولزوم قهرهم حتما بيد أعدائهم كما حصل ذلك لبعضهم فى واقعة «أحد» وهم كانوا مع الرسول (ص) .. وكما يحصل الآن فى الممالك الاسلامية فلولا تقصير المسلمين أنفسهم الحالى الذى هو أظهر من البداهة وعدم استعمال كل مافى وسعه باخلاص لله لحفظ كيان وجودهم وحسن ايمانهم ماأذلتهم دولة ولا تحكم فيهم إنسان (وما ربك بظلام للعبيد)

فصل ١٦

٢٥٦

عود

الى مسئلة القضـاء والقـدر

هذا العنوان بمعناه القديم عند المسلمين صار مدلولا على عقيدة ألصقت ظلما بالدين الاسلامى لشهرتها وفشاء الاعتقاد بها

وأصل معنى العقيدة هو التصديق غيبا بما يطلب اعتقاده بدلائل تدل عليه سواء كانت عقلية أو كونية أو وهمية .. فالاعتقاد بوجود الله تعالى هو عقيدة لأنه تعالى غير منظور بالحس .. والذين يعتقدون بهذا الوجود لهم دلائل بديهية وعقلية تؤيد صحة هذه العقيدة ... وبعض من الناس يعتقدون فى أمثالهم من المخلوقات انهم قادرون على نفعهم أو ضرهم ولهم دلائل وهمية يتبجحون بصحتها لا تؤيدها البداهة ولا العقل بل هو وهم فاسد

وعلى ذلك فالعقيدة قد تكون فاسدة وقد تكون صحيحة ... ولما كان الانسان مازال جاهلا بأغلب مما فى العالم كان من طبيعته مطالباً بالحكم على كثير من المسائل بواسطة العقيدة وكأنها من مستلزماته الطبيعية

واذا صرفنا النظر عما ورد فى القرآن الحكيم عن لفظتى القضاء والقدر وما ورد فى معنى كل منهما من المقاصد العالية الحكيمة المعقولة .. وتأملنا لشهرة الاعتقاد بها بين عوام المسلمين وأغلب خاصتهم وعلمائهم مما يعد مضاداً لمدلولها فى القرآن الحكيم على خط مستقيم — نجد أن هذه العقيدة فاسدة جداً للأمة وأى فساد — بل ضارة الى النهاية وأى ضرر حتى صارت كالقرحة السامة التى لا تزول —

***

٢٥٧

﴿ انقلاب المقصد ﴾

كان الغرض من هـذه العقيدة فى صدر الاسلام وضرورة الاعتقاد بمدلولها الصحيح هو التغلب على شهر الاعتقاد الفاسد الذى كان يركب عقول الوثنيين من أن الخير له آله والشر له آله آخر فأتى الاسلام وأوضح أن لا إله الا الله وانه هو المجازى فى العالم وحده بالخير أو الشر طبقاً للسنن والنواميس التى جعلها فى العالم وبين الناس مستوجبة لأحدهما بأسباب عادلة معقولة أساسها حريتهم فى أدائها أو بما يراه الله أنه الحق — فعلى توالى الأيام قلب هذا المقصد الحسن بتأويل الفقهاء والمستبدين شر منقلب وصار مدلوله أن الناس عند الله مقسومون قسمين بلا سبب قسم للشقاء وقسم للسعادة والهناء حتى قالوا أن كلا من هؤلاء لهم أعمالهم وأرزاقهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم وانها مخصصة لهم بالذات من الله لا يحيدون عنها فتراً ولا شعرة

٢٥٨

﴿ ضرر الباطل ﴾

كاد العاقل من مثل هذا الانقلاب السيء أن يقول : إن الله تعالى على زعمهم جعل العالم وما فيه صورة هزلية — عوضاً عن أن تكون الحياة ميداناً للسباق والتقدم الى الله بين جميع البشر بلا فرق بين الأحمر والأبيض والأسود من بنى الانسان المخاطبين كلهم فى وقت واحد من الله بالآية : (ان أكرمكم عند الله أتقاكم)

كادت الأمم الاسلامية أن تموت موتاً بفساد هذه العقيدة الباطلة وما تفرع منها من الجمود حتى صارت من أضر العقائد وأفسدها على عقول الناس واسم الدين . . . ولذا يجب تبرئة الدين الاسلامى منها بقوة الجهد واظهار الغرض الحق ولو بشكل واسم آخر إن أمكن غير هذا الاسم الذى تلوث بمدلولها الباطل حتى صار به الاسلام عنواناً على الجمود والتأخر

*
* *

٢٥٩

﴿ اشتراك العلماء والعامة ﴾

عقيدة القضاء والقدر بشكلها الكاذب السالف صارت أكبر ما يخجل من التنويه به المسلم المخلص وعنوانا فاضحا بل وحجة قوية على المسلمين من تأخرهم بسبب دينهم كما يتهمهم بذلك الاعداء وهو براء — والسبب فى ذلك هم فلاسفة المسلمين وأئمتهم فانهم طرقوا بابها وأفرغوا الجهد فى تلطيف نقائصها وهم مع ماهم عليه من التبحر فى الدين واخلاصهم للدين لم يخطوا بها خطوة الى الأمام بل هم والعامة فى نهاية الاعتقاد السالف سواء مهما لطفوا من التأويل والتحوير حتى عدّ بعض المتأخرين منهم أن الطارق لبابها بعد ذلك معدودا من المجانين أو معرضا لوقته الثمين فى الهباء وهم معذورون لأنهم كلما ازدادوا فيها بحثا زادتهم البداهة تعقيداً — وكيف يرتاح العقل لأصل كله الباطل — فكل ماتفرع منه لا يفيد

٢٦٠

﴿ استلفات ﴾

قلما تجد تأثيراً من أقوال مخلص مثلي يقول عن هذه المسئلة الحق المنير الا وهو كالشعرة البيضاء فى الجسم الأسود وذلك لطول عهد الأمة بها وفوات القرون الطويلة على اعتبارها بهذا الخطأ الفاضح المحزن ثم استمرار الجمود بين أغلب المسلمين فمن ذا الذى يسمع ومن ذا الذى يبحث فى الحق لو قيل ؟ . . ولذا نذكر هنا مدلول هذه العقيدة بحسب شهرتها ومعناها بين عامة المسلمين — ثم مدلولها بحسب آخر ماوصل اليه الجهد من أشهر فلاسفة المسلمين المتقدمين منهم والمتأخرين — ثم نبين من عندنا أثناء ذلك الحق الذى لا مرية فيه فنقول :

٢٦١

﴿ مدلول القضاء والقدر عند عامة الأمة الاسلامية ﴾

القضاء : هو الحكم الآلهى الأزلى المخصص وقوعه حتما بلا تقديم ولا تأخير لحكمة آلهية غير معلومة بحيث لو كشف الله تعالى لنا الغيب عن عمل انسان فى الحياة لقرأنا فيه أن هذا الشخص سيحصل منه عمل كذا فى وقت كذا وعمل كذا فى يوم كذا — وسيأكل كذا ويشرب كذا الخ من كل مايحدث عنه بطريقة حتمية

القدر : — ويقولون عنه المقدر هو كل الحوادث التى تنتج من هـذا الحكم الحتمى وقد يسمونه بالقسمة أيضا لسبوق تقسيم الخالق لكل انسان قبل أن يوجد ماسيصيبه حتما فى الحياة بلا زيادة ولا نقصان

هذا ما يعتقد به عامة المسلمين فى القضاء والقدر كما يعتقد بذلك أيضا كثير من الخواص والعلماء المتفقهين فى الدين وبالاخص المحافظين منهم فهى لذلك قد أوجدت بينهم جمود الذاكرة والخمول — لأن هذه العقيدة كالقوة المخدرة على العقول خصوصا لفهمهم أنها آلهية لضرورة انتظار المقدر من الجميع بلا تكلف أكثر من اللازم للجد والعمل — فليس لبعضهم أحيانا فى المسائل رأى ولا فكر الا من باب التكلف الغير لازم — فهو يخشى من أن يكون فى ابداء رأيه أو تحوطه للمستقبل مس لمقاومة المقدر الذى يعتقد أنه حتمى ولازم وقوعه بلا فائدة من هذا التحوط أو التدبير . أو اذا فعل تدبيرا ماقال أنه داخل فى المقدر المحتم الأزلى

٢٦٢

﴿ تفرق المسلمين ﴾

السبب فى التفرق الناتج بين أفراد المسلمين وعدم ائتلافهم هو انهم لا يقدرون لعمل عام نتيجة مقبولة لملء عقولهم بلزوم وقوع الحوادث حسب المقدر الأزلى لا بحسب الائتلاف والتعاضد — نعم — أن القرآن يحث على الائتلاف ولكنهم يعدون ذلك أشبه بالآيات المنسوخة لرسوخ الاعتقاد بالمقدر وما حثهم على تيقظهم الأخير الا أنهم رؤا تقدم الأمم الغربية المحسوس وانهم قد ضيقوا على خناقهم فى كل الأمور فتنبهوا نوعا من نومهم ولكن للخوف من سوء الحال الذى صاروا اليه بتقاعدهم هذه القرون الماضية الطويلة لا من حيث زوال هـذه العقيدة الفاسدة من أدمغتهم وان كان قليل من المتنوّرين لا يلتفتون اليها ولا يعبأون بها

٢٦٣

﴿ الأسباب ﴾

أن انتشار عقيدة القدر الفاسدة بين العامة هم المتفقهون فى الدين من العلماء ونشرهم خلاصة مايفهمون بجهل من الدين ويدور محور ذلك على ثلاث نقط مهمة هى : الارادة

الآلهية — العلم الآلهى — والاختيار الأنسانى بأزائهما :

أما الارادة — فيفهمون منها أن لايقع فى ملك الله تعالى إلامايريده بكيفية أن كل مايفعله المخلوق من طيب أو خبيث من مراد الخالق الذاتى ...

وأما العلم : — فقالوا هل الله تعالى يعلم أن فلاناً فى الوقت كذا سيفعل كذا أم لاقبل حصوله ؟ .. فالجواب نعم — لابد أن يعلم — ولذا يقولون اذا ارتكب انسان جريمة أو احتل الأجانب بلداً اسلامية — هل مثل هذه الحوادث لازمة ومحتم وقوعها ؟ فالجواب نعم — لضرورة انطباق هذه الحوادث على العلم الآلهى وارادته قبل وقوعها لأن الفرض بخلاف ذلك مما يعرض الخالق للجهل بالحوادث قبل وقوعها وهو محال — وان الرضى بالقدر مهما آلم الضمائر الحرة فهو من لوازم الدين

وأما الاختيار الانسانى . — فان كانت البداهة تؤيده غير أنهم اعتبروه ظاهرى فقط وصورى وايدوا ذلك ببعض آيات القرآن كالآية (وماتشاؤن الا أن يشاء الله) أى لايختار الانسان شيئاً الا اذا شاء الله أولا ذلك ومتى شاء الخالق أمراً وجب وقوعه حتما بالرغم عن أى قوة فى العالم — ولذا فالاختيار الانسانى ان كان موجوداً بشكل فرضى فهو ليس الاتنفيذا لقوة الخالق — وان الحقيقة المعتقدة فى الباطن عن أى عمل انسانى يرجع مباشرة الى الخالق . وان للانسان اختيار مخصوص مخلوق فى نفسه

ولهذه الأسباب الثلاثة التى أخذوا دلائلها من قشور القرآن وأصبغوها صبغة الحق مع أنها جوهر الباطل تكونت عقيدة القضاء والقدر المذكورة بشكلها السالف الذي دهور كثيراً من الأمم الاسلامية الماضية الى الحضيض وأزال أساس مدنية الاسلام الحقة التى تتركب من صخور العلم والايمان وكيمياء الجد والاجتهاد والفضيلة

٢٦٤

﴿ مدلول القضاء والقدر ﴾

﴿ بحسب ماوصل اليه أشهر فلاسفة المسلمين السابقين ومتأخريهم ﴾

قال تعالى فى القرآن الحكيم : (ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل آن نبرأها ان ذلك على الله يسير) فمعنى ذلك أنه لايحصل حادث فى

الارض مهما كان شكله ونتيجته أو فى النفوس الانسانيـة الا وكان الله تعالى كتبه بعلمه قبـل أن يخلق العالم وما فيـه — فدل ذلك أشهر فلاسـفة المسلمين على أن القضاء معناه لايختلف عما فى التعريف السابق عند العوام وكذلك معنى القدر — وان كان القدر يطلقونه أيضاً على مقادير السنن والنظامات الطبيعية التى أوجدها الخالق فى العالم ليسير الخلق والناس على نظامها الى الأبد

ومهما انقلب شكل التعريف أو تنوّع فان اعتقادهم فيما يختص بالانسان وحده وأعماله لا يختلف عن الاعتقاد الذى تفهمه العامـة مع أنه بيت القصيد -- وما الفلسفة الزائدة التى أوجدوها علاوة على هـذا الاعتقاد الكاذب إلا الجمع والتوفيق بقدر الامكان بين آيات القرآن المختلفة وهذه العقيدة بشكلها السالف لأنهم راؤا ان العقول فتحت لها أبوابا للانتقاد المر الظاهر — فاتسع نطاق الاختلاف بين الأمة بعد أن كانت فى مبدإها جسما واحداً فراؤا ان لاعلاج لهذا الداء الا قبول هذه العقيـدة مادامت فى الدين كوهمهم مع تأييـد فروع الدين الأخرى التى يؤيدها الدين نفسـه أيضاً وان كان الجمع بينهما كالجمع بين النار والماء —

٢٦٥
﴿ الأحزاب ﴾

ظهر أن حرص علماء الاسلام علي عقيدة القسمة الازلية لكل شخص بالذات لا يفيد الا اتساع الخرق فانشقت الأمة الاسلامية بحسب مافهم كل منهم من بعض آيات القرآن واستقل برأيه وكون له حزباً أو عقيدة جديدة بلا اكتراث لما يدل علي ضدها من آيات أخرى وان أشهر هـذه الفرق ثلاثة وما عداها فهو محصور بينها وكلها فى الباطل سـواء الأولى فئة الجبرية وهم الذين استخلصوا من الاعتقاد السالف وما تدل عليه آيات كثيرة قرآنية أن الانسان فى الحياة كالريشة فى الهباء عند عمله أى عمل كان فلا ارادة له حقيقـة ولا مسؤلية عليه ولا اختيار فيما يفعل وقطعوا النظر عن كل آيات القرآن التى تدل علي كثير من المسؤلية والارادة والاختيار ولزوم التأمـل والتحفظ ووجود النظامات الآلهيـة الخ الثانية : فئة القدرية — وهم الذين اختاروا عكس هذا المبـدأ من بعض آيات أخرى بل

خرجوا عن الحد فقالوا أن الانسان مستقل تمام الاستقلال عن الخالق وانه لاعلاقة له بالانسان البتة وان مايصاب به فى الحياة مهما كان ليس على نظام ولا ترتيب ولا جزاء وزادوا على ذلك عدم علم الله تعالى بما هم فاعلون أو بما هم به مصابون وهؤلاء مهما قالوا أو خرجوا عن حدودهم فان ذلك علي نفوسهم وان كان لهم فى ذلك علة

والثالثة : فرقة الأشعرية وقد جمعوا التوسط بين الاثنين غير أن حقيقة مايرمى اليه مبدأهم يرجع فى الغالب الى الفئة الأولى — والجميع بحسب ماتوضح لايرتاح له العقل ولا الحقيقة مع مخالفة الجميع صريحاً إلى اجمال مايشير اليه القرآن الحكيم وان كان افتتائهم بسبب بعض آياته مع ترك الآخر

٢٦٦

﴿ الدواء الكاذب ﴾

وقف مشاهير فلاسفة الأمة الاسلامية وأئمتها على ماانتاب الأمة من هذه الضربة المؤلمة التى فرقت الشمل ومزقت الجموع بل وقفوا ينظرون الى سوء النتيجة التى صار اليها الحال فماهم بقادرين علي انكار العقيدة السالفة مع توهمهم بوجود مايدل عليها ظاهراً فى الدين وقد تشبع بها أغلب الأمة وهم يتدلون بها الهاوية — وماهم بقادرين على موافقة احدى هذه الفرق المتشعبة أو ماخرج منها لمخالفة الجميع لاجمال القرآن والبداهة — فاجتهدوا أن يضعوا حداً لذلك بقدر امكانهم — فكان اجتهادهم هذا وما وصل اليه علمهم وفلسفتهم كالدواء المسكن بعض الأحيان — فما هو بقاطع الداء من أصوله ولا هو شافياً أو يؤمل منه الشفاء التام — وما زالت العلة كأنها بنت اليوم بعد ان أفسدت منهم وعليهم كل شيء . . .

أما الدواء الباطل المذكور فينحصر فيما يأتى

أولا : وجود العقيدة المذكورة بشكلها السالف وعدم إمكان الخلاص منها

ثانياً : ضرورة العمل بكل آيات القرآن مع وجودها وتطبيقه بالتأويل عليها

٢٦٧ — ﴿ فوز القرآن ﴾

﴿ أو انتصار الحق على الباطل مهما طال الزمن ﴾

ماذكرناه هو العلاج الوهمى الذى فعله أشهر فلاسفة المسلمين المتقدمين منهم والمتأخرين

فكان الالتزام بوجود العقيدة المذكوره بالنسبة لآيات القرآن الباهرة كوجود الضد أمام الضد .. فمهما كان من تأثير آياته الباهرة التي كالشمس فان العقيدة المذكورة تكون كالحجر الصلد المظلم الذى لا يتأثر ولا يزول . . . لماذا؟ لأن أصل وجود العقيدة بتقسيم الخلق الأزلى على الشكل السالف غير موجود بالمرة فى القرآن الحكيم ..ولا يتوهم القارىء أننا ننكر هذه العقيدة من الدين بالمرة... بل ننكر شكلها الباطل وننكر الظلام الذى وضعوه عنها بدل النور فضلوا السبيل ولذا قد اجتهدوا بأن يضعوا أجوبة مخجلة على كثير من الاعتراضات التى ترد من أول وهلة على العقول والحقيقة وجعلوها كنقطة دفاع ضد المعترضين . . ثم وقفوا عند هذا الحد الى الان فكان عملهم هذا غير طبيعى وغير موافق للحقيقة . . وما زالت العقول ترمى هذه الأجوبة بقنابل انتقاداتها الفتاكة كل هذه القرون الماضية حتى انكشف لنا الحق بعون الله تعالى فبيناه فى هذا الكتاب وفاز القرآن بعشيقه العقل والحقيقة بلا احتياج الى محاماتهم الباطلة . . وسنبين هذه الحقائق فيما يأتى تحت عنوان الحقيقة ا ٥ ب ٥ ج

٢٦٨

﴿ أقوال بن تيميه وأمثاله المتأخرين ﴾

نريد أن نذكر فيما يأتى بعض الاعتراضات التى كانت تعترض أراء علماء الاسلام من قرون مضت الى الآن والاجوبة التى يجاوبون بها وبالأخص لأحد مشاهيرهم وهو المرحوم « أحمد بن تيمية » فان أراءه الوهمية مازالت هى المعتبرة عند أغلب المتأخرين الذين يدعون الاصلاح أيضاً

٢٦٩

﴿ الاعتراض الأول ﴾

قرر العلماء المتقدمون والمتأخرون أن الله تعالى أقسم العباد من الأزل قسمين : قسما شقياً أو كافراً . . وقسما سعيدا أو مؤمناً بلا سبب لهذا التقسيم الوهمى . . . مع أن القرآن الحكيم يعارض ذلك ويؤيد أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر ولا الفساد فكيف يقرر الكفر لبعض عباده من جهة ثم هو يقرر عدم رضاه لهذا الكفر من الجهة الاخرى. .فهذا

تناقص لا يرتاح له العقل والحقيقة — فاما أن يكون مقرراً كفر بعض الناس حتما من الأزل ولا داعى لعدم الرضا وأما أن لا يكون مقررا كفر البعض من الأزل وغير راض عن الكفر كما يقول القرآن وكما هى الحقيقة .

وبخلاف ذلك فان هؤلاء العلماء قد قرروا أيضاً أن الواجب الديني يقضى بالرضى بالقسمة فالكافر يجب أن يرضى بكفره أو قسمته المذكورة والمؤمن كذلك وادعوا بالوهم أن ذلك ما يقرره القرآن فتضاعف بذلك التناقض اذ كيف يكون انسان شقيا ومقرراً له الشقاء أو الكفر من الله ثم الله تعالى لا يرضى هذا الكفر مع كونه محتما عليه من الازل منه — ومن جهة أخرى يجب أن يرضى بهذا الكفر أو الشقاء هذا المسكين ؟ — تناقض وأى تناقض .. وتنافر فى العقول ضد الله تعالى والضمائر وأى تنافر ! ..

ولهذا ترى السؤال الآتى الذى طرح على العلماء من أحد الكافرين وهو :

أيا علماء الدين ذمى دينكم — تحير ردوه باوضح حجة
اذا ماقضى ربى بكفرى بزعمكم — ولم يرضه منى فما وجه حيلتي
دعانى وسد الباب عنى فهل الى — دخولى سبيل بينوا لى قضيتى
قضى بضلالى ثم قال أرض بالقضاء — فها أنا راض بالذى فيه شقوتى
فاذا كنت بالمقضى ياقوم راضيا — فربى لا يرضى بشؤم بليتى
فهل لى رضى ماليس يرضاه سيدى — فقد حرت دلونى على كشف حيرتى

٢٧٠

﴿جواب العلماء على الاعتراض الأول﴾

علماء الاسلام المتقدمون والمتأخرون لم يروا جوابا لهذا الاعتراض غير الصمت وتهديد المستفهم لأن السؤال على هذه المتناقضات فى زعمهم مما تزيد المستفهم عذابا من الله وانتقاما . . وهذا أشبه بحاكم استبدادى ظالم . . . فكلما طولب بلطف فى شىء ما لاقامة العدل استعمل الانتقام والتهديد والتخويف بدل الرجوع الى العدل والحقيقة ونسبوا ذلك الى مشيئة الله تعالى التى قضت بذلك فلا رد لها والاعتراض لذلك غير جائز مطلقاً . . . ولا يضاح سبك هذا الوهم أدمجوا فى ذلك أن الشيطان كان أول المعترضين على مشيئة الخالق فى لزوم السجود

لآدم فكان نصيبه الطرد وزيادة الهلاك . . . وهكذا يكون نصيب كل معترض ولذا قال ابن تيمية والكل موافقون على مبدئه :

هذا سؤال خاصم الملأ العلا قديما به إبليس أصل البلية

الى أن يقول

ومن يك خصما للمهيمن يرجعن على أم رأس هاويا فى الحفيرة

وأصل ضلال الخلق من كل فرقة هو الخوض فى فعل الاله بعلة

فان جميع الكون أوجب فعله مشيئة رب الخلق بارى الخليقة

ولو كان الأمر كذلك وأراد الله تعالى حتما تنفيذ هذا النظام لوافقنا هؤلاء العلماء على وهمهم ولكنهم نسبوا لله الباطل وهو براء منه وان ما يؤيدونه حقاً ومرادا للخالق واجباً بالذات بعيدا عن الصحة بل هو كل الباطل .. ونحن نذكر الحق فيما يأتى :

٢٧١

﴿ الحقيقة . ١ ﴾

(مساوات المخلوقات).. ان الله تعالى لم يقسم الخلق من الأزل قسمين كما زعموا بل خلقهم متساويين فى الأصل الروحانى كما قال تعالى : (كان الناس أمة واحدة) وجعل لهم نظاماً يسيرون فيه بحريتهم الممنوحة لهم منه تعالى فى هذه الحياة وان ما يدل على المساواة فى الأصل أيضا قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا شهدنا الخ)

الغرض من الحرية فى الحياة الدنيا : — أما الغرض من منح الخالق الحرية للمخلوقات فهو كى يقدموا له تعالى الشكر بها بلا اضطرار .. ويعبدونه بتمام الاختيار كالآية .. (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) ... اذ انه تعالى لا يقبل الشكر الذى لا يكون بتمام رضى صاحبه بسبب عزة نفسه سبحانه (ان الله عزيز حكيم) ... ولما كان الانسان الشاكر لله سائراً فى الطريق الطبيعى الذى لأجله خلق كان كل ما يعمله حسن وشريف وسيوول به كذلك الى السعادة الأبدية ... ومن لم يرد أن يشكر الخالق بتمام حريته كان سيره أيضاً مضاداً لنظام نفسه الطبيعى من كل وجه ولذا كان يتدلى به الى مضادة النظام الطبيعى الحق الذى يوول به

فى النهاية الى العذاب الآلهى الأخروى .... فنظام التقسيم موجود قبل أن يكون الانسان ... ولكن الانسان نفسه سيكون فى الهناء أو الشقاء تبعاالحريته الذاتية فى السير فى أحد الطريقين

٢٧٢

﴿ عصيان الشيطان ﴾

أما قولهم ان اعتراض الانسان على تقسيمهم الكاذب أشبه باعتراض الشيطان على خالقه عندما عصى ربه وان ذلك لم يزده الا طراد وعذابا كله كذب وتلفيق ... لان التقسيم فى النفوس لا أصل ولا وجود له بالمرة ... ولان الشيطان لم يحتم الله له تعالى أن يعصى أمره بعدم السجود ! ... بل الله تعالى طلب منه ذلك ولكن بحريته التى منحها اليه كما منحها لغيره .. وليس اضطراراً أو تقديراً بالقدرة الآلهية أو لزوم التنفيذ الواجب . . . فالشيطان بسبب تملكه لحرية نفسه فى تنفيذ هذا الأمر اختار عدم الاطاعة بحريته أيضا ليتحمل نتائج مخالفته على قمة رأسه فاستحق الطرد والتعذيب . . . وان عصيانه هذا يخالف النظام الطبيعى الحق الذى وضعه الخالق عليه فكان له ما اختار من الاهانة وكان فى امكانه أن يتجنب ذلك بكل سهولة ويطيع الخالق بالسجود كما أمره لآدم عليه السلام

٢٧٣

﴿ مشيئة الخالق فى فعل العبادة ﴾

ان الله تعالى منح الانسان تمام الحرية وقرر سبحانه عدم مساسها الا بالحق أى عند مجازة الله عبده عما يفعل كالآية (ولولا كلمة سبقت من ربك) أى سبقت من الله حقا فى لزوم ترك الانسان حراً الى الموت لأنه تعالى جعله فى الارض خليفته أونائبا عنه فهو لذلك كالخالق متصفا بالاستقلال التام فى الارادة والحرية الذاتية كالآية .(انى جاعل فى الارض خليفة) - وما دام الخالق سبحانه أراد أن يكون لهذا الانسان حرية فى كل مايريد كان كل مايفعله الانسان داخلاً تحت مشيئة الخالق العامة بلا تخصيص أزلى فى الفعل أى بلا وجوب وتحتيم بل بمطلق الاختيار الانسانى .

فاذا أحسن انسان الى فقير فقد شاء الله تعالى منه ذلك بسبب كونه تعالى أراد من قبل أن

بمنحه الحرية ليفعل مثل هذا الاحسان أومايشابهه وان أساء هذا الانسان نفسه الى مسكين فقد شاء الله له فعل هذه الاساءة وليتحمل نتائجها أيضا — ولهذه الاسباب الواضحة نفسها كان عصيان الشيطان أيضا بمشيئة الله تعالى لانه تعالى جعل له الحرية المطلقة فى هذا العصيان فقط وقد كان فى امكان الشيطان عدم العصيان والسجود لآدم ولو فعل ذلك لكان أرضى الله تعالى وأناله الحسنى وزيادة ولكانت مشيئة الله تعالى فى الوقت نفسه واقعه بما فعل .. لماذا ؟ .. لأن الله تعالى أراد أزلا هذا النظام فى فعل المخلوقات . . . فكانت مشيئته تعالى تابعة لحرية الانسان أو غيره فى عمل أحد الوجهين المتضادين ليس الا .... ولأن أفعال المخلوقات هذه لم تكن مرادة من العباد لذات الخالق حتى تقول بتخصيص الفعل بالمشيئة الآلهية بل هى خاصة بالعباد لتتحمل نتائجها بحريتها الذاتية أيضا فمن شاء من الناس الكفر فلنفسه وقد شاء الله تعالى له أيضا ماشاء لنفسه ومن شاء من الناس الايمان فلنفسه أيضا وقد شاء الله له ذلك أيضا .. وكل ذلك بالطبع لا ينافى كون الله تعالى له اشاءة ذاتية خاصة فى أى شئ يريده فهو تعالى مطلق الحرية والارادة وان ما يريده تعالى يقع حالا بلا تأخر ولا تمهل كالآية. (انما قولنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون)وهى بخلاف اشاءة المخلوقات التى أراد الله تعالى ان يكونوا أحراراً فى اختيار نوع منها

(لا يرضى الله لعباده الكفر) — لما كان الانسان فى امكانه أن يؤمن أو يكفر فى أى لحظة كانت حسب الحرية المملوكة ليده من الخالق .. وكان الغرض الأول من منحه الحرية المذكورة هو ليؤدى بها الايمان للخالق الحق « ان هو الا ذكر للعالمين .لمن شاء منكم أن يستقيم » لانه تعالى لايقبل الايمان المذكور من العبد الا بتمام حريته ورضاه ... فانقلب بعض المخلوقات بنفس هذه الحرية فى الطريق الغير طبيعى الا وهو الكفر فلم يتعرض اذ ذاك لهم الخالق ولم يردعهم بقوته القادرة عن الكفر المذكور لأن ذلك هو الحق فعليهم كفرهم وان كان لرحمته عليهم لا يرضاه لهم اذ قد سبقت منه كلمة حق فى عدم التعرض لهذه الحرية مهما فعل الانسان . . . وعليه فتركهم فى الكفر ليس لغرض الله بقاؤهم فيه بل لوجوب تركهم أحراراً على أى حال علهم بنفس هذه الحرية التى هم مازالوا وهم كافرون ممتعون بها أن يرجعوا بها الى الايمان الذى هو غرض الله الاول من وجودهم مع العلم أن سيرهم الغير

طبيعى هذا فى الكفر مما يوجب لهم من طبيعتهم الفطرية ومن الله أيضا شيئا من التبكيت فى الضمير والألم والعذاب كان فى امكانهم أن يتجنبوه بالسلوك الحسن والايمان المريح للضمائر وان هذا العذاب فى نفسه لم يكن للزوم رجوعهم عما هم فيه بل هو تغيير فى طبيعتهم من هذه النتيجة والانتقال بها من حالة أحسن الى أدنى وأردأ — فكان الكفر كمقاومة شديدة ضد الطبيعة السمحة الفطرية المخلوقين عليها (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين)

٢٧٤

﴿ الرضا بالقدر ﴾

الانسان حرّ من طبيعته فى كل مايفعل مع خضوعه رغما عن نفسه لجزاء الله عن فعله صغيراً أو كبيراً فقد يعمل تارة صالحا فيمده الله تعالى بجزاء حسن .. وقد يعمل سيئا فيمده بجزاء سيء أيضا .. فتتنوع اذ ذاك عليه الحوادث المؤلمة أو الموجبة للارتياح والسرور — غير أنه يتضجر مما يسىء نفسه فيتململ ويضطرب حتى قد ييأس من الحياة كما أنه بالعكس قد يوقعه السرور والفرح فى الغرور الكاذب فينعكس عليه الأمر الى مايخرج عن الحدود الطبيعية ..

ولما كان كل من الحالتين السالفتين تضر انه من حيث لا يشعر فقد أمر الله فى كتابه الحكيم تعليما للناس .. أن الانسان يجب عليه أن يتحمل الاساءة الناتجة من سوء فعله بالصبر وعدم اليأس .. كما أنه يتلقى مايسر برزانة وسكون فلا يفرح ويطيش .. لأن كلا من هاتين الحالتين لم تأته عبثا بل تأتيه بقدر الله الذى معناه النظام الآلهى والنتيجة الطبيعية اللازمة لكل فعل تنفذ بحريته

ولذا كان عدم اليأس وعدم الفرح من الأمور المرغوب فيها عقلا لأن التجارب تؤيد هذه الحكم وتثبتها - وكان مبدأ « الرضى بالقدر » فى الدين الاسلامى من أحسن المبادىء وأسماها لتربية الأخلاق الانسانية على الفضيلة فان معناه الوقوف عند حدّ النتائج الطبيعية للافعال بلا اسراف اصطناعى يوجب الضرر .. ولذا قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير — لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) فاذا أصاب الله انسانا بسيئة فى نظير عمله السيء

فلا يجب عليه أن ييأس أو يركن الى الغضب والملل والكفر فان هذا الجزاء بالسيء وقع بالضبط بقدر العمل وكان مكتوبا — وان اليأس أو الكفر لا يفيد الانسان الا الزيادة من السيء فانه وزر آخر فالأحسن الرضى مادام الجزاء يوقعه الخالق بنفسه وانه حق وعدل (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) كما أن التمادي فى الفرح مما يصيب النفس من عمل صالح مما يهيئها للتجرد من الاستزادة بالكمال فالرزانة فى الحالتين ممدوحة ومطلوبة فانها دليل التثبت بالايمان بالله وبعدله فى الجزاء مع دوام الشكر فى السراء والضراء (ولا يظلم ربك أحداً)

ولكن علماء المسلمين المتقدمين والمتأخرين قد قلبوا هذا الغرض الحسن كما تقدم وقالوا ان الله تعالى خلق أناساً أشقياء من الأزل ومحتم لهم النار قبل أن يتواجدوا فى الحياة الدنيا وان آخرين محتم لهم السعادة والهناء والجنة — ويعبرون عن ذلك «بالقسمة» .. وان معنى الرضى بالقدر هو الرضاء بهذه القسمة الآلهية الوهمية لأنها أزلية ولادافع لها ومن ضمن ذلك أيضاً مايصيب كلا من الطرفين من الحوادث العالمية فانها داخلة فى القسمة المذكورة حتى تغلب فى اعتقاد أغلب المسلمين المتطرفين أن الانسان كالريشة فى الهباء وانه مدفوع من الله بلا ارادة عنده الى كل مايفعل لأنه مقسوم أزلا وهذا خطأ فاحش جداً لاأساس له فى الوجود وفرق كبير بين أن يعتقد المسلمون أنهم يمكنهم أن يحتاطوا فى أعمالهم مما يصابون به فى الحياة من الرزايا بسبب سيئاتهم ليحسنوا العمل والاعتقاد ويتقدموا بارادتهم واستقلالهم الذاتى طبقاً للسنن الآلهية فى العالم وبين أن يركنوا الى التواكل والجمود بل الموت كما هو الحال عند أغلبهم الآن على ظن ان ماهم فيه أو مما يصيبهم من الرزايا العالمية حتى من استيلاء الاجانب عليهم وتفوقهم عليهم فى كل شىء الى التقديرات الأزلية المحتمة وانها قسمتهم القديمة التي لامناص منهما مهما كان التعديل — فلبئس مايظنون وانهم إلا يخرصون أمام العقل والخالق

﴿ الاعتراض الثانى ﴾

لما كان جواب علماء الاسلام السالف على الاعتراض الأول موجبا لعدم الارتياح وزيادة الطين بلة — قيل — اذا سلمنا بأن هذا الجواب من العلماء صحيحا وإن الله تعالى أراد الكفر لمن كفر وأقسمه له حتما بما لاحيلة له فى الخلاص من هذه القسمة المحزنة المحتمة ...

فلماذا يعذب الله هذا المسكين على هذا الكفر مع أن هذا العذاب لا يكون إلا بعد التقاضى وانه لا حول له ولا حيلة فيه — يعد هذا الكافر عاصيا أيضا بحكم القرآن مع أن العصيان هو الترك عمداً لما يمكن عمله أو فعل ما يمكن تركه ؟... تناقض وأى تناقض ؟. لا يرتاح لذلك العقل والعدل ولا يقبله أشدّ الناس استبداداً وظلما فكيف يكون ذلك منسوبا لله أرحم الراحمين !... فمن ذلك قال بعض الكافرين معترضا :

اذا شاء ربى الكفر منى مشيئة   فهل أنا عاص باتباع المشيئة
وهل لى أختار أن أخالف حكمه   فبالله فاشفوا بالبراهين غلتى

٢٧٦

﴿ جوابهم على الاعتراض الثانى ﴾

لما كان الأساس باطلا فى جوابهم على الاعتراض الأول كانوا كلما تعمقوا فى البحث ازدادوا ضلالا فقالوا جوابا على الاعتراض الثانى ما يأتى : أنظر الى الناس الذين يرتكبون الجرائم فى هذه الحياة تجد أنهم مع سبوق مشيئة الله تعالى فى لزوم ارتكابهم هذه الجنايات فان الحكومة تعاقبهم عقابا صارما — فهكذا عقاب الله تعالى وتعذيبه لهم فى الآخرة فانه تعالى يعدهم عاصين كذلك ويجازيهم كالحكومة — وترى ذلك من معنى قول ابن تيمية فى أبياته الآتية

ألست ترى فى هذه الدار من جنى   يعاقب اما بالقضا أو بشرعة
ولا عذر للجانى بتقدير خالق ٢٧٧   كذلك فى الأخرى بلا مثنوية

وقد زادوا على هذه العلل الباطلة أن الانسان الشقى أو المجرم ولو أنه محتم عليه بمشيئة الله تعالى أن يفعل جريمته مدفوعا من الله باطنا بما لا حيلة له فى عملها لارتباطه بالمشيئة المذكورة فانه يعدّ فى آن واحد عاصيا لأمر الله لا من جهة الحقيقة الكلية بل من جهة آيات الله فى القرآن الآمرة بالنهى عن الاقدام على أى منكر وهنا يتحير العاقل فى هذا التعليل الكاذب ! اذ كيف يدفعه الله بمشيئته بارتكاب المنكر باختيار مصنوع فى نفس الانسان من الله ثم هو نفسه يعدّ عاصيا لله عن نفس الفعل الذى فعله الخالق ؟... فاما أن يكون دفع الله له على ارتكاب الفعل بالمشيئة كذب — ويكون هو بتمام استقلاله فعله باختيار تام — وهناك يعدّ

عاصيا حقيقيا لأوامر الله فى القرآن القاضية بالمنع عن فعل المنكر — وإما أن يكون مدفوعا حقيقة بالمشيئة بما لا حيلة له فى الخلاص منها — وهناك لا يكون عاصيا لأوامر الله — بل هناك يقال ان الله نفسه اضطره بمشيئته وقوته لفعل ما ينهاه عن فعله فى القرآن — وهذا تناقض ضد الله لا يقبله من به جنة فكيف يقبله العقلاء ودين الحق ؟. إن هذا إلا إفك مبين !.

وليت علماء الاسلام وقفوا عند هذا الحد بل زادوا على ذلك أن الله هو الذى أقسم كل الخلق قسمين متضادين فليس الانسان وحده هو المحاط بهذه العلل الظالمة المدهشة بل الحيوانات أيضا — فقالوا انظر ياهذا الى أصناف الحيوانات تجد حيوانا معذبا وحيوانا منعما بلاسبب فكل ذلك تابع للقسمة الأزلية بارادة الخالق — والناس كذلك من الأزل مقسومون بأعمالهم حتى قال ابن تيمية

ومعصية العبد المكلف تركه لما أمر المولى وان بمشيئة
فان آله الخلق حق مقاله بأن العباد فى نعيم وجنة
كما أنهم فى هذه الدار هكذا بل البهم فى الآلام أيضا ونعمة
وحكمته العليا اقتضت ماقضت من الفروق بعلم ثم أيد ورحمة

الى أن يقول جوابا للمعترض على سبب المشيئة فى لزوم الفعل الانسانى :

فقولك لم قد شاء مثل سؤال من يقول فلم قد كان فى الأزلية

﴿ الحقيقة : ب ﴾

٢٧٧

﴿ الغرض من الخلقة هو الحرية فى العمل الصالح ﴾

خلق الله الانسان وأكمل صورته وأراد أن يجعل له نظاما ليسير عليه فمنحه الحرية ليختار بها الطيب أو الخبيث بحيث يمكنه ترك الواحد منهما والسير فى الثانى بلا فرق فى الامكان والوقوع الفعلى والعلم الأزلى الآلهى متحملا بعد ذلك نتائج مايختار منهما — بعد أن ملأه الله شعوراً وعقلا بما يجلب له الشقاء ان أقدم عليه بحريته أو الهناء ان اختاره بنفسه

ولما كان الغرض من الخلقة وارسال الرسل والأنبياء هو لضرورة سير الانسان فى العمل الصالح بتمام حريته : (إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم) كان فتح طريق

الشر ضروريا ولازما ليعلم به مقدار تمسك فاعل الخير فى طريق الخير وليكون عمله الخير مفيداً وعائداً على نفسه بالسعادة والجزاء الحسن — فلولا فتح أحد الطريقين أمام حرية الانسان التامة ما كان لزوما للجزاء على فعل الخير ان كان هو الطريق الوحيد المفتوح للانسان وليكون فعل الشر عائداً على نفسه وحده ... وان الخلقة الانسانيه تناسب هذا النظام العادل - فالذى يكفر بالله تعالى لم يدفعه الله تعالى للكفر مطلقاً .. ولم يجعل له هذا الكفر الواقع وحده دون غيره .. وخصوصاً فكل انسان خلق وولد مؤمنا على الفطرة فالايمان أسهل فى العلم الأزلى والطبيعة والواقع .. فكفره اختيارى محض وان كان التأثير الوراثى له دخل على نوع ما فى الأخلاق .. ومهما كان التأثير الوراثى فانه فى امكانه أن يؤمن بالله تعالى أسهل وأكثر من اختيار الكفر .. اذا لاحظنا أن الكفر على أى حال مضاداً للطبيعة البشرية .. بل هو جهاد نفسانى فوق طاقة النفس على نسبة ما لضياع النفس بحريتها وسقوطها الى الانحطاط .. وان هذا السقوط كما يظهر فى الاعمال الانسانية لدناءتها وفسادها وخستها فانه يكون أيضا فى أجزاء الدماغ وارتباط المخ بالقلب فالروح والخلقة الانسانية المادية تتبع ارادة القلب فى الايمان وما يدل عليه من الاعمال الصالحة ثم فى الكفر وما يدل عليه من الأعمال الانسانية الطالحة ولذا كان جزاء الله تعالى للنفس فى هذه الحياة عن الكفر أمر لازم يشكر الله عليه ويدل على ميل الله تعالى الى رحمة الناس كافة للاسباب الآتية :

أولا لكون الكفر مضادا لكل نظام طبيعى فى النفس وفى العالم

ثانيا يجازى الله عن الكفر فى هذه الحياة ارهابا للنفس لعلها ترحم نفسها بحريتها لترجع الى طبيعتها وسعادتها الذاتية

ثالثاً ميل الله الى رحمة النفوس علها ترجع الى وضعها الطبيعى الحق لتؤول الى السعادة الحقة الأبدية وهذا النظام يسرى على جميع الناس بلا استثناء .

٢٧٨

﴿ علة الجزاء فى الآخرة ﴾

وأما الجزاء فى الآخرة فهو لازم أيضاً .. لماذا ؟... لأن الانسان بموته على الكفر قد غير فعلا بارادته الذاتية طبيعته الفطرية الجميلة الى ضدما كانت عليه وهو الايمان .. فانقلبت

الطبيعة تدريجيا ومعها التركيب الفسيولوجى للقلب والمخ الى أسفل الدرجات حتى لقد تفضل عندها أدنى الحيوانات على الانسان .. فالوحش عندها أرفع منه درجات ... ومثل هذه الطبيعة الخسيسة التى أسقطت نفسها ان لم يكن لها العذاب بالنار فى الآخرة يستحيل أن تكون فى حالة ايمان مطلقاً — وبما أن الواجب اللائق لكمال الله تعالى أن يخاص جميع العالم اليه اخلاصاً تاماً لأن ذلك هو اللائق لألوهيته وقدرته اماطوعا كمن يؤمن بحريته فى هذه الحياة .. وإما كرها كما فى الآخرة .. فكان ايمان الكافرين باكراه شديد كالعذاب بالنار مطابقاً لما آلت اليه طبيعتهم بحريتهم كى يكونوا مؤمنين ولله متضرعين كغيرهم ممن سيروا نفوسهم فى هذه الحياة وطبعوها بحريتهم على الايمان والاخلاص لله — فان الانسان فى الحقيقة فى هذه الحياة يمكنه أن يغير طبيعته وينوعها بحسب ارادته الحرة إما الى أعلا درجة وإما الى أسفل درجة (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) . أما تغيير الخلقة الانسانية الى أسفل الدرجات فهو من العمل الانسانى الخبيث وارتكابه الرزائل باتباع الشيطان كالآية (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) .. وان عذاب أولئك الكافرين فى جهنم أشبه بأن توقف على أثيم سفاك للدماء « كالمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة » خفيرا بالسلاح يلاحظه دواما مدة حياته ويستحثه ارهابا بالسلاح على الاستقامة باكراه بحيث لا يغفل عنه لحظة ... فانه طالما يشغله ويعذبه ويراقبه فهو فى سلوك مستقيم ظاهرى بحيث لو أفلت من هذا العذاب الاضطرارى لرجع بحريته الى ما كان عليه من الفساد وسفك الدماء (ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه) لأنه طبع على ذلك

وهكذا التعذيب بالنار يوم القيامة ففطرة الانسان التى خلقها الله عليه « الايمان » وهؤلاء قد غيروا طبيعتهم بأيديهم وقلبوها الى طبيعة الكفر ومن المستحيل أن تجد شيئاً خلاف النار يؤثر على هذه الطبائع البليدة ليرجعها الي حالة « الايمان بالله كرها » خلاف النار ... فكانت جهنم هى الجزاء الطبيعى الوحيد للوصول الى هذا الغرض ولذا تقول بعض الكافرين يوم القيامة (ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) أى انهم يعترفون بالحق انه كان فى امكانهم عدم الكفر الذى اختاروه بحريتهم فى هذه الحياة مما سبب لهم عذاب النار .. ولكن الله تعالى يقول بإزاء قولهم هذا إن ذلك مستحيل لأن الحياة الدنيا حق وما يعمل

فيها من أى عمل كان طيباً أو خبيثاً يؤثر فى النفس تأثيراً أبديا لا يزول أبداً حتى يصير طبعا للروح كالاية (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه)... فمن هذا يعلم المغرورون الذين ينغمسون فى الآثام أغلب حياتهم قائلين اننا نتوب فى آخرها فيغفر الله لهم فيحصلون غيرهم من المخلصين.. إن ذلك خطأ مخالف للنظام الحق الذى وضع الله الناس عليه ... فان من عرض نفسه لأعمال الدناءة والانحطاط فانه قبل كل شىء يضر نفسه ضرراً بليغا ولو على فرض أنه فى إمكانه إن مدت له الحياة فى الدنيا أن يصلح نفسه بالتوبة والرجوع الى الصراط المستقيم — ولكنه بالطبع اذا أسقط نفسه بالأعمال السافلة ثم يتوب أو يسقط نهائيا فانه لا يتساوى على كل حال بمن اتبع الصراط المستقيم من أول الأمر من غير أن يسقط — فان الثانى يسبق الأول درجات عند الله بقدر تأخر الأول وسقوطه (والسابقون الأولون أولئك هم المقربون)

٢٧٩

﴿ لا يكفر الانسان إلا بتمام حريته واختياره ﴾

أما قول علماء الاسلام السالفين والحاليين ان الكافر فعلا قد كتب الله عليه الكفر وحده من الأزل من غير أن يكتب له الايمان ثم فتح له أسبابا فى هذه الحياة تؤوله به حتما الى الكفر ليس إلا «ولو باختيار مصنوع من الله فى نفسه» فهو أول قول كاذب يسخط الله والعالم وترتجف من هوله الآداب والفضيلة الدينية وكفى الأمة الاسلامية الحالية سقوطا من أن تسىء الظن بالله الرؤوف العادل الى هذه الدرجة كل هذه القرون الماضية الطويلة...

إذ الحقيقة أن من يكفر بالله عز وجل فى هذه الحياة فهو يكفر بتمام حريته واستقلاله التام واختياره الحر فضلا عن محاربة الله له أحيانا لغرض الرجوع عن الكفر المذكور بحريته إشفاقا عليه من هول عذاب الآخرة ... ولذا ترى فى كثير من الآيات القرآنية أن الله يتبرأ من ظلم الناس وأنهم لا يظلمون إلا بخطأ نفوسهم و باستقلالهم التام وهو قول حق وفى الوقت نفسه ترى أن الكافرين يعترفون بخطأ نفوسهم الحرة باكتسابهم الكفر بحريتهم فى هذه الحياة مع أن الوضع الخلقى الذى وضعهم الله عليه يساعدهم على نوال الايمان بأسهل من الكفر (فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير) ومنه أيضا قال تعالى عنهم حقا: (ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) وهذا يثبت بالطبع انه كان فى امكانهم الايمان بالله

فعلا مع وجود ذلك فى علم الله لهم ثم اجابة دعوة الرسل كغيرهم ممن قد آمنوا واتبعوهم . . ولم نر أثراً يدل على أنهم يقولون أن الكفر مخصص لهم حتما كقول علماء الاسلام المذكورين وقال تعالى أيضا : (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فنعمل غير الذى كنا نعمل) والمعنى أنه كان فى إمكانهم عمل الايمان بحريتهم بدل الكفر الذى اختاروه وأن هذا الايمان ثابت لهم فى علم الله تعالى تحت حريتهم فى اختياره ... مما يؤيد أن الكفر والايمان معا فى هذه الحياة فى يد كل إنسان وتحت حريته لا مقسوما للبعض هذا للكفر وهذا للايمان بالتخصيص الأزلى كما يدعون بالوهم فهو باطل كل البطلان ومنه قال تعالى أيضا (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نردّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) وهذا كالذى قبله ومثله قول الله عز وجل : (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين) وكقوله تعالى (قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت) وبمثل ذلك أيضا (يقول ياليتنى قدمت لحياتى) الخ

٢٨٠

﴿ عصيان الكافر وجزاؤه ﴾

أما تعريف العصيان فهو الفعل الضار الذى يمكن تجنبه بسهولة ثم تنفذ لمخالفة من وجبت اطاعته . . ولما كان الانسان حرّ فى اختيار الكفر بحيث لا يعارضه الله عز وجل فيه (إلا بالحق) وكان الله عز وجل لا يرضى الكفر لأحد من عباده لمضادته للطبيعة التى خلقه الله عليها وليؤول بصاحبه الى العذاب الأبدى فى الآخرة كان الكافر عاصياً لله فعلا عصياناً حقيقياً وطبيعياً لأنه يمكنه بسهولة تجنب الكفر المذكور واختيار الايمان الذى هو أسهل بكثير على نفسه من الوقوع فى الكفر — أما التشبيه الذميم الذى يقول به علماء الاسلام أن جزاء الله عز وجل للكافرين فى الآخرة بلا رحمة هو تشبها لما تفعله الحكومات من جزاء المجرمين مع علمهم انهم قد ارتكبوا جناياتهم بمشيئة الله تعالى أى كأنهم مدفوعون بقدرة الله بنوع ما على فعلها حتما ورغما عنهم باختيار موهوم مفروض — فهذا شىء غير حقيقى بالمرة ولا يصح انتسابه لله عز وجل لان الله تعالى (له المثل الاعلى) — أى المثل المفهوم فى العقل على حالة الكمال — والحكومات مهما كان نوعها لا تعترف أبداً أن أحداً دفعه الله تعالى لارتكاب

منكرما أو جريمة حتى لا تخيله ... بل تقول له لماذا فعلت هذه الجريمة ؟.. مع علمك وتمكنك التام من تجنبها وعدم الاقدام عليها ؟ فهذا عمل كل حكومة فى العالم ان كانت عادلة وهذا علة انتقام الحكومات من المجرمين — فالعلة الأولى الحقة عن الجزاء أو الانتقام هى كون الجانى يمكنه بكل سهولة عدم الاقدام على الجناية وتجنبها ليس إلا — وهكذا علة جزاء الخالق الرحيم فى الآخرة سواء بسواء ... ولذا كان الكافر والشيطان عاصياً عصيانا حقيقياً لا فرضا ولا تقديراً كما يتوهم علماء الاسلام المخرفين (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون)

٢٨١

﴿ الاعتراض الثالث ﴾

تساءلت الاعتراضات على علماء الاسلام وكثر الافتاء للسؤال منهم عن هذه الأمور المضحكة المبكية التي قرروها من قرون مضت مما أوقع الرعب والدهشة فى القلوب من أعمال الله عز وجل ضد عباده حسب أجوبتهم المنكرة الماضية ... فتساءل الناس فيما بينهم وقالوا اذا كان الله عز وجل قرر خلق أصناف من الناس فريقا له الشقاء بلاسبب وآخر له الهناء بلا سبب وأن أفعالهم التى يفعلونها مقررة واجبا وقوعها منهم حتما — فماذا يكون الحكم العقلى على أفعال العباد المختلفة المذكورة مع هذا اللزام ؟.... لاشك أنهم ملزومين بكل مايفعلون ليصلوا بأفعالهم الى نقطهم الأزلية المخصصة لهم فى العلم الآلهى لتكون نتيجتهم فى الآخرة كالطريق المخصوص المقرر لهم من الله عز وجل ... فيكونوا فى الحقيقة مجبورين .. على كل عمل وان كانت البداهة تؤيد حريتهم !... — وأيضا — اذا كان الانسان فى الحقيقة حسب زعمهم مجبورا من الله تعالى على كل مايفعل — فما معنى التكاليف التى تقررها الشريعة الاسلامية على كل مسلم ؟.... وما معنى صدور الأوامر والنواهى الآلهية بصفة عامة لجميع البشر بحيث لم يخصص فيها أناسا دون آخرين ؟... لاشك فى ذلك من المناقضات ما يبقى العقول الرشيدة فى حيرة أبدية !...

*
* *

﴿ جوابهم على الاعتراض الثالث ﴾

وقف علماء الاسلام أمام هذه الاعتراضات مبهوتين فما هم بقادرين أن يقولوا صراحة أن الانسان مضطر من الله عز وجل على كل مايفعله لأن فى ذلك لغو للتكاليف الاسلامية فى القرآن وتقرير الفوضى بدل النظام — وما هم بقادرين أن يقولوا أن الانسان فى فعله حرّ لأن أفعاله مقرر وقوعها أزلا وحتما على خطة ثابتة لاتقبل التحويل قبل أن يفعلها لاتزيد ولاتنقص .. فماذا فعلوا ؟... قد مسكوا الحبل من الطرفين وقالوا أن الانسان فى فعله مختاراً لما يفعل لأنه يفعل بعلم ويرجح فى علمه مايريد فعله ... ولكن هذا الاختيار نفسه ظاهرى فقط لأن الله تعالى خلقه فى العبد ليؤدى عمله المحتوم أزلا — فهم من هذه الوجهة — كأنهم قد اصطلحوا على وضع لفظة « الاختيار المخلوق » فى النفس بدل لفظة « الاضطرار الواقع » حتى قال بعضهم أيضا أن « الانسان مجبور على الاختيار » .. . والحقيقة هى من أصل المعنى « الجبر » .. وكل ذلك اجتهادا وهميا للتوافق بين العقيدة والقرآن ولو بمثل هذا التضليل والتعمية ثم قرروا نهائيا أن المكتوب له السعادة من الأزل يوفقه الله تعالى من حيث لايدرى لأعمالها وأسبابها حتما فى هذه الحياة .. فيخلق الله تعالى فى نفسه اختياراً لما يفعل حسب الطريق المقرر له فى الأزل .. والمكتوب له فى الأزل الشقاء بالعكس لا يوفق إلا الى كل رذيلة — ولذا قال ابن تيمية عن هذا المعنى

فمن كان من أهل السعادة آثرت ... آوامره فيه بتيسير صنعة
ومن كان من أهل الشقاوة لم ينل ... بأمر ولا نهى بتقدير شقوة
ولا مخرج للعبد عما به قضى ... ولكنه مختار حسن وسوءة
فليس بمجبور عديم إرادة ... ولكنه شاء بخلق الارادة
ومن عجب الأشياء خلق مشيئة ... بها صار مختار الهدى والضلالة

وبالرغم عن هذه التعمية والحيرة التى أوقعوا أنفسهم فيها فجميعهم يعتنقون فى الباطن مذهب « الجبرية » كما هو الحال عند عامة الأمة حتى لم ينكر أغلبهم ذلك — فمنهم شيخ الاسلام ابراهيم الباجورى قال فى حاشيته صحيفة ٧٣ فى كتابه « تحفة المريد على جوهرة

التوحيد سطر ٣٢ ما يأتى :

وبالجملة فليس للعبد تأثير ما « أى فى كل مايفعل — تأمل — وتعجب » فهو مجبور من الله باطناً مختار ظاهراً فان قيل اذا كان مجبوراً باطنا فلا معنى للاختيار الظاهري لأن الله قد علم وقوع الفعل ولا بد وخلق فى العبد القدرة عليه - أجيب بأنه تعالى « لا يسئل عما يفعل » ومن أغرب مايكتب فى حق الله تعالى قول شيخ الاسلام المذكور صحيفة ٧٥ ما يأتى :

ليست الطاعة مستلزمة للثواب وليست المعصية مستلزمة للعقاب وانما هما أمارتان تدلان على الثواب والعقاب لمن عصى حتى لو عكس دلالتهما بأن قال من أطاعنى عذبته ومن عصانى أثبته لكان ذلك منه حسنا . فلا حرج عليه لا يسئل عما يفعل اه

وانى أقول ان ما فرضه شيخ الاسلام المذكور من هذه الخرافات أوهام لا يليق نسبتها للخالق لفظا فضلا على أن فعل الله لهذا النقص محال ثم محال

وقال أيضا أبو حامد الغزالى المشهور فى كتابه إحياء علوم الدين ما يأتى :

« إن الانسان مجبور من الله على الاختيار . ومعنى كونه مجبوراً هو أن جميع ما يحصل فى نفسه حاصل من غيره لا منه (أى من الله) ... ومعنى كونه مختاراً أنه محل لارادة حدثت فيه جبراً « أى من الله مباشرة » بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقا وحدث الحكم جبراً أيضا ... فاذا هو مجبور على الاختيار — اه

والغاية من كل ما تقدم انهم يشعرون بضيق الموقف ... وان الأجوبة الماضية تزيد الانسان تشبثا مما يوجب ارتباك العقل وسوء الظن بالله تعالى .. فأضافوا على ذلك قولهم فى الختام (لا يسئل عما يفعل) اسكاتا لكل سائل حتى خرج بهم الحد الى قلب الحقائق كما مرّ مما يوجب الاستغراب والاندهاش — فواضيعة الحق والدين ممن يدعون الرئاسة فى فهم الدين ! ....

﴿ الحقيقة : ج ﴾

٢٨٣

﴿ سبب انتشار الجبر بين المسلمين ﴾

إن علماء الاسلام مثل العامة لم يخفوا الحقيقة الباطنية التى يعتقدونها عن عمل الانسان

العام أياكان وحيثما كان فقالوا أن كل انسان مجبور من الله تعالى فى الباطن عن أى فعل كان ومختار فى الظاهر وان هذا الاختيار الظاهرى تحايل منهم للخلاص من ورطة محو التكاليف الدينية العظيمة التى يقررها العقل والقرآن بالبداهة — وليكونوا متفقين على وجوب العقيدة بموافقتها وهما بالقرآن فى آن واحد . . . ولكن فات هؤلاء أن العقول الانسانية مهما بلغت من الضعف لاتقبل أبداً أن يكون معنى الاختيار حادث اضطرارى مخلوق فى النفس الانسانية لتعمل عملا مقررا على خطة مرسومة لاتتحداها ... فذلك لايسمى اختياراً مطلقاوإن كانوا هم متفقون على اعتباره اضطراراً فى الباطن ... لأن ذلك أشبه باطلاق لفظ الماء على النار مع كون الموجود فعلا هى النار لاغيرها ... فهذه التسمية تسمى تعمية وإن شئت قل تضليلا إذ الاضطرار أو الجبر هو الواقع فعلا لاغيره . بحسب فروضهم هذه الوهمية

٢٨٤

﴿ الاختيار والجبر — الجزاء بسبب الاختيار ﴾

أما حقيقة تعريف الفعل الاختيارى فهو فعل مايمكن تركه بتمام الاستقلال — فاذا وقع نظرك على تفاحة وبرتقالة ثم أردت أن تختار البرتقالة وتترك التفاحة فمعناه أنه كان فى امكانك قبل أن تأخذ البرتقالة أن تتركها بلا أى مانع وتأخذ التفاحة بدلها فعلا .. فاذا دلت الظواهر انك عاجز أن تترك واحدة وتأخذ الأخرى بتمام حريتك واستقلالك تلاشى الاختيار وتقرر الاضطرار حتما أما قول علماء الاسلام السابقين . إن الفعل الواقع من الانسان هو وحده كان معلقا فى العلم الآلهى فخطأ محض لوجود ضده أيضاً .. وأن تخصيص طريق واحد فى العلم الآلهى للعمل الانسانى هو عين الاضطرار — مادام مثبوتاً فى الذهن أن الواقع هو المخصص فى العلم الآلهى ولا سواه —أما الاختيار فلايقال به مطلقاً الا وتسبقه الحرية فى الفعل والترك مع وجود طريقين يترك أحدهما بالحرية ويؤخذ الآخر فعلاوكلاهما فى العلم الآلهى لايتغير كما فى حكم الواقع سواء

وبسبب ذلك تواجدت التكاليف الآلهية فى الدين وتقرر من الله جزاء البشر فى الدنيا والآخرة على فعل الشر أو فعل الخير

فاذا فعل انسان خيراً فالله تعالى يجازيه بالرغم بالخير بسبب انه كان يمكنه بسهولة ترك

هذا الخير ليفعل الشر محله

وبالعكس اذا فعل انسان شرا فالله تعالى يجازيه بالرغم بالشر بسبب أنه كان يمكنه بسهولة ترك هذا الشر ليفعل محله الخير — وإن العلم الآلهى عن كل حادث من الانسان فيه الوجهتين المتضادتين .. وحكمهما فى العلم الآلهى كحكم الواقع قبل وقوعه بلا فرق أعنى أن المعدوم الذى لايقع فعلا من الانسان باختياره مثل الواقع فعلا فى العلم الآلهى سواء بسواء

أما تخصيص الواقع فعلا من الانسان بانه وحده فى العلم الآلهى له دون غيره فذلك يؤيد الاضطرار بلا شك وهذا باطل بطلانا تاما بديهياً يؤيده القرآن فى كل آياته ... ومن ذلك كان قول بن تيمية الآتى وغيره بعيداً عن الحقيقة :

ولا مخرج للعبد عما به قضى ولكنه مختار حسن وسواءة

ثم من هذه الأوهام تعرف السبب الذى ألجأ أغلب الأمة الاسلامية أن تعتقد « القسمة » أو « الجبر » لافرق بين عالم وجاهل .

٢٨٥

﴿ الانسان مختار بكل معنى الكلمة ﴾

قلنا أن الاختيار هو فعل ما يمكن تركه لفعل غيره . . فهكذا فعل الانسان فى هذه الحياة أو ايمانه أو كفره أو اتباعه الأوامر الدينية أو مخالفته لها فان كل ذلك له الخيار المطلق فيه والحرية التامة « الا مايتجازى به من الله مرغما عن فعل سابق » بحيث اذا وقع منه عملا سيئاً أو كفراً فى وقت من الاوقات .. فانه فى الوقت نفسه كان يمكنه أن يعمل صالحا بدل السيء ويؤمن بالله عوضاً عن أن يكفر وكلاهما له فى علم الله سواء — فلا ضرورة لأن يقال أنه مكتوب له شىء أزلا محتما عليه فعله ... بل يقال أن له فى علم الله أفعال كثيرة مكتوبة لايقع منها شىء إلا ماوقع عليه اختياره .. ولا أن يقال أن اختياره ظاهرى ومخلوق فيه جبراً من الله تعالى من مثل هذه السفاسف المضادة للطبيعة والعقل والقرآن والحقيقة — لأن ذلك يؤيده القرآن الحكيم فى كل آياته وقد سبق وذكرنا كثيراً من الدلائل والآيات القرآنية المؤيدة لذلك — كقوله تعالى : (ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) مما يدل أنه كان يمكنهم استبدال الايمان بالكفر الذى اعتنقوه بحريتهم وأن يتبعوا الرسل عوضاً

عن أن يخالفوهم راجع « لا يكفر الانسان الا بتمام حريته » .... ولهذا كثرت الأوامر والنواهى الدينية والتبشير والانذار من الله فى القرآن لجرّ الناس الى رحمة الله بحريتهم.. فتبعها البعض وأهملها الآخرون بحريتهم وسيكون جزاؤهم من الله حتما طبقاً لذلك فى الآخرة : (اليوم تجزى كل نفس ما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب)

فصل ١٧

ترقى الاديان والامم

٢٨٦

« لا تستقيم الأمم وتترقى الأديان إلا بحِكَم القرآن وتنزيه الرحمن »

كثير من الافرنج المتعصبين ينسبون الى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أنه السبب فى حرق مكتبة الاسكندرية المشهورة ... ولكن أقوال المؤرخين الذين يوثق بهم يكذبون هذه التهمة كل التكذيب .. وقد ادعوا أخيراً أن القرآن علة التأخر عند المسلمين لأنهم لا يريدون عنه بديلا فى أعمالهم وأحكامهم واعتقاداتهم كما فعل عمر بن الخطاب قبلهم. . . . . ونحن لا ننكر أن المسلمين قد أدخلوا فى الدين خرافات يتبرأ منها القرآن كما لا ننكر أن العلماء المتأخرين قد جمدوا على ما قرره بعض الأقدمين منهم بلا إصلاح وتحسين . . . . . وهذا مما تعاب عليه الأمة لا القرآن — أما القرآن فهو أول حاض على تناول العلوم المختلفة المفيدة مهما كانت (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) حتى انتفع بمبادئه أمم كثيرة كانت عنوانا للتمدن الزاهر ... وكما يحضّ على تناول العلوم يحضّ أيضا على تناول الأعمال المختلفة والترقى فى كل شىء الى حدّ الكمال ... فالتهمة الموجهة للقرآن عن ذلك غير صحيحة وتشبه إنكار وجود تمدن ما للأمة الاسلامية فى التاريخ ... مع أن التمدن الأوروبى الحالى متفرّع من التمدن الاسلامى الماضى الذي كان القرآن أساسا لوصوله أعلا الدرجات ولولاه ماوجد هذا التمدن فى الأرض

ولا يبعد أن يكون لعمر بن الخطاب أقوالا تشبه أقوال بعض المصلحين من المسلمين كقولهم أن رجوع الأمة الاسلامية إلى حكم القرآن مما يرقيها أو يعيد لها مجدها — فان معنى ذلك هو أن تسير على أحسن المبادى وأشرفها عقلا بما يناسب كل وسط وأن تتخذ من العلوم المختلفة سلاحا تقوى به فى معترك الحياة — فالقرآن أول من أعلن للملأ أن ميزان تمدن الأمم ورقيها هو علومها وما ينتج عنها من الفوائد (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ؟

أما العلم مع الايمان بالله فهو أكبر سلاح فى العالم ... فما تحلت به أمة إلا وخضعت لها الجباه وارتقت به الى سماء المجد والفخار ... وبالعكس تتخذل الأمة عند ما تنحط فى جهلها وتسد بينها وبين العلوم بسور الخرافات والجهل خصوصا اذا جهلت أيضا طريق الحق الأول ألا وهو « الايمان بالله إلها واحداً » فالنقص من هذه الوجهة نقص فى الترقى العقلى الأدبى أيضا بقطع النظر عن فوائد العلوم الأخرى وحسن نتائجها المادية والأدبية

وكما يحض القرآن على مبدأى الترقى والتقدم السالفين والدين هما من مبادئ الاسلام الثلاثة الأساسية : (الحرية — العلم — الايمان بالله) . فانه ينتقد ويذم الخرافات والجهل والانحطاط العقلى والعناد فى فعل الضار والفساد والالحاد الذى يؤدى بصاحبه الى الكفر بالله وعدم احترامه ... وأن التاريخ يثبت أن كل هذه العيوب التى يحاربها القرآن قد أدت بكثير من الأمم الى الظلم والفساد والزوال — حتى من الأمم التى تنسب اليه — فطرق القرآن ذلك من باب التحذير المفيد حرصا على كرامة الانسانية وحفظا للأمم من السقوط مما يفند أقوال هؤلاء المتعصبين ...

ونحن اذا ذكرنا هنا بعض تعاليم اسلامية تشير الى اعتقاد بعض ما يتعبد به بعض الأمم أو يظنه بعض أفراد المسلمين من الدين ثم يذكر القرآن نتائج هذا الاعتقاد على حقيقته فليس الغرض أن نتعرض لحرية إرادتهم فيما يعتقدون ويتعبدون ... حاشا نحن نبرأ من ذلك إذ أن الله تعالى ترك لكل حريته فى هذه الحياة وقدسها بعدم المس إلا بحق بعد أن أعلن الحقيقة للكل فى جميع الأزمان .. لانه وحده سيجازى الكل بما منحهم به من عقل ويحاسب الكل فى حياة أخرى عدت للمناقشة والحساب (إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون)

فنحن أولى أن نتخلق بأخلاق الله الكاملة ونعصم أنفسنا عن خطأ ينهانا عنه الاسلام (لكم دينكم ولى دين) فلا نتعرض لحرية ارادة انسان طرق سمعه الحق وأعرض عنه ليدين بما يعتقد بنفسه وحريته أنه الاحسن من كل دين — بل نذكر تعاليما يحاكمنا العقل وديننا الخاص فى لزوم الجولان والبحث فى نتائجها بقصد التمسك بمبادئه المستقيمة ولنتخذها دينا قيما وبحرية أيضا هى حق من الله ممنوح للجميع .... إذ محال علينا فى آن واحد أن نحول ارادة انسان أو نهديه لما نريد ونقول . فالارادة الانسانية أوضح الاسلام لنا انها أول أمر فى الحياة لا يمكن مقاومته بأعظم قوة فى العالم .. إلا أن تفنى أو تخضع بحريتها وان الهداية للحق أيضا وحدها منفرد بها الله تعالى وحده وانها من اختصاصاته الذاتية (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) وقال تعالى (إن علينا للهدى) فلا فضل لزيد من الناس فى هداية ولا مؤلف ولا نبى ولا ملاك ولا رسول . فمن أعلن الحق وعمل فلنفسه يعمل ومن أعلن الباطل فلنفسه يسحق ويهين .

٢٨٧

﴿ بعض الاديان ﴾

بعض من الأمم الماضية كانوا يتدينون بالله ولكنهم كانوا كافرين لعدم طهارة التدين اللائق لكمال الله تعالى . لأنهم لم ينزهوه تعالى كمال التنزيه فنسبوا له تعالى أن بينه وبين الجن نسبا . وانه تعالى مختلط بهم . وادعوا بأوهام لا علم لهم بها بل هى ظن تغالوا فيه وخرجوا به عن التدين الحق الطاهر (وجعلوا بينه وبين الجن نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون) أى محضرون للمحاسبة أمام ألوهيته الكاملة عبيداً وانه لا علاقة له بهم الا انهم كباقى الخلق أجمعين . فهو تعالى محتجب للتنزيه عن الجن كذلك وأن سبب نسبتهم علاقة الله تعالى بالجن عدم رؤيتهم الجان ولتأكدهم باحتجابهم عنهم مع وجودها ان الله تعالى قد احتجب عن أبصارهم كذلك لغرض الاختلاط بهم وادعوا بهذه الدعوة باطلا ليتخذ منها رؤساء الأديان فيهم سلاحا للوهم على العقول فيذلونهم ويقيدون عقولهم بسلطة الوهم فلا تعبد من الجميع طاهراً ولا ايمان بل الظلم الانسانى العظيم . — وبعض الماضين قالوا أن المسيح ومريم عليهما السلام هما آلهين من دون الله فقال تعالى لعلة التنزيه الذى هو أصل التدين الطاهر : (وإذ قال الله

ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله . قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم .... فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد)

وبعض الأمم كانوا يدينون بالله تعالى ولكنهم كانوا كافرين لادعاء رؤساء الاديان فيهم أن الله تعالى احتكر لنفسه البنات دون الذكور ليتخذوا من بين هذا الأدعاء الباطل قوة وهم على العقول باحتكار البنات لأنفسهم باسم الله سداً لشهواتهم الشيطانية (وجعلوا لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون) فيهلكون أنفسهم وغيرهم ويسلبون حقا للغير وشرفا ليتمتعوا به لأنفسهم فجاء الاسلام يؤيد بكل قواه عدم الخضوع لدين لا يؤيد مبدأ التنزيه الكامل للخالق منعاً لمثل هذه الادعاءات التي لا تبعد عن استبداد الانسان . وأن الله تعالى ليس بانس ولاجان فلا احتكار فى الدين ولا شىء يطلب الله إلا الايمان والشكر له بالغيب فهو المنزه عن كل مخلوق (ليس كمثله شىء) والكل فى عين الله عبيد .

وبعض الامم يدينون بالله تعالى ولكنهم كافرون أيضا لأنهم لم ينزهوا الله تعالى تمام التنزيه اللائق لوحدته وكماله ... بل اتخذوا لهم أصناما آلهة أيضا كما اتخذوا الشمس آلها يعتقدون فيها الهداية والغفران وسد المطالب بأنها توصلهم الى الله فيعبدونها من دون الله (ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) ويتفنن رؤساء الاديان بالاوهام بها على العقول فلا يسلم تاريخها من العطب وتقييد العقل من النهوض والتضليل بأوهام يحاربها الاسلام بقوله (لا إله إلا الله رب العالمين) المنزه عن أن يحتاج لواسطة أحد من الخلق فى الغفران (ومن يغفر الذنوب إلا الله) فلا يتجسد فى جسم ما ولا يتوسط له فى مغفرة الذنوب انسان أو مخلوق ... بل هو على كل نفس قائم ومراقب ويريد أن تكون له كل نفس لتعبده بمفردها وحريتها بالاخلاص الكامل (أفمن هو قائم علي كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبؤنه بما لا يعلم فى الارض أم بظاهر من القول بل زُين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد) فهو لذلك يتنزه تمام التنزيه وأن ليس له فى الخلق شبيه ومثيل

والبعض قالوا إن الله هو المسيح فقال تعالى تحفظا على مبدأ التنزيه : (لقد كفر الذين

قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) .... وبعض قدماء اليونان والاشوريين والكلدانيين والمصريين كانوا يعتقدون بالله تعالى آلها ولكنهم لم ينزهوه تمام التنزيه اللائق لمعنى الالوهية الكامل فاتخذوا آلهة متعددة كبعض الكواكب والحيوانات كالعجل وطير الماء ونسبوا لها الالوهية والتقديس بمبادئ وهمية أخذها الكهنة سلاحا لاذلال البشر والتضييق على عقولهم وأعمالهم فاستحلوا دمائهم وهتكوا نسائهم وخسفوا بعقولهم وجمال حريتهم الى الحضيض ثم تجسمت الخرافات حتى اتخذ المصريون ملوكهم آلهة من دون الله كفرعون (وأضل فرعون قومه وما هدى) والبعض قالوا إن الله تعالى ثلاثة فى واحد أو ثالث ثلاثة (وما من آله إلا آله واحد) وبعض من الامم قالوا ان الله ولد ولداً كما قال الآخرون أن له البنات فهو تعالى يتنزه عن كل ذلك أيضا وأمثاله فان الذى يلد لابد أن يكون له زوجة وهو نفسه لابد أن يولد أيضا وإن ولد من لاشيء وجب أن يكون له خالق صوره كامل مستقل لا يلد ولا يولد (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) فمثل هذا الادعاء ينفى عن الله الألوهية والتفرد فى الكمال المطلق الذى هو معنى للألوهية والتعبد — فتمام التنزيه من كل نسبة أس الحقيقة وكمال التدين (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبداً)

٢٨٨

﴿ التوحش الديني ﴾

من تأمل لتاريخ الانسان فى جميع البشر وكل الأزمان لوجد أن الظلم والاعتساف والمظالم البشرية لاتقع إلا حيث يوجد سوء التفاهم أو سوء العقيدة الدالة على عدم الكمال فيما لو نسبت للانسان أو لله تعالى واتخذت مبدأ أو دينا للناس يتمسكون به — فالمظلوم يرزخ تحت أثقال الوهم أو الدين فيخشع بكل قواه القلبية والمعنوية ويتحمل حتى مافيه فناؤه — والظالم يفعل أقبح مايمكنه مما يمجه العقل السليم منشرحا مسروراً فالدين عندها أو العدل هو عند وقوع الظلم والتدين هو فى الانهماك فى كل محرم ... فبعض من الأمم فى الهند يرمون النساء أحياء فى القبور خلف أزواجهم بعد موتهم أو يحرقونهن بالنار أحياء لأنه هكذا تأمرهم

عقيدتهم.. بالدين وبعض المتوحشين فى افريقيا يدفنون العبيد أحياء فى القبور أيضاً وراء أسيادهم عند موتهم مهما كثر عددهم لعلة خدمتهم فى الحياة الثانية - فكأن أكثر العالمين حتى المتوحشين يعتقدون بلزوم حياة ثانية مستقبلة — ولو أردنا حصر العقائد التى توجب المظالم الانسانية وانتشارها فى الأرض لعجزنا عن حصر تنوعها حتى فى أوهام الأمم التى تدين بأديان سماوية فالتدين طبيعى فى كل مخلوق — ولكن القرآن يرده الى طبيعته وأصل نظامه الحق بتوحيد الله تعالى فى الألوهيـة وانه الكامل المنزه الذى كملت صفاته وعلا قدره بكل الكمالات العقلية . فالتحفظ على نسبة الكمال للخالق سبحانه بقدر مايصل اليه العقل من سلم الدرجات الى مالا ينتهى عند حد هو فى الحقيقة مبدأ يساعد نفس الانسان على رفع شأن نفسه وترقى ذاته الى سلم الكمال الذى هو رائد طبيعته وسيناله بعد الموت مادام هو سائر فيه بمبدأ تنزيه الخالق وكماله المطلق الحق الواقع — اذ بقدر زيغان الأمة عن نسبة التنزيه والكمال المطلق لله تعالى بقدر ما تنحط آدابها وأخلاقها وأعمالها لأن الظالمين من كل أمة يتخذون اسم الدين سلاحا لتحوير العقول والافكار عن الحقيقة فلا يخضعونهم بالسيوف ولا بالموت بل بما هو أقوى على أفئدتهم من كل موت وعذاب «وهو الدين» الذى يخشع الكل لاسمه بطبيعتهم الفطرية ويا حبذا لو علموا أن الدين لله وهو الحق العقلى المؤدى الى الكمالات الانسانية فى كل أدواره.. نسمع كل يوم بذبح اليهود لاعتقاد المسيحيين بتعديهم على قتل وصلب المسيح عليه السلام آلههم كما يعتقدون .. فاذا ثار ثائر الغضب لمصالح شخصية فار القلب بالغليان لاعتقاد تعدى اليهود على من يملأ الاحترام قلوبهم بالألوهية فيكون كتنغيص لهم فى كمال اعتقادهم فيما يحبون مما يرجع بطبيعة العقل الى لزوم الانتقام فلا يرضخ الضمير عندها لقول المسيح عليه السلام «أحبوا أعداءكم» بل يذبح الانسان المسيحى بكل ارتياح أخاه الانسان اليهودى ...ولو اعتبروا أن الله تعالى منزهاً عن التجسد فى عيسى بل هو نبى كباقى الرسل كما يقول القرآن لانتهى أمر تلك العداوة التى ستتأصل وتزداد بين الطرفين الى الأبد

﴿ رؤساء الأديان ﴾

لقد كانت حالة دولتي الفرس والرومان قبل الاسلام مملوءة بأنواع الظلم والفساد الناتج

من سوء الاعتقادات التي يبثها رؤساء الأديان فى الافراد سداً لمطامعهم واطماع السلاطين والامراء وقد قال المرحوم الشيخ محمد عبده عنهم فى كتابه « رسالة التوحيد » صحيفة ٤٨ ما يأتى نذكره هنا للمناسبة :

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ويظنها الناظر اليها من ذوى الألباب . ففقد بذلك الاستقلال الشخصى وظن افراد الرعايا أنهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم كما هو الشأن فى العجموات مع من يقتنيها . ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها .. وغلبتها على الحق والعدل شهواتها — الخ الى أن قال : ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحبا من الأوهام . ويهيؤا كسفا من الأباطيل والخرافات ليقذفوا بها فى عقول العامة فيغلظ الحجاب ويعظم الدين ويختنق بذلك نور الفطرة ويتم لهم مايريدون من المغلوبين لهم وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل وعدو كل ماثمره النظر إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفد هذه حالة الاقوام كانت فى معارفهم وذلك كان شأنهم فى معايشهم عبيد اذلا حيارى فى جهالة عمياء الخ الخ .... وقد قال فى موضع آخر صحيفة ١٠٣ ما يأتى :

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرؤوا قطعاً من تلك الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ماترمى اليه ثم غالوا في ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم إلا قليلا ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ماجاء فى الشرائع والنبوات — ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبداً بالأصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار مافعلوا فقال (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ وإنهم إلا يظنون) — الخ — انتهى كلامه

ولا يخفى أن الاسلام الآن ضرب بكثير من الظنون فى بعض العقائد و (إن بعض الظن اثم) فضرب الله أهل الظنون من المسلمين بنفس ضربات الأمم التى سلكت مسلك سوء التعقل الكامل فيما ترمى اليه آيات الله الحكيمة . وقد اشترك فى ذلك العلماء والعامة

حتى تسبب الدمار والاضمحلال فى جميع الأمم الاسلامية واذا لم تستأصل من جذورها كان الخطب أعظم وأكبر ... فكثير من الناس يقولون أقوالا خرافية وينسبونها للنبي عليه الصلاة والسلام وهم يقصدون بها إعظام النبى صلى الله عليه وسلم وإجلالا لمقامه كما هم يعتقدون أيضاً فى المشايخ وآل البيت رضوان الله عليهم أجمعين إعتقادات هى فى الحقيقة شرك بالله تبعثه نفوسهم من غير تبصر لروح القرآن

فهذه مقامات الأولياء رضوان الله على الجميع يدخلها الرجال والنساء فيقبلون توابيتها ويسجدون أمام كعبة مقامها بتقبيلهم لها ويتطلبون منهم قائلين : أن الامر الفلانى قد وكلتك عليه لتفعليه لى بنظرة من عندك أيتها الست الفلانية أو السيد أو الشيخ الفلانى والنبي صلى الله عليه وسلم فى حياته يقول للناس عن أمر الله تعالى : (وما أنا عليكم بوكيل) والله يقول : (والله على كل شىء وكيل) وانه لم يوكل أحداً فى شىء ما ليفعله للناس بالنيابة عنه ثم هم يتطلبون توكيل المشايخ وآل البيت فى كل سكونهم وحركاتهم ويرمون لهم العرضحالات الكثيرة فى مقامهم معتقدين بذلك حسن الاسلام والايمان مما يتبرأ منه الاسلام ولا يشير اليه بكلمة

٢٩٠

﴿ خرافة فى الدين ﴾

ماذكرناه قليل من كثير أرجأنا نشره فى محل آخر مما تقوله العامة . أما مايقوله العلماء فأدهى وأضر — وذلك كقوله بعض علماء الاسلام عن عقيدة القضاء والقدر — فقد خرج بهم الحدّ الى أن يمزجوا الحق بالباطل — فترى كلام الله نورا وهدى وبجواره آراء مظلمة حالكة يقولون أنها للتنزيه فيذر الرماد فى عين المتأمل باسم التنزيه مع أنه لو تمهل وأمعن زيادة النظر فيها لاقشعرّ منها بدنه وخالفت ضمير فطرته — ولكن يخشى من الطعن والقول بالشك لأن سلاح علم القائل يمنعه ولأنه من الرؤساء المعدودين فى الدين والأئمة المشهورين الذين يصلحون كلام الله تعالى بالتزويق والزيادة بلا رجوع الى الهدى أو العلم الصحيح أو الكتاب المنير ... اذ لايخفى أن موضوع القضاء والقدر قد خفى على مشاهير الأئمة من المسلمين وهو

الموضوع الوحيد الذى طمست معالم نوره عليهم الى الآن مع أن كتاب الله المنير يوضحه إيضاحاً جميلا لا يقبل التاويل ولا التبديل ... وقد قال فيه كثيرون أقوالا لا نبالغ اذا قلنا أنها السبب الوحيد فى ضعف الأمة وزوال مجدها من الأرض — اذ كان من ذلك حشو مبادئ واعتقادات مضلة فى الدين بعدت بالدين عن مركزه . وزحزحته عن قمة مناره . . . قال المرحوم الامام عز الدين غانم المقدسى فى كتابه المشهور «تفليس ابليس» صحيفة ٢٢ عن لسان حال ابليس وهو يخاطب الله تعالى « مع أننا لو سألنا الشيطان نفسه عن هذا الكلام لتبرأ منه » قال عنه يخاطب الله تعالى ليقرر به مبدأه واعتقاده : « لى معك سابق عبادة . ولك معى سابق ارادة . فلما ظهرت أعلام الارادة . انطمست رسوم العبادة . فأخطأ المجتهد اجتهاده وزال السيد عن رتب السيادة . وأصابه سهم القضاء فما أخطى فؤاده . فسواء أسجد أولم أسجد وعبدت أم لم أعبد فلا بد من الرجوع الى سابقة الأقدار... الخ الخ » ... ومع كوننا أشبعنا القول فى الجزء الأول وفى هذا الجزء عن سوء تأثير هذ الاعتقاد فى الأمة كبيرا وصغيرا حتى جمدت به أعصاب الأمة ... لأن المجتهد يعرف أن لا فائدة من اجتهاده وتعبه والمخاص لله تعالي لا ينفعه الاخلاص وحسن العمل مادام له عند الله تعالى قدر سابق لا يتغير وربما كان رديئا فاجتهاده فى العمل الصالح لا يفيده بشىء قط ..... وأيضاً لايخفى أن الظالم متى مكنته الظروف من الظلم يفعله ويقول قد تقدر — فالمظلوم عندها لا يتكلم الا بالآم الكفر لسوء القدر المحتم والظالم لا يرحم إلا ليستزيد من الظلم بايمان أن لا يؤثر سوء عمله على احتمال سبوق حسن القدر... والجميع بدين القدر مطمئنون على الفساد وبالعقل لا ينظرون لأن هكذا كان الله تعالى مع إبليس وهكذا بالطبع حاله مع جميع عباده ....

ونحن نترك سوء تأثير هذا الاعتقاد فى ذهن القارىء ليصوّره حسب مايشاء فهو من جهة الحقيقة بعيد بعد الأرض عن السماء أو هو أبعد ... ومن جهة تنزيه الخالق سبحانه الذى هو أس الديانة فيه مافيه مما يعرفه كل مطالع ... وقد قال فى محل آخر عن الله تعالى صحيفة ٣٩ : فله أن يعذب بلا سبب وأضاف عليها أخيرا قول القرآن لأن (له الخلق والأمر ولا يسئل عما يفعل) فجملة له أن يعذب بلا سبب قول تقشعرّ منه أبدان السماء والأرض . ويهتز له عرش التنزيه .. ولا يجوز نسبته لمخلوق بلا حجة فضلا عن خالق .. ولكنه يؤيد الظلام بالنور

فيأتيه بحجة من الكتاب يتوهم أنها لاستناده وتقوية رأيه فى قوله : (له الخلق والأمر ولا يسئل عما يفعل) مع بعد النسبتين بعداً لانهاية له ويتعالى الله ويتنزه أن يقال عنه أنه يعذب بلا سبب . وإن كان ترك له التفويض . ونحن نطلب من الله الرحمن الرحيم الذى يغفر للمسىء التائب بلا سبب غير مطلق الرحمة أن يغفر لنا ولأمثال هذا الامام الذى ربما قال ذلك وهو لا يعلم مركز الدائرة التى يدور عليها الدين وهو تمام التنزيه للخالق حتى بالألفاظ والذى لاينسب اليه إلا كل كمال ورحمة كما هو الحق الواقع وإن عجز الانسان عن فهم شىء من القرآن — وليقس القارىء على أمثال هذه الاعتقادات والأقوال الكثيرة ففيها كتب ضخمة للجميع فى فروع من القرآن الحكيم لو فتشت ونقبت ورجع بها الى أصل الدين الطاهر لخرج منها بحر من الضلال تسبح فيه الأمة من أزمان ولا ينبئك مثل خبير

٢٩١

﴿ توحيد مبادىء القرآن ﴾

تجد من بين التآليف الاسلامية جميعها مبادىء كأفراد الأمة دائما فى غاية التضاد فلا اتحاد فى موضوع برأى قاطع إلا أن تجد الخلاف أساس المبادىء والأقوال — مع أن القرآن الحكيم إمام الدين يتبرأ من الخلاف تبرؤ السليم من الأجرب قال تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وهذا قطعاً ينفى الخلاف عن القرآن كما هى الحقيقة الكلية إذ الذى لامراء فيه أن الاختلاف بين أمرين متضادين يوجب كذب أحدهما أو تعدى أحدهما بالتغلب على الآخر أو فناؤهما أو أيلولتهما الى شىء واحد — هذه قاعدة طبيعية لكل شىء فى العالم مادام فيه شىء يسمى تضاد مستمر بين أمرين — فالقرآن العظيم إن ذكر أمراً أو مسئلة ففيها رأى واحد قاطع لا يتعدد « ولأن الحق فى ذاته لا يتعدد » وما تتعدد الآراء فى أمر واحد إلا بالظن لعدم معرفة الأصل الثابت — ومن المحتمل أن يعود التأويل بزيغان القلب الى مافيه الضر وعكس المطلوب — وياحبذا لو انتخبت الأمة علماء يوحدون آراءها المشتتة ثم هم يخضعون لسيف التوحيد فان ذلك من الغرض المفيد

*
* *

٢٩٢

﴿ فرنسا والدين ﴾

(مقال للعلامة فريد افندى وجدى بالعدد ٤٧ ٥ من المؤيد)

نذكره هنا لمناسبته للموضوع قال :

أراد الله أن تكون الأمة الفرنسية فى هذه القرون الأخيرة طليعة كل ترق فى تحرير النوع البشرى من آثار عبوديته القديمة . فليس يغيب عن الأذهان مابذلته من دمائها فى ثورتها المشهورة فى أواخر القرن الثامن عشر حين هبت فى وسط غياهب الحكم المطلق تطالب بالحرية والدستور حتى عدت سبباً فى تخليص كل الأمم الأوروبية من آصار العبودية للرؤساء بما مهدت لتلك الأمم من سبل المطالبة وما أرتهم من وسائط المغالبة وهانحن نراها اليوم تقطع علاقاتها بديانتها الرسمية وتصادر المعابد فى أموالها تتميما لتحرير الانسان من كل الآصار التقليدية وهى ترجى من وراء هذا العمل تكوين أمة نائية مستقلة حرة من جميع التقاليد الوراثية ترفع مجد فرنسا الى أبعد ماترمى اليه مطامعها . - المشروع فى ذاته قدتمهدت له الأفكار من منذ عشرات من السنين فلا يخشى من تنفيذه حتى من جهة العامة بل ان حدوثه بدون اضطراب يذكر يدل على مبلغ ماصغر الناس من شأن الدين هناك

ليس فى أوروبا أمة تخالف الأمة الفرنسية فى صلاحية مشروعها فى وجوب التخلص من كل العلاقات الدينية - وهذه كتبها بين أيدينا تشهد بذلك . - ولكن الامر الذى يجب أن يذكره العالم لفرنسا بالاعجاب هو أنها أول من أقدمت على تنفيذه وهى جراءة ستعطيها فى التاريخ فضل المتقدم . وستتبعها سائر الأمم غداً كما اتبعتها فى تقرير الحكم الدستورى ومن يعش يرَ

ليس غرضنا من مقالنا محض اطراء الأمة الفرنسية بل نريد أن ندرس هذا الحادث الجلل درساً فلسفيا ليتضح للقارئ العربى كنه هذه الحركة الأوروبية الجديدة التى سيصيبه لامحاله أثر منها مادام تحت تأثير هذه المدنية الغربية . فنقول

يظن الناظر الى ما تعمله فرنسا اليوم برؤساء دينها ومعابدها أنها مسوقة اليه بدافع الالحاد المطلق . كما أن ابتعاد نابتة المدارس عندها عن الأمور الدينية يخيل للتأمل انهم تجردوا

عن العاطفة الدينية بالمرة .. وليست الحقيقة كذلك فان التدين غريزة من غرائز النفس ليس في وسع أحد أن يمحوها . فالفرنسى والمصرى سيان من هذه الجهة وانما هذه المجافاة التى تشاهد منهما سببها أن الرقى العقلى أوصلهما الى مستوى من الادراك علوا فيه عن قادة دينيهما فى الفكر والعلم فصار من المستحيل أن يرضخ الأعلى للادنى فحدث ما نشاهده من مصادرة الفرنسى للكنائس والمدارس الدينية ومن ابتعاد المصرى المتعلم عن الأمور الدينية . ونحن لهذا السبب ننادى بأعلا صوتنا بوجوب جعل الأزهر من حيث النظام والعلوم الكونية والفلسفية أعلى من أعلى مدرسة فى هذه البلاد ليكون المتخرج منه صالحاً لأن يعلو بمداركه على أعلا عقل فى هذه النابتة الحديثة . وإلا اطردت هذه النتيجة السيئة وأصبح المصريون أمام علمائهم بعد عشرين سنة مثل الفرنسيين بازاء كهانهم اليوم والتاريخ يعيد نفسه ولا سبيل لمجاحدة الحوادث والسعيد من اتعظ بغيره .

الأوروبيون عامة ومنهم الفرنسيون دائبون من منذ نحو ثلاثة قرون على دراسة الدين فى جميع أطواره وأشكاله وقد كوّن أكابرهم ديانة جديدة بعد ما يئسوا من الاديان الموجودة لتشدد قادتها سموها الديانة الطبيعية وأملوا أن تكون ديانة العالمين حين يعم العلم جميع الامم ويعلم الانسان أنه خلق ليرقى الى منصة من الكمال عالية وأن كل ما وقف فى سبيله دونها فليس بحق . وما لم يكن حقاً فليس يصح أن يكون ديناً . وها نحن ساردون عليك طرفا من تاريخ هذا الامر بترجمة لمح من أقاويل علمائهم ومناقشاتهم لتتضح لك الاسباب التى حملتهم على ترك ديانتهم الرسمية . فنقول :

لما نال العلم حريته وخلص من قيود رؤساء الدين فى أوروبا أخذ رجال العلم يناقشون رجال الدين فى أصول عقائدهم وينثرون عليهم الشبه العلمية نثراً مفرطاً حتى اذا عجزوا عن حلها وظهر ضعفهم للعامة انقسم أولئك العلماء المشككون قسمين قسم أخلدوا الى الالحاد المطلق وقسم وهو الاكثر عديداً والاكمل عقولا عمدوا الى بناء دين جديد لهم دعموه على قواعد طبيعية متينة فقرروا أولا أن العاطفة الدينية طبيعية فى النفس لاتتلاشى أبداً فقالوا وفى مقدمتهم فيلسوفهم الاشهر « أرنست رينان » الفرنسى فى كتابه تاريخ الاديان :
« من الممكن أن يتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن

أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ولكن يستحيل أن تمحى التدين أو يتلاشى الخ انتهى . - بينما كان العلماء يقررون هذه المبادئ كان رجال الدين يلسقونهم بالسنة حداد ويصمونهم بأنهم أعداء الفضيلة وأحزاب الرذيلة ويصرحون بأنه لو زال دينهم زالت الاخلاق وسقطت النفوس وانتشر البغى والعدوان وانمحى العدل والاحسان . فكان أولئك العلماء يردون عليهم بمثل لهجتهم فيقولون لهم كما جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية تحت كلمة دين قولهم : « ليست هى الديانة التى تحث الانسان على اداء واجباته بل هو الفكر العام وقوة العادات والاحساسات التى تنشأ فى داخلية العائلات تحت ظل ذلك الفكر العام الذى هو نفسه يزداد تهذبا وتلطفاً كلما تقدمت المدنية والمعلومات اه — لهؤلاء العلماء فى التشنيع على ما أسلف قادة الاديان من إفساد الفطر وإذلال النفوس والضغط على العقول أقوال ذهبت كالامثال ... منها ما روته دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية وهو : « اذا قلنا ان الاحسان يقتضى اعتماد الاشياء المعقولة يقولون كلا !... كلا !... ثم يسعون فى اذلال هذا العقل الانسانى الذى يدعى لنفسه حق التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم حتى اذ أعموا عين العقل وأعشوا باهرة البصيرة لدرجة معها ترى الكرامات كأنها أمور عادية معقولة وتتخيل الابيض أسود وتعد الرذيلة فضيلة . يعود الدين فيقول أطيعوا ! .... نطيع من ؟... أنطيع العقل ؟... أنطيع الواجبات الطبيعية ؟... أنطيع العواطف القلبية ؟... أنطيع النواميس الحقة المفيدة للانسانية التى تنتج من تلك القواعد نفسها ؟... كلا — ولكن أطع وأنت أعمى لذلك الذى يحكم باسم الله حتى ولو أمرك بقتل مليكك أو أبيك أو بعمل مقتله عامة . فانه ليس لك لاروح ولا ضمير . انما أنت ميت فى الله » انتهى

قرر هؤلاء العلماء ضرورة زوال الاديان ودعموا تقريرهم هذا على براهين فلسفية قال الفيلسوف « بنجامان كونستان » فى كتابه « الدين وينبوعه واشكاله وترقيه » بعد ما درس الأسباب التى أضعفت الجمعيات البشرية من جراء الاعتقادات الباطلة التى قرر بانها لاتزول الا بالحرية بكافة ضروبها قال بعد هذا ما ياتى : « بهذه الطريقة تنتقى الأديان من اردانها ولكنا لانخال أن ذلك يتحقق لاعتقادنا انها لن تترك شيئاً من أسسها وبما أن هذه الاسس تناقض العلم وتعارضه فيكون من المقرر الثابت انمحاء الأديان وزوالها » ثم علل هذا الانمحاء

فقال : « كل قاعدة مهما كانت نافعة فى الحال فلا بد من أن تكون محتويه على جرثومة تعارض الرقى فى المستقبل لان تلك القاعدة تأخذ بطول المكث شكلا عديم الحراك يأبى على العقل اتباعه فى مكتشفاته التى ترقيه كل يوم وتطهره اذا انتهى الحال الى هذا الحد انفصلت فى الحال العاطفة الدينية عن تلك القاعدة المتحجرة وتطلب سواها من القواعد التى لاتحرجها ولاتزال تضطرب حتى تصادفها » انتهى

دامت هذه المجادلات العلمية أزمانا كانت كبار العقول فى أثنائها دائبة على تكوين تلك الديانة التى أسسوها على مقررات البداءة الفلسفية ودعوها الديانه الطبيعية ايذاناً بأنها مطلوب الطبيعة البشرية التى يتأدى اليها الانسان بفطرته . قال هنرى بيرنجيه فى مجلة المجلات مجلد « ٢٤ » أنه من منذ مائة عام قد كوّنت هذه الديانة ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين « فجان جاك روسو » و « لمرتين » و « لامنيه » و « ميشليه » و « وكينيه » كانوا من كبار الدعاة لهذه الديانة الجديدة وقريب منا « أرنست رينان » و « جيو » و « سوريه » و « سبتبيه » قد أعطوها قوة جديدة ودقة عظمى انتهى

ماهى ياترى أصول هذه الديانة الجديدة التى يؤكدون انها غاية ما ترمى اليه مواهب الانسان من العقيدة ؟... قال الفيلسوف « كارو » فى كتابه « الابحاث الاخلاقية على الزمان الحاضر » : قواعد الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود آله مختار خلق الكائنات واعتنى بها وهو يتميز عن العوامل الكونية وعن النوع الانسانى « وهذا غاية التنزيه » ووجود روح فى جسم الانسان متصفة بالذكاء والحرية ومحبوسة فى هذا الجسم المادى أمداً لتبتلى فيه . وهذه الروح يمكنها بارادتها ان تطهر هذا الجسم وتنقيه اذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها أن تسفله باستئناسها بالمادة الصماء . والاعتقاد المطلق برفعة العقل عن الحسن . ووضع الحرية الاخلاقية التى هى ينبوع وأصل كل الحريات تحت سيطرة الاعتدال . واعطاء الأخلاق الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء . وتحديد غرضها الحقيقى وهو التخليص التدريجى للنفس من علاقات الجسم والتهيؤ لساعة الموت بالزهد . وأخيراً الاعتراف بقانون الترقى ولكن بدون فصل رقى الانسان فى مدارج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة وتشفع لها » انتهى

هذا الاصلاح الديني الذي ظهر في هذا العصر في أوروبا باسم العلم قد أتى به خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم قبل أكثر من ثلاثة عشر قرنا وهو دين الفطرة بمعناها الحق وقد حفظ من التبديل والتحريف الى يومنا هذا . ولكن المسلمون انحرفوا عن طرقه في كافة أصقاع الأرض فاصبحوا حجة على ملتهم ومطعنا على عقائدهم فمن الذي يتخيل أن دين المسلمين هو الدين الفطري الذي تتقرب منه الانسانية بمجموعها كل يوم مسوقة بدوافع الترقي الفكري وهو يرى كافة شعوب المسلمين في حالة من الجمود والتحجر تمنعهم عن مجاراة أضعف الأمم الحية ؟.... واذا كان هذا الجمود حال المسلمين علمائهم وجهالهم أفلا يعذر الناشئ المسلم الذي يدرس العلوم الأجنبية ان أساء ظنه بالدين والدينيين وهو تحت تأثير هذه الشبه القاسية التي لا يرى لها حالا معقولا من قادة عقائده ؟... وهل نلام بعد هذا ان صحنا بعلماء فينا بضرورة ادخال العلوم الكونية الى الأزهر وتقرير دراسة الشبه الجديدة فيه وقد أريناك طرفا من العوامل التي أرصدها العلم لأصحاب الأديان ومبلغ تأثيرها على عقول الشبان الناشئين . الاسلام دين الفطرة وانه الاصلاح الاعظم لسائر الأديان قبل أن تخلق الامم الأوروبية اه .

٢٩٣

﴿ تناسب معكوس ﴾

من تأمل لتاريخ الأمم المسيحية وتاريخ الأمم الاسلامية يجد تناسبا معكوسا في كيفية الترقي والتقدم بنسبة الدين فعقلاء الأمة الاسلامية ومشاهير فلاسفتها يرون أن أساس اصلاح الامة ومنحها منار المدنية والعمران والحرية والعدل وصنوفه بين المسلمين وغيرهم من الاديان الاخرى لا يقوم الا بالرجوع الى حقائق القرآن الحكيم الذي يحث على كل فضيلة في كل تعاليمه فهم يحاربون جهد استطاعتهم تلك القيود والخرافات والأوهام المدسوسة في الدين والتي تؤدي الى عدم التسامح والضلال والتضليل مما يتوهمه الآن بعض المسلمين من الدين بلا دليل من القرآن حتى أودى بهم الى هذا الذل العظيم ... وبالعكس عقلاء المسيحيين فانهم يتجنبون الدين كلما قويت مداركهم وتنبهت عقولهم للمدنية والعدالة الحقة والعمران والتمسك بمبادئ الدستور والعمل النافع الذي يحث عليه القرآن حتى رجعوا بالعقائد من أنفسهم وطول تأملهم الى أصول الاسلام تقريبا .. فهم يتخوفون ويرتعدون اذا همست في قلوبهم سلطة

رجال الدين من المسيحيين ويحاربون تعاليمهم بل ويضيقون عليها تدريجياً أشدّ التضييق وأن تاريخ أسبانيا الديني هو الذي يظهر حقيقة هذا التناسب المعكوس تقريبا .. فهذه الامة كانت ترتع في بحبوحة الأمن والسعادة والزهو والمدنية والعمران تحت جناح التسامح الاسلامي عند ما كان المسلمون يحكمونها وهم سائرون على مبادئ القرآن القويم وينشرون من العلوم ومبادئ العدل ما تفتخر به أسبانيا للآن بين مدنيات العالم ... ولما التوى العرب عن سيرهم وأدخلوا الأوهام في الدين والانقسام بينهم في العقائد والاعمال بما لا يشير اليه القرآن تعاون المسيحيون بعد أن تعلموا منهم حسن العمل ومبادئ العدل والاستقلال فطردوهم من بلادهم واستقلوا قليلا حتى اذا مارجعوا مطمئنين الى التعاليم المسيحية ومحكمة التفتيش الدينية قلبوا الارض بركانا من الفظائع وأفنوا العباد وما زالت أسبانيا تقشعر أبدانها من تلك الحوادث التي أهلكت الامة بأنواع الهلاك والتعذيب والتخريب فالحرق بالنار والصلب بالموت والخوزقة والقتل حتى كان ذلك من عاديات الامور المنتشرة تحت سلطة رجال الدين — ثم انقلب الامر في هذه الازمان الاخيرة عند ما أطلق للشعب عنان العقل ونتائج العلوم والعمل بحرية وتخلص من براثين ظلم هذه التعاليم الدينية فهو يأخذ الآن حذره من رجال الدين وتعاليمهم كالطفل الذي يخاف من « الغول » توهما فكما فعلت فرنسا بهم فعلت أسبانيا أيضا ووضعتهم الآن تحت مراقبة حديدية وهذه الحركة عامة تقريباً في أوروبا وان كانت متنوعة -- وعلى كل حال فالخروج عن العقل خروج عن الدين — وان القرآن نزل ليطالب العقل بالتأمل الحق والعدل والحرية اللذين هما أساس سعادة الامم — وأن الله تعالى لا يكلف الانسان في القرآن من تكاليف الدين فوق طاقته الطبيعية (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وأوضح الطريق المطابق لفطرة السعادة البشرية مما لا يختلف فيه اثنان وماذكرناه في الابواب السابقة مؤيداً بالقرآن الحكيم يؤيد هذه الحقيقة أيضاً

٢٩٤

﴿ أوروبا والشيخ محمد عبده ﴾

لقد أيد المرحوم الشيخ محمد عبده أن أوروبا لم تتمتع بمدنيتها وحريتها الحالية وتقدمها الأدبي إلا من التعاليم الاسلامية نفسها عند ما هاجم الغرب الشرق في الحروب الصليبية

وقال انهم جاؤا ليبيدوا الأمم الاسلامية بما ألقى عليهم من التعاليم الدينية الوهمية فانقلبوا بنعمة ماتعلموه من المبادئ الاسلامية الجليلة ثم بذروه فى أوروبا فأثمر وأينع وجنوا منه الآن تلك الفوائد الجسيمة ... ونحن نذكر بعض شذرات متقطعة من إلماعه ... قال فى صحيفة ١٢٣ من كتابه « رسالة التوحيد » ما يأتى :

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل — وجيشوا من الجند وأعدوا من القوّة مابلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين . وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها — و « بعد اختلاط هذه الامم بالمسلمين » ..... تبينت أن المبالغات التى أطاشت الاحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ثم وجدت حرية فى دين وعلماء وشرعا وصنعة مع كمال فى يقين . وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لامن العوادى عليه ثم جمعت من الآداب ماشاء الله وانطلقت الى بلادها — « ثم » نزعت العزائم « فى أوروبا » الى تقييد سلطان زعماء الدين والاخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه وحرفوا فى معناه ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعوا الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته . . . وجاءت فى اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام إلا قليلا بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد الى مايتفق مع عقيدة الاسلام إلا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإن ماهم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى الا فى صورة العبادة لاغير

وما بيناه فى شأن الاسلام ويعرفه كل من تفقه فيه قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا انه كان أكبر أساتذهم فيما هم فيه اليوم وإلى الله عاقبة الأمور . « ثم يقول » :

*
* *

٢٩٥

﴿ ايراد سهل الايراد ﴾

يقول قائلون اذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق وقال كتابه (إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء) فما بال الملة الاسلامية قدمزقتها المشارب وفرّقت بين طوائفها المذاهب اذا كان الاسلام موحداً فما بال المسلمين عددوا — إذا كان مولياً وجه العبد وجهة الذي خالق السموات والارض فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا . ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً وكانوا يعدون ذلك فصلا من فصول التوحيد . اذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه الى النظر فى الاكوان وأطلق له العنان يجول فى ضمائرها بما يسعه الامكان ولا يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الايمان فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظناً منه أنه قد يرضى الله بالجهل واغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع . مابالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها مابالهم بعد ان كانوا قدوة فى الجد والعمل — أصبحوا مثلا فى القعود والكسل — ما هذا الذى ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بين يديهم يقيم ميزان القسط بين ما تدعوه وبين مادعاهم اليه فتركوه اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لا يقرؤنه إلا تغنياً ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم إلا تظنياً . اذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال فما بالهم شدوهما الى اغلال أى اغلال اذا كان قد أقام قواعد العدل فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل فى الظلم . اذا كان الدين فى تشوف الى حرية الارقاء فما بالهم قضوا قرونا فى استعباد الاحرار ... الخ .... « الى أن يقول » :

قبس من الاسلام أضاء الغرب كما تقول . وضوءه الأعظم وشمسه الكبرى (القرآن) فى الشرق وأهله فى ظلمات لا يبصرون أصح هذا فى عقل ؟.. أو عهد فى نقل ؟.. ألم ترَ الى الذين تذوقوا من العلم شيئاً وهم من أهل هذا الدين أول مايعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات . وقواعده وأحكامه ترهات ويجدون لذتهم فى التشبيه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الافكار وبعداء الانظار — والى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه ووسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه كيف يجافون علوم النظر ويهزؤن

بها ويرون العمل فيها عبثاً فى الدين والدنيا ويفتخر الكثير منهم بجهلها كأنه فى ذلك قد هجر منكراً وترفع عن دنيئه فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحى أن يظهر به بين الناس. ومن غرّته نفسه بأنه على شيء من الدين وانه مستمسك بعقائده يرى العقل جنة والعلم ظنة — أليس فى هذا مايشهد الله وملائكته والناس أجمعين على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟...

﴿ الجواب ﴾

ربما يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال وربما كان ماجاء فى الايراد قليل من كثير وقد وصف الشيخ الغزالى رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر فى الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ولكن قد أتيت فى خاصة الدين الاسلامى بما يكفى للاعتراف به بمجرد تلاوة القرآن مع التدقيق فى فهم معانيه وحمله على مافهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم. ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات فى التاريخ على ما كتبه محققوا الاسلام ومنصفوا سائر الأمم فذلك هو الاسلام وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل من أحسن فى استعماله والأخذ بما أرشد اليه نال من السعادة ما وعد الله على أتباعه وقد جرّب علاج الاجتماع الانسانى بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الأعمى انكاراً ولا الصم إعراضا وغاية ما قيل فى الايراد أن أعطى الطبيب الى المريض دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته وهو يتجرّع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لا يتناوله وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه وهو فى يأس من حياته ينتظر الموت أو تبدل سنة الله فى شفاء أمثاله. اه كلام المرحوم الشيخ محمد عبده.

٢٩٦

﴿ الارادة ينبوع السعادة أو الشقاء ﴾

يتضح للقارىء من الآراء السالفة الكثيرة أن الانسان فى كل الأزمان تقريباً هو الانسان نفسه ان لم تعارضه عوارض خارجية فهو يتنوع من مؤثرات إرادته الحرة وأعماله

المختلفة أيضاً حتى أنه لمكنه أن ينوّع فى ذات خلقته الطبيعية التى وضعه الله عليها فينحط الى الحضيض (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) ... فالتغير الواضح الذى نراه فى الأديان والتمدن والاعمال والترقى ثم الانحطاط هو من تغيير الانسان نفسه بحريته وميلها الذاتى الى الاصلاح أو الفساد فقد رأيت كيف أن الأمم الاسلامية يقرؤن كل يوم تعاليم السعادة (القرآن) ثم هى لا تفيدهم شيئاً لأنهم يريدون بضمائرهم ويفعلون ماتبرأ منه هذا القرآن الى يوم الدين فان لم يكن لهم ارادة حرة فى الاصلاح الذاتى والسير بتعقل وحكمة كالقرآن فمن المحال اقالتهم من عثرتهم ولو أتتهم من السماء ملائكة أو كانوا متسلحين باسم القرآن الحكيم رياء لذرّ الرماد بالتدين بكتاب هو فى ذاته كل الحق المبين. ان ارادة الانسان حرة والارادة يتبعها دائما الاستعداد ثم العمل (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدتهم) فان كان لا عمل فالقول بالارادة بلا عمل هو سلاح المرائى ليس إلا .... وانهم لوأرادوا اصلاحا بتعقل فالله تعالى يهديهم الى الحقيقة ولو بمبادىء عقلية محضة (ومن يقترف حسنة نزد له فيهاحسنا) وهذه أعمال عقلاء الأوروباويين ونبلائهم فمبادئهم الأساسية فى أعمالهم واحكام شعوبهم وجدّهم وتعاونهم فى كل نافع مفيد من ضمن المبادىء التى يؤيدها القرآن مع أنهم لم يقرأوا فيه حرفا غير أنهم تعلموا من مبادىء الأمم الاسلامية السابقة شيئا وساروا عليه بارادتهم الحرة بعزم ثابت وحسنوه تدريجيا بالتعقل حتى كادت تقرب من مبادىء القرآن كما أيده بعض كبار العقول والفلاسفة منهم فى وجوب تنزيه الخالق تمام التنزيه . - ان الانسان بارادته يمكنه أن يعتلى الثريا ان أرادها وسعى لها .. ولكن القول ليس هو الارادة كما أن القرآن ليس بألفاظ بلا معنى .. فان لم يبدأ بالعمل على نوال المراد فلا ارادة هناك ولا نتيجة منتظرة وان هذه القاعدة الطبيعية تظهر فى جميع الأمم فأمة اليابان فى تقدمها والصين فى تأخرها من الأمثال وان القرآن نفسه يؤيد هذه الحقيقة (إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

٢٩٧

﴿ عظماء الرجال ﴾

ان فتوحات الاسكندر وعمر بن الخطاب وانتصارات نابليون العظيمة لم تك إلا لأنهم أرادوها بحريتهم فتفكروا بتعقل كيف يتممونها ويعملون لها فنالوها وهكذا الدين . فالقول

بالتدين بالاسم ليس هو الدين مالم يكن مقرونا بالعمل .... وهؤلاء المخترعون والمكتشفون أيضاً لم يجدوا الاختراع عفواً ملقى فى الطريق ولا فى خزانة الكتب بل أرادوا بتعقل ماأرادوه وسعوا له بالكد والعمل والاخلاص . فتحصلوا بالجد وألهمهم الله تعالى بكل حقيقة يريدونها وان الانسان للآن لم يصل الى التمدن الكامل بل هو سائر فى طريقه -- ولكن تقدمه أو رجوعه القهقرى متوقف فى كل وقت علي ارادته الحرة اذا سعى فى تاييد ماريد بالعمل لا بالقول والانتظار (وأن ليس للانسان إلاماسعى)

٢٩٨

﴿ الدين بالعقل ﴾

ان التدين لايجلب للانسان السعادة مطلقاً اذا كان هو لا يريد أن يعمل بتعاليم الدين المفيدة — وبالعكس — ان لم يمكنه أن يعثر على تعاليم دينية صحيحية يمكنه أن يتوصل الى التدين الصحيح والسعادة إن كانت له ارادة حرة كفطرته فى ذلك ويمكنه أن يسير نفسه بها بتعقل تام وعزم واخلاص حتى يصل الى ملكوت الله الأعظم الذى هو الغاية من التدين إذ أن ابراهيم الخليل عليه السلام كان كذلك فلا توراة فى يده ولا انجيل ولا قرآن حتى كان لذلك أحسن مثل فى العالمين (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين) .... ثم اختاره الله تعالى نبياً اذ منحه بعد ذلك صحفاً للدين

٢٩٩

﴿ هل العقل وحده كاف للتدين بلا رجوع الى قانون سماوى ؟... ﴾

(الجواب كلا لا يكفى)

لعل القارئ يندهش من هذا الجواب ليقول : الدين اذاً لا ينطبق مع العقل — فنقول له حاشا وكلا — الدين هو العقل الكامل الذى يوضح الحقائق كما هى من أول وهلة فهو أشبه بعقل العقول أو فطرة العقول الحقة التى ترجع اليه فى نهايتها ... لأن العقل الانسانى لايعرف كل شىء من أول وهلة فهو يحتاج لطول التأمل أحيانا والاختبار ثانياً فهو بالنسبة للدين كالجزء من الكل فهو منه ولكن ليس هو كله — فلا بأس عليك أن تسير على مبادئ الدين وتتأمل لنتائجه بالعقل والتجارب والعلوم لتنظر هل هى موافقة للعقل أم لا ؟.... فان

كانت تطابق العقل بحقائقه الكلية الثابتة فهو حق وان خالفته مع العلوم الصحيحة الثابتة فهو باطل أو تحوير فيه بوضع الباطل محل الحق — وهذا مايطالب به القرآن كل عقل فى العالم من جميع الأديان بلا استثناء سواء عن تنزيه الخالق سبحانه أو عن كل مبادئه المستقيمة . فهو الكتاب السماوى الوحيد الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

والسبب فى أن العقل ليس هو كل الدين . لأن (القرآن) يشمل كل قوانين العالم الحقة ومبادئه باختصار أو تفصيل يقرب للعقل تناوله فى قليل من الزمن مع مايناسب تنوع تقلب الانسان على الارض فى كل أدواره المختلفة مهما كانت — فمثلا .. شرب الخمر فهذا أمر بسيط بالنسبة لأنواع ما يكابده الانسان فى الحياة .. فالدين يحرمها إلا عند الاضطرار ... ولكن هل للانسان أن يعرف مضارها العامة بعقله لمجرد أن يقال له كالدين «لا تشرب الخمر» بلا إيضاح العلة والاسباب وربما يؤيد العقل نفعها أحيانا — فالدين يطلب التصديق بالنهى لأن ذلك أمر واهب العقول والذى يريد الرحمة والنفع للانسان أكثر من نفسه — ولا بأس للانسان أن يبحث من نتائج هذا النهى بعقله وعلومه التى قلنا أنها تطابق الدين ولا تخالفه — فماذا يجد ؟... يجد أن النهى عن الخمر هو خلاصة علوم العقل بعد تأمله الكثير فى سوء نتائج الخمر الوخيمة كهلاك الانسان ومساعدتها للعدوى بالسل الفتاك وربما مكث الانسان طول عمره يبحث وينقب عن مضارها وكيفيتها وتأثيرها حتى يقرر بعد كثير من الأزمان بضرورة النهى عنها كما يفعله بعض جمعيات كبرى علمية فى أوروبا رغما عن برودة الطقس فى بلادهم

قال المتشرع الانكليزى «بنتام» الذى عاش من سنة ١٧٤٨ لغاية سنة ١٨٣٢ فى كتابه أصول الشرائع عن الخمر ما يأتى : الخمر فى الاقاليم الشمالية يجعل المرء كالابله وفى الاقاليم الجنوبية يصبح به كالمجنون — ففى الأول يكتفى بالمعاقبة على السكر لأنه عمل فظيع وفى الثانية يجب منعه بطرق أشد لأنه أشبه «بالتشرر» ولقد حرمت ديانة محمد جميع المشروبات الروحية وهذا التحريم من محاسنها » اه

وكما يقال عن فوائد تحريم الخمر ... يقال كذلك عن فوائد إقامة الصلاة مما يتمهزأ به المتمهزئون ... وكذا يقال عن الصيام ... و ... و الخ وباقى أوامر الدين القاضية بسعادة

البشر العامة ... فالمضار التي تؤديها الخمر في مجموع جسم الأمة وحالة الأفراد الخاصة أكثر بكثير من المنافع القليلة المزعومة المنتظرة منها والشيء الذي فيه للعقل فائدة كثيرة (مثل منع الخمر) لابد وأن يرجح مافيه الفائدة كما هو قانون الارتقاء ونظام العمران

فعوضا عن هلاك الناس بالخمر وانتشار المضار الكثيرة التي تتأصل منها في أمزجة الأمة من شربها كان الأولى المنع عنها فان ذلك أكثر فائدة وعندها رجع العقل الى الحق كفطرته من تصديق قول الله تعالى من أول وهلة في الآية (يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) ... فالدين للانسان كالدليل الذي يأخذه السائح في يده مكتوبا فهو يهديه للحقيقة بلا عناء كثير .. ولكنه لايخالف العقل والعلوم الصحيحة في حال من الأحوال

يرشدنا الى ذلك التاريخ أيضا وتقلب الاعتقادات المختلفة في العالم وتوجهها الى حالتها الطبيعية الموافقة للقرآن فقد تلاشى من الوجود مسئلة تعدد الآلهة عند قدماء اليونان في الأزمان القديمة وهي تتلاشى الآن تدريجيا بين الوثنيين الهنود أيضا فانهم جارين التمسك بعادة توحيد الآلهة وسيعترفون بوحدة الله وتنزيهه كلما تقدموا الى الافكار الصحيحة - وان بعض الأمم المتمدنة الحديثة ترك مسئلة الزواج وتهاملوا فيها فحدث فراغ هائل في نظامها وخيف عليها من السقوط والتلاشي كالأمة الفرنساوية رأس المدنية الحديثة بخلاف «انهماكهم في المسكر والزنا والميسر . . تلك المسائل التي ستهدم بناء هذه المدنية الجميلة ويحار بها عقلاؤهم ليرجعوا بالمدفوعين بها الى مايطلب القرآن من التحريم حتى قال بعض كتابهم عنها انها رأس النقائص لتلك المدنية المسيحية» ولذا فلا غرو اذا قبل القانون السماوي كفرض واجب تنفيذه حسب أحوال الأمة بلا تعسف واستبداد ولكنه يعتبر أساسا للرجوع الى الاصل الحق الطبيعي

٣٠٠

﴿ تضليل رؤساء الأديان ﴾

لقد تجارى بعض الأمم الماضية أن يكتبوا بأيديهم كتبا ثم يقولون انها من عند الله لمطلق التصديق بها بلا رجوع الى العقل أو العلوم الصحيحة فاذا اعترض بعض الناس عليها لمخالفتها العقل جادلوهم بلا تعقل انها من عند الله وكلام الله (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا

هدى ولا كتاب منير) فمثل هؤلاء تقول الله تعالى عنهم (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكتبون).. وكما نقال عن هؤلاء نقال الآن عن كثير من الخرافات التي تمجها العقل والقرآن ويلصقها المسلمون بالدين توهما فى جميع الممالك الاسلامية

٣٠١

﴿ التدين طبيعي للنفس ﴾

ان التدين بالله تعالى فطرة طبيعية فى النفوس لا أمراً مكتسبا والتفارق فى الأديان ناتج عن كيفية تصوير العقل بحريته حقيقة هذا الشعور الذى يملأ كل فؤاد بما لا يختلف فى الصغير والكبير والأطرش الذى لا يسمع والأخرس الذى لا يتكلم ... تجد الأطرش من الناس وهو لا يسمع فى حياته تعاليما آلهية ثم تشاور له من السماء رمزا لوجود الله تعالى فكأنك وضعت بذرة فى محلها الطبيعي الموافق لنموّها فلا يلبث هذا الشعور وجلال التدين يزداد منه حتى ليعمل ويؤشر لك بكل ما من شأنه كمال الله تعالى الذى يتدين به وانه أول لطيف بحاله خبير بضعفه قوي علي معاضدته .... يتذلل له بانكسار ... يتطلب لك منه الرحمة برفع وجهه الى السماء فهو يؤدى لك كامل العبادة باشارته دون أن يسمعها وكلما علمته شيئا يؤول بتنزيه الخالق وكماله كأن ذلك أدعى لارتياحه الطبيعي الكامل .. ترى الانسان فى صغره يتوجه الى مدرسته فيتعلم ويسقى بالحيلة بالتعاليم المختلفة ويختلط بأمثاله ويحبهم ويصير كأنه جزء منهم لا يتجزأ وقطعة من فؤاده ... فاذا غاب عنهم سنين تركهم فؤاده كأنه لم يرهم . أو كأنه ما كان معهم ولكن وجود الله تعالى والاعتقاد به وسيطرته اللطيفة المحبوبة من قلبه تزداد منه فلا شيء ينسيها اليه ولا تزول أبدا ... فان عثر فى لعبه قال « ألله » متطلبا رحمته . . وان فارق أخاه قال « ألله » لجمع شمله ... وان بكى قال « ألله » ليلطف بحاله ... وان احتاج قال « ألله » طلبا للمساعدة ... وان مرض قال « ألله » لشفائه ... ينسى الاصدقاء ويزولون من قلبه الصغير وذاكرته وينسى الوالدون ان فارقوه بالموت وهو صغير أو كبير — لا يفتكرهم الا عند تذكر حنوّهم وحسناتهم .... فهو فى عثرة لعبه مع الله ... وفى كره وجريه يذكر الله ... وهى كلمة سمعها وعرف مدلولها من صغره فكانت كالنبات الذى وجد محلا خصبا طبيعيا لنموه

الى مالا نهاية أو كأنها فطرة روحه — فان هرم وشاخ قال الله مترحماً على جمال شبابه وان أسلم الروح قال أالله وإنا لله للشكر وحسن الختام — فالشعور بوجود الله تعالى والتدين به طبيعى فى الكل بلا تمييز ولكن اختلاف تكييف هذا الشعور المحبوب قلبياً من الكل بسوء التعاليم هو الذى أدى الى اختلاف الأديان والمبادئ وتباينها فعمت القلوب عن فطرتها لحب الله — مع اننا لو جردنا القلوب من شكيمة تعصبها وأرجعناها الى فطرتها اتحدت كأنها جسما واحدا وروحا واحدة (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا) ...ضع أبناء صغاراً من جميع الأديان والملل فى وسط واحد وانشاءهم تعاليما واحدة تجدهم كباراً كواحد تقريباً لا ينفكون الا متى عرف كل أنه مستقل قائم وحر فى ذاته فينفرد بعقله ان شاء ويشذ بمبدأ أو ينفرد عن الجميع... نرى آثار ذلك فى كل أمة مستقلة بعوائدها وطقوسها وتعاليمها فارتباطها لا يكون إلا بقدر اتحادها بالسير على مبدأ واحد .... ولكن الانسان هو فى الأصل واحد لم يتغير قلبه إلا من تغير توجه الافكار بالقلوب الحرة إلى ماتبرأ منه العقول أحيانا ان أبصرت كطبيعتها الى الحق الخالص — ولم يتعاد الانسان مع أخيه إلا بتوجيه القلوب لوجهة غير طبيعية بتعاليم بثها فى ذهنه الوالدون والكهنة أو المعلمون — فترى هذا وثنياً وذاك يهوديا والآخر نصرانيا والرابع مجوسيا ... أو ... أو ... وربما يتعدد فى الدين الواحد مبادئ لا ينتهى فيها الأمر عند حد .. هذا يشد حبل الدين من اليمين والآخر يمده من الشمال

٣٠٢

﴿ القرآن يحض على الحرية والمساواة والتوحيد ﴾

حمل القرآن حملة شديدة على العقول فأزعجها من ثبات وقوفها وتحجرها وتقييدها بالغير وأظهر لها التدين الحق باسلام القلب مع الفكر لوجهة الله العليا وباطلاق العقل من أسره فهو بطبيعته الفطرية يعرف الحق والحقيقة . وان الدين يعتنق بالايمان بالله بالغيب آلها واحدا كاملا . والله لا يعرف إلا بالفطرة وحسن التعقل لا بالسبك والحيلة ... وان نظام الدين بالمطابقة مع القرآن الحكيم هو النظام العقلى العادل فى كل الأمور ... ألقى على الانسان درس فضائله وكرمه على كثير من المخلوقات وانه من أكرم الموجودات عقلا ومقاما وان الله تعالى كما أكرمه أكرم ذاته العلية سبحانه باحتجابه المطلق عنه إلا عن الشعور بوجوده

وذلك لاحتمال ضلاله وكثرة فساده بالحرية الممنوحة له منه ثم أعلنه عن ذاته سبحانه انه منزه عن مخلوقاته بل هو فوق تصور العالمين — بل أعلن كل فرد أنه عن نفسه مسئول — وان كل انسان فى ذاته الكل وان كان صغيراً فلا عذر له فيما يتلقنه من أوهام الماضين — ولا عذر له فى تقييد عقله علي ما كان عليه أسلافه حتى آباؤه وأجداده من الضلال المبين — ولا عذر له بالتمسك بتعاليم يعترف عقله بعدم ملاءمتها لعقله وطباعه الفطرية الطاهرة — وان لا شيء فى العالم يقدر على مصادمة ارادته القوية إلا أن يشاء الله تعالى بحق وعدل مطلق — وان لا يقبل منه عذر اذا قال: «انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون».

فك القرآن قيود الذل عن اعناق أفراد العالم الذين لعبت بهم تعاليم قدماء الكهنة من تجسيد الله فى الحيوانات والطيور والأصنام والانسان فأذلوه ذلاً أودى به الى الفناء والهلاك وأوضح للكل أن التدين الحق خاص لله الرحمن — وهو أرفع من أن يحل فى جسم أو يتصف بوصف يقع تحت العقول والافهام — فهو الذى خلق العقول ومنح الحرية للانسان ... وهو أرفع من أن يتعرض للخلق ليتجسد .. فان تجسد فى إنسان جاز أن يتجسد أيضاً فى الحيوان — فلا دين حقا لمؤله الانسان ولا لمؤله الثيران — وانه تعالى خالق الانسان ليرشده بالعقل والالهام وليلهمه البيان ... وينذره إن اعوج ويبشره ان استقام ولكن بالوحى للرسل لوجوب احتجابه المطلق عن العقول والافهام فهو يرسل الرسل والملائكة الكرام ... أظهر ان الله تعالى منزها تنزيها كاملا وان كل انسان فى ذاته حر له أن يتطلع بعقله لكل مافى السماء والأرض ليعلم من قدرة الله تعالى انه تعالى فوق وصف كل لسان — فان وصف كماله المطلق بجامع القلب من الاجلال فمع التمسك بمبدأ (ليس كمثله شيء) وان ضرب عنه مثلا مما يقع تحت حواسنا توصلا للافهام فبمبدأ (له المثل الأعلى) وذلك لمعنى العبودية الكاملة ولجلاله الفائق كل جلال... ان تنزيه الله تعالى من أول الأمور التى تجعل العقول تطلق العنان الى آخر ما تقدر الوصول اليه فى العالم من العلوم بلا استثناء شيء يتوهم فيه أنه من خصوصيات ذات الله التي هى فوق العقول ... وليظهر الانسان بعلومه مقدار مامنح من الخالق من الفضل على كثير في العالمين فيحمد الله تعالى فى جميع الأزمان بقدر ما يتمتع به من السعادة والمدنية والعمران وطهارة القلوب بالاخلاص (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات

من الرزق قل هى للذين آمنوا خالصة يوم القيامة) وعلى ما تقدم يمكن أن يقال : هل تستقيم الأمم وتتوحد الأديان ؟... فالجواب — نعم — ولكن بحكم القرآن فهو المؤيد لتنزيه الرحمن وأول من منح الحرية للعقل والانسان

فصل ١٨

معنى الاسلام

٣٠٣

﴿ إن الدين عند الله الاسلام — ولماذا ؟... ﴾

يعتقد البصير من تأملاته فى العالم بوجوب وجود الله تعالى أولا .. ثم كماله المطلق وعدله ثانيا وأن التدين بالله تعالى معناه علاقة المخلوق بهذا الخالق المحتجب سبحانه .. فاذا بحث الانسان بعقله عما يجب أن تكون العلاقة بينهما لم يجد غير لزوم الشكر من المخلوق بتمام حريته للخالق الكامل المطلق الذى كما قدر على خلقة هذا الانسان فهو قادر أيضا أن يمده دائما بأنواع الرحمات المتنوعة لايمانه وشكره... فخلاصة الدين من طبيعتها واجب عقلي محض تؤيده النفس ... فلنترك ذلك ونقول : اذا كان الغرض من الحياة هو الايمان بالله تعالى والشكر له بحرية واخلاص فهل من اللائق عقلا ان يكون الانسان بعد ذلك مع الله كالمحاذر الخائف بالشك أو كالذى لايطمئن قلبه لشيء لسوء الظن أو كمن يعاشر غيره ويعتقد فيه الخيانة فهو يتظاهر له بالاعتقاد الحسن رياء ولكن لايفعل أمراً معه إلا اذا حسب له ألف حساب وولد فى نفسه سوء الظن بالوهم ؟... الجواب — هذا لايليق طبعا — فاذا كان انسان سيء الظن بالله تعالى فقد انتفى معنى الشكر الخالص بالكلية وهذا لايريده الخالق (يظنون بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم)

أما الشكر بحرية واخلاص فلا يكون إلا بعد حسن الظن والايمان التام الكامل — ثم لتقريب

معنى الاسلام نفرض أن انسانا عنده خادم وأمره أن يرسله لأحد أصحابه ليعطيه شيئاً أو يأخذ منه شيئا ... أو أمره أن ينقل شيئا من محل لآخر فى بيته ... فهل يليق لهذا الخادم أن يقول لسيده لماذا أنقل هذا الشىء من محله للمحل الآخر ؟ أو أنا لا أنقله إلا بعد أن تخطرنى بالعلة والأسباب ؟ مع كونه يعرف أو يقول لا أتوجه لصاحبك إلا بعد أن أفهم العلة والأسباب ؟ — بقصد المناقشة لا الخدمة — أفتكر أن كل انسان لا يحب أن يكون عنده خادم بهذا الشكل ... فهو إن فعل ذلك كان كالشريك المحاسب وخرج بجملته عن معنى الخدمة والسيد نفسه يتجرّد من معنى السيادة !. فالسيادة نفسها لا تكون بمعناها الصحيح إلا أن يطيع الخادم من أول وهلة وبلا معارضة خصوصا اذا كان ما صدر له من الأمر مفهوما ولا شىء فيه على نفسه — فما بالك لو كان هذا الأمر كله فائدة ورحمة لذاته الشخصية ؟... أفتكر أن مطاق التسليم بنفاذ الأمر بلا تردد ومناقشة هو أول واجب مقدّس عليه — اذ عندها يرتاح السيد ويكون الخادم من أحسن الخدم اللائقين لحسن رضاه — ولا مانع اذا كان السيد يفهم هذا الخادم شيئا مما يريد لسهولة أداء العمل والتنفيذ ولكن بحرية السيد أيضا لا بالتوقف والتعنت وسوء النية قال تعالى عن ابراهيم : (وإن من شيعته لابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم) وعلى ذلك يمكنا اعتبار أول شرط من شروط سيادة السيد وأول شرط من شروط معنى خدمة هذا الخادم له : وجوب التسليم من الأخير من أول وهلة بلا معارضة مع حسن القصد حتى يكون هناك معنى للسيادة والخدمة — وهكذا يقال عن أوامر الله تعالى فهو المنزه عن كل نقيصة وهو المتصف بكل رحمة للجميع فأوامره تعالى هى خاصة لرحمة الناس بلا احتياج لأحد فى العالمين مع امكانهم أن يفهموها — ولذا كان أول أمر قرّره الله تعالى بينه وبين عباده من حيث علاقته بهم أو علاقتهم به أو الدين باختصار هو « الاسلام » أى التسليم المطلق بالنفس أولا ثم لأوامره تعالى ثانيا مع أن تلك الأوامر ليست لاحتياج الله تعالى لنتائجها كما يحتاج السيد لخادمه فى إرساله وتشغيله فى منزله بل هى لغرض سعادة المخلوقات ذاتها ووصولهم بها أنفسهم درجة الكمال وزيادة لنوال الرحمة التى منحهم بعضها من قبل ... فهل لم ير العاقل من ذلك لزوم التسليم بقبولها والعمل بها وأنها من أول الواجبات الأولية على المخلوقات وأنها النقطة التى يجب وضعها فى المحل الاول من الاعتبار ؟

هو كذلك بلا شك — فاذا قول الله تعالى (إنّ الدين عنـد الله الاسلام) هو قول يؤيده العقل والحقيقة الكلية

٣٠٤

﴿ الاختبار عن الاخلاص ﴾

لنتأمل فيما اذا فرض وأرسل السيد خادمه بالأمس الى الشرق لبعض منافع له ثم أمره اليوم أن يتوجه الى الغرب ليقضى له منافع أخرى . هل تغير الأمر لم يك لازما من هـذا السيد خصوصا اذا أراد أن يختبر خادمه ويعرف منه لزوم قبول التسليم باطاعة الأوامر أم لا كلما صدرت بحق وتنوّعت ؟ .. إن ذلك فى الحقيقة الغرض من إظهار معنى كونه خدّاما والمعنى أيضامن إظهار سيادة هذا السيد عليه باخلاص — فالله سبحانه وتعالى قد نوّع الوحى والشرائع التى أنزلها على الرسل لا لغرض أنهـا متضادة فى المقصد بل هى واحدة فى الغاية واختلافهالغرض اختبار الأمم ولـكونها أوسع رحمة من سالفتها لعلة لزوم قبولها من أول وهلة وبلا تردد أيضامع وضوح مقاصدها المفيدة فهو تعالى أرسل كثيراً من الرسل كنوح وابراهيم وموسى والمسيح بن مريم ومحمداً عليهم الصلاة والسلام كلا منهم بشرائع خاصة طبقا لأحوال الأمم وحالة تقدم الانسان التدريجى فى العالم مع عدم اختلاف الغرض من الجميع فيما يختص بالعبودية لله تعالى وتوحيده فى الألوهية الذى هو معنى التعبد والتدين (إنا أوحينـا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين مِن بعـده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوبَ والأسباط وعيسى وأيوبَ ويونسَ وهرونَ وسليمانَ وآتينا داوُدَ زَبوراً) فـكلما تقادم عهد الانسان فى التاريخ كلما منحه الله تعالى شريعة أكثر علما وإيضاحا لما يبهم على عقله أحيانا حتى ختمت الشرائع السماوية بهذا القرآن الحكيم (اللهُ الذى أَنزلَ أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به مَن يشاء).

فماذا كان يجب على أفراد الجنس البشرى إذاً ؟... لاشك لزوم التسليم بالقبول بلا تردد للأمر النهائى وتنفيذه والعمل به مع الاعتراف بصحة الشرائع السالفة ان كان هناك ايمان وأنها توافقه فى معنى التعبد وتنزيه الخالق بأكمل المعانى وإن كان الأخير أوسع إيضاح وأحسن فى

التفسير وفى منح الحرية والرحمة — وعلى ماتقدم يكون أول علاقة بين الله تعالى وكل مخلوق أو تدين العالمين لله تعالى هو «الاسلام» لاغيره أى التسليم لله بالنفس أولا واطاعة أوامره ثانياً بلا ترددومنه قال تعالى (إن الدين عندالله الاسلام) فهو دين العالمين فى جميع الأزمان من بدء خلق العالم وبه قال تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) أى سجدوا فى الحال بلا تردد ولاتوقف لأن دينهم الاسلام لله (ويفعلون مايؤمرون) .. إذ أن الله تعالى أكمل من أن يعطى أمراً ليس بحق بل لا بد أن يكون فيه كل الرحمة اذ هو الحكيم العليم وكل ذلك متوقف على الايمان

٣٠٥

﴿ الاسلام دين ابراهيم ﴾

بالاسلام كان ابراهيم عليه السلام أحسن مثال لافراد البشر (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) بل كان عمل ابراهيم فى كل ادواره المختلفة ما هو الا تسليم مطلق بنفسه وأفكاره وأعماله لله وحده ثم لعدم الزيغان عن الايمان به تعالى وعن أوامره مهما كان ظاهرها قاسياً شرطاً بكامل حريته التى وضعه الله بها وضعت من ذلك لفظة «اسلام» لمعنى التدين الحق العام (قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك امرت وأنا أول المسلمين) ثم بالخروج عن الاسلام عصى الشيطان ربه وطرد من رحمته

فالاسلام هو دين الفطرة الذى يجب أن تشرأب اليه النفوس بنفسها لتروى ظمأها من بحار نوره وفوائده وهو الذى ان تخطاه الانسان فى أعماله مدة حياته لايجد فى نفسه وفى الآخرة غير الضلال المهين (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)



فصل ١٩

٣٠٦

الاسلام الذاتى

جعل الله تعالى فطرة المخلوقات فى تكوينها ووجودها ونشئها وارتقائها وتقهقرها وفنائها ونموها وضعفها ومنحها وحرمانها مطابقاً لمعنى التعبد من الكل لألوهيته المطلقة. فان كان الله تعالي جعل التسليم النفسى وقبول أوامره من أول واجبات المخلوق ليدين بحق بهذا (الاسلام) فانه تعالى لم يجعل وضع المخلوقات جامدة أوحية ونمو فضائلها وارتياح أرواحها وسعادتها وكيفية تولدها منطبقاً أيضا على الحقيقة إلا بعد أن تضع نفسها عند ماتملك حريتها فى وضع الاسلام النفسانى .. وان الناس عند حريتها فى الأعمال لا يمكنها أن تؤدى أوامره تعالى بتمام الارتياح والقبول كما هو الواجب الا بعد أن تضع نفسهافى حالة (الاسلام) الذاتى وذلك أشبه بالزارع الذى يزرع البذور فى الارض فقبل أن يعرف كيف يجلب الماء ليسقى زرعه ويتعلم كيف يجنى منه الثمار أو يتحفظ عليه عند النمو من التلف أن يعرف أولا كيف يضع البذرة فى الأرض فى محل مناسب ووضع لائق لتنبت كطبيعتها الفطرية ولتكون فى نموها مستقيمة قوية معتدلة ولتنتج أحسن الثمار — فان لم يضع البذر أولا فى وضعه الطبيعى هلك الزرع بلا نمو وكان بلا نتيجة مفيدة — فهكذا التدين بالاسلام. فان لم تضع النفس ذاتها فى وضع الاسلام الذاتى أولا فاتباع شريعة الاسلام لا تفيد. كذلك الذى تعلم كيف يجلب الماء للزرع وكيف يقطف الثمار وكيف يتحفظ على الزرع عند النمو من التلف من غير أن يعرف ماهى طبيعة الارض وكيف يضع فيها البذر للأنبات — نحن يمكننا اطلاق معنى الزرع على كل الأعمال المختلفة التى يتم بها قطف الثمار — ولكن وضع البذر فى الارض هو بلا شك يعتبر أساسا أوليا للزرع — فهكذا الاسلام الذاتى العظيم فى القرآن فانه أساس التدين بالاسلام إذ معناه الاخلاص قلبيا لله

٣٠٧

﴿ اسلام المخلوقات ﴾

ان الشجر فى وجوده بالنسبة لله تعالى هو فى حالة (اسلام) والبحار فى وجودها وعظمتها بالنسبة للخالق فى حالة اسلام أيضا وكذا الجبال فلسان حال الجميع يترجم أنها فى حالة العبودية الكاملة لله تعالى واستسلام مطلق لقدرته وارادته ولكن ذلك الاستسلام المطلق ما كان إلا بعد الاسلام النفسانى بحريتها قبل خلق الانسان كالحالة المطلوبة من كل انسان فى هذه الحياة ليكون مسلما مخلصاً بحريتـه كقوله تعالى (ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا آتينا طائعين) أى أتيا طائعين بتسليم أنفسهما بحرية توجها الى جهـة الخالق العليا التى هى أكمل جهة تليق له تعالى بالنسبة لوضع المخلوق ووجوده. فالاسـلام النفسانى أساس للتدين بالخالق (أفغـير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماء والأرض) .... وإذا أردنا أن نعبر عن كلمة اسـلام بلفظ وتعبير موجز لانقول الا أنها عبارة عن وضع المخلوق الطبيعى فى تمام العبودية بالنسبة للخالق بصفته الآله الحق الواحد. فآدم عليه السلام كان مسلما وجميع الأنبياء والرسل ومن سار بدينهم كذلك وكل الشرائع السالفة كالتوراة والانجيل مانزلت إلا لتأييـد معنى التدين بالاسـلام لاغيره قال تعالى: (ولـكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام فالهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين) .... فلفظة (إسلام) لم تـكن جديدة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم بل هى قبله وقبل أن يخلق آدم أيضاً

٣٠٨

﴿ النفاق والاسلام ﴾

أما النسبة بين معنى الاسلام الذاتى والشرائع التي يرسلها الله تعالى تباعاً للرسل للتدين بالاسلام كالتوراة والانجيل والقرآن فذلك كقانون تسنه الحكومة فى الرعية — فقد يقال أن معنى القانون هو العدل - أو العدل هو معنى القانون .. ولـكن لا يمكننا أن نقول أن القانون هو العدل بالذات أو العدل بالذات هو القانون بحيث لو عدم أحدهما عدم الآخر معه فقد يوجد القانون أحيانا ولا يقام العدل لعدم تنفيذ القانون ... وبالعكس قد يكون العدل بلا

رجوع الى قانون موجود

فالتدين بالاسلام معنى هو القرآن وبالعكس معنى القرآن هو دين الاسلام الكامل ولكن اذا كان القرآن موجوداً بين قوم ينتسبون اليه ولم يعملوا به هل يقال انهم يقيمون دين الاسلام ؟.. كلا — كثير من الناس الذين يحفظون القرآن يرتكبون أفظع ما يرمى القرآن صاحبه عند ارتكابه بالكفر الشديد — فهل حفظ القرآن لهم يبرر معنى اقامتهم لدين الاسلام أو هو يبرئهم من وصمة عار الآثام ؟.. كلا — هذا أمر بديهي واضح... وبالعكس طبعاً .. ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مع خلفائه يقيمون دين الاسلام بالمعنى الكامل لانهم ساروا عملا بالدقة على مبادئ القرآن الحكيم قلبياً — ولكن ابراهيم عليه السلام كان يقيم دين الاسلام أيضاً بالمعنى الكامل بلا قرآن كهذا بل بتعاليم توصل لمعنى القرآن ومثله باقى الرسل والانبياء والملائكة والطيور والسماء والارض ومن فيهن ... اذا لابد من وجود نقطة مشتركة بين الجميع لمعنى التدين (بالاسلام) حتى أن هذا يتساوى مع ذلك فى نقطة ونتيجة واحدة — وما هى هذه النقطة يا ترى ؟... هى اسلام النفس أولا للخالق وحده (أو الاسلام الذاتى) وما عدا ذلك من تعاليم من الله تعالى فهو نظام تسيير النفس به بأمر الله تعالى بعد اسلام نفسها أولا بحريتها ولتكون تلك التعاليم رحمة لها طبقا لحالتها والوسط الذي تكون فيه — ومع ذلك نرى زيدا من الناس يقيم الصلاة فيقال هذا متدين بالاسلام — ونرى بكراً من الناس يتوجه الى الحجاز فيقال هذا متدين بالاسلام لأداء الحج وثالثاً يؤدّى الزكاة فيقال هذا يتدين بالاسلام — ورابعاً يصوم رمضان رياء فيقال هذا يتدين بالاسلام — وخامساً يتشهد بالله فيقال عنه كأمثاله — ولكن هل هؤلاء يقيمون معنى الاسلام المطلوب اذا لم يسلموا أنفسهم بالذات أولا لله الخالق ؟؟ اذا أردت الجواب على ذلك أنظر الى قاض يقبض على القانون ليحاكم به سارقا ثم يطبق عمله على مادة من مواده لمحاكمته ومجازاته ثم هو نفس القاضى يأخذ رشوة من سارق آخر ليخفف عنه العقوبة أو يبرؤه بها فيطبق تبرئته على مادة أخرى من القانون يتلمسها اليه بحجة ما وبسطوة فعل الرشوة على نفسه فيخرج هذا المجرم بريئا شريفا — فمن هو السارق ؟... ومن ذا الذى هدم القانون وكان من أشد الناس فتكا لنظام العدل والقانون ؟... لاشك هو ذاك القاضى الذى تلبس باسم القضاء

لأداء معنى القانون وضميره من أشد الاعداء للقانون — ولو كان فى القانون روحانية تكلم لخسف به فى مكان سحيق

٣٠٩

﴿ بعض أحوالنا ﴾

إن أحوال بعض أفراد الأمة الاسلامية الحالية فى نسبتهم الى معنى الاسلام الذاتى تغم وتكدر فتجد هذا يصلى ولكنه ساه عن صلاته عن الله موجها قلبه وفكره فيما يرفع ويوضع فى حانة الخمر بين اخوانه أو بمغامز الفسق فى مخيلته .. والرياء الكامل أمام الناس فى ركوعه وسجوده والكذب فى أقواله ثم هو يعتقد فى شيخ أو غيره العلم بالغيب — أو المساعدة ونوال المقصود — فيقبل بقلبه حجراً ولا يقرئ والديه السلام ولربما ارتكب ماهو أشد من ذلك ولكنه ظاهراً يتدين بالاسلام باسم هذه الصلاة ؟؟ فماذا يحكم على مثله القرآن لو تعرض لمحاكمته العادلة ؟؟ نترك الجواب لخبرة القارئ — نعم — أن الاسلام هو اطاعة ما أمر الله به تعالى — ولكن هناك من ضمن أوامره تعالى أيضاً « اسلام النفس » بذاتها لله وحده أو « الاخلاص اليه » والذى هو مقدم على اطاعة باقى الأوامر الظاهرية من صلاة . وصيام . وركوع وسجود . وحج . فان لم تسلم النفس لله بذاتها وحريتها فلا فائدة من اطاعة الأوامر الأخرى وان كان اقامتها من متممات الاسلام ... لأنها تكون كالزارع الذى يضع البذور فى الشمس على الحديد ثم يصب عليها الماء للانبات ... فهى لاتنبت .. بل يستحيل أن تنبت لتخرج الثمار .. بل تتنوع فيما يضرها ويتلفها وان كان الماء والشمس من متممات الزرع والأنبات (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين) .... ثم تجد آخر يعطى الزكاة رياء امام الناس إن فعلها وكرها من نفسه لاداء طلبة أو سخرة مفروضة يسدها .... لالوجه الله باخلاص — تجد فلانا توجه للحجاز — وهو يهين أمه وأباه -- يتضورون ألما لخشونته ورؤية قساوته الحلوة على قلبهما ولكنه مع ذلك ينهرهما بل يسلب ماهو حولهما من متاع ثم يفر ليحج به بيت الله — فاذا سئل عن الحج قال أزور النبي من غير أن يعرف معنى للحج ... فما حكم محكمة القرآن على مثل هذا ؟ . القارئ يعرف ذلك . تجد قاضياً متفقها فى الشرائع الاسلامية كلها يحكم فى قضية شرعية لزوجة فاسقة

تطارد زوجها المخلص لله قلبه والمستقيم مع زوجته لعلة أبنائه الصغار ثم هى تنعش قاضيها برشوة من مالها ورشف من ريقها ... فيحكم لها بالتفريق بينه وبين أبنائه الصغار الاعزاء فلذة أكباده وريحانة فؤاده ... فيسحقه القاضى سحقا يؤدى به الى الهلاك والمسكنة وضياع مستقبل الابناء فماذا تحكم عليه محكمة القرآن العادلة ؟.. القارئ يعرف ذلك .

تجد رجلا يتزوج كل يوم بواحدة ويترك كل يوم أرملة ويرمى فى الطريق كل يوم محروما وهو لا يملك شيئا فهو يتزوج ويطلق باسم الاسلام ثم تتوجه تلك الأم التعيسة التى تحمل ابنها على طى الجوع وتحميه بجسمها وقلبها من ألم الحر والبرد وهى فى أشد التعاسة والارتباك ... ينظرها القاضى فلا تملأ عينيه وينبذها من مكان بعيد ثم هو يماطلها ولا يهتم لأمرها حتى يكون عليها كزوج آخر ضر لها فبدل السهم يضربها بسهمين قاتلين .... ترى النمرد الحقير من الرعية له من سلاح الدين الاعتراض على الحاكم المستبد الذى يحيد شعرة عن حكم الاسلام الدستورى العادل .. ولكن نرى من بدء نشوء الاسلام بعد الخلفاء الى الان وحكومات الاستبداد تتنوع فى المظالم باسم الاسلام ... فأبادوا من هم فى الدين مولوهم وقد يكون أكبر سلاح الظالمين كبار العمائم .. أو متظلعى التدين باسم الاسلام فماذا تحكم محكمة القرآن العادلة على أمثال أولئك من حاكم ورئيس الى مرؤس خاضع للذل مستميت ؟.. القارئ يعرف ذلك ... ان لم يتبرأ اسم الاسلام من أمثال أولئك فأولئك هم أمثال المدعين بالاسلام الآن ومن أجيال وأولئك هم من يقال عنهم مسلمون الآن

٣١٠

﴿ الاسلام الخالص ﴾

أين اذاً معنى كلمة « اسلام » التى التقى فيها ابراهيم مع محمد (ص) واشترك معهما فيها الرسل عليهم الصلاة والسلام فى الغرض والمعنى الحق ؟.. هذا ما نسأل عنه الآن .. نرى مما تقدم من الامثال وما يشبهها كثيرا ويمكننا ذكره بما لا نقدر على حصر أنواعه أن من أقام جزء من الشريعة رياء حتى ولو تخرجه محكمة القرآن الحقة من دائرة الاسلام بسبب ما يرتكب من النفاق يلقب باسم مسلم وانه يتدين بالاسلام ... ولكن التدين بالاسلام الذى نتساءل عنه والذى فى الحقيقة يعطى اسم « مسلم » ليس هو ما يقام من ظواهر

الشريعة وحده وان كانت منه. بل التدين بالاسلام هو اسلام النفس أولا لله . فاسلامها يمنح القائم بأوامر الشريعة بعد ذلك لقب التدين بالاسلام حتماً. فان لم تخلص النفس لله تعالى أولا. فلا اسلام من خداع يقوم بشيء من مظاهر الشريعة . فالقيام بها أو بعضها بلا إخلاص لله هو عين النفاق (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) والسائرون اذاً بمثل هذا النفاق أولئك هم الذين قيل فيهم (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار) . أن لفظة اسلام هى معنى لعمل خاص للقلب مع الفكر بارادة الانسان الحرة . فاذا تم من النفس على وجه الرضى والاخلاص كان صاحبه متديناً بالاسلام وهناك ان فعلته كان أداء الانسان أوامر الله تعالى الأخرى من صلاة وزكاة . الخ . الخ هو ما يطلبه القرآن باسم الاسلام وحقيقة التدين الكامل

٣١١

« تعريف الاسلام الذاتى »

هو أن يتوجه الانسان بقلبه وفكره لله الآله الواحد الحق جهة السماء ، أو بتعبير آخر هو أن يتوجه بضميره جهة الله العليا . أى جهة السماء بثبات واخلاص من غير أن يحور ضميره ليتوجه لشىء آخر غير الله فى العالم ، هناك يكون معنى التبرؤ من شرك الضمير أو القلب لشىء آخر فى الوجود

فالاسلام هنا أشبه بطريقة أو عمليه أساسها حرية الارادة فى قبولها وأدائها والتثبت عليها بالكيفية السالفة فاذا أراد القارىء أن يعرف معنى الاسلام اذ ذاك ، فهو معنى لوضع النفس الطبيعى بالنسبة للخالق ، وهو لا يمكن إلا بالكيفية السالفة مع اخلاص الضمير لله ، ان ذلك أشبه بغرس بذرة فى أرض صالحة للزرع ثم تسقيها بالماء فهناك تجد وسطاً طبيعيا لنموها وسعادتها لانها بذلك تطرق باب الايمان . الانسان إن لم يضع نفسه فى وضع الاسلام للخالق «سبحانه» كما سلف فهذا كالذى يرمى بذرة على أرض من غير أن يعمل لها ترتيبا لمحل طبيعى لنموها أو لسقيها . هناك تسوس وتفرغ من غير أن تفيد بشىء مطلقا ، هذا التوجه باخلاص جهة الخالق مع التثبت عليه هو العمل الذى قيل لابراهيم عنه : (اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) .

هذا الاسلام النفسانى لله تعالى هو الذى أيد كيفيته ابراهيم عليه السلام للعالم بقوله : (انى وجهت وجهى) أى جهة الله العليا جهة السماء (للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) أى لا يشرك بالله تعالى بتوجه قلبه أو ضميره لغير الله تعالى أو لجهة أخرى غير هذه

٣١٢

﴿ عدم الشرك ﴾

كان يدين ابراهيم عليه السلام بالاسلام لله وحده . فهو مع الاعتراف بوحدانية الله تعالى يوجه ضميره دائما جهة الله العليا جهة السماء مع التنزيه . لأن نفس الاعتراف بوحدة الله تعالى باللسان مع زيغان الضمير عن هذه الوجهة هو اعتراف برياء يصحبه نوع من الشرك وليس ذلك هو الاسلام وذلك لأن ضمير الانسان أو قلبه يستحيل أن يتوجه الى شيئين أو وجهتين فى آن واحد فان القلب اذا تعلق بأمر محال أن يشغل بأمر آخر إلا أن يترك الأول (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) فاسلام النفس لله تعالى هو توجه القلب الى الله تعالى وحده وان جهة الله تعالى بالنسبة لوجود المخلوق هى أحسن وأكمل جهة حيثما كان ولا شك أن جهة السمو أو العلو أو جهة السماء هى أحسن جهة لتوجه القلب بها الى الله تعالى (له المثل الأعلى) لذلك كان الذى يوجه ضميره لغير الله تعالى ولجهة أخرى غير هذه لاى سبب كان واقعا فى الشرك الذى يتبرأ منه ابراهيم فى قوله : (وما أنا من المشركين) أى لا يوجه ضميره لغير الله تعالى ولا لجهة أخرى غير جهة الله العليا الوحيدة فالقلب فى ذاته واحد فى الانسان لا يتعدد وهو نفسه لا يمكنه أن يتجه الى أمرين فى آن واحد أو الى جهتين . ووجهة الله تعالى وواحدة لا ثانى لها فهى أكمل جهة فى العالم وأسمى الجهات ولا أكمل من جهة العلو جهة السماء فهى واحدة أيضا والله تعالى فى ذاته واحد كامل مطلق ليس كمثله شىء . لذلك كان اسلام النفس لله على هذا الشكل هو لغرض أن توضع نفسها فى الوضع الطبيعى لغرض العبودية لله تعالى وهو الغرض الذى لم تخلق إلا لأجله . والغرض الذى به تؤول الى سعادتها فى الحياتين إذ بهذا الوضع كأنها تطرق باب الايمان العظيم الذى هو حياة القلب وغذاؤه الوحيد (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) بل بهذا

الوضع يتم معنى التوحيد لله عملا ومعنى . تدين النفس بالاسلام على هذه الصورة هو الذى أمر الله رسوله باتباعه كما أمر ابراهيم أيضا فى قوله : (فأقم وجهك للدين القيم) فدين الله تعالى هو الاسلام لله . والاسلام لله هو توجه الوجه «الذي هو أحسن مافى الانسان وخلاصة أحسن مافيه اذ يرتبط معه القلب والعقل فى آن واحد او الضمير » الى أكمل وأحسن جهة تليق لكمال الله تعالى « وما أحسن جهة السمو والعلو جهة السماء » . الى أحسن معبود فى العالم سبحانه . فكان اسلام النفس على هذه الكيفية لله تعالى هو أفضل ما يتدين به الانسان وأحسن دين تطلبه الفطرة والضمائر السليمة : (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله) . فهذا هو الاسلام للنفس والتدين المطلوب . وما يتبع ذلك فى القرآن الحكيم فهو شريعة الاسلام لاطاعة ما أمر الله تعالى فبأدائها يتم معنى الاسلام الكامل . ولكن التحفظ على اسلام النفس لله هو أساس الكل وفى مقدمة الجميع فان ذلك هو الاخلاص

٣١٣

﴿ الايمان من الاسلام ﴾

ان توجه الانسان نفسه لله تعالى بهذا الشكل هو أول واسطة لنبت الايمان العظيم بالله ودخوله من السماء فى قلب المسلم . فان لم يفعله الانسان بحريته فكيف ينبت الايمان من غير اسلام .

ان الانسان على الارض كشجرة جذورها الاصلية فى السماء لتنبت فى الأرض عملا صالحا كعمل الله . ولكن كيف تعمل عمل الله تعالى وهى مقطوعة الاتصال بالسماء عن الله ؟ إن أرض الروح التى تتغذى منها جذورها الروحية هى فى السماء عند الله فان تغذت من هذا الاصل الثابت فى السماء أنبتت الطيب فى الارض .. فاغرس ضميرك إذاً فى السماء بالاسلام لله وحده تجد الروح تنبت الطيب والهداية بالايمان وتجد العقل ينبت لك النور من الله بالالهام ... إن وضع النفس بالاسلام لله تعالى كما مر كأنها وضعت العقل فى مركز التوازن الطبيعى والنفس فى حالة الاعتدال المطلوب . وبهذا الوضع لايمل العقل من كل تأمل ولا تمل النفس من كل عمل وان تقلبت بها الأحوال .. بل بوضع النفس بالاسلام لله تعالى على الشكل السالف كأنها تطرق بحريتها باب الايمان بالله الذى هو أس سعادتها فى الحياة وبعد الممات. فان لم تبادر النفس

بالاسلام لله (وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون) فلا هداية من الله تعالى لها ولا ايمان (يمنون عليك أن أسلموا قل لاتمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان) فمن هنا يعلم أن لاهدايه من غير ايمان ولا ايمان بلاسلام لله إذ بالاسلام السالف تطرق النفس بحريتها وارادتها المالكة لها باب الايمان ومنه يتسرب فى القلوب فيتفرع منه كل الفضائل الانسانية

٣١٤

﴿ الاتصال بالله ﴾

ان الانسان فى الارض هو « كلمة الله » التى منحت منه الحرية للايمان به غيباً فالانسان الذى يعلق روحه أو ضميره فى السماء لله فهو يفعل معنى الاسلام . فانه إذ ذاك يكون كلمة الله الطيبة التى رجعت بحريتها الى أصلها الطبيعى فتنبت طيب الاعمال بالايمان على الأرض وتتغذى كل وقت كالشجرة من الله بالالهام قال تعالى (ومثل كلمة طيبة) أى انسان طيب (كشجرة طيبة أصلها ثابت) أى فى الارض التى هى طبيعية لنموها (وفرعها فى السماء) أى فى العلو لتخرج منه الثمر (تؤتى أكلها) أى من السماء (كل حين باذن ربها) أي بالالهام (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون). فنعلم من مثل الشجرة الطيبة التى ضربها الله تعالى لنا مثلا: أن الانسان الطيب الذى يرغب لذاته السعادة الحقة هو الذى يسلم وجهه لله تعالى ليضع ضميره فى سماء العلو لله كطبيعته فينبت عندها قلبه الطيب من الأعمال على الارض بما يمده الله تعالى به من ايمان حق وإلهام صحيح من السماء التى هى أصل روحه الثابت فيكون كالشجرة الطيبة التى تتغذى من الارض من أصلها الثابت أيضاً كل حين باذن ربها كما قال تعالى: «وهدوا الى الطيب من القول» أى بالالهام وبالعكس يقول تعالى: (ومثل كلمة خبيثة) أى انسان خبيث أعرض عن اسلام نفسه لله جهة السماء (كشجرة خبيثة اجتثت) قطعت من الارض وقلعت من جذورها (من فوق الارض مالها من قرار) أى مالها من قرار ترجع اليه لتنمو فيه بالحياة كما كانت قبل قلعها» ..

فمنه أيضاً نعلم أن أخبث الناس من أعرض عن اسلام نفسه لله تعالى جهة السماء .. فان

اعراضه هذا يجعله كانه قطع بحريته كل اتصال بالله تعالى فمن أين يصل الى قلبه الايمان اذا لم يحوله الي السماء جهة الخالق - ومن أين يصل اليه إلهام الله تعالى الذى يواصل به المؤمن دائما - مادام قلبه مغروساً عند الله بالاسلام ؟ ... لاشك أن من قطع علاقة قلبه أو ضميره بعدم توجهه الى الله تعالى المنزه جهة السماء يصير كتلك الشجرة التى قلعت من جذورها من الارض فلا هى تخرج ثمراً - ولا هى تنفع لشىء إلا أن تيبس نضارتها الأولى فلا تصلح إلا للحرق بالنار كقوله تعالى (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) فالانسان الذى يقطع الاتصال بالسماء كالشجرة التى تحرق أو كالمعدوم الحياة قال تعالى : (فانذرتكم ناراً تلظى . لا يصلاها إلا الاشقى . الذى كذب وتولى) ومحال أن يفتح له بعد الموت أبواب السماء لأنه مقطوع منها كالشجرة المقلوعة من جذورها من أصل هو أساس حياتها : (ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء) ولعله هذا الاتصال الروحانى بالخالق سبحانه جهة السماء يقول تعالى تتميما لما سبق وتأييداً لما توضح: (يثبت الله الذين آمنوا) بسبب اسلام أنفسهم لله (بالقول الثابت) بالالهام والشعور الروحانى من الله للضمير (فى الحياة الدنيا) ومنه الوحى للرسل أيضاً (ويضل الله الظالمين) الذين يقطعون صلتهم بالله تعالى فلا يجدون أحداً يهدي ضمائرهم للحق إلا اذ رجعوا بحريتهم باسلام نفوسهم لله كامر (ويفعل الله مايشاء) أى بحق وعدل للجميع طبقا للارادة الحرة فى كل انسان إن أراد أن يسلم نفسه أو يترك الاسلام

٣١٥

﴿ وضعنا الطبيعى ﴾

إن اسلام النفس لله مما يجعل الانسان فى وضعه الطبيعى الذى يتمنى أن يكون فيه دائما فكثير من الناس يتلبسون بالغضب السريع لاقل شىء ... ثم هم يذمون أنفسهم لتهيج نفوسهم العصبي وخروجهم عن حد الاعتدال الذى يضرهم أحيانا .. فان لم يعرفوا دواء لنفوسهم فاسلام النفس لله بالارادة والتثبت عليه بالكيفية السالفة مما يجعل حركة الاعصاب فى موازنتها الطبيعية فيؤدى العقل مهمته باعتدال وحكمة .. حتى يكسر شكيمة القلب التى تغلي أحيانا وتثور فتتغلب على العقل وهو يتبرأ من سوء النتيجة مما يعمله بتعجل .. فتذكر النفس من الله بالهامه

الحسن وبتثبتها على اسلامها اليه هو الحل الوحيد الذى به يمكنها اتقاء شر الاندفاع فى الاسراف أو التسرع فى عمل ما بلا تعقل ربما كان فيه الخطر على المستقبل والحياة مع ضرر الآخرين بلا حق مقبول أيضا — إن إسلام النفس لله تعالى فى الحقيقة هو وضعها فى موازنتها الطبيعية الحقة — وكما يقال عن حالة النفس عند الغضب يقال عن كل أحوال النفس المختلفة .. فالنشاط فى العمل واكتساب كل فضيلة لا يكون إلا بعد أن تكون النفس في حالة الاعتدال الحسنة — وهى لا تكون كذلك مطلقاً إلا باسلامها لله تعالى بتوجه الضمير اليه جهة السماء فتنال به السعادة فى كل أدوار وجودها سواء فى عملها وأكلها وشرابها وتعبها وراحتها واحسانها وأقدامها ونشاطها وصلاتها وسواء فى علاقاتها — ومرضها وشفائها وضعفها وقوتها وغنائها وفقرها وسرائها وضرائها وسواء فى أمانتها وشرفها . وثباتها وعلى كل حال فى كل ما يتعلق بها فى الحياة — فلا ظلم عندها ولا اعتساف وبعكس ذلك تخرج النفس عن حد الاعتدال الطبيعى اللازم لسعادتها إذا توجه الضمير أو النفس لجهة أخرى غير الله تعالى جهة السماء إذ هو الشرك الذى تبرأ من نتائجه ابراهيم عليه السلام فى قوله : (وما أنا من المشركين) .. وبتغير هذه الوجهة عن الله تعالى يتولى الشيطان «سنوضحه فى باب آخر» على النفس فكل ما يعمل الانسان يتعرض للضلال بالوساوس والتغرير الخارج عن حد العقل والحقيقة فترتبك النفس وتضطرب فى أدوار حياتها ولا يعرف الانسان لنفسه مبدأ حقاً يرتاح له الضمير فيؤوب بالخسران والندم العظيم (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) فهذا هو الاسلام الذى قال الله تعالى لرسوله عنه عند أدائه الصلاة (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) فبه يتوصل الانسان لربه وبه يمكنه نوال الهداية منه والايمان

٣١٦

﴿ الحياة والممات ﴾

ان لم يقصد الانسان فى صلاته وجه الله — فلا صلاة ولا اسلام ... وان لم يقصد فى أدائه الزكاة وجه الله باخلاص فلا زكاة ولا اسلام ... وان لم يقصد المتزوج فى زواجه وجه الله فلا زواج ولا اعتصام — وان لم يقصد القاضى الشرعى فى حكمه وجه الله فلا قضاء ولا اسلام — وان لم يقصد المطلق فى طلاقه وجه الله فلا طلاق ولا احسان وان لم يقصد

الانسان فى حجه وجه الله تعالى فلا حج ولا احرام – وان لم يقصد فى كل أعماله النفسانية والعالمية وغيرها وجه الله تعالى فكيف يمنح التاج المرصع بالفضيلة وهو : (الاسلام) – اسلام النفس الذاتى له تعالى يجب أن يكون فى كل أحوالها المتنوعة فى الحياة حتى فى الممات توجها اليه تعالى (قل إنّ صلاتى ونسكى ومحيايَ ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أُمِرت وأنا أول المسلمين) فان لم يكن للنفس اسلام للخالق فالادعاء بالانتساب للشريعة أو عمل جزء منها ليس هو الاسلام – من أراد أن يتبع الشريعة ليكون مسلما حقاً فليبدأ باخلاص نفسه أولا للخالق – فيكون بهذا الاسلام قد طرق باب الايمان الذي يؤدى بالانسان الى كل فضيلة ... ويكون عندها كامام المسلمين القائل لمعنى التدين النفسانى : (إنى وجهتُ وجهىَ للذى فطرَ السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين) وعلى ذلك كان اخلاص النفس بتوجهها اليه تعالى جهة السماء بلاشراك هو التدين الحق بالاسلام ؟

فصل ٢٠

فوقية الخالق أس الاسلام

٣١٧

من الغريب انك تجد فى تاريخ الانسان ان الله تعالى لا يذل الأمم ويزيلها ولا يسلط عليها الظالمين ليهلكها إلا بعد أن تتخذ دين الله لعباً ولهواً وتبدل الحق فيه ظلاما وتحشوه بأباطيل تهدم معنى التدين الخالص ... ويكون عادة من رؤساء الأديان الذين يضلون .. أما بقصد التحسين الموهوم .. واما بقصد التمويه والتضليل ... واما أن يكون مضل ساحراً دخيلا فى الدين عدو الله تعالى فيتظاهر بالتدين ثم يبث من نفثات الضلال ما تتشتت معه أصول التنزيه فيتمسك بها البسطاء ويكبرها قليل الادراك فتنبت الخبث والضلال وتتفرع ويكون بها زيغان القلوب عن كل حقيقة .. فيقال هذا الدين .. وهم به الأذلون ... وماهو إلا الباطل .

لو كانوا يعقلون ... اذ اغلب المسلمين الآن وغيرهم فى كثير من ذلك وهو السبب الوحيد فى اضمحلالهم

ثم لنتأمل لمسئلة « فوقية الخالق » سبحانه وهى التى تعدّ أول نقطة مهمة فى الدين للتدين الحق به تعالى .. اذ بها وبدونها تقوى الايمان والتدين أو يضعف ويتلاشى ... فهى أساس التقوى بل هى أساس اليقين (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم) فقد اختلف فيها علماء الاسلام أيضاً اختلافا يكاد يحزن قلوب المؤمنين الذين هداهم الله اليه بالايمان ... ونحن ان مكثنا نعدد أهم أصول الدين الاسلامى التى يدور عليها مركز التدين الحق ... لا نبالغ اذا قلنا أن علماء الاسلام قلما اتفقوا على شىء واحد فيه — بل الفخر عندهم من قال برأى يخالف أخاه ولو خلافا بسيطاً فكل شىء له فروع وذيول تجر وراءه للتحسين والجمال كجمال ريش الطاووس المتزايد — تجد قائلا عن فوقيـة الخالق سبحانه يقول كما قال القرآن ان الله : « استوى على العرش فوق عباده استواء يليق لـكماله » ... وهذا حق ولـكن آخر ينفى ذلك بقوله : « لا يجب أن يقال ذلك قطعاً فانه تعالى ليس فوق العرش » لأن ذلك يحصره تعالى فى دائرة معلومة للعقل فيكون عند ذلك جسما وهو يتعالى عن ذلك « للتنزيه » الخ فهو ينفى ما قرره تعالى فى القرآن للايمان الذى هو خلاصة الدين بحجة « التنزيه » لذر الرماد والتضليل عن الحق الفطرى الذي يؤيده الله والقرآن فى كل آياته .. وتؤيده كل نفس علمت كيف هو الايمان الحق بالخالق ومن مثل هذه الأباطيل زالت حقيقة التدين ... اذ ماهو الداعى لأن يتمسك هذا المضل بالتحكير والاختصـاص بتصوير التجسد والحصر عند القول باستواء الخالق فوق مخلوقاته ؟... ان ذلك أشبه بالقائل عن الله تعالى : له أن يعذب بلا سبب لأنه لا يسئل عما يفعل ... فالناظر لذلك يجد نوعا ظاهراً من التناسب فى تلمس الحجة للقول الأول بما يقفل به فاه كل معترض لذكر آية جميلة من القرآن بجوارها فلا تردد ولا اعتراض فيكون أشبه بالتضليل منه الى تأييد حقيقة وان هذا أشدّ التضليل طبعا .. ولـكنا نقول ان كلام القرآن الحكيم كلام الله كله متفق مع النظام الطبيعى للعالم بما فيه من أرواح ومادة بمعنى ان قلنا أن الصلاة أو الصيام أو الزكاة حسن للانسان .. فان الانسان لو اكتشفت له العلوم الطبيعة والنظامية كلها بحق

لعلم أن ذلك من أولّ مقومات السعادة النفسية لذاته الشخصية. والذي كان يجب أن يتسابق لنوالها — وهذه هي حكمة الدين واعجاز القرآن — فهناك يعلم أن ماقيل فى القرآن بالحرف هو كل العلم الصحيح بلا تأويل مضل مخجل — وهذا مازيد أن يكون عن فوقية الخالق أيضا

٣١٨

﴿ المضلون ﴾

ان الله تعالى أوضح تنزيه ذاته الكريمة بجملة واحدة فى القرآن لاثانى لها (ليس كمثله شئ) وهى كما لايخفى ان لم يعمل بها السامع فكأنه ماسمع فهو فيما يدعيه لنفسه عن الله مسئول ... وان لم يتخذها القارئ باخلاص لحسابه عند ربه فكثرة الكلام اذا بعدها فى التحرس مع من يقول بالتجسد أو الحصر عند الدلالة على سمو الخالق هو مما لايفيد شيئا

قال تعالى : (ليس كمثله شىء) فهذا أمر واضح جداً لتنزيه الخالق عن كل أمر وعند كل قول وأشاره ... فما هو الداعى بعد ذلك للتفقة فى الوهم بأن يقال من بعض العلماء بنفى آية بل آيات من القرآن الحكيم هى أس التدين بالله تعالى ولا يعرفون مقصدها العالى ثم يؤيدون هذا التضليل بالقول : ان ذلك للتنزيه .. فهل بعد ذلك تغرير ... اذا قال انسان ان الله تعالى مستو فوق عباده ... قال له البعض من فقهاء الضلال ... لا تقل فوق ... لان ذلك يفيد الحصر لله والمعنى بالتجسد ولان لفظة فوق جعلت للظرف والمكان ؟.. فهل لم يكن فهم المعقول لقول الله تعالى (ليس كمثله شىء) كاف للمؤمن أن يعرف أن كلمة فوق ليس لغرض حصر الله تعالى فى جهة محصورة محدودة وهل نفى الحصر والتحديد لله تعالى ينفى الدلالة عن أكمل جهة يتوجه بها لله كالقول بفوقية الله تعالى على الكل واستوائه فى السمو والعلو على الجميع ؟ ... فمن قال لمثل أولئك المدعين بنفى كلام لا يدل الا على سمو الخالق وجلاله فى وجوده الذاتى فوق عباده مع التنزيه ؟.. بل ما هو العلم القاضى بنفى كلام لله تعالى لعلة وهمية لا أصل لذكرها والتنويه بالتلفظ بها الا زيغان القلب عن وجهة هى وجهة الايمان ثم المغالطة فى أصل هو كل التدين

***

٣١٩

﴿ أصل التنزيه ﴾

ان الله تعالى يتنزه بهذه الكلمة الصغيرة التي قالها (ليس كمثله شيء)... فمن أراد أن يتصور انه تعالى محصور في أفق أو محل أو مرتكز على العرش فذلك ضلال على نفسه فليقل ما شاء فلنفسه وعلى نفسه يقول — فكل انسان حر فيما يتوهم ويقول — وهل من داع بعدها للتحكير على مؤمن آمن أن الله تعالى: (ليس كمثله شيء) ليقال له بعدم التصريح بلفظ دليل جلاله في النفس من أول أساسات الايمان ؟... اذا كان تعالى (ليس كمثله شيء) في الظاهر ولا في العقل ولا في الوهم .. وهو قول مقطوع به... فما الداعي للتحكك والتلمس بأقوال أخرى زائدة للتشويش على الايمان وضعف التقوى لله وموت الضمير لنستخرج بها مبدأ جديداً وهميا ندعي به نفي قول كرره الله تعالى في القرآن وانه في الحقيقة كل الحكمة في حسن الايمان بما لا يعلم المدعي أهمية خطأ التأويل والتحوير فيه ليتخذه حجة وهمية بلا علم ولا سلطان من الله بها يعمي الابصار الضعيفة وليقول لذر الرماد هذا لغرض التنزيه !... ألم يك ذلك أمر عجاب ؟... نزه الله تعالى ذاته بما أشار الينا بهذه الآية وقال لنا: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) حتى في التكلم عن ذاته الكمالية المحبوبة للقلوب المؤمنة بالغيب — وأظهر لنا أن نقول عن ذاته بكل ما يليق لكماله المطلق مع التنزيه وحذرنا الا بتخصيص كل كمال لذاته العلية — لاننا نعجز في آن واحد أن نقول شيئاً عن حقيقة ذاته وجلاله فاكبارا جلاله بقدر المستطاع مع الاخلاص ونسبة أحسن ما نقول من الامثال عن ذاته المحتجبة عن العقول هو ما أمرنا به عز وجل لانه الحقيقة الواقعة ولنتخذه مبدأ في كل ما نريد أن نقول شيئاً عن ذاته الكمالية فقال عز وجل: (له المثل الأعلى) فان قلنا فلان رحيم لأنه أطعم الجائعين وأحسن الى البؤساء والمساكين فانا اذا تكلمنا بهذا المثل عن الله تعالى يجب أن ننسب له أحسن الامثال في هذا الموضوع لنتبع الحق الواقع ولما قال وعلمنا به من الحق في الكتاب في قوله: (له المثل الاعلى) ... فلا حرج على أحد أن يقول: ان الله تعالى أرحم المحسنين وأرأف على كل البؤساء من كل محسن بلا استثناء وانه يطعم كل الفقراء والمساكين — فهل بعد ذلك نخرص لسان من ينسب ذلك لله بحجة أن اطعام الفقراء من الله يوجب

أن يتجسد لهم ليعطيهم من الطعام — أم هذا تشويش للضمائر وتضليل — وهل حقا يطعم الله الفقراء والمساكين بالفعل والذات ... ويرحم البؤساء بالفعل والذات .. أم هي أقوال كالأوهام والاحلام ؟.... عند ماقال ابراهيم عليه السلام : (الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لى خطيئتي يوم الدين) ... هل كان يقول ذلك حقاً ؟... أم هو كلام فى كلام ؟... هل يقال له لا تقل ان الله يسقيك لاننا لانرى يده التي يسقيك بها .. أو نقول له لا تقل انه يشفيك لاننا لا نرى الدواء الذي يناولك له — أو ... أو ... كلا فلماذا إذا قلنا ان الله تعالى فوق عباده — أو فوق العرش ... أو استوى على العرش يحكر علماء الضلال على الانفس بعدم قول هذا بما لا يعلمون سوء نتائجة لعلة ان كلمة فوق تفيد الحصر والتحديد — ألم يك ذلك هو مرض التضليل ؟. ومن قال لهم أن فوقية الخالق فوق عباده ... أو استوائه على العرش يفيد الحصر أو التجسد أو التحديد بعد سماعهم قول الله (ليس كمثله شيء) ؟... ألم يك ذلك من مرض القلوب لا من طلب التوسع فى العلم !... اه

٣٢٠

﴿ لا حرج فى الدين مع الاخلاص ﴾

ان الانسان لا حرج عليه مطلقاً أن يقول عن الله تعالى بما يليق له من الكمال مادام مؤمنا بضميره بمبدأ التنزيه الحق — فان لم يؤمن بتمام حريته بتنزيه الخالق فليفرض ما شاء وليقل ماشاء فكل عن نفسه مسئول . ان تنزيه الله تعالى عن كل شيء ونسبة أعلا مثل لذاته عند مباحثنا فى كل الأمثال والأقوال هو التعبد المطلوب ومعنى التنزيه . لان ذلك ليس مطلق التلفظ لغرض العبادة بالالفاظ بل هى الحقيقة الواقعة بالذات والفعل أيضاً . فالقاعدة المطردة التى يتبعها الانسان فى التكلم عنه تعالى وعن ذاته العلية تنحصر فى أمرين : الأول تمام تنزيه الخالق بتقرير العجز التام عن ادراك ذاته العلية لانها فوق العقول . والثانى نسبة أحسن الأمثال لله تعالى . وذلك ان يكون ماينسب اليه تعالى تعجز المخلوقات عامة ان تأتى بمثله أو يكون لها مثله — إذ أن هاتين النقطتين أيدهما تعالى أيضا فى القرآن فى قوله : (ليس كمثله

شيء) وفى قوله (له المثل الأعلى) ... وما دام الانسان متحفظا على هذين الأساسين فليقل عنه تعالى وعن ذاته الكمالية ماشاء من الأمثال الحكيمة الكمالية أيضا . مثل . قول ابراهيم عليه السلام لنمروذ ان الله يحيي ويميت — فابراهيم فى هذا المثل يقصد ايجاد الروح بقوته تعالى ثم أخذها عند الموت أو ردها بالثانى بعد الوفاة فتحيي لان ذلك أحسن مثل يضرب للحياة والممات بسبب عجز المخلوقات كافة أن تأتى بمثله — وليس يقصد المثل الضئيل الذى فعله نمروذ بأن عفى عن بعض المسجونين المحكوم عليهم بالشنق — ثم شنق بعض الابرياء ظلما — فمثل هذا الموت والحياة مما نقدر على عمله كل ظالم — ولكن لم يقصد هذا ابراهيم ... وان كان فيه حقا موت وحياة ... بل يقصد أحسن الأمثال وأشرفها ... ولذلك انتقل له ابراهيم الى مثل أعلى يعجز أن يكون لنمروذ علاقة به فقال له . (ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) ... فهنا يقال عن المثال السابق ان الله تعالى يحيي ويميت بالفعل والذات ولكن بما نعجز عن ادراك ذاته أو تكيفها عند الحياة أو الموت وان هذا المثل من أحسن الأمثال لان المخلوقات بلا استثناء تعجز عن أن تحيي أو تميت بالشكل الذى قصده ابراهيم لا بالمثل السيء الذى فعله نمروذ وكذلك يقال عن مثل الشمس ... بل بمثل ذلك يمكن للانسان أن يقول عن الله تعالى وذاته كما قال ابراهيم عليه السلام مع التحفظ على النقطتين السالفتين ... مثلا يقال .. ضرب الله الأمم الظالمة بيده القوية فأبادها ... فهنا يد الله تعالي موجودة بالفعل والذات لا فرضا ولا توهما .. ولكن نعجز عن التكييف والتمثيل والضرب نفسه وقع على الأمم الظالمة مع الهلاك بالفعل والذات لا وهما ولا فرضا .. ولكن بما يعجز غيره عز وجل أن يفعله أيضا فكان هذا المثل حقا عن الله تعالى .. مثل آخر .. رجل كان متزوجا بامرأة عاقر حاولت كثيرا تعاطى الادواء من الاطباء علها ترزق بمولود فلم تنفع لها الادواء وكادت تيأس إلا من رحمة الله فقامت فى فجر يوم صبوح وقابلت ربها بالدعاء وجها لوجه وطلبت منه الشفاء ... فعافاها ومنحها مولودا كان قرة عين لها .. فشكرت ربها لعطائه وزادها بعد الشكر احسان — فهذا المثل يليق أن يقال عنه عز وجل لأن ما ذكر فيه عما يختص بذاته عز وجل وأفعاله موجود وواقع بالفعل والذات لا وهما ولا فرضا . ولكن نعجز التكييف . ثم سماعه تعالى لها وشفائها ومنحها المولود وكونه قرّة عين لها وسماعه عز وجل شكرها .. ثم زيادتها الاحسان بعد الشكر .. كل

ذلك واقع ويقع بالفعل والذات لا وهما ولا فرضا غير أن المخلوقات تعجز عن أن تأتي بمثله. خصوصا سماع الدعاء ومنح المولود الخ

٣٢١

﴿ عهد الله ورميه وفوقيته ﴾

من أحسن الأمثال أيضا معاهدة الله تعالى مع من عاهده على الاخلاص فى قوله (يد الله فوق أيديهم) فيد الله تعالي عند المعاهدة موجودة فوق أيديهم بالفعل والذات. لا وهما ولا فرضا ولا خيالا ولكن بما تعجز عقولنا عن تكيفه — وان تنفيذ عهده عز وجل لمن يعاهده على شىء يقع بالفعل والذات. لا وهما ولا فرضا ولا خيالا — ولكن بما يعجز غير الله تعالى أن يقوم به عند التعهد — فكان المثل لائقا لأن يقال عن الله سبحانه — وغير ذلك فى قوله (وما رَميتَ إِذ رَميتَ ولكنَّ الله رمى) أى وما رميت رمية قاتلة اذ رميت ولكن الله رماها رمية قاتلة مصيبة لاستحقاق المحاربين ذلك بحق وعدل — فالرمى وقع من الله تعالى بالفعل والذات ولكن بما لا نقدر أن نكيفه أو نجعل له فرضا — ونتيجة الرمى وقعت بالفعل والذات وأصابت المحاربين بحق وعدل بما تعجز المخلوقات عن مثل هذا الرمى المستوفى العدالة من كل وجه — فكان مثلا لائقا لله تعالى — وبمثل ذلك نقول عن فوقية الله على عباده واستوائه على عرش العالم فالله فوق عباده بالفعل والذات — لا وهما ولا خيالا ولا فرضا — ولكن بما تعجز المخلوقات عن ادراكه وتكيفه... وفى آن واحد لأن ذلك أحسن مثل وأعلى مثل يقال به عن وجوده عز وجل بما يعجز كل مخلوق أن يكون فيه ... فكان قولا حقا لا شبهة فيه .. اذ لو انتقلنا من ذلك الى معنى وجود الخالق سبحانه .. لوجدنا أن الوجود هو ضد العدم .. فان قلنا أنه عز وجل موجود فالمعنى أنه بالفعل والذات موجود حقيقة لا ريب فيها وان احتجابه المطلق عن عقولنا لا يؤول بنا أن نجعل هذا الوجود كالعدم لنقول أنه موجود فى أحرف الوجود فقط بل وجوده تعالى حقا بالفعل والذات اذ هو الامر الفطرى الاول المسيطر على القلوب لا ينكره الا الجاحدون

*
* *

٣٢٢

﴿ جهة وجود الخالق ﴾

ان كنا نعلم بالمحسوس المشاهد انه تعالى أرحم على البؤساء والمساكين من كل محسن في العالم بما يعجز أعظم محسن أن يفعله .. وهذه الرحمة واقعة لاريب فيها بما لاندرك كيفية حدوثها من ذات الخالق سبحانه الا بما نرى أثره في الخلائق .. فانه تعالى يعلمنا في كتابه العزيز أيضا نفس هذه النسبة الكمالية بالنسبة لوجوده الذاتي البعيد عن عقولنا أيضا بأزاء وجودنا المشاهد للعيان -- فلا يجوز أن يقال أن وجود الله الذاتي هو عن يميننا أو عن شمالنا أو أمامنا أو خلفنا ليكون محازيا لوجودنا ليتساوى معنا سبحانه في مركز الوجود أو تقول انه تعالى أسفلنا ليحملنا .. كلا فان كان الله معنا حيثما كنا (وهو معكم أينما كنتم) فهو فوقنا فقط .. وان كان يحملنا ويحيط بنا من الامام والخلف واليمين والشمال فبقدرته التي نعجز عن ادراكها — لابذاته . فكل جهة مما تقدم إلا جهة العلو لايليق أن يكون وجوده تعالى الذاتي فيها بلا حصر بل الحق الواقع ان وجوده الذاتي أعلى من كل المخلوقات في وجودها الذاتي أيضا بلا استثناء ولا حصر (وما منا إلا له مقام معلوم) ويمكننا أن نقول ان قدرة الله الرحيمة تحيط بنا من اليمين والشمال والامام والخلف والأسفل والباطن والظاهر في أرواحنا وأعمالنا وكلامنا وشرابنا وأكلنا وشفائنا ومرضنا الخ — كما قال أبراهيم عليه السلام (والذى هو يطعمني ويسقين) ولكن عن وجوده الذاتي لا يمكننا أن نقول إلا أنه تعالى أرفع من كل موجود في العالم بلا استثناء لأن جهة العلو أحسن وأكمل جهة تليق لوجوده وألوهيته العالية بكل معنى كامل — وفي آن واحد نعجز عن تكييف هذا الوجود بعقولنا ككل شيء نسبه لذات الله كما مر — فان ذلك هو الحقيقة الواقعة بالفعل والذات لا فرضا ولا وهما ولا خيالا — فالتفرد في العلو هو لله وحده . كما هو متفرد في كل معنى كامل وكما هو شرط الألوهية المطلقة وان المخلوقات في وجودها الذاتي العام أسفل ووجود الله عزوجل لتمام معنى العبودية في الوجود بما نعجز عن تكييفه أوحصره وتنوعه في عقولنا كما نحصر علو أي شيء محسوس — بل هو واقع بالتأكيد لأن العالم نفسه الذي هو كل المخلوقات مازالت العقول عاجزة عن تحديده فقط فكيف نفرض حدا للخالق الغير مدرك بالعقول (لاتدركه الابصار) . ولأن

ذلك ليس بالأمر الذى يمكننا رؤية أثره فى المخلوقات كالأحسان والرحمة عندما نضرب عنه تعالى مثلا • بل هى ذات الله العلية الدال على وجودها نفس وجود العالم الظاهر والتى أساس وجودنا بازائها مبنى على احتجاب عقولنا عن تكيفها على أى صورة .. فان كنا نعجز عن تكييفها فمعنى عبوديتنا لله تعالى وكماله الذاتى المطلق فى وجوده بالنسبة لوجودنا أمر بديهى يظهره شعورنا ونتائج التأمل الحق من عقولنا ويؤيده الله تعالى فى كتابه الحق وهو ان اللائق لكماله عز وجل فى وجوده الذاتى أن يكون أرفع المخلوقات عموما بما نعجز عن تكييفه فهو فوق العالمين بالفعل والذات وتحيط قدرته بالكل أيضا لا فرضاً ولا وهما ولا خيالا . اه

٣٢٣

﴿ الايمان بالله وجهته ﴾

ان الله عز وجل تعالى عن أفكارنا وأحساساتنا لا ليجعلنا عرضة لان نخدع أنفسنا بالاعتراف بعدم وجوده الذاتى الذى يؤيده شعورنا .. كلا .. فان هذا الشعور يزداد حتى يصير كأمر طبيعى فى النفس كلما اتجهنا لوجهة الله العليا بقلوبنا والتى هى معنى اسلام النفس لله ثم باب الايمان العظيم وأن الماديين والطبيعيين الملحدين لم يكفروا بالله تعالى إلا لعدم امكان تصورهم ذات الخالق سبحانه بحسهم وعقولهم فبعضهم أنكره تعالى مطلقاً جحوداً من أنفسهم والبعض اعترفوا بوجوده تعالى بالنسبة لشعورهم بوجوده البديهى فى كل القلوب الانسانية ولكنهم فرضوه بما لا يليق لكماله فروضاً يدركها الحس والعقل فكانت هذه النقطة التى أسقطت الجميع وفصلتهم عن المهتدين بالايمان العظيم — اذ الايمان بالله تعالى ما سمى ايماناً إلا لكونه اعتراف حق غيبي بالشعور يذبته حكم العقل .. اذا وجد الاخلاص ... وان ذلك فطرى فى كل الخلائق . لان وجوده عز وجل أمر طبيعى تشعر به كل نفس وهذا الوجود حقاً لا عدما لعلة غيابه عن العقول ... ثم وجوده حقا لا ينافى اعتقادنا بوجوده معنى بالنسبة لذاته الكمالية . وان هذا الوجود بالطبع يجب أن يكون بالنسبة لوجودنا فى أكمل جهة بالنسبة لكل موجود فى العالم .. ولا أكمل من جهة العلو والسمو جهة العزة والسيطرة والكمال — فاذا قلنا ان الله تعالى فوقنا فلا يجوز أن نقول وهو تحتنا أيضا بالمعنى الحقيقى اللائق لكماله فى وجوده الذتى .. لأن وجوده تعالى أعلى الاعلين لا ينافى اقترابه فى كل مكان ومن كل مخلوق كما هو شأن الكامل المطلق فى كل

شيء .. إذهو تعالى فى نفس وجوده الاعلا كأنه أقرب لكل مخلوق من ذاته (ونحن أقرب اليه منكم ولكن لاتبصرون) وذلك بالنسبة لكمال قدرته وعلمه فى الاحاطة علما وقدرة لكل مخلوق مهما كان وجوده (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) فأعلا نقطة فى المخلوقات وأسفل نقطة فيهم بالنسبة لوجودهم الذاتى سواء أمام قدرته العلية ووجوده الأسمى الأكمل ... ان وجوده الاكمل وان كان فوق الكل غير أن ذلك لايعد اقترابا وبعدا فى أى محل فى العالم أو مايحيط بالمخلوق من الجهات الزمنية (وهو معكم أينما كنتم) .. ولذا قال تعالى عند ما يدعو الله انسان فى أى جهة سواء كان للشرق أو الغرب أو غيرهما فى أى مركز فى الارض (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) فمن ولى وجهه لله فى مصر كالذى يولى وجهه له تعالى فى أوروبا أو أمريكا أو فى القطب أو فى خط الاستواء (ان ربى قريب مجيب)

٣٢٤

﴿لا تأويل فى القرآن﴾

ان الله تعالى جعل لنا هذا العقل الجوال ليرشدنا الى ذاته العلية بنتائجه الحقة الأكيدة ولنسير خلف حقائقه المنيرة إذ هو أمانة الله الحقة للنفس ونورها الوضاح (فانها لاتعمى الابصار) وان الله تعالى أنزل لنا الكتاب نوراً أيضاً لنأخذ منه بالمبادىء الحقة الدالة على كل حقيقة بما يوافق طبيعة هذا العقل الفطرية — وانه تعالى لم يجعل لنا حرجاً من قول وفعل حسن مادام رائدنا العبودية لذاته الكمالية متخذين مبدأى (ليس كمثله شيء «و» (له المثل الاعلى) أساسا فى كل مبحث فهناك لا ضلال ولا تضليل ولا زيغان ولا أعوجاج

وهنالك الحقيقة الكلية الواقعة ... نحن نشعر بوجوده تعالى شعوراً واضحا وتترجم أعصابنا الجامدة بوجوده آلها واحداً مسيطراً .. فهو فى وجوده الذاتى أيضا اسمى وفوق الجميع ....

نحن لا نقصد حصر وجوده الأكمل فى مسافة معلومة من الدائرة الكونية .. بل جهة العلو العامة حيثما كان المخلوق هى الجهة الحقيقية التى فطر وجودنا بازاء وجوده الاسمى للاتجاه فيها اليه تعالى فهى الوجهة الوحيدة التى ان قصدنا عبادته فى أى جهة حيثما كنا أيضا ان نوجه قلوبنا وكل شعورنا الكامل اليها .. قال تعالى : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء)

فالنبى عليه الصلاة والسلام عند ما كان يقلب وجهه فى كل جهة عليا فى السماء قبل تعيين الله تعالى الكعبة قبلة ما كان خاطئا ولم يخطئه عز وجل فى توجه ضميره الى السماء جهة الله تعالى بل حيثما كان يتوجه الى السماء بضميره فهو قاصد خالقه الأعلى فى وجوده الذاتى فهو مستو بالعلوّ الغير محدود لعقولنا وانه فوق الجميع بالفعل والذات مع التنزيه .. فتبرأنا من تعيين جهة لعبادة الخالق حيثما كنا فى مركز ما من العالم أو فى السماء أو فى الأرض هو بالذات انكار لعبودية الخالق الأعلى بل هو أساس الكفر الأليم ..فالجهة أمر لازم

اذا كان أساس تنزيهه تعالى فى وجوده الذاتى الأكمل أن (ليس كمثله شيء) فما الداعى لتوليدوهم «الحصر» فى الفكر عند التوجه لوجهته العليا المنفرد بها ذاتيا والتى يتوقف الاخلاص بالاسلام ونوال الايمان إلا بالتثبت فى توجه القلوب والعقول اليها مع التنزيه ؟... ثم اذا كان أساس تقديسه بجامع قلوبنا فى أقوالنا وأعمالنا أن يكون (له المثل الأعلى) فما الداعى لتوليد أوهام خيالية فى الفكر «للتأويل» عند ذكر يديه . وعينيه . ووجهه . ومحاربته . وكيده . ورميه . واستوائه . وغضبه . ورحمته . ومجيئه . وعلوّه . وسمعه وبصره . ومعاهدته وتجليه . وكلامه . وهديه . وضلاله . وعطائه . وحرمانه . وأخذه ورفعه . وخفضه . وذله . وعزه . . الخ . الخ فكل ذلك ذكره الله تعالى لنا لا لأنه تعالى يماثلنا فى شيء منها — كلا — بل هى فوق عقولنا بالنسبة لذاته الكريمة مع وجودها فعلا وذاتا وحقا ولكن بما نعجز فى آن واحد أن نكيفها أو نمثلها أو نشابهها لمخلوق ما وانها ذكرت لحقيقتها الواقعة بما يليق لكمال الخالق لا لفرضها ومجازها «فالقول بها كما هى واجب» وذكرها تعالى لغرض أن تتمكن نفوسنا من اجلاله تعالى اجلالا كبيراً بما يناسب عقولنا وبقدر ما يصل اليه كامل شعورنا عند ذكرها فى الأمثال اه

٣٢٥

﴿ الجهة لا تفيد الحصر ﴾

اذا عجز الكل عن تكيف شيء مما ينسب لذات الله العلية ..فعبادتنا بالطبع هى بالقلب والفكر المتركب منهما اجمال الانسان توجها الى ذاته العلية الموجودة فعلا وحقيقة لا المعدومة .. فان عدمنا تنوع ذاته الكريمة لعقولنا (لا تدركه الأبصار) فلا نعدم توجه كامل شعورنا اليه

والى أحسن جهة تليق لوجوده الذاتى .. لاالقصد الجهة نفسها بل لحقيقة أن (له المثل الأعلا) فى وجوده الذاتى أيضا وهو الموجود بالفعل والذات أعلى من كل موجود فى العالم.. فينتفى عندها معنى الحصر والتحديد من طبيعته

ان القول بجهة وجود الله تعالى أول أمر واجب لمعنى الاسلام والتعبد والتدين الحق الذى يؤيده القرآن الحكيم أيضا فاذا اتبعنا بالفرض قول المضلين بتوهم الحصر إذ قيل بالفوقية فان الارض كما لايخفى كروية تسبح فى الفلك بسرعة هائلة وان الانسان من طبيعته يعجز أن يحدد أين رأس العالم وأين أسفله .. فالسماء تحيط بناحيتما كان وجودنا. وان السموات والارض أمام ذات الله تعالى كلا شىء حيث ضرب لنا مثلا عن ذاته الكبرى بلا تكييف فى قوله تعالى (والارض جميعا قبضته) فهذا أشبه بلا تمثيل بالانسان الذى يقبض بيده على شىء بسيط فهو تعالى ان يمسك السماء والارض بقدرته (ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا) فهى تحيط اذ ذاك بكل شىء ولكن ذاته الكمالية هى الأعلى عن الجميع فى كل نقطة وكل مكان بلا تحديد. إن الانسان اذا قبض على شىء فكيفما كان شكل هذا الشىء فكل نقطة فيه متجهة الى ذات القابض عليه ولو فى جهات متضادة وليس غرضنا تماثل ذات الخالق سبحانه بذلك بل هو مثل لغرض الفهم حيث لا يمكن للانسان أن يعرف علاقة الله بمخلوقاته إلا بأمثال تناسب خلقته الطبيعية. فحيثما كان الانسان أو الملائكة. أو الشمس. أو القمر. أو النجوم أو الشجر. أو الطيور. أو البحار. أو الجن فى أى وضع ولو مقلوبا بالنسبة للغير فى السماء أو الأرض وتوجه الى الجهة العليا بقلبه وايمانه لعبادة الخالق أو التسبيح بحمده فهى الجهة الحقيقة بالفعل والذات لوجود الخالق سبحانه بلا تكييف لاوهما ولا فرضا وان تجنب القول بفوقية الله على كل مخلوق بالنسبة لوجوده الذاتى هو نفس القول بانكار وجود الله فعلا لا تنزيه وهذا ظلم عظيم اه

٣٢٦

﴿ ذات الله لا تحد ﴾

قال تعالى يحدد اتساع كرسيه العظيم: (وسع كرسيه السموات والأرض) فهذا حضا لمعرفة اتساع السماء والأرض والنظر فيهما لمن أراد أن يعرف اتساع ذاته الكبيرة الغير مكيفه

والغير محدوده .. إذ يعلم الله تمام العلم أن الانسان عاجز بطبيعته الى الأبد أن يحدّ السماء والارض حداً نظريا أو وهمياً أو خياليا — فكأنه تعالى يقول للناس عند ماتعرفون اتساع السماء والأرض تعرفون اتساع الكرسى .. ومنه بعدها يمكنهم أن يعرفوا قدر ذاته العلية المحتجبه عن العقول .. فذكر الله تعالى ذلك بقصد الاعجاز المطلق فى كل ما يتعلق بخصوصيات ذاته الكمالية ثم صرف الانظار الى مافى السماء والارض أولا وعدم البحث فى ذاته العلية المحتجبة عن العقول قطعاً كقوله الصادق (ليس كمثله شىء) .. ولكن هذا الاتساع حقاً بالفعل والذات بلا تأويل ولا فرض ولا وهم .. إذ أن الانسان فى هذه الحياة وقبل هذه الحياة .. وبعد هذه الحياة يعجز عجزاً مطلقاً أبديا ان يحدد بعقله قدر ماخلق الله أو اتساع ماأوجد الله أو عدد جنود الله (ومايعلم جنود ربك إلا هو) فبالأولى يعجز عن معرفة اتساع كرسى الله أو قدر الله الكبير بلا تكييف فهو فى بدء خلقته عاجز (أو لم ير الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) وفى هذه الحياة عاجز .. وسيكون كذلك أمام عظمة الله عاجزا الى الابد (يامعشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) فليس له ولا لغيره إلا أن يطأطأ رأسه بالعجز والعبودية الكاملة مستسلما نفسه باخلاص لله الآله الحق الواحد .. فان فعل هناك يمنح كل ماهو فى طاقة نفسه من الامانى من غير أن يعرف هو قدر ما منح الله لغيره من الامانى أيضا من باقى المخلوقات اللانهائية (لقد أحصاهم وعدهم عداً) : وقال تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) اه

٣٢٧

﴿ وجوب فوقية الخالق ﴾

ان فطرة عقولنا وأرواحنا العجز عن حصر ذاته تعالى وتكييفها وانها أوسع من أن تحد فلا هناك علة للتخيل بالتحديد أو الحصر بالوهم عند كل لفظ يؤيد حقا آخر واجبا هو أس الاسلام لله والايمان به كعلوه تعالى ذاتيا فوق الجميع اذ لايجوز أن يقال بعدها ان الله تعالى فى ذاته صغير . لأن ذلك لا يليق لكماله المطلق بل ذاته الكبرى أوسع من أن تحد عقلا أو خيالا مع العجز المطلق فى التكييف (والله واسع عليم) . فان قال انسان انى أوجه

وجهى الى الله تعالى جهة السماء لأسلم نفسى وكما أسلم ابراهيم !... هل نقول له لا تقل ذلك لأن السماء هذه منظورة ومعلومة للعقل ؟.. أو ان قلت ذلك حصرت الله تعالى فى دائرة من الفلك أو الفكر معلومة بما يفيد معنى التجسد الموهوم ؟.. فان أجبناه بذلك ؟. هل لم يك ذلك غريبا فى بابه مادام القائل يعلم أساس التنزيه وهو (أن ليس كمثله شىء) ؟. وهل من داع لأن نتهم الذى يقول : انى أوجه وجهى للذين فطر السماء والارض مع أنه فى العالم أقل من الذرة فى الهباء . فندعى عليه بهذه الدعوة الباطلة الطويلة العريضة « وهى الحصر » ؟.. أم حيثما توجه الانسان بوجهه أو ضميره جهة السماء التى هى جهة العلو والسمو والكمال .. وأحسن جهة للتعبد للرحمن ان نقول له نعم .. انك تقصد وجه الله الكريم مادام رائدك مبدأ (ليس كمثله شىء) مع مبدأ (له المثل الأعلا) ؟.. نعم .. هذا ما يقال .. وهذه هى الحقيقة الكلية التى لا تناقض فيها ولا تعداد اه

٣٢٨

﴿ الله والعالم ﴾

ان الذى يقطن مصر ويوجه وجهة للسماء لعبادة الله تعالى . كالذى يعبد الله تعالى فى أمريكا ويوجه وجهه للسماء أيضاً هناك فى جهة متضادة بالنسبة للموجود فى مصر !! .. فالعالم امام الله تعالى كالشىء الحقير وهو تعالى يحيط به بقدرته . وذاته العلية بالنسبة لوجود العالم كما يؤيده العقل والقرآن والحقيقة أعلا وأرفع بما لا نعلم قدره . لان ذلك وحده هو اللائق لمن له كل كمال حتى فى الوجود الذاتى الكبير . فان كان هو فوق الكل بلا حد ولا تكييف فهو من كل شىء قريب وعلى كل شىء قدير وبكل شىء عليم وعلى كل شىء حفيظ واليه ترجع الأمور بل هو السميع البصير

فصل ٢١

٣٢٩

فوقية الخالق والقرآن

لما كان الانسان خليفة الله فى الأرض أو نائباً عنه ومن لوازمه أن يكون مستقلا فى ذاته وكاملا فى كل فعاله كخالقه بلا تمثيل ليشبهه فى أداء وظيفته السامية وكان من أول صفاته تعالى الارادة والحرية أيضاً وجب حتما أن يكون هـذا الانسان بصفته العامة متصفاً بهاتين الصفتين أيضاً حتى تنطبق عليه معنى الخلافة وإلا تجرد عنها

وعلى هذا الاعتبار كانت حرية الانسان وحدها داعية لأن يحيد هـذا الانسان متى شاء عن خطة الكمال التى هى خطة الله فيتجرد إذ ذاك عن معنى الخلافة الحقة لوضع نفسه فى وضع غير « الاسلام » للخالق الذى هو الوضع الطبيعى لكل نفس عالية حرة . فبالحرية يتدين الانسان بأى دين كان « غير الاسلام » كما نري بالبداهة من كثرة الأديان فى الأرض والتى كان اختلافها بالطبع ناتج من تحويل إرادة الانسان الحرة فيما يتدين أو يعتقد أو يعتبر أو يعمل الخ فتغيرت لذلك طباعه وتنوعت صفاته وأعماله فيتقدم تارة ويتأخر أخرى ويسعد مرة أو يشقى مرة أخرى . وان تنوع أعمال العباد واعتقادها المختلف الظاهر درس لمقدار ما يمكن ان تتشكل به إرادة الانسان المذكورة في جميع الازمان

فالدين الاسلامى هو الدين الطبيعى الذى تؤيد تعليماته كيف يمكن للانسان أن يحفظ طبيعته الأولى نقيـة طاهرة سائرة فى السراط السوى لمعنى الخلافة الحقـة والقرآن العظيم كلام الله تعالى هو أساس الدين الاسلامى المذكور وأنه قد طرق كل ما يؤديه ويعمله الانسان فى الحياة حتى يتوصل الى مركزه السامى الأول من تقويم النفس وطهارة القلب وحسن الايمان والبر والشجاعة والعلم والتعقل والعمل والحرية الخ

***

٣٣٠

﴿ أحسن الصفات الانسانية ﴾

إن أول صفة حض عليها القرآن ليضع الانسان نفسه فيها ولتكون له كأصل ثابت لنوال صفات الكمال السالفة هى صفة « الاسلام » وهى صفة مؤدى معانيها (تقويم النفس « أو » وضع النفس فى وضعها الطبيعى الأول) إذ قلنا ان « إسلام » النفس للخالق يشبه وضع بذرة للانبات فى أرض طيبة توافق طبيعتها لتنمو وتنبت وتثمر لان كل وضع غير ذلك يتلفها ولا يثمرها ولذا قال تعالى : (إن الدين عند الله الاسلام) لانه ارتباط الروح بخالقها فى السماء بالارادة الانسانية الحرة حساً ومعنى . أما بالحس فبتوجيه الارادة الانسانية الى جهة الخالق جهة السماء بحرية النفس . وأما معنى فبالنتائج العظيمة التي تحصل من الالهامات الالهية وبالشعور الانسانى والعقل فى كل أنواع الأعمال والأحوال

ولما كان (الاسلام) بالشكل السابق مع الالهام الآلهى الذى هو شعور النفس الطاهر مما يقرر حتما جهة « وجود الخالق الفعلية فوق الخلق » والسماء وكان هذا الموضوع من المواضيع الهامة التي قرر العلماء السابقين بعد عهد النبي (ص) عدم الاعتراف بها بل تحريم اعتقادها للآن تقريبا وكان هدم هذا الاعتقاد مما هدم أول قوة تأسس عليها الاسلام الحق وقوة المدنية الاسلامية رأينا أن نذكر هنا الأمثال الكثيرة القرآنية التي تؤيد معنى (فوقية الخالق الفعلية) ثم نذكر بعدها ما قاله علماء الاسلام السابقين عنها مما كان سبباً لاضمحلال توحيد الشعور الاسلامى أيضاً زمناً كبيراً ... فمن ذلك قوله تعالى :

(١) (وان كنتم فى ريب مما أنزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله) فأوضح أن الوحى الذى أوصله لرسوله نزل منه انزالا فعلياً دلالة على علوه الذاتى عن الكل بلا حصر مع التنزيه — وان آيات التنزيل فى القرآن عديدة نكتفى منها بما تقدم

٣٣١

﴿ ذات الله سبحانه ﴾

ومع ذلك فان ذاته العلية الكبرى تحدد بالنسبة لنفسه أيضاً لا بالنسبة لعقولنا وتخيلنا فهو تعالى فرد يتحدد بالحصر بما نعجز عن تكييف هذا الحصر كما قاله تعالى (ما يكون من

نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم ولا خمسة إلا وهو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو معهم)

فهذا التعداد الذاتى لنفسه فى القرآن باندماجه مع ما يمكن عده من الناس يدل على الحصر الذاتى لله تعالى وان كان ذلك لا يمكننا تكيفه ولكن الغرض المطلوب إيضاحه أنه لا يوجد هناك مانع من الإقرار به على هذا الاعتبار الواضح . . . وبمثل ذلك يقال عن تحركه تعالى كالآية :

٢ (وجاء ربك والملك صفا) فهو مجىء حق لا تأويل فيه ولكن لا نسبة فيما نتخيله فى عقولنا من أي مجىء كان ويؤيد ذلك قوله تعالى :

٣ (هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعاً ثم استوى الى السماء فسواهن) فقوله تعالى (ثم استوى) يدل على ترتيب الصعود والاستواء أى الاستعلاء الذاتى عند العمل .. ولكن .. ليس لنا أن نتخيل الحصر أو نقدر كيفيته وان كان واقع فعلا بالمعنى الذى نفهمه . . وقال تعالى

٤ (فتلقى آدم من ربه كلمات) أى بالالهام أو الوحى لالتجائه بقلبه الى خالقه بالاسلام اليه واتصاله به بالالهام . . وهذا يشبه خطاب الانسان ضميره أحيانا عند ما يرتكب جريمة ما ويكون مخلصا لله تعالى فهناك قلبه يشعر بالألم ويلهم ضميره بما يجب أن يعمل أو يقول ليتوب الى الله ويرجع اليه بالاسلام ليغفر له سوء ما فعل . . فالهام الله تعالى لازم بكلماته هذه بعد ارتكاب الذنب تأييدا لهذا المبدأ الذى هو مبدأ المخلصين الذين لا يتمادون فى الذنوب لامصرين ولا مستكبرين بالتوبة وطلب الغفران فكان مبدءا مستمراً للمخلصين من بنى آدم الى الآن

وقال تعالى عن لزوم توجه القلب بالاسلام اليه جهة السماء فى الآية :

٥ (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن) وقال تعالى أيضاً :

٦ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم) وقال تعالى بفضل طريق اسلام النفس اليه جهة السماء فى الآية :

٧ (ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه أسلم) أى وجه قلبك وفكرك لله تعالى اليه جهة السماء (قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب . يابنىّ إنّ الله اصطفى لكم الدين) أى الحق (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى متمسكون بمبداء الحق الى النهاية — ولقد أيد الله تعالى ما كان يفعله النبي (ص) من توجه قلبه وفكره جهة السماء قاصداً ربه كما هو تعريف الاسلام وكما فعل ابراهيم فى الآية الآتية :

٣٣٢

﴿توجه النبي (ص) للسماء﴾

٨ (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) أى جهة الله — وقال تعالى عن كيفية هدايته للذين آمنوا به وأسلموا اليه بأنه يلهمهم من وقت لآخر حتى يخرجهم من ظلمات الشرك الى نور الايمان كالآية :

٩ (الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) وقال عز وجل (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) بالشرك والوسوسة (والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) بالايمان والالهام . وقال أيضا :

١٠ (فان حاجوك فقل أسلمتُ وجهى لله) أى بالتوجه اليه جهة السماء قلبيا وقال جل شأنه أيضا :

١١ (فان أسلموا فقد اهتدوا) أى فان أسلموا بتوجه قلوبهم جهة الله العليا جهة السماء (فقد اهتدوا) أى فيتحتم هدايتهم من الله بالهامه الذى يتصل بقلوبهم بعد ذلك مباشرة

٣٣٣

﴿الحب الالهى﴾

١٢ وقال تعالى : (والذين آمنوا أشدّ حباً لله) أى من كل شىء فى العالم لأن المحب الشديد الحب لا ينسي من يحبه لحظة من اللحظات ودائما يذكره على لسانه وفى قيامه وقعوده و يقظته ومنامه حتى يكون كالدم من اللحم ... فوان كان حب بعض الناس الى البعض كهذا التعلق السالف فان تعلق المؤمن بالله تعالى أشدّ من ذلك بكثير ... ولرب سائل يقول

وكيف يكون ذلك ؟إذ المعلوم عقلا أن الحب لا يكون إلا بعد السمع أو النظر أو المشاهدة أو .. أو .. مما يؤثر فى العقل والحواس !.. فما هى الرابطة التى تربط المؤمن بالله تعالى مع أنه محتجب بالمرة عن العقول والابصار ؟ وبماذا يكون الارتباط والتعلق به أشد وأوثق من هذه الارتباطات الروحية والمادية المشاهدة ؟... فالجواب على ذلك هو أن ارتباط المؤمن بالله تعالى لا يكون إلا « بالالهام » الذى تضعف قوته أو تزيد بقوة الاسلام أى بقوة توجه القلب اليه جهة السماء فهناك يكون الشعور بالله وبالهامه الذى يكون له أنيساً فى خلوته ومشجعاً فى الملمات وفرحاً عند الضيق وقوة عند الغضب . بل به يحسن الخلق فى المعاملة وتصقل النفس باللطف والدعة — بل هذا الالهام هو الوحيد الذى ينشر الألفة والرحمة وخفض الجناح بين جميع المؤمنين المتحدين فى هذا الشعور — وكل مؤمن مخلص يعرف أن لذة الحياة المادية تفنى كلها وان لذة الاختلاء الذاتى لتقديس الله المحبوب تزيد مع الزمن لازدياد الحب لأن هذا الحب الآلهى الذى له الفضل الأول فى تهذيب النفوس وترقيتها الى الكمال هو أساس الحياة الحقة الحالية والمستقبلة — فهو كل الدين — وليس الدين إلا ليرتبط الكل بشعور واحد لا اختلاف فيه هو «الالهام الآلهى» الناتج من الايمان بسبب الاسلام الذى هو توجه القلب بالارادة الى الله جهة السماء كما مر — وقال تعالى:

١٣ (فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن) أى بتوجه القلب الى الله جهة السماء كالآية الماضية وهى: (قد نرى تقلب وجهك فى السماء)

١٤ وقال تعالى: (يؤتى الحكمة من يشاء) أى بالالهام والشعور — وقال عز وجل

١٥ (إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك الى) أى رافعك الى جهتى .. وهى جهة السماء والعلو وقال تعالى:

١٦ (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض) أى بتوجه قلوبهم بحريتهم اليه عز وجل جهة السماء أيضا

١٧ وقال تعالى (ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم) أى ومن يعتصم بالله « بالايمان به » بسبب الاسلام بتوجه القلب اليه جهة السماء فقد هدى « أى بالالهام » الذى يرافق كل مؤمن «الى صراط مستقيم» — وقال تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم

الذى خلقكم) أى اتقوه بالايمان وخافوه واحذروه وتذكروه وهذا لا يكون إلا بتوجه القلب اليه جهة السماء أيضا

١٨ وقال تعالى (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) أى أسلم بتوجه قلبه الى الله للجهة العليا — وقال تعالى

١٩ (ومن يعمل سوءً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله) أى يستغفره من نتيجة الالهام السيء ووخذ الضمير الذى ألهمه الله تعالى به من نتيجة العمل الردىء (يجد الله غفوراً رحيما) وقال تعالى

٢٠ (قل ان هدى الله) أى بالالهام بعد الايمان (هو الهدى) أى الحق لانه لا يكون إلا بتوجيه القلب والفكر الى الله جهة السماء بحرية النفس كمعنى « الاسلام » ولذا يقول بعد ذلك (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) أى فى كل حال نحن فيه متمسكون بتوجه القلب الى الله جهة السماء حتى لا تفارقنا الهداية مادام قبلتنا الاسلام ومنه قال عنه تعالى أيضاً

٢١ (انى وجهت وجهى) أى الى جهة السماء بالقلب (للذى فطر السموات والارض حنيفاً) أى باخلاص (وما أنا من المشركين) أى لا أتحول ابداً عن وجهة الاسلام التى هى توجه القلب الى الله جهة السماء

٣٣٤

﴿ البصائر — التنزيه ﴾

٢٢ قال تعالى : (قد جاءكم بصائر من ربكم) هى العقل والالهام والشعور والقرآن (فمن أبصر) أى بالالهام أو الشعور متعاوناً بالعقل وحكمة القرآن (فلنفسه ومن عمى) أى وترك الشعور الحق ولم يعتبر من وخذ ضميره من شعوره السيء (فعليها) أى اثمها وعملها السيء وقال تعالى أيضاً

٢٣ (أومن كان ميتا) أى بالكفر وعدم اتباع الشعور أو الالهام (فأحييناه) أى بالهداية بعد رجوعه الى الايمان بحريته (وجعلنا له نوراً) أى إلهاما أو شعوراً حسنا كالنور (يمشى به) أى فى الحياة (فى الناس) أى عند الاختلاط والاجتماع بهم (كمن مثله فى الظلمات) أي فى الكفر وعدم الشعور ثم عدم المبالاة بوخذ الضمير من الالهام السيء (ليس

بخارج منها) أى الى الابد اذا استمر على موت الضمير وقال تعالى

٢٤ (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك) فأتيان الله تعالى الفعلى أمر حق لا تردد فيه فاذا كان لا يجوز لنا أن نشبه أتيان الله تعالى باتيان أى مخلوق مهما فرضه العقل فانه لا يصح من جهة أخري أن ننفى أو ننكر أن هذا الاتيان ممكن ووقوعه من الله تعالى فعلا كتصريح القرآن وان الالتجاء فى مثل هذه المعانى لتأويل كاذب لا يصح — كما ان ذلك لا يدعوا الى التشبث بالقول ان الذى يأتى لا بد أن يتحرك كما هو مفهوم من الأتيان والمتحرك له حيز والحيز لابد أن يحوى جسما الخ الخ — من مثل هذه الفروض الكاذبة التى يقصد بها تماثل الله تعالى لأحد المخلوقات أو كالفروض التى بها نفت فلاسفة المسلمين السابقين فوقية الخالق الفعلية والتى هى أس الدين وأساسه بل هى كل الدين مما أضل الأمة فضعفت قوتها الالهامية الدينية أو شعورها الحى مع أنه أساس الفضائل النفسيه — وقال تعالى عن نبيه

٢٥ (وأنا أول المسلمين) أى مختاراً لمبدأ الاسلام الذي هو المبدأ الطبيعي لموازنة النفس والعقل فى وضعهما الطبيعى وبه يتأتى للنفس أن تعمل أحسن الفضائل الحيوية

٢٦ وقال تعالى عن الشيطان (ثم لآتينهم من بين أيديهم) أي من الامام (ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم) أى اذا اتجه انسان بارادته الحرة بعد الوسوسة الى أحد هذه الجهات التى يترقبها الشيطان ضل عن الهداية لأن الانسان لا يتجه لأحدها إلا إذا غفل قلبه عن الخالق (ثم لا تجد أكثرهم شاكرين) أي لا بد أن يكونوا كافرين لانهم بذلك لم يضعوا نفوسهم بارادتهم الى السماء فى الوضع الرأسى الذى هو مسلكها الطبيعى وهى الجهة العليا جهة الذات العلية الفوقية أو جهة الاسلام ثم الالهام والهداية — فكيف بعد كل هذه الاستدلالات الدالة على فوقية الخالق الفعلية يحارب علماء الاسلام السابقين عقول الأمة بعدم توجه ارادتها للسماء جهة وجود الله وينفوا ذلك بلا علم وهمامهم أن الجهة تدل على التجسد بلا برهان !. إذ قال تعالى تأييداً لما نقول (ان الذين أتقوا) أى بالايمان بتوجه قلوبهم الى جهة الله العليا (إذا مسهم طائف من الشيطان) أى بسبب اتباعهم وسوسة الشيطان من أحد الجهات الاربعة السالفة «سهواً لا بقصد الشرك» تذكروا أى هذا الخطا فحولوا إرادتهم وقلوبهم وعقولهم

فى الحال جهة الله العليا (فاذا هم مبصرون) أى مدركون الحق بهذا الاسلام من توجه قلوبهم الي الله ثانيا وبسبب إلهام الله تعالى لهم بدل هذه الوسوسة الكاذبة يرون الحق بدل الباطل وقال تعالى عن الكافرين :

٢٧ (لا تفتح لهم أبواب السماء) فهذا يدل على أن المؤمنين بعد وفاتهم يرفعون جهة الله العليا جهة السماء كما قال عن عيسى عليه السلام (انى متوفيك ورافعك الىّ) أى الى جهتى العالية – فبأى شيء ننفى جهة الله تعالى بعد كل ذلك

٣٣٥

﴿ الله جهة السماء ﴾

٢٨ قال تعالي عن موسى عليه السلام : (قال رب أرنى ؛ أى أرنى فى السماء ذاتك حسياً (أنظر اليك . قال لن ترانى) أى لن ترانى بالحس بل بالوحي والالهام فقط أكلمك فنفى الله تعالى التجسد والظهور ولكنه تعالى لم ينف الجهة مع أن موسى عليه السلام موجها وجهه للسماء جهة العلو جهة النار التى رآها فى السماء ليقف عندها ويصغى للوحي من جهتها العليا فلو كان الله تعالى أراد تعليم موسى أيضاً أن ينفى هذه الجهة العليا التى دل بوجوده الذاتى الفعلى جهتها بوجود النار لأفصح له وأبان ذلك فى القرآن ولكنه تعالى بالعكس قرر وجود ذاته المحتجبة ثم التكلم من الجهة العلوية المذكورة كالآية : (هل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً) أى فى السماء (فقال لأهله امكثوا انى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى. فلما أتاها) أى وصل اليها ونظرها فى السماء وتأمل لها (نودى ياموسى انى أنا ربك) أى جهة النار جعلتها علامة لتقصدنى من الجهة العليا وتصغى لما أقول لك بالوحى (فاستمع لما يوحي) أي بتوجيه قلبك وعقلك الى الجهة العليا لتكون فى وضع « الاسلام التام » حيث قال تعالى عن تكلمه مع أى شخص من عباده : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) . وقال تعالى أيضا

٢٩ (والله يدعو الى دار السلام) أى فى هذه الحياة بالالهام الحسن للمؤمنين بعد الاسلام وقال تعالى :

٣٠ (قل الله يهدى للحق) أى بالالهام ولكن بعد الاسلام بتوجه الضمير الى جهته

العليا جهة السماء وقال تعالى:

٣١ «أفمن هو قائم على كل نفس» أى بالالهام والجزاء «بما كسبت» أى من خير أو شر فالنفس التى تعمل الشر تلهم بألم الضمير وتصاب بالجزاء السيء بقدر سيئها والنفس التى تعمل الصلاح ومافيه التقوى تلهم بالارتياح وسلوك الطريق الحسن وتجازى بالطيب كما قال تعالى «ونفس وماسواها فالهمها فجورها وتقواها» وقال تعالى «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت»

٣٢ ثم قال تعالى عن فوقيته الفعلية أيضا فى الآية: «ولله يسجد مافى السموات وما فى الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون» فهذه الآية تؤيد بقوة ماقدمنا ذكره — اذ أن الله تعالى يوضح فى الكتاب أنه فوق الملائكة لا من حيثية السيطرة فقط بل من حيثية العلو الذاتى والفوقية الفعلية وان خيفتهم من الله تعالى لا تكون إلا باسلامهم الذى يتوجهون به بقلوبهم اليه جهة السماء أو جهة العلو الفوقى حيثما كانوا ولذا هو نفسه قال تعالى انه «فوقهم» - ولاريب ان علماء الاسلام الذين فسروا هذه الفوقية بالسيطرة والقوة فقط دون الاشارة الى الجهة الفوقية الفعلية الغير محدودة والتى تقصدها الله تعالى هنا لا يمكنهم أن يؤولوها لهذا المعنى فى هذا المقام الذى يقول الله فيه انهم لا يستكبرون أي كما استكبر ابليس الذى كان ملاكا من الجن معهم واستكبر بحريته... ثم ان نفى الاستكبار عنهم لا يكون إلا بتمام حريتهم ولكونه فى امكانهم فهذا ينفى أن تلك الفوقية هى السيطرة والتغلب لأنه لا محل لاقرارها هنا ولأن عبادة الله تعالى لا تقبل إلا أن يكون العبد بتمام الحرية والاختيار كما هو مبدأ القرآن — إذاً — تكون هى الفوقية الذاتية لذات الله فعلا — المحتجب تكيفها عن العقول والأبصار

٣٣٦

﴿ صعود الملائكة ونزولها ﴾

٣٣ قال تعالى «تعرج الملائكة والروح اليه» أى الى جهة العلو والفوقية وقال تعالى أيضا «ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده» فالصعود اليه أو النزول من عنده لا يؤيد إلا الفوقية الذاتية له تعالى فوق العالم بلا تحديد كما هى الحقيقة والواقع اذ قال تعالى عن القرآن أيضا «ونزلناه تنزيلا» وعن الملائكة «ونزل الملائكة تنزيلا» الخ

٣٤ وقال تعالى « إن الله مع الذين اتقوا » أى معهم بالالهام فيمدهم به من وقت لآخر بسبب التقوى التى هى خلاصة معنى الاسـلام أو التوجه بالقلب والارادة الى جهة السماء . وقال تعالى

٣٥ « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحـات سيجعل لهم الرحمن وُدّا » أى مودة بالهامه تعالى لهم بسبب توجه قلوبهم الى جهته العليا بالاسلام.. وقال تعالى

٣٦ « ونزلنا عليكم المنّ والسلوى » أى نزولا فعليا ظاهراً للجميع من السماء من جهة الله الفوقية وقال تعالى

٣٧ « ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء » أى قطع اتصاله بالله تعالى نهائيا من جهة الله الوحيدة «الفوقية» فلا يلهم من الله بالهام حسن فى الحياة يقربه منه...ولا هو يرفع بعد الموت الى السماء أيضا ان استمر فى الشرك الى الموت

٣٨ وقال تعالى « وجاهدوا فى الله حق جهاده » أى بحسب إلهامكم وشعوركم الآلهى فى تأييد الحق والواجب مهما تنوع تبعا لاختلاف الأحوال والأزمان «هو اجتباكم» أى خصكم بالهامه الحسن بسبب اسلامكم وتوجه قلوبكم لجهته العليـا لتؤيدوا كل ماتشير به ضمائركم الطاهرة جهدكم « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » أى براحتكم بلا اضطرار لفعل ماترونه فوق طاقتكم عنـد اللزوم فان عملكم بالالهام وبما يشير به شعوركم بقدر وسع طاقتكم هو : « ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين » وقال تعالى :

٣٩ « واعتصموا بالله » أى بالاسلام اليـه والالتجاء اليه ليمدكم بالالهام الحسن « هو مولاكم » أى مختصا بهدايتكم « فنعم المولى » أى الهادى بالالهام « ونعم النصير » أى الذى يعاون المؤمن بالالهام وغيره فى أى مركز حرج يحتاج للتخلص أو الغلبة أو النصر فى الحياة مادام رائده الحق والفضيلة

٣٣٧

﴿ فوقية الخالق عند جميع الرسل ﴾

٤٠ مايدل على أن وجود الله تعالى فوق الخلق فعلا جهة السماء فى جميـع الشرائع والأديان وعلى لسان جميع الرسل ماقاله قوم شعيب عليه السلام عند تهكمهم عليه وقت مادعاهم

للاسـلام والى تقوى الله بتوجه قلوبهم وعقولهـم الى جهة الله العليا جهة السماء فى الآية : « فاسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين » أى سقوطا فعليا من السماء من الآله الذى تدعونا أن نوجه قلوبنا اليه مختصين بالاسلام اليه جهة السماء ... ويدل على ذلك أيضا ما قاله فرعون عن موسى عليه السلام عند ما دعاه لله للاسلام فى الآية

٤١ (فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا) أى برجا عاليا حتى يصل الى السماء العليا جهة وجود الله تعالى وهى الجهة التى يدعوه اليها موسى بالاسـلام لله غيبا « لعلى أطلع الى آله موسى » أى فى السماء فوق الخلق كما يقول موسى ويدعونى ويدعو الناس اليه « وانى لأظنه من الـكاذبين » أى فى دعوتى لله الذى يقول أنه فعلا فوق الخلق جهة السماء محتجباً عن الجميع وقال تعالى

٤٢ (يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فهذا دليل على أن أمر الله تعـالى يأتى من السماء أى جهة العلو وهى الجهة الفوقيـة للعالم (الى الأرض) أى جهة الخلق وهى الجهة السفلية لوجود الله تعالى بلا حصر (ثم يعرج) أى تصعد اليه النتيجة العامة للفصل فى يوم الفصل للثواب والعقاب الخ — فـكل ذلك يؤيد لله تعالى فوقيته الفعلية الغير محدودة وقال تعالى :

٤٣ (اليـه يصعد الـكلم الطيب) أى الى ذاته الـكبرى يصـعد أو يعلو الى فوق لجهته الفوقية... فوق الـكل (والعمـل الصالح يرفعه) أي يرفعه الله تعالى أيضاً لجهته العليا تشريفا لقدر كل عمل صالح وقال تعالى :

٤٤ (ثم استوى الى السماء وهى دخان) أى صعد الى فوق جهة العلو فوق العالم بلا حصر ولا تـكييف وقال تعالي عن نفسه

٤٥ (ذو مره فاستوى وهو بالأفق الاعلى) أى الاعلى من كل شىء فوقية فعليـة لا تحتاج الى تأويل وان كان ذلك لا يكيف بأى حال لعقول البشر بالنسبة لذات الخالق — وقال تعالى

٤٦ (فأقم وجهـك للدين حنيفا) أى بالاسـلام لله بتوجه قلبـك وفـكرك لله جهة السماء باخلاص فان ذلك (فطرة الله التى فطر الناس عليها) أى خلقهم على هـذا

الوضع الطبيعى وهو الاسلام ويدعوهم ليستمروا عليه بحريتهم كما كانت أصل طبيعتهم فهو الوضع الذى ترتاح له النفوس كلها بصفة دائمة ان أرادوا راحة لضمائرهم بهذا التوجه الحق ...

٣٣٨

﴿ الشعور ﴾

كل ماسبق قليل من كثير يؤيد فوقية الخالق الذاتية فعلا لا تقديراً ولا وهماً ويؤيد معها ضرورة اتصال الروح بخالقها بالالهام سواء كان هذا الالهام عما ينفع أو عما يضر (ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها) ... أما وصف الالهام النافع فهو كما إذا رأيت فقيراً ثم شعر ضميرك بارتياح لوجوب الاحسان اليه رفعاً لمركزه السيئ واصلاحا لبعض حاله .... فان ذلك يدل على ضمير هو أقرب للايمان لله ثم الهام من الله نافع — أما وصف الالهام المضر فهو كما تشعر عند ماتسيئ الى انسان مثلك بلا سبب ثم تشعر بوخز ضميرك بعد تمام الفعل... فهذا الوخز هو إلهام أيضاً من الله تعالى مع انك فى الحالة الأولى والثانية مدفوع بارادتك.. ولكن لماذا تشعر براحة الضمير وقت الاحسان ووخزه وألمه وقت الاساءة؟... الجواب لأنك لا تملك هذا الالهام فهو من الله مباشرة اليك لتستزيد أو تتجنب من أحدهما تبعاً لارادتك الحرة فهو أشبه بالنتيجة الطبيعية وردّ لفعل ما تفعل ... فالشعور أساس حياتنا الأدبية ومواتها

٣٣٩

﴿ العلماء المسلمون وجهة وجود الله تعالى ﴾

فلننظر الآن ما قرره علماء الاسلام السابقين فى الدين من حيث فوقية الخالق تعالى فنرى أن هذه النقطة من أهم النقط الجوهرية فى الدين والتى بنى عليها أساسه المتين فقد قرروا فيها أقوالا تضاد القرآن والعقل والحقيقة على خط مستقيم وبسبب قبول الأمة لما قالوه تزحزحت من طبعها عن أصل الدين أيضا فسقطت من عالى مجدها تتخبط فى فيافى الأوهام ولولا فلسفة هؤلاء العلماء الباطلة وانسياقهم جميعا الى المسلك الأعوج ما طرأ هذا التأخر على الأمم الاسلامية ... اذ بمحو ضرورة توجه القلوب لله تعالى جهة السماء حتما من كل مسلم

ثم عدم تقريرهم وجود الله الذاتى فوق الخلق بالفعل لا بالفرض ولا بالمجاز قد أضعف القلوب عن مسلكها الطبيعى وهو توجهها بالارادة الى الجهة العليا لله جهة السماء لتستمد بهذا التوجه الهامات الله النافعة بل اتجهت بالشرك لوساوس الشيطان الى الجهات الأربعة الأخرى ... حتى ضربت الأمة لذلك من الله تعالى ضربات متوالية أثرها ما زال يرن فى العالم وكادت تلك الضربات تمحيها من بين الأمم

ولولا أن بعض المصلحين غمض عن هذه الفلسفة العوجاء ثم ضرب بها عرض الحائط وحول نظر المسلمين الى العمل بما يؤدى الى العقل تشبها ببعض الأمم التى لا تدين بالاسلام لا نكمد اسم الاسلام نهائيا وصار أثراً بعد عين ... ثم لنضرب لما قالوه عن هذا الموضوع بمثالين

٣٤٠

﴿ المثال الأول ﴾

ذكر الغزالى رحمه الله تعالى وهو من أشهر فلاسفة أئمة المسلمين فى كتابه احياء العلوم جزء أول عن عدم فوقية الخالق سبحانه فوق الخلق صحيفة ١٠٦ ما يأتى

«ان الله تعالى ليس فوق العالم» لانه لو كان فوق العالم لكان محازيا له وكل محاز لجسم فأما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة الى مقدر ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر .. فأما رفع الايدي عند السؤال الى جهة السماء فهو لانها قبله الدعاء وفيه أيضا اشارة الى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء تنبيها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلا فانه عز وجل فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء اه .)

فهذا ما يفهمه مشاهير أئمة المسلمين عن فوقية الخالق سبحانه حيث ينفون الاعتراف بوجود الخالق فوق العالم فعلا إلا أن تكون تلك الفوقية مجازية لا فعلية كالسيطرة بالقوة . ولذا منعا لاعتراض البعض قال : « أن الأيدى عند الداعاء ترفع جهة السماء رمزا للجلال ليس إلا »

* * *

٣٤١

﴿ الحقيقة ﴾

الحقيقة هى ان الله تعالى لم يعرف فى زمن من الأزمان إلا بالشعور طبيعيا فى كل نفس حتى إذا تراجع العقل مع هذا الشعور بحرية صاحبه وتأمل لعلل الخلق والى الأصل الفعال فى العالم لحكم العقل فى النهاية بوجود مهندس الكون الأعظم فيزداد الشعور اذا لاحترام هذا الاصل سبحانه حتى يمتلىء القلب حبا واحتراما تلذ معه العبودية الكاملة فاذا ما خاطب الانسان ربه بهذا النور الايمانى والشعور الحى اتجه القلب بطبيعته الى الجهة العليا جهة وجود المخاطب وهناك يتأيد الوجود الالهى العلوى ... فكم وكم يخاطب الانسان ربه ويدعوه بالليل والنهار بلا رفع الأيدى فاين يتوجه هذا الشعور القلبي الطبيعى ؟. جهة السماء ؟... نعم... جهة السماء جهة وجود الخالق الفعلى ... فمن غير الأيدى يتجه بطبيعته جهة السماء .... إذا كان رفع الأيدى جهة السماء هو للاجلال فقط لا للجهة أيضا .. فماذا يقولون عن شعور قلب المؤمن الذى يكاد يطير الى الله جهة السماء عند ما يناجى ربه بالشكر والاخلاص ثم يناجيه الله بالالهام ويقذف فى قلبه نور التثبت بالتقوى والايمان ؟... لاشك أن هذا الشعور نافذاً ومارآً بأشعته النورانية الى الله جهة السماء جهة وجود الله نور السموات والأرض ولا يعرف ذلك إلا من ذاق الايمان وتمسك بحريته بالاخلاص وائتنس بالحب الالهى العظيم

٣٤٢

﴿ نتيجة عدم التعلق بالله جهة السماء قلبيا ﴾

ان اتباع الأمة الاسلامية لفلسفة هؤلاء العلماء السابقين فى هذا الموضوع من تحريم فوقية الخالق فوق العالم ثم عدم اتجاه القلوب جهة الله الى السماء .. قد أضاع من قلوب المسلمين ذلك الشعور الواحد الطاهر الحى .. ألا وهو التعلق بالله بتوجه القلب اليه بالارادة جهة العلو والسماء .. ذلك الشعور الذى لولاه ما اتحدت أفراد الأمة الاسلامية فى بدأ نشأتها بعد ان كانت قلوبها متفرقة لآلهة متعددة .. ذلك التوجه الحق الذي هو أول حجر من أساس الاسلام وبه التبرأ من الشرك الذى هو توجه القلب الى غير الجهة العليا

- هذا التوجه هو الطريق الوحيد للنفس الى الله .. فانفصمت لذلك عروة الأخوة الاسلامية بانفكاك الاتصال بالله وكادت تزول أول قوة تربط المؤمنين برباط الأخاء الآلهى ثم الاتحاد فى وجهة واحدة وأن ابداء التحرز من أولئك الأئمة المسلمين عن عدم تقرير وجوب وجود الله تعالى ذاتيا بالفعل فوق الخلق لا بالتقدير ولا بالفرض كما هو مفهوم من أقوالهم جعل الناس المعاصرين والتابعين لهم ممن خلفهم لا يتعرضون للاتصال بالله تعالى إلا بذكر لفظ الجلالة (الله) دون توجه القلب اليه تعالى جهة السماء فصار لفظ الجلالة كأنه المقصود بالذات منه تعالى ثم صاروا يهيمون على وجوههم كيف يهتدون كما اهتدى النبي (ص) ومن معه أو كالذين من قبله من المخلصين فلم يعرفوا بل وقعوا فى الضعف الذى هم فيه الآن ... وما دروا أن علة العلل هو عدم تقريرهم وجود الله تعالى ذاتيا فوق الخلق وعدم توجه القلوب اليه كما قال ابراهيم عليه السلام (إنى وجهت وجهى لله) أى قلبياً اليه جهة السماء — ولعلهم اليه تعالى يرجعون

٣٤٣

﴿ عدم صحة فرض الغزالى (رحمه الله) وما تبعه من النتائج ﴾

أما سبب عدم صحة ماقاله الغزالى (ض) فى المثال السابق فهو من فرضه ان الله تعالى يتقدر كباقى المخلوقات عند ماتذكر صفة من صفات الله تعالى المماثل وجودها فى المخلوق بلا تمثيل (كالفوقية الفعلية) ... فلما ذكر فوقية الخالق فوق العالم نفاها بالمرة بفلسفة مادية كان فى غنى عن ذكرها كلية بسبب قوله : لانه تعالى لو كان فوق العالم لكان محازيا له الخ .... فأيد بذلك أن نسبة الفوقية لله تعالى توجب أن يلحق بالله تعالى الصفات اللازمة للمخلوق ولهذا الغرض نفاها ومحاها ... وهذا كل التضليل (وان كان غير مقصود) لان أساس معرفة الله تعالى عند ماتذكر صفة من صفاته الكمالية أن لا تكون مشابهة للمخلوق فى الذات مع ثبوتها فعلا ... وهذا كقولك ان الله تعالى موجود فصفة الوجود ثابتة قولا وفعلا ... غير أن وجود الله تعالى لا شبهة له فى المخلوقات بل هو فوق العقول تسليما بالايمان وبالاستدلال العقلى (ليس كمثله شىء) فلا يقال أن الموجود لابد وان يكون محسوسا أوله حدود معلومة ولا يقال أنه ما دامت الحدود غير ظاهرة للحس والعقل فالوجود اذاً لا أصل له بل يثبت عدم الوجود ..

وهكذا من مثل هذه السفاسف .. حتى اذ تتبعنا فلسفة الغزالى هذه فى مسئلة الفوقية التى نفاها بأقوال كهذه فلا ننسب شيئاً لله تعالى إلا ويكون القائل له (ماديا) بكل معانى الكلمة أو مشركا .. وليس مؤمناً ... مع أن القرآن قرر كل شىء لله تعالى من صفات الكمال وأثبتها فعلا وقولا بلا تاويل ولا فلسفة لتحوير معناها إذ قال تعالى كما تقدم فى الأمثلة الماضية اثباتا لفوقيته الفعلية ذاتياً « اليه يصعد الكلم الطيب » وبمثله فى الآية . (تعرج الملائكة والروح اليه) الخ .. الخ ... وان الاساس العام للبحث عن ماهيات صفات الله تعالى الذاتية ثلاث كلمات لا أزيد منها وهى (ليس كمثله شىء) مع تقرير كل شىء ممكن أن يقال عن كماله الحق بلا تأويل ولا تحوير .... وكما أيد ذلك القرآن فى جميع آياته إذ ليس الغرض من تنزيه الخالق نفى كل شىء عن الخالق بمبادئ مادية محضة لا يسرى تطبيقها إلا على المخلوقات .. بل الغرض تأييد الكمال الذاتى وعدم تقرير التمثيل للغير فيما يجوز اطلاقه على المخلوق والخالق معا ... مثل الوجود أو الرحمة أو المغفرة الخ فقد يكون انسان رحيما وغفوراً كما يقال عن الخالق أيضاً كالآية عن النبي (ص) (حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) .. فكل صفة من صفاته الكمالية موجودة قولا وفعلا بلا احتياج الى تأويل بل يمكننا أن نقول ان الله تعالى فرد يعد كما نعد أفرادنا ولكن وحدانيته خاصة ليس كمثلها وحدانية وان كانت موجودة قولا وفعلا .. وبمثل ذلك الفوقية أيضاً فنقول نحن ثلاثة والله رابعنا وهم سبعة والله ثامنهم .. فالافراد المعدودون لم يعدوا إلا لأن كلا منهم محدود قائم بذاته وان تحديد وحدة الله الذاتية موجودة فعلا وحقيقة ولكن ليس لنا أن ندمجها ضمن فلسفتنا المادية عند تصورنا أى شىء مادى محدود نفرضه أو نعلمه .. ومن هذا كله نفهم خطأ الغزالى وكثير من مشاهير المسلمين السابقين .. خصوصاً فى موضوع الفوقية الذى هو في الحقيقة الركن الاول لبناء أساس معنى الاسلام والسلم الأول للصعود لدرجة الايمان العظيمة ... وعليه فأقول تحت مسئوليتى الشخصية أمام الله تعالى أن الأولي لكل مسلم يشعر بحقيقة معنى الاسلام أن يبادر ويفهم « كما يدله ضميره بلا فلسفة » ان الله تعالى فوق الخلق أو العالم فوقية فعلية لا هى فرضاً ولا هى وهماً .. وان مثل قولهم لأن الله تعالى لو كان فوق العالم لكان محاذيا .. الخ خطأ محض كبير لأنه يدل على أن كل صفات الله تعالى أو ما يتعلق بوجوده يتعرض دائما للنفى أو الاثبات لجواز تشبهه بأى مخلوق تسرى عليه هذه المبادى الطبيعية

وهذا محال اذ أن ذلك ما تبرأ منه الاسلام فان مسئلة تنزيه الخالق هى مسئلة ايمانية لادخل للفلسفة المادية فيها مطلقاً بل أساسها الايمان والتصديق بما قاله عن نفسه أن (ليس كمثله شىء) فلا يؤاخذ مؤمن أن يقول: ان الله تعالى فوق العالم فعلا كما قال هو تعالى عن نفسه (الرحمن على العرش استوى) فهو استواء فعلى وحق واقع — ولكن — ليس لنا أن نتفلسف فيه أو ندرجه ضمن مبادئنا العقلية الطبيعية لأن ذلك تداخل فى البحث فى نفس ذاته الكبرى المحتجبه عن كل العقول بلا استثناء ... ومنه نعلم السبب فى أنه جل شأنه صرح عن نفسه فى كثير من الآيات بما يؤيد هذا المبدأ الحق فقال جل شأنه (وجاء ربك والملك صفاً صفا) فالمجىء واقع حق لا تأويل فيه ولكن ليس يمكننا فرضه إلا بما يدل عليه معنى المجىء الذاتى له تعالى بما لا يمكننا حصره فى العقول الآن ... وقال تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) فاتيان الله تعالى السابق جائز وقوعه فعلا وحقا ... ولكن ليس لنا أن نفرض له فرضا أو تشبها ماديا يجرنا للمبادىء الطبيعية التى تسرى على المخلوقات ... وكل ما يذكره الله تعالى فى القرآن أو غيره من صفات الكمال فهى له «ايمانا» حتى اذا أحرج صدرنا مادى ليجرنا الى تماثله سبحانه بالمخلوقات لسبب ذكر آى صفة صددناه بسلاح الايمان وهو «ليس كمثله شىء» اذ الاتيان نفسه من الله تعالى جائز وقوعه فعلا بلا تأويل

ولذا قال تعالى عن فوقيته الذاتية عند ذكر وفاة المسيح «إنى متوفيك ورافعك إلى» وقال تعالى أيضا «ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى» .. فتدلى الله سبحانه حصل فعلا وحقيقة ويحصل لو أراد الله سبحانه فى أى وقت عمله .. ولكن ليس لنا أن نفرض له فرضا فى عقولنا مماثلا لأى شىء فى المخلوقات لأن أساس البحث عن ذات الله سبحانه أن «ليس كمثله شىء» . وعليه فنفى الفوقية لله سبحانه خطأ كبير يتبرأ منه القرآن والحقيقة

٣٤٤

﴿ المثال الثانى ﴾

ذكر النبي (ص) من الآيات القرآنية والأحاديث ما يؤيد جهة وجود الله تعالى اللازم توجه قلب المؤمن اليها ألا وهى الجهة العليا أو جهة السماء وقد ذكرنا كثيراً من الآيات

فيما تقدم . ونذكر الآن حديثا مشهوراً جداً كررته الألسن وتناقله العموم لكثرة شهرته خصوصا عن هذا الوضوع الذى تعرض له علماء الاسلام السابقين بنفيه تقريبا على غير هدى حتى شوهوا بهذا النفى وجه لدين وهم يتوهمون ان ذلك تنزيها للخالق سبحانه أما هذا الحديث فهو : قال عليه الصلاة والسلام الجارية الخرساء (أين الله فأشارت الى السماء فقرر ولم ينكر وقال انها مؤمنة)

هذا هو الحديث المشهور الذى يؤيد بقوة آيات القرآن السالفة بأن جهة وجود الله الفعلية هى فوق العالم جهة السماء — وليس بعد ذلك إيضاح — فبالرغم عن صحة ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام تعليما للناس مايؤيد دلائل الدين وبيانا لما غمض عن الافهام فى القرآن عن فوقية الخالق الفعلية — مازال علماء الاسلام السابقين ينكرون جهة وجود الله تعالى الفوقية التى هى كما قلنا أول أساس لدين الاسلام والحجر الأول لبنائه — وهم بتأويلهم يهدمون الدين ويفسدون العقائد من حيث يريدون الاصلاح وهم لايشعرون

فمن ذلك ترى فى صحيفة ٤٧٢ من الشرح المشهور المسمى . شرح مواقف العضد للعلامة السيد السند نفياً لحديث الرسول «ص» السابق كالآتى إذ تقول:

الحديث قال عليه الصلاة والسلام للجارية الخرساء «أين الله» فأشارت الى السماء فقرر ولم ينكر أى صادق على اشارتها لجهة الخالق الفوقية وقال انها مؤمنة اهـ أى ايمانا حقاً كما قرره القرآن وأصل الاسلام بتأييد الجهة المشار اليها .

فماذا قال هذا العالم العلامة نفياً لفوقية الخالق التى قررها الرسول (ص) وأيدها تعليما للناس بما أنها النقطة الجوهرية لأصول الاسلام والايمان:

قال معترفا بنتيجة أقوال لرسول أولا إذ قال : فالسؤال والتقرير يشعران بالجهة والمكان ثم بحث فى نفسه عن كلام يقوله نفياً لما فهمه وقرره من جواب الرسول (ص) مع أن الجواب لا يقرر إلا الجهة دون المكان المحدود فأجاب نفسه فى كتابه بقوله : والجواب انها ظواهر ظنية لاتعارض اليقينات الدالة على نفى المكان . اهـ

*
* *

٣٤٥

﴿ الوهم آفة الحقيقة ﴾

نحن نستغرب لهذه التآويل التي ما أنزل الله به من سلطان.. إذ ما هو الداعي أن يتقرر لله مكانا كالأمكنة المحدودة التي نفهمها؟ فان القول بهذا المكان المحدود الموهوم لمجرد تصريح الرسول (ص) هي مغالطة كلامية من المؤلف وأمثاله لأن الله تعالى لا يحده مكان يحده فيما وان السؤال والجواب لا يؤيدان إلا الجهة فقط.. نعم لله وجود وذات مستقلة غير أن تلك الذات في وجودها لا يحدها العقل فمن جهة الوجود الذاتي فهو ثابت فعلا ثم جهته كذلك... فاذا كانت الذات في عظمتها وجوهرها فوق العقل والابحاث فمن الخطأ ان نعين لله حيزاً في مفهوماتنا وان كان فرضياً لنؤيد به ان له مكاناً... فاذا لزم أن نقول لله مكانا لا يحد ولا يحصيه العقل فخرج بعدم التحديد إذاً عن كونه مكانا ولذا يتأيد الوجود مع الجهة فقط كما قرر الرسول ويقرره القرآن والشعور فان ذلك ليس فيه مساس للحصر الذي يبتغيه المتوهمون من مثل هذا النفي الكاذب لقاعدة تعد من أساس الدين ألا وهي الجهة الفوقية الذاتية للخالق والتي يؤيدها الرسول (ص) في هذا الحديث الشريف إذ أنها أساس الدين .

فصل ٢٢
قوة الارادة والاسلام

٣٤٦

﴿ نتائج السحر ﴾

ان فضائل علوم النفس تجتمع كلها في معنى كلمة « اسلام » والتي هي اسم يدل على وضع النفس في مركزها الطبيعي الحق بتوجهها الى الله تعالى بحريتها جهة العلو والسمو والكمال. فاذا تركنا كل ماتقدم جانباً ورجعنا لسوء النتائج التي ينتجها عدم التوجه بالضمير للفوقية جهة

الخالق سبحانه فاننا نجد السحر وعلومه ونتائجه الوهمية الكاذبة لاتقع ولا تقوم إلا باستيلاء الساحر الماهر على ضمير المراد سحره أو تعلمه السحر ... ليوجه ضميره لجهة أخرى غير الفوقية الخاصة لله وحده ... فاذا أمكنه أن يتغلب على انسان ويحور إرادته الحرة أو ضميره لأى شيء فى العالم « مع اشتراك الفكر » ثم الى جهة غير الجهة الفوقية لله تعالى أمكنه بعدها أن يلقنه السحر حالا بل أمكنه أن يسحره فى أقل الزمن ... إذ محال عليه فى آن واحد أن يتعلم السحر أوان يسحر من الغير إلا أن يحور ضميره لجهة أخرى غير الفوقية لله الاكبر — أن من يحور ارادته وضميره من جهة الفوقية لله تعالى لأى شيء فى العالم يمكنه أن يعرض ذاته إذ ذاك لكل شيء ردىء فى العالم ... بل ذلك هو بدء الشيطنة الذاتية فكراً وعملا .. فبدل الفكر الثاقب .. يكون الوسوسة والخيال المضر وبدل العمل المفيد يكون الفساد — ان تحوير النفس بحريتها عن هذه الجهة الخاصة لله تعالى هو الذي يوجد فى كثير من الناس ضعف الارادة — وضعف الاستقلال الذاتى أيضاً .

فى التنويم المغناطيسى إذا اتجه الانسان بارادته وضميره بقوة جهة السماء لله تعالى كان من الصعب تأثير المنوم على نفسه مهما عمل فهى الجهة الوحيدة التى تحفظ قوة كيان النفس من كل تأثير آخر مضر لها — أو يحولها رغما عنها بأى قوة فى العالم !. وكفاها فائدة

ان الارادة الانسانية تضعف وتقوى تبعاً لقوة توجه الارادة النفسية الى هذه الجهة العليا لله — أو عدمه - إذا كنت تشعر انك ضعيف الارادة - يؤثر عليك انسان أو ساحر بترهاته وتخيلاته - أو يؤثر عليك منوما مغناطيسيا بما لا تقدر على مقاومته أو استسلام نفسك اليه — فاسلم نفسك لله الواحد فوقك إذ هو يحميك عندها من كل قوة مهما عظمت — ومهما قوى تأثيرها وذلك بتوجيه ضميرك جهة الله جهة السماء — وبالعكس - يتغلب عليك فى الأرض أقل شيء يتعرض لك كلما ضعفت إرادتك الحرة فى عدم التوجه بالضمير لجهة الله العليا الوحيدة

٣٤٧

﴿ السحر والاسلام ﴾

إنى أسيء الظن كثيراً بأولئك الذين لم يزالوا يجادلون كذبا بعدم القول بفوقية الخالق

سبحانه — فانهم — اما أن يكونوا هم أنفسهم من مهرة الساحرين الذين يغشون الأمة فى دينها الحق — واما أن يكونوا قد غشوا أنفسهم جهلا من أنفسهم بتتابع الزمن اتباعا لأقوال قديمة لعلماءهم أكثر سذاجة منهم بلا تأمل حق وتكون قد دست كالسم من بعض السحرة الماهرين الذين كانوا يكيدون للاسلام كيداً عظيما فى صدر الاسلام - وهذا أغلب الحقيقة — فان المتأمل لتضارب الآراء فى الدين وخصوصا فى موضوع القضاء والقدر. وفوقية الخالق سبحانه اللذين هما أساس الدين الاسلامى وركنه الأول للحياة السعيدة يتأكد جداً أنه لا يعمل فشلا كبيراً كهذا فى الدين والأمة إلا الرؤساء كبار الرؤوس من السحرة المتعمقين فى السحر وعلومه — إذ الساحر يفهم كل شىء على حقيقته الذاتية ولكنه يقلبه قلباً كليا من أعلى الى أسفل بالنسبة للخالق سبحانه ... وبغير ذلك لا يكون ساحرا ولا يتعلم السحر اذ لا بد أن يعرض نفسه أولا للكفر الشديد ... الساحر يعرف كل شىء ولكن مبدؤه الأول هو العداء وقلب الحقيقة لكل ما ينسب للخالق سبحانه ... وان أول مبادئ السحر. بل أول درس فى السحر هو الكفر وهو انكار فوقية الخالق سبحانه ومحوهما من الذاكرة والقلب ليحل محلها فى الضمير شىء آخر ولو وهميا مما هو محسوس فى العالم ... هنالك يسهل على المتعلم تناول السحر. أو يسحر من غيره بسهولة ثم يعرض نفسه وقتها وغيره للضر من أقل ضر فى العالم حتى من نفسه الشخصية ... بخلاف من يوجه ضميره بحريته وارادته بقوة الى الله جهة السماء فلا يؤثر عليه سحر ساحر مطلقا مهما فعل ضده من خيالات السحر .. اذا استسلم الانسان لغيره بحريته بتأثير وهم ما أو كذب ما ليتغلب على ارادته ليحور ضميره من وجهة الله العليا الى أى شىء يفتنه فيه من جمال. أو مال. أو سلطان. أو سلطة وهمية. أو آمال نفسية. أو خيالات وهمية — فهناك يصعب الخلاص منه — هناك يؤثر فيه السحر ويعرض نفسه لتسلم لغيره وتكون طوع اشارته المضرة الأليمة ... فاذا كان ولا بد للنفس أن تسلم بحريتها لشىء ما فى العالم مما لا يفيدها فالأولى أن تسلم الى الله فذلك هو الوضع الطبيعى المؤدى الى سعادتها الذاتية ولأن ذلك هو «الاسلام»

*
* *

٣٤٨

﴿ الأخلاق ﴾

اذا أردت أن تعرف ضعيف العزم أو الجبان فهو ذاك الذى يتحول بضميره عن جهة الله العليا ... وبقدر ثبات الانسان على هذه الجهة تتربى فيه قوة العزيمة والارادة — قوة الشجاعة والشرف والفضيلة -- وقبل ان تيأس من المدمن فى الخمر الذى يعرض صحته وأمواله للضياع ويسيء لنفسه وزوجته وذريته — فتأ كد أولا أن الذى يسوقه الى هذه المضار التى يعلمها ضعف ارادته الناتج من محاولته عدم الانصياع لضميره الحق بأن لا يتوجه به الى الله تعالى جهة السماء — ومن المحال تحوير أمياله بغير ارادته الحرة الذى هو وحده يملكها... فاذا فرض ولم يجد شيئاً من هذه السموم ثم لم يتوجه بقلبه لله الأعلى .. فهومازال أيضاً معرضا بلا شك لأعمال شنيعة أو مصائب زمنيـة لأن عقله وضميره فى وضع ووجهة غـير طبيعية — أترك ذلك وانظر الى السارقين والمجرمين — كل أولئك عند ارتكابهم الآثام يهيمون بضمائرهم فى الخيالات والمفاسد ويتركون عقولهم وراء ظهورهم .. وكان فى إمكانهم أن يتجنبوا كل رذيلة لو أرادوا بحريتهم ان يتوجهوا بقلوبهم وضمائرهم لله تعالى جهـة السماء هنالك يسمعون إلهام الضمير بالتوبيخ والردع وبقدر تمسك نفوسهم وثبوتها على هذه الوجهة بقدر تمكنهم من التمنع عن الرزيلة والتحول تدريجيا الى أبواب الفضيلة ... ان الذين تزينوا بالآداب والتعاليم الصحيحة وتهذبت أخـلاقهم قد كانوا من هذا التعليم يمرنون عقولهم وضمائرهم بالتوجه بهاالى جهة السماء للخالق سبحانه فنمت عقولهم وطبعت فى أرواحهم تعاليم الفضيلة الالهامية — أن روح الانسان أشبه ببخار عدة ميكانيـكية تسبح على الماء بقوة البخار بدوران مفتاح الالة (الارادة) — وقلب الانسان وضميره هو ذاك المفتاح الروحانى فالمفتاح الميـكانيكى قد يدور جهة اليمين فتتقدم الآله كلها بعـد تحريكه الى الامام ثم يدار نفسه الى الشمال فترجع الآلة كلها فى الحال للتقهقر الى الخلف — وهكذا الروح الانسانيـة — فبحرية ارادتك افتح باب نفس العقل والالهام الحق بتوجه ضميرك الى الله تعالى جهة العلو أو السماء تجد روحك من نفسها سائرة فى الحقيقة بطبيعتها الى الامام لدرجة الـكمال ولو لم تشعر بهذا التقدم التدريجى البطيء — وبالعكس ان حولت مفتاح ضميرك

لشى آخر فى العالم الى جهة غير جهة الله العليا رجعت القهقرى تدريجياً الى الشقاء الابدى بلا شعور محسوس: (يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى)

٣٤٩

﴿ قوة الارادة ﴾

محال ان تهدى انسانا لم يرد الله بحريته – أولم يوجه قلبه لله باخلاص جهة السماء بتمام اختياره – سبقت كلمة الله تعالى أن لا يمس إرادة الانسان فى هذه الحياة فهل يجعل لأحد فى العالم غيره تعالى تأثيراً عليها ؟.. محال – ثم محال -- إن الحرية هى الأساس الأول الممنوح من الله بحق لكل مخلوق – كثير من الناس الذين يدمنون الخمر – أو فى الفسق – أو ينهكون صدورهم فى شرب الدخان – أو الحشيش أو تعاطى الأفيون والمنزول أو ما شابه ذلك يقولون لك: نحن عاجزون أن نقاوم أنفسنا لنرجع بها عن هذه المضار الصحية والعقليه والمالية ... فلا تصدقهم قط ... فارادة الانسان الحرة .. لا يتغلب عليها أعظم شىء فى العالم إلا أن يشاء الله ولكن بحق وعدل مطلق . . . وأيضاً محال أن يتوب انسان أو يرجع أو يجد فى نفسه قوة عزم ثابتة إلا أن يتوجه بضميره بعزم الى الله الخالق . . هنالك يقف فى موازنته الطبيعية ولا شىء يؤثر عليه إذ ذاك فى العالم ... كثير من الناس يشيبون ويبلغون من العمر أشده وهم يفسقون أيضاً وضالون فى كل أحوالهم العمومية والخصوصية .. . فلا تصدق من يقول لك منهم: انى لا أقدر أن أرجع عما أنا فيه لانى تطبعت عليه من الصغر بل صدق فقط أنه لا يريد الرجوع بحريته عما هو فيه ... ومحال على أنفسهم أن ترجع من هذا الضلال أيضاً إلا أن يتوجهوا بضمائرهم جهة الله العليا جهة السماء باخلاص .. . هنالك المغفرة ثم تحوير دفة النفس من التقهقر الى الامام بتمام الاختيار

٣٥٠

﴿ الارادة والاسلام ﴾

اذا رأيت اختلافا بين قوم ضالين فى أمر من الأمور فمحال ان تهديهم إلا أن يتحدوا فى الوجهه ... ولا اتحاد فى حقيقة إلا اذا توجهوا بضمائرهم جهة الله العليا جهة السماء باسلام النفوس بحريتهم -- هنا لك تسير النفوس كطبيعتها فى اتجاه واحد لا خلاف ولا نزاع .. .

كثير من الناس يخطئون فى أعمالهم الخاصة والعامة أحيانا بل ويخطئون ضد الآخرين أيضاً — انهم عند الخطأ ما كانت ضمائرهم لله جهة السماء... كثير من المضلين أيضا يؤثرون على آخرين لبساطتهم واخلاص قلوبهم فيشيرون عليهم بأمور ضارة يتأسفون على عملها بعد انتهائها ثم يغرونهم بعمل الفساد — فيندمون ثم يقولون لو كنا عارضنا هؤلاء ولكن — لا ينفع الندم والتذكر بعد وقوع ما جروهم بالتغرير اليه — فقد كان فى امكانهم أن يتجنبوا كل ذلك من أول وهلة ولا يعرضون أنفسهم لضلال الآخرين مطلقا مهما كان سبكهم ورياؤهم — وذلك باستقلال النفس الذاتى والرزانة وموازنة العقل الطبيعية والجراءة والنشاط — وكل ذلك لا يكون الا بتوجه ضمائرهم جهة الله العليا جهة السماء — فهناك يكون (اسلام) النفس للخالق ومنه تلهم بالحقيقة من الطائر وبتأمل العقل يفعل ويقول الانسان ما يجب حقا ان يفعل ما يلائم ظروف الأحوال : (قال تالله ان كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين)

٣٥١

﴿إبليس والحرية﴾

أن كل جهة فى النفس بالنسبة لتقلب الضمير خلاف جهة الله العليا اذا توجه الضمير اليها استولى عليه الشيطان فى الحال بالوساس الخيالية المضرة — فيضله بها تدريجيا حتى يسحق النفس سحقا — بخلاف جهة الله تعالى أو جهة السماء حيثما كان الانسان — فان توجه الضمير اليها مما يجعل النفس فى مأمن تام من وساوس الشيطان وكيده واهواء النفس المضرة الغير معقولة — لأن كل جهة فى النفس بالنسبة لاتجاه الضمير سواء من الامام أو الخلف أو اليمين أو الشمال هى ملك للشيطان عدو الانسان المبين حتى قال تعالى عن قسم الشيطان لتوعده الانسان (قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم)... فالشيطان أو ابليس أقسم لله بالذي كان سببا حقا فى عصيانه لأمر الله تعالى فى توقفه عن السجود لآدم — فما هو هذا الذى أقسم به ؟.. هل يعرف ذلك القارئ

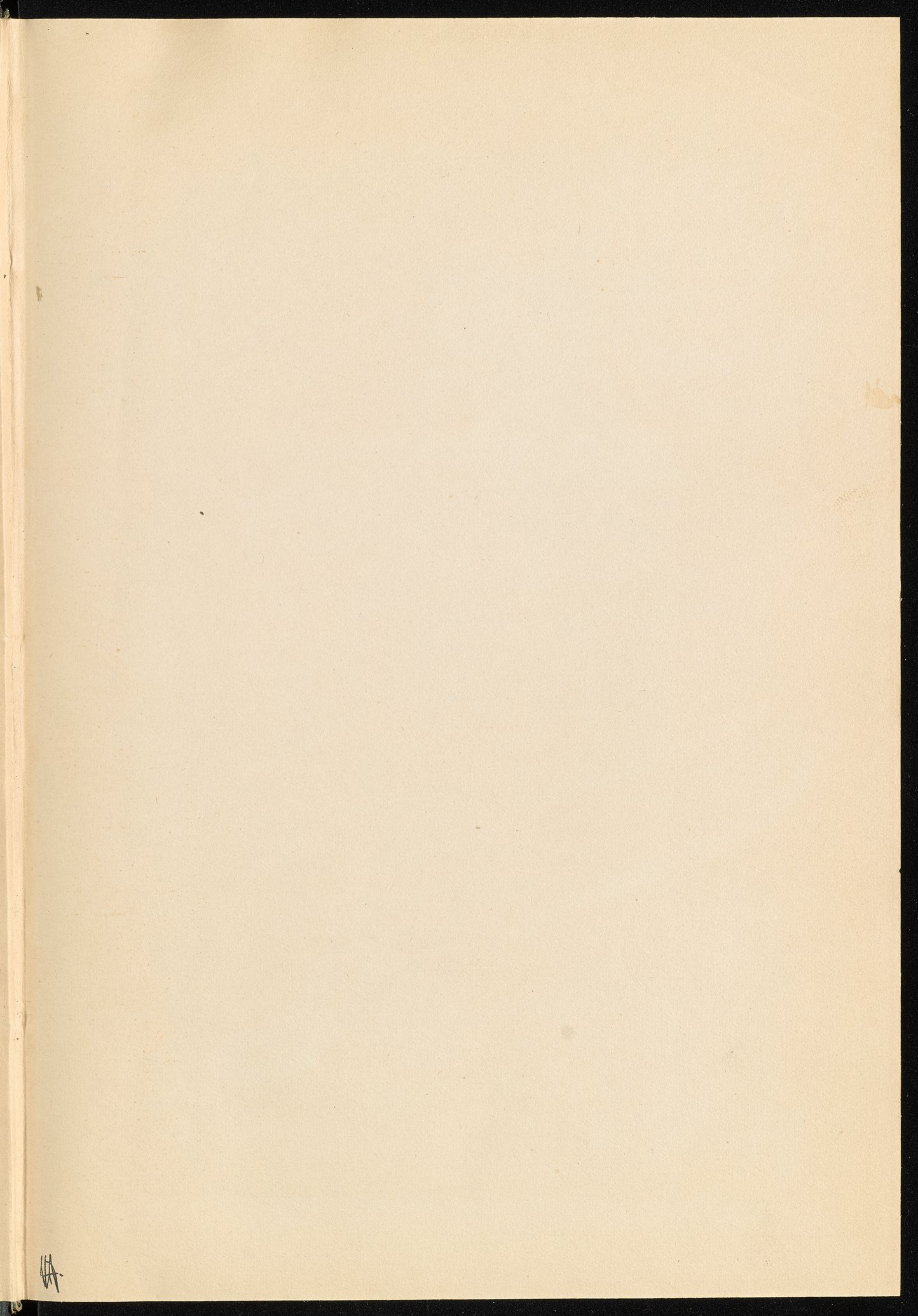
هذا الأمر هو كلمة الله تعالى الحقة التى سبقت منه وقررها بحق لكل مخلوق فى العالم

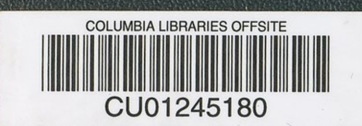
وما هى ؟... هى عدم مساسه تعالى حرية أى مخلوق ومنه الشيطان أيضا مدة هذه الحياة... فان أطاع المخلوق ربه فلا يكون إلا بتمام حريته وارادته .. وان كفر بالله وعصى ربه فبحريته أيضا .. فابليس كان يكفر بنفسه وبحريته بلا حق والله تعالى لا يضطره مطلقا مهما قال أو خالف بل يعطيه الجزاء المناسب ... وأن ابليس يعلم تمام العلم أن من المحال أن يتعرض الله لحريته .. فلهذا السبب خرج ابليس عن حد العبودية الحقة لخالقه وقد أقسم بكلمة الله تعالى التى سبقت منه فى عدم مساس حريته فقال لذلك : (فبما أغويتنى) أى بكلمتك الحقة التى سبقت منك بأن لا تتعرض لحريتى فى العبودية وعدمها (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) ايضاحا لما اختار أن يسير نفسه فيه من التضليل ضد هذا الانسان مع الكفر بالله تعالى .. فكان هذا الانسان الذى فضله الله على الشيطان باتباعه هذا العدو الألد ساقطاً بخطائه أيضا كالشيطان الى أسفل سافلين (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) .. ان إبليس أقسم بقسم كله حقيقة ليفعل أموراً كلها باطلة مضرة لنفسه ولبنى الانسان .. فهو يعلم ان الله تعالى فى سمو الوهيته وكماله المطلق بعد ان يضع المخلوقات كاملة كما هى ثم يمنحها العقل المرشد الى كل حقيقة محال أن يضطر أحدهم بقدرته العالية لاطاعة أوامره العادلة... بل يؤخره كما قضى بذلك حقا ليوم تشخص فيه الأبصار . فلا بد أن يكون كل مخلوق بتمام حريته كما سبقت كلمة الله الحقة فان ذلك هو اللائق وحده لكمال الله تعالى وعزته العالية التى لا يماثلها عزة أو كمال



﴿ فهرس الجزء الثانى من كتاب فلسفة الاسلام ومدنية القرآن ﴾

﴿ تنبيه ﴾ وقعت بعض أغلاط لفظية ومطبعية لا تخفى على اللبيب




COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU01245180